الدكتور
مفيد رائف العابد
مدرس في كلية الآداب
جامعة دمشق

دراسات
في
تاريخ الاغريق

١٣٩٩ - ١٤٠٠ هـ
١٩٧٩ - ١٩٨٠ م

المطبعة الجديدة ـ دمشق

الدكتور
مفيد رائف العابد
مدرس في كلية الآداب
جامعة دمشق

دراسات
في
تاريخ الاغريق

حقوق التأليف والطبع والنشر محفوظة لجامعة دمشق

١٣٩٩ - ١٤٠٠ هـ
١٩٧٩ - ١٩٨٠ م

المطبعة الجديدة ـ دمشق

تقديم

اعتاد عدد من الكتّاب وفي سبيل ابراز أهمية العمل الذي يقدمونه ، أن يؤكدوا في مقدمات كتبهم على خلوّ المكتبة العربية من دراسات كالدراسات أو كتابات كالكتابات التي يعدون القارىء باطلاعه عليها بعد صفحات قليلة من كتابتهم هذه المقدمات ، في حين يكون الواقع على نقيض ذلك . وبذلك ينكرون أي جهد سابق لجهدهم ويضيعون على القارىء العام فرصة البحث والاستزادة .

وفي مقدمة هذا الكتاب أؤكد على ان المكتبة العربية لم تكن في يوم من الايام غنية بمثل هذا العدد من الكتابات عن تاريخ الاغريق السياسي أو الحضاري الباكر بوجه خاص ، والتي تتراوح بين الدراسة الجيادة المتعمقة والدراسة السطحية العادية ، وبين المترجم والمعدّ ، وبين الدراسات الجزئية والدراسات الشاملة . وللحقيقة فان معظم هذه الدراسات وبخاصة المترجم منها قد ساعد على القاء أضواء مناسبة على حضارة تعتبر من أرقى الحضارات البشرية إن لم تكن أرقاها على الاطلاق . ولذا أجد من واجبي بادىء ذي بدء أن أتوجه بالشكر الجزيل الى كل من ساهم أصلا وفرعاً في اصدار مثل هذه الدراسات من التي اعتمدت عليها في هذه الدراسة أو لم أفعل .

واذا كان للدراسة التي بين أيدينا ان تختلف عن الدراسات السابقة فهي تختلف في أمور ثلاثة أولها : انها اعتمدت اضافة الى أكثر المصادر وأفضل المراجع مدعاة لثقة المؤرخين على آخر ما توصلت اليه دراسات الباحثين في نتائج الحفائر المعاصرة ، وثانيها : انها تتناول لاول مرة ــ فيما أعرف[1] ــ دراسة تاريخ جزء هام

(١) باستثناء الدراسة المبدئية والمختصرة جداالتي خطها بالقلم الرصاص قبل وفاته المؤرخ الجليل الاستاذ الدكتور « أسد رستم » عن التاريخ السياسي للامبراطورية السلوقية ونشرتها الجامعة اللبنانية في بيروت عام ١٩٦٩ .

من الوطن العربي وهو سورية (بمفهومها الواسع) في فترة تعتبر — رغم غموض بعض جوانبها كما سنلاحظ — من أزهى عصور تاريخها وهي الفترة الهلنستية ، وثالثها : انها دراسة عامة شاملة حاولت فيها تعريف الطالب الجامعي والقارى العام بما أعتقد أنه أهم مظاهر هذه الحضارة الزاهية .

وعلى هذا فان الدراسات التي سأقدمها على الصفحات التالية لم تهدف اطلاقا الى كتابة تاريخ مفصل شامل للفترتين الاغريقية والهلنستية لان ذلك يتعسر بين دفتي كتاب جامعي (مقرر) . والامل كبير في أن أتمكن من هذا في فترة لاحقة. وانما تشكل هذه الدراسات محاولة هيكلية لابراز أهم مظاهر حضارة عالمية راقية ما فتئت حضارات العالم اللاحقة لها تنهل من أصول علومها ، وإبراز مظاهر حضارة متميزة قامت على جانب كبير من الارض العربية ساهم في تشييد صروحها اجدادنا على هذه الارض . والدراسات بهذا الوصف لا تغني عن الكتابات التاريخية المماثلة وانما تشكل حلقة من سلسلة دراسات عربية وأجنبية في هذا المجال ، حاول كاتبها ان يدلي بدلوه تعبيرا عما يحس به نحو وطنه وأمته ونحو حضارة عالمية بارزة .

وقد حاولت في الجزء الاول من هذه الدراسات رسم الملامح الرئيسة للعصرين الاغريقي الباكر والكلاسيكي ، على أساس ان هذين العصرين (وبخاصة العصر الكلاسيكي) طبعا باتجاهاتهما الحضارية وعلى مدى قرون عدة المنطقة المعروفة بحوض البحر المتوسط ، ومن ثم فانهما يشكلان بالضرورة الخلفية الحضارية التي لا يمكن فهم تاريخ سورية في الفترة الهلنستية دون المام بأبعادهما . وقد استهليت الجزء الاول من الدراسات بالحديث في الباب الاول عن مصادر التاريخ الاغريقي ثم التراث الاغريقي وأهميته في الحضارتين العربية الاسلامية والاوربية ، وبعد ذلك عن الحضارات الاغريقية الباكرة ، ثم عن أصول الاغريق وهجراتهم وأبرز دويلات مدنهم . وفي الباب الثاني تناولت الدراسات تاريخ (المدينتين الدولتين) اسبرطة وأثينا السياسي والحضاري . أما الباب الثالث فقد اختص بالحديث عن علاقات دويلات بلاد اليونان القديمة وبلاد الاغريق مع القوى المحيطة بها وكذلك مع بعضها البعض ، وتضمن هذا الحديث تاريخاً وافياً للحروب

الفارسية وحرب البلوبونيز • وفي الباب الرابع تناولت الدراسات نهاية « الامبراطوريتين » الاسبرطية والاثينية مع التركيز على أسباب هذه النهاية •

وقد قسمت الجزء الثاني من الدراسات الى أبواب أربعة اختص الباب الاول (وهو الخامس في ترتيب أبواب الكتاب) بالحديث عن المقدونيين بناة الحضارة الجديدة منذ أول ذكر لهم في التاريخ حتى مصرع مؤسس الامبراطورية السلوقية مرورا بتأسيس الامبراطورية المقدونية على يدي الاسكندر الاكبر • في حين أفرد الباب السادس من الدراسات صدره لتاريخ الامبراطورية السلوقية السياسي بعصوره الثلاث (القوة ـ الاحياء ـ التفكك والانهيار) واختتمت الدراسات في الباب الاخير بالحديث عن مظاهر التاريخ الحضاري للامبراطورية السلوقية ، وبشكل خاص نظم الحكم والحياتين الاقتصادية والاجتماعية •

ولا شك انه من الضروري بمكان أن نشير في ختام هذه المقدمة الى ملاحظة هامة تخص الهجاء الاوربي لأسماء الاعلام التي وردت في الدراسات والتي وردت في الدراسات والتي رسمتها على نحو يخالف ما درجت عليه الكتابات المعاصرة وبخاصة في وجوه ثلاثة ، أولها استبدال النهاية اللاتينية (US) بالنهاية الاغريقية (OS) بالنسبة لاسماء الاعلام المذكرة • وثانيها استخدام حرف (K) الاغريقي بدلا من حرف (C) اللاتيني ، وهكذا رسمت لفظة سلوقس مثلا على هذا النحو (Seleukos) بدلا من الشكل الذي اعتاد عليه بعض القراء (Seleucus) ، وذلك لمطابقة الشكل المعتمد في هذه الدراسة للشكل الاغريقي • وثالثها اعتماد حرف الواو بدلا من الياء في ترجمة حرف (الاوبسلون) الاغريقي ـ المستخدم على شكل حرف (الواي) الانجليزي وحرف (الاجريك) الافرنسي في الكتابات الاوربية المعاصرة ـ وذلك لشدة قرب حرف (الواو) من النطق الاغريقي القديم ، وعلى هذا يطالع القارىء مثلا كلمات مثل « لوديه ولوكيه ولوسيماخوس » بدلا من « ليديه وليكيه وليسيماخوس » المعتمدة في بعض الكتابات العربية المعاصرة •

وقبل أن أختتم هذه المقدمة أود أن أشير الى انه اذا كان هناك من أدين لهم في اخراج هذا الكتاب بهذه الصورة فهم أولا : زملائي الاساتذة في قسم التاريخ

بجامعة دمشق وتلاميذي في القسم نفسه ، حيث أفادني الاولون فيما أثرت معهم أو أثاروا معي مـن مناقشات ، وأفادني (بعض) الآخريـن في الاستيضاحات والاستفسارات التي كانوا يوجهونها اليّ في قاعة الدرس طيلة أربع سنوات خلت . وثانيا : جامعة دمشق التي لولا تغطيتها نفقات الكتاب لما قدر له أن يصل الى أيدي قرائه .

وختاما إذا قدر لهذه الدراسات التي لا تدعي العصمة أو الابتكار أن تحقق شيئا من الاهداف التي رسمت لها فذلك مقصدي ، وان لم يكن فحسبي أنني أقدمت على هذه المحاولة والله من وراء القصد .

دمشق ــ حزيران ــ ١٩٧٩   مفيد رائف العابد

منهـاج المقـرر

الجزء الاول

((تاريخ الاغريق الباكر حتى ظهور الاسكندر))

التمهيـــد :

١ ـ مصادر التاريخ الاغريقي
٢ ـ اهميـة التراث الاغريقي
٣ ـ الموقع الجغرافي وأثره في شكل الحضارة الاغريقية

أولا ـ تاريخ الاغريق الباكر :

١ ـ الحضارات الايجيه
٢ ـ الاغريق (أصولهم ، هجراتهم ، ودويلات مدنهم)

ثانيا ـ تاريخ الدويلات الكبرى :

١ ـ اسبرطـة
٢ ـ أثينـا

ثالثا ـ العلاقات الخارجية والداخلية :

١ ـ الحروب الفارسية
٢ ـ تأسيس الامبراطورية الاثينية الاولى
٣ ـ أثينـا في عصر بريكلس
٤ ـ الحرب البلوبونيزيـة

رابعا ـ نهاية القوى الكبرى :

١ ـ التسلط الاسبرطي ونهاية اسبرطة
٢ ـ الامبراطورية الاثينية الثانيـة

الجزء الثاني

« تاريخ الاغريق من الاسكندر حتى الاحتلال الروماني سورية »

أولا ـ المقدونيون حتى الاسكندر :

١ ـ المقدونيـون
٢ ـ فيليب وتنظيم المملكة
٣ ـ الاسكندر الاكبـر

ثانيا ـ الاسكندر الاكبر :

١ ـ أهم دوافع غـزو الشرق
٢ ـ مراحل الغـزو
٣ ـ ما بعد مـوت الاسكندر

ثالثا ـ سلوقس الاول :

١ ـ أصلـه ونشأته
٢ ـ مصاهراتـه
٣ ـ سيرته حتى وفاتـه

رابعا ـ التاريخ السياسي للامبراطورية السلوقية :

١ ـ عصـر القـوة
٢ ـ عصـر احياء الامبراطوريـة
٣ ـ عصـر التفكك والانهيـار

خامسا ـ التاريخ الحضاري للامبراطورية السلوقية :

١ ـ المؤسسات الحاكمة
٢ ـ نظـم الحكـم
٣ ـ السلطة المحلية والتنظيمات الادارية
٤ ـ الادارة المالية
٥ ـ النظـام القضائي
٦ ـ الحياة الاقتصاديـة
٧ ـ الحياة الاجتماعية

فهـرس

الجزء الاول

تاريخ الاغريق القديم حتى ظهور الاسكندر

الصفحة

الباب الثاني

تاريخ الدويلات الكبرى

الفصل الثالث

اسبرطة

الفصل الرابع

اثينا

الباب الثالث

العلاقات الداخلية والخارجية

الفصل الخامس

الحروب الفارسية

الصفحة

الصفحة

الفصل الخامس عشر

عصر أحياء الامبراطورية

الفصل السادس عشر

عصر المنازعات الاسرية

الفصل السابع عشر

انهيار المملكة

الصفحة

الصفحة

الجزء الأول

تــاريخ الاغريق القــديم
حتى ظهور الاسكندر

تمهيـــــد

بلاد اليونان هي تلك البلاد التي ترتمي عـلى شكل شبه جزيرة في البحر المتوسط ، وهي في الحقيقة تمثل الجزء الاكبر والموطن الاصيل للاغريق الذين امتدت مراكز نفوذهم واستيطانهم (خلال الثلاثة عشـر قرنا ق•م) الى معظم الشواطىء والجزر الشرقية للبحر المتوسط والبحر الايجي ، وهي تلك البلاد التي يتدفق اليها عشاق الشمس والآثار على مدار السنة ، رغبة في التمتع بجمال الطقس والوقوف على اطلال الحضارة الرائعة التي خلفها عمالقة الفن أمثال فيدياس ، وسكوباس ، وبراكسيتلس ، ولوسيبوس ، ومشاهدة المناطق والربوع التي أوحت لهومروس بكتابة رائعتيه (الالياذة والاوديسة) ، ولايسخولوس ، وسوفوكليس ويوروبيدس واريستوفانس ، ومناندر ، بكتابة أعمالهم وملاهيهم ، والتي أخرجت للعالم فلاسفة لاتزال أبحاثهم تعتبر صرحا من صروح المعرفـة أمثال : سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو ، وغيرهم •

١ ـ مصادر التاريخ الاغريقي :

وتماثـل مصادر معلوماتنا عن التاريخ الاغـريقي مثيلاتها في كـل فروع التاريخ القديم ، والتي تعتمد في أقلها على الشواهد التاريخية شبه المؤكدة ، وفي أكثرها على الاستدلال والاستنتاج والمقارنة وحتى التخمين • ويرفض المؤرخ دائما ما يراه مجافيا للمنطق السليم في حين يسلم بشذرات المعلومات التي تصله اذا أكدتها الشواهد التاريخية • ويقوم باستنتاج ما غمض من حوادث من معلوماته عن عصور معاصرة أو سابقة أو لاحقة • كما يخمن حدوث عمل ما من ردة فعل وصلته أخبارها• ويتساءل أحيانا عن كيفية مسار ظاهرة من مظاهر الحياة اذا لم يجد عن هذه الظاهرة

أية معلومات أو شواهد معينة ، وذلـك لتجنب الوقوع في زلل تقريـر اعتقاد لا شواهد لـه •

وتقسم معلوماتنا عن التاريخ الاغريقي الى فئتين رئيسيتين : أولها المصادر الاصلية ، وثانيها المراجع الحديثـة والمعاصرة • كما تقسـم المصادر الاصلية الى قسمين وهما المصادر الادبية ومجموعات النقوش • والمصادر الادبية عديـدة جدا ، لعل أهمها كتابات المؤرخين القدماء الذين عاصروا الحوادث التي كتبوا عنها أو نقلوا ما سمعوه أو ما قرأوه • وتعتبر الملاحم والمسرحيات اضافة الى الدواوين الشعرية وكتابات الفلاسفة وغيرهم والآثار القائمة أو المكتشفة في الحفريات مـن المصادر الممتازة عن تاريخ الاغريق إذا أحسن استخدامها •

وفي حين تحفل مجموعات النقوش بمعلومات معاصرة عن الحوادث التي ننوي تأريخها والتي يشكك بعض المؤرخين في قيمتها نظرا لصفة معظمها الرسمية ، تمدنا المراجع الحديثة بالكثير من النظريات والافكار الجديدة حول بعض ما غمض في المصادر الاصلية ، كما تفسر لنا بعض العموميات التي غابت عنا تفاصيلها بحيث تمكننا من استكمال جوانب معظم مظاهر التاريخ الاغريقي •

٢ ـ التراث الاغريقي وأهميته في الحضارتين : العربية الاسلامية والاوروبيـة الحديثـة :

واذا كان يحق للاوروبيين أن يولوا دراسة الحضارة الاغريقية أهمية خاصة باعتبارها أول حضارة أوربية ، ولان تراثهم الحضاري قد انحدر من جذور اغريقية ، فلعله يقرب من الواجب على أبناء شرقنا العربي أن يوجهوا عناية خاصة تلي عنايتهم بتاريخهم القومي الى التعرف على أصول وأشكال ومناطق هذه الحضارة ، ليس لكونها من أرقى الحضارات البشرية فقط ، بل أيضا للعلاقة المباشرة التي ربطت بين هذه الحضارة وحضارتنا العربية الاسلامية ، وكذلك لارتباط هذه الحضارة بحضارات بلادنا القديمة (سورية ومصر وبلاد مـا بين النهرين بشكل خاص) وتفاعلها مع هذه الحضارات عن طريق المراكز الاغريقية التجاريـة والاستيطانية القديمة التي أقامها الاغريق على شواطئنا وفي مناطقنا القاريـة مثل بوسيديوم على

الساحل السوري ونقراطيس في مصر الفرعونية وقوريني على الشاطىء الليبي • أضف الى ذلك أن أجزاء كثيرة من وطننا العربي كسورية ومصر والساحل الليبي كانت من أهم منابــر الحضارة الاغريقية في وقت متأخر ، وقــد حفظت مــدن مثل الاسكندرية في مصر ، وانطاكية وغيرها من مدن الامبراطورية السلوقية التراث الاغريقي من الاندثار ، وساهمت فيما بعد مع غيرها من مراكز الحضارة العربية الاسلامية في تنمية واضافة الكثير الى أصول هذه الحضارة ، في وقت كانت فيــه أوربا تمر بمرحلة مظلمة من مراحل تاريخها • ولا يزال بعض المنصفين الاوربيين يعترفون بأفضال العرب الذين أسهموا بدور كبير في الحفاظ على التراث الاغريقي والاضافة اليه من أمثا لالفارابي وابن سينا وابن رشد والحسن بن الهيثم وغيرهم •

ولعلنا نجــد بالتالي أن دراسة الحضارة الاغريقية قــد تفوق في أهميتها بالنسبة للعربي أهميتها بالنسبة للاوربي ، لانه رفدها أصلا ثم درسها واستخدمها وزاد عليها ونقلها للاوربيين في فترة نهضتهم ، ثم استقبلها مرة اخرى مع الحضارة المعاصرة •

٣ ـ الموقع الجغرافي لبلاد الاغريق وأثره في شكل الحضارة الاغريقية :

يحتم علينا البحث العلمي قبل أن نستغرق في دراستنا لتاريخ بلاد الاغريق أن نحدد مدلولات الالفاظ التــي نستعملها درءا لأي لبس أو غموض • فبلاد اليونان هي تلك البلاد التي تشمل اليونان الحديثة بما فيها اقليم البلقان والجزر اليونانية القريبة من سواحلها • وفي حين أطلق اليونانيون عــلى أنفسهم اســم هللينين تيمنا باسم أحد أجدادهم الاسطوريين ، اطلــق عليهم الرومان اســم (Graeci) أي « اغريق » ـ وهو في الحقيقة اسم قبيلة هللينية هاجرت (او قسم منها) من شمال شبه الجزيرة اليونانية الى جنوب ايطاليا ـ وقد جاراهم في تسميتهم هذه معظم ان لم نقل كل الدارسين المحدثين وذلك للتدليل على جميع الشعوب التي انحدرت من أصول اغريقية ، وكانت ترطن باحدى اللهجات الاغريقية واستوطنت أحد أجزاء مناطق وجزر الحوض الشرقي للبحر المتوسط وبحر ايجه ، وبخاصة اقليم ايونية الذي يمثل الشاطىء الغربي من آسية الصغرى ، والذي يعتقد بعض باحثي العرب اللغويين بأن العرب قد اشتقوا من تسميته كلمة (يونــان) و (يونانيين) • وباختصار فاذا كانت كلمة يونان تدل على قسم كبير من البلاد التي

اعطت للعالم الحضارة الاغريقية فان لفظة اغريق تبدو أعم وأشمل من اللفظة السابقة ، ولذا فاننا سنعتمدها في دراستنا هذه ــ اسوة بمعظم الدراسات العربية الحديثة ــ عندما نود الاشارة الى مجموعة الاغريق في كل مراكزهم الحضارية ؛ كما سنميز مناطقها الرئيسية بتسمياتها القديمة .

وتبلغ مساحة بلاد اليونان (أو الموطن الرئيسي للاغريق) حوالي مئة وواحد وثلاثين ألف كيو مترا مربعا ، وهي في معظمها بلاد جبلية وعرة تفتقر الى المياه الدائمة والخصب بالتالي ، لكنها تحتل مركزا حيويا في القارة الاوربية ، وقد ساعدها على تبوء هذا المركز الحيوي كثرة الجزر المحيطة بها والتي شكلت ما يشبه الجسور التي ربطتها بالعالم المعروف وقتئذ شرقا وغربا وجنوبا .

وتتميز تضاريس (اليونان الحالية) بكثرة الجبال الوعرة التي كانت تحول دون قيام اتصالات سهلة بين أجزاء البلاد ، وشكلت هذه الجبال عوائق طبيعية ، ساعدت وغيرها من الصفات الطبيعية والمناخية على ان تتميز حضارة الاغريق الرئيسة بمظاهر لم تكن لغيرها من حضارات الشرق وأهمها :

كان لقرب بلاد الاغريق من أهم مراكز الحضارة في العالم القديم (سورية وبابل ومصر) أثر كبير في أن تقوم جزرها القريبة منها بدور الوسيط في نقل ما استهواه الاغريق من أصول الحضارات الشرقية التي ظهرت كثيرا في أبجديتهم وفنونهم وأنماط حياتهم السياسية والاجتماعية . ولذا فليس بمستغرب على الاطلاق أن تسبق بعض الجزر الاغريقية (مثل كريت) بلاد اليونان القارية في حضاراتها التي رفدت فيما بعد الحضارة التي نشأت في الاخيرة .

كما كان للتضاريس الوعرة والجبال والوديان التي قسمت بلاد الاغريق وبخاصة بلاد اليونان الى مجموعة من المناطق الجديرة بالسكنى أكبر الاثر في ظهور العزلة السياسية الحضارية بين هذه المناطق المختلفة ، وأدت بالتالي الى ظهور العزلة الفكرية التي شجعت قيام دويلات المدن المعتزة والمتشبثة باستقلالها والتي لم تكن لتسمح الا نادرا وفي ظروف معينة بنشوء أي نوع من أنواع الوحدة ، بل ساهمت في تكريس النزاع والتنافس والحروب بين هذه الدويلات .

وكنتيجة حتمية لوعورة التضاريس فقد فضل الاغريق منذ توطنهم الباكر الالتجاء الى البحر كوسيلة اتصال مع المراكز السياسية والاقتصادية الاخرى في بلادهم ، وقد أدى هذا التصرف الى أن يألف الاغريق ركوب البحر بل ان يغرموا بـه[1] ، وسهل عليهم بالتالي أن يمارسوا التجارة البحرية وان ينافسوا الفينيقيين الذين كانوا قد احتكروا هذا النوع من النشاط في البحر المتوسط شرقيه وغربيه لفترة طويلة من الزمن ، وقد أدى هذا بالتالي الى أن ينفتح الاغريق على الحضارات الشرقية التي زخرت بها مصر وسورية وبلاد الرافدين وان يستفيدوا من هذه الحضارات قدر استيعابهم لها أو حاجتهم اليها •

كما أدى فقر البلاد بالارض الصالحة للزراعة ، والازدياد غير المتناسب مع الانتاج الزراعي لعدد السكان ، الى حدوث شبه انفجار سكاني ، دفع سكان البلاد الى الهجرة بحثا عن أراض جديدة تصلح لاقامتهم ، وقد نتج عن هذا انتشار المدن والمستعمرات الاستيطانية الاغريقية في مناطق شتى من العالم المأهول وقتئذ وبخاصة على الشواطىء الغربية للبحر المتوسط ، كما أدى عدم كفاية الحاصلات الزراعية التي أدت اليها عدم كفاية الاغريق زراعيا الى أن يندفع المهاجرون بصورة خاصة الى امتهان حرف تجارية وصناعية ، ولذا فقد اختلف جوهر الحضارة الاغريقية عن معظم حضارات الشرق الادنى القديم الزراعية واختصت بكونها حضارة صناعية تجارية بالدرجة الاولى •

وقد أدى مناخ البلاد المعتدل وطقسها الدافىء لفترة طويلة من السنة الى أن يتشجع سكان البلاد الى قضاء أطول أوقاتهم خارج مساكنهم واهتموا نتيجة لذلك بأنواع الرياضة البدنية التي أصبحت من أهم مميزات حياتهم الاجتماعية (الالعاب الاولمبية) ، كما أدى تجمع السكان في ساحة المدينة (الاجورا) الى انغماس الافراد في شؤون مدنهم السياسية والاجتماعية ومشاركتهم فيها بشكل

---

(1) يحدثنا إكسنوفون Xenophon في روايته عن قيادته لعشرة آلاف من المرتزقة الاغريق في طريق عودتهم من فارس الى الوطن بعد فشل محاولة قورش لاستلام السلطة في فارس بأن الاغريق الذين كان يقودهم لم يحفلوا في طريقهم ولم يفرحوا بشيء قدر فرحتهم بمشاهدة البحر الاسود .

عملي ملموس • كما ساعد تنوع المعالم التضريسيه للبلاد (مــن جبال ووديان وسهول وأنهار وشواطىء (الى تفتح العقلية الاغريقية وتنوع مبتكراتها الفكريــة والفنية ، والى نمو خيالهم الفني الذي زخرت به أساطيرهم ، فقد استعذب الاغريق مزج الحقيقة بالخيال • وهذا ما يؤكد الاهمية الفائقة التي يعلقها باحثو التاريخ الاغريقي على دراسة الاسطورة الاغريقية قبل البدء بدراسة تاريخ البلاد المكتوب •

الباب الأول

تاريخ الاغريق الباكر

الفصل الأول

الحضارات الايجية

رغم قدم الحضارة الهللينية في بلاد اليونان ، ورغم أن أول تاريخ حقيقي لبلاد الاغريق لم يبدأ إلا مع أول ألعاب أولمبية عام (٧٧٦) ق٠م[١] فان علم الآثار قدم معلومات جديدة ألقت أضواء مناسبة على حضارة اغريقية باكرة فاقت الحضارة الهللينية قدما وعراقة ، ومهدت السبيل لظهورها ٠

ويطلق العلماء على هذه الحضارة القديمة حضارة بحر ايجه ، لانها انبعثت من عدد من جزر هذا البحر ومدنه الساحلية وبخاصة جزيرتي ملوس (Melos) وكريت ومدينتي موكيناي وطروادة على الشاطىء الشرقي للبحر الايجي ٠

ومعلوماتنا عن هذه الحضارة تنحصر في أنها بدأت منذ الالف الثاني قبل الميلاد وان عناصرها البشرية كانت من جنس البحر المتوسط ، وأن ذروة ازدهارها وصلت في كريت حتى انهيارها حوالي عام (١٤٠٠) نتيجة غزو خارجي أطاح بها ، واستلم الآخيون وهم أصحاب (الحضارة الموكينية) لواء السيادة السياسية

---

(١) جميع التواريخ الواردة في هذا الكتاب سابقة للميلاد ما لم ينوه صراحة بغير ذلك ٠

والحضارية بعد تحطيمهم طرواده حوالـي منتصف القرن الثالث عشر ، ولكنهـم لم يستطيعوا أن يصمدوا طويلا اذ سرعان ما تعرض الموكينيون أنفسهم للغزو الهلليني من الشمال حوالي الالف الاول ، وبذلك قضي على آخر ممثل للحضارة الايجية • وازاء قلة معلوماتنا عن حضارة الشاطىء الشرقي للبحر الايجي في ذلك الوقت وبخاصة حضارة طروادة ، ونظرا للاهمية التي يعلقها كبار مؤرخينا المحدثين على ارتباط حضارتي كريت وموكيناي بالحضارة اليونانية ، فسوف نساير في عرضنا لحضارة بحر ايجة معظم المراجع الحديثة التي تركز عى الحضارتين السابقتين على اعتبارهما ممثلتين صادقتين لحضارة اغريقية باكرة •

أولا ــ كريت :

تذكر الاوديسة في تعريف كريت « هناك أرض في وسط بحر الخمر الداكن تسمى كريت ، أرضها جميلة ، مياهها وافرة ، يقطنها عدد كبير من الرجال يتمركزون في تسعين مدينة » • وكريت التي أتى على وصفها هومروس منذ ٣٠٠٠ عام خلت لا تزال جميلة رغم عوادي الزمن التي انتابتها • وتعتبر كريت خامس جزيرة في حوض البحر المتوسط من حيث المساحة بعد صقلية وساردينية وقبرص وكورسيكا •

والحقيقة انه لا يمكننا إذا أردنا درس الحضارة الاغريقية من جذورها أن نغفل دراسة أهم الاساطير الاغريقية وهي أسطورة ثسيوس (Theseos) والمينوتوروس (Minotoros) ، وذلك لانها تحمل فكرة حضارية وشواهد تاريخية التبس على مؤرخي القرن الماضي أمرها واعتبرها الكثيرون من نسج الخيال الهلليني ، والحقيقة أننا اذا كنا لا نؤيد كل ما جاء فيها ، فاننا لا نستطيع أن ننفي بالتالي بعض ما جاءت به أيضا ، لان معلوماتنا عن الاساطير بصورة عامـه والاساطير الاغريقية بصورة خاصة ،واحتواء هذه الاساطير على الكثير من الخيال والقليل من الحقيقة ، تفتح أمامنا مجال المحاكمة العقلية لكل ما أتت به المصادر الاغريقية من أساطير أمدتنـا بكثير من الشواهد التي كنا نفتقر اليها في حديثنا عـن بعض أصول ومميزات الحضارة الاغريقيـة •

وبايجاز شديـد ••• تـروي الاسطورة التي يعتقـد البعض أن موطنها

كريت ـ أنه كان لأحد الملوك في هذه الجزيرة ويدعـى مينوس (Minos) أولاد كثيرون ، كما رزقت زوجه من ثور أهداه اياه بوسيدون (Posiedon) اله البحار مخلوقا نصفه الاعلى ثور والادنى رجل ، ولذا دعي مينوتوروس • ونتيجة لخشية مينوس من هذا المخلوق فقد أمر أحد المهندسين ويدعى دايدالوس (Daidalos) أن يقيم له قصرا كبيرا وان يجعل من أساسات القصر سجنا ومركزا لاقامة هـذا المخلوق العجيب ، وقد أقيم القصر في كنوسوس (Knossos) عاصمة كريت القديمة وأطلق عليه اللابورينث أو اللابورانت (Labyrinth) أو « قصر التيه » نظرا لاحتوائه على ممرات يعسر على الانسان الخروج منها أو حتى الدخول اليها •وتضيف الاسطورة ان أحد أبناء مينوس كان رياضيا مبرزا ، يفوز في كل المباريات التي كان يشترك فيها ، وذات مرة دعي للاشتراك في دورة ألعاب رياضية أقامها ملك أثينا الذي كان يدعى ايجيوس (Aegeos) وقد استطاع الامير الكريتي أن يفوز في المباريات التي اشترك فيها ، مما أثار غيظ ايجيوس ، فأمر بقتل الامير ، ولما علم مينوس بالامر أعلن الحرب على أثينا وهزم ملكها وفرض عليها جزية كان من أهم بنودها أن يرسل الاثينيون كل فترة من الزمن مجموعة من خيرة شباب وشابات المدينة لتقديمهم وجبة مقدسة للمينوتوروس في أقبية قصر التيه •

ويبدو أن أثينا كانت ضعيفة لدرجة أنها اضطرت الى ارسال هؤلاء الشباب دوريا ، حتى جاء الدور على الامير ثسيوس ابن الملك ايجيوس ، وكان كمثيله الامير الكريتي رياضيا فخطط لقتل الوحش ، ولما علم أباه بذلك ، طلب أن تزود السفينة التي أقلت ثسيوس ورفاقه بشراع أبيض اضافي غير الشراع الاسود الذي استخدم فيها رمزا للحداد ، وطلب ان يرفع الشراع الابيض فيما اذا تحقق لابنه الانتصار على المينوتوروس •

وتشاء الاقدار أن تدبر لقاء بين ثسيوس واحدى بنات الملك الكريتي ، وتدعى اريادني (Ariadne) وأن تهيم الاميرة في حب ثسيوس ، فأعطته كرة من الخيط طلبت منه تثبيتها في مدخل الكهف وان يسير على هدى الخيط في العودة من ابهاء الكهف بعد تحقيق غايته • واستطاع الامير بقوته وشجاعته أن يقضي على الوحش وان يعود من الكهف سالما عن طريق الخيط • وتضيف الاسطورة ان ملاحـي

السفينة نسوا في غمرة فرحتهم أن ينفذوا تعاليم الملك الاثيني برفع الشراع الابيض عند عودتهم ، ولما لاحت السفينة في الافق ورآها الملك الاثيني ، خيل له أن ابنه قد فشل في القضاء على الوحش وأصبح ضحية له ، ولم يستطع تحمل فكرة الحياة بدون ابنه فألقى بنفسه في البحر الذي طوته أمواجه ، ومن هنا أطلق على هذا البحر اسم بحر ايجه (Aegean) نسبة الى الملك ايجيوس .

والآن ... ماذا يقول علمي التاريخ والآثار في أمر هذه الاسطورة الطريفة ؟ . لقد ظل علماء التاريخ منذ اطلاعهم على هذه الاسطورة حتى مطلع القرن الحالي ينكرون حدوثها نظـرا للخوارق والحوادث التي استعرضتها الاسطورة والتي لا يمكن لعقل بشري أن يصدقها في زماننا هذا ، والحقيقة أنهم كانوا محقون في ذلك ، أي اننا لو كنا في مكانهم لما استطعنا تصديق مثل هذه الاسطورة .

ولم يكد القرن الحالي يبدأ حتى ، لفتت أهمية كريت وموقعها نظر بعض الآثاريين الغربيين وبدأوا محاولاتهم لاستكشاف المزيد عن تاريخ هذه الجزيرة التي تواجه شمالا حوض البحر الايجي ، والتي لا تبعد كثيرا عن شواطىء سورية وفينيقية ووادي النيل وبالتالي لا تبعد عن الحضارات التي قامت في تلك المناطق .

ويدين علمي التاريخ والآثـار بصورة خاصة ، والانسانية بصورة عامة الى عالمين جليلين هما آرثر ايفانس (A. Evans) وهاينرش شليمان (H. Schliemann) بالكثير مما نعرفه عن حضارات الاغريق الباكرة ، إذ ما ان أعلن الاخير عن اكتشافاته الرائعة في مواقع طروادة وموكيناي وغيرها ، حتى أدرك جميع المهتمين بالتاريخ الاغريقي أن هنالك جذورا حقيقية وراء الاشعار الهومرية ، والتي بقيت في نظرهم ردحا من الزمن كغيرها من الاساطير الاغريقية خالية من أيـة شواهد تاريخية منطقيـة .

وقد حث هذا الادراك سير آرثر ايفانس على أن يسعى جاهدا للكشف عن قصر اللابورانث ويتابع المهمة التي بدأها قبله البحاثة الالمـاني شليمان ، وكان شليمان قد فاوض في عام ١٨٨٦م صاحب الارض التي اعتقـد أنها تضم تحت تلالها قصر اللابورانث ، ولكنه فشل في ذلك . وفي مطلع القرن الحالي وفي عـام

١٩٠٠ م بالتحديد نجح ايفانس في مسعاه واشترى قطعة الارض التي كان شليمان قد فشل في شرائها وبدأ حفائره التي استمرت ستة مواسم امتدت من ١٩٠٠ — ١٩٠٥ ، وكانت نتائجها اكتشاف معالم حضارة عصر (البرونز) في كريت والتي أطلق عليها ايفانس اسم الحضارة المينوية نسبة الى ملكها الاسطوري مينوس ، واستطاع العلماء المتخصصون بعد دراستهم لما استخرجه ايفانس وغيره من العلماء الذين توافدوا على الجزيرة وابتدأوا ينقبون في أرجائها التأكد من صحة بعض ما جاء في اسطورة ثسيوس والمينوتوروس ، وخرجوا ببعض المعلومات التالية :

كان البحر عماد الحياة في كريت ، وكانت الاساطيل الكريتية تنقل المواد الخام الى المراكز الصناعية القائمة في أشهر مدنهم ، وذلك عن طريق المحطات والمراكز البحرية التي أقامها الكريتيون على سواحلهم الخاصة والسواحل التي كانت تورد لهم المواد الخام مثل الذهب والفضة والنحاس والعاج وبعض الاحجار الكريمة • وقد شهدت اطلال قصر اللابورانث وبقايا مدينه كنوسوس وشوارعها المتداخلة والمعبدة للعمال والمهندسين الكريتين بالبراعة والمهارة ، وبخاصة في اقامة القناطر والقنوات وترع ري وصرف المياه النظيفة والمستعملة • كما شهدت الاطلال والبقايا نفسها لهؤلاء العمال بالذوق الرفيع وذلك من خلال الصور الملونة الرائعة على جدران القصور وبقايا الادوات المعدنية النحاسية منها بشكل خاص ، وكذلك صناعة الحلي وأدوات الزينة وتطعيم المصنوعات الذهبية بالاحجار الكريمة • وقد فاق العمال الكريتيون غيرهم من الاغريق وغير الاغريق المعاصرين في صناعة الاواني الخزفية والفخارية ، ورسم المناظر الاسطورية عليها مستخدمين في ذلك الالوان الزاهية •

١ ــ أدوار تاريخ كريت :

وكانت أشق المهمات صعوبة على (ايفانس) وغيره من العلماء هي كيفية معرفة وتحديد الادوار التي تعود اليها التماثيل والرسوم والاختام والاواني التي اكتشفت ، وقد تولى ايفانس هذه المهمة الشاقة واستطاع بعد مقارنة مضنية بين مخلفات الطبقات الارضية ، وملاحظة التطورات التي أحدثت على هذه المخلفات ، ومقارنتها بالآثار المشابهة لها في الشكل والموضوع والتي وجدت في أماكن أخرى

معروف تاريخها مثل الآثار الكريتية التي وجدت في مصر الفرعونية وما بين النهرين ، اعطاء تقديرات تاريخية معقولة ، ورغم اننا لا نستطيع أن نجزم بدقة التقديرات الرقمية المعطاة فان الآراء تكاد تتفق على تقسيم الحضارة الكريتية أو المينوية الى ثلاثة عصور ، وتقسيم كل عصر الى ثلاثة أدوار على النحو التالي :

العصر المينوي الباكر

من عام ٣٠٠٠ حتى ٢١٠٠ ويتضمن ثلاثة أدوار

العصر المينوي الوسيط

من عام ٢١٠٠ حتى ١٥٨٠ ويتضمن ثلاثة أدوار أيضا

العصر المينوي المتأخر

من عام ١٥٨٠ حتى ١٢٠٠ وله أدوار ثلاثة أيضا .

وقد شهد العصر المينوي الباكر ذروة الانتقال من حضارة العصر الحجري المتأخر (Neolithic) الى العصر البرونزي ، ويحدد المؤرخون تاريخ ذلك التحول بحوالي عام ٢٤٠٠ ق.م ، ويربطونه زمنيا بعصر بناة الاهرام في مصر . وعندما قام بعض المؤرخين بمحاولة لاثبات قيام علاقات مباشرة بين كريت ومصر في تلك الفترة ، فشلوا في اقناع أنفسهم بقيام المصريين أو الكريتيين بتلك المهمة وذلك لبدائية السفن المستعملة في ذلك الوقت ، وأمام المخلفات الاثرية التي وجدت في كلا البلدين والتي تثبت قيام هذه الصلات ، فقد رجح مؤرخون آخرون قيام الفينيقيين بدور هام في التبادل القائم بين كريت ومصر في ذلك الوقت .

وتغلب على حضارة كريت في عصرها الباكر ، اعتماد كريت على استيراد معظم احتياجاتها في حين لم تكن تصدر إلا القليل ، ونتيجة لكثرة انتشار المدن الهامة في تلك الفترة على ساحلها الشرقي ، فقد رجح العلماء اعتماد كريت في استقبال المؤثرات الحضارية على الشرق القديم وبصورة خاصة سورية وفينيقية بالاصالة عن نفسيهما أو بالوساطة عن بلاد ما بين النهرين ومصر .

وقد شهد العصر المينوي الوسيط انتقال أهم المراكز الحضارية الى وسط الجزيرة وسيادة موجة من الرخاء والترف وظهور طبقة من التجار الاغنياء ، يدل على ذلك كثرة القصور التي بنيت على نمط قصر اللابورانث بغرفها الكبيرة ومعابدها الخاصة ومخازنها الواسعة ، وكذلك ظهور عدد من المدن الهامة مثل كنوسوس العاصمة وفايستوس (Phaestos) وغيرها واحتواء هذه المدن على عدد من دور صناعة الاواني الخزفية التي بلغت درجة عالية من التقدم حوالي عام ١٧٥٠ •

وتؤكد المخلفات الاثريـة للقصور المكتشفة على حدوث دمار جزئي حوالي عام ١٧٥٠ لمعظم هذه القصور التي أعيد ترميمها في فترة لاحقة من ذلك العهـد (بعد حوالي خمسين عاما تقريبا) ، وقد اختلف المؤرخون في تفسير هذه الظاهرة ، ففي حين يفترض بعضهم حدوث هزات أرضية ، يفترض البعض الآخر حدوث ثورة اجتماعية ، ويقترح بعض ثالث وقوع غزو خارجي • ونحن نميل الى الفرضية الاولى ، وبخاصة ان الشواهد التاريخية لا تؤيد فكرة الثورة الاجتماعية • ورغم ان احتمال وقوع غزو خارجي هو أمر محتمل نظرا للتأكد من تعرض منطقة شرقي المتوسط الى هرج سكاني واسع أدى الى مهاجمة العيلاميين بلاد الكلدان ودخول الهكسوس مصر ، فانه من غير المعقول أن تقوم جماعات بحرية بهذه القوة وبهذا الشكل بتدبير غزو ضد دولة بحرية قوية ككريت ، لانه يصعب علينا أن نصدق وجود قوة بحرية بهذه القوة في ذلك الوقت باستثناء الفينيقيين الذين لم يقوموا بهذا الغزو كما نعلم •

ولعل أهم ما يميز العصر المينوي المتأخر ١٥٨٠ ـــ ١٢٠٠ أنه قـد عاصر فترة حكم الاسـرة الثامنة عشرة في مصـر وبناء الامبراطورية المصرية (طـرد الهكسوس وظهور التحامسة) ، ولعل أهم ملامحها بروز ظاهـرة الاتصال المباشر مع الفراعنة في مصر وهذا ما تثبته الصور الجدارية على بعض المعابد المصرية الخاصة في الفترة نفسها ، ويبدو أن قوة الامبراطورية المصرية والامن الذي فرضه الفراعنة على منطقة شرق البحر المتوسط ، قد مكنت التجار الكريتيين مـن العمل بحرية أكبر في مقابل اعترافهم بالسيادة المصرية ، وهذا ما أكده امتداد مصالحهم الـى رودوس وقبرص وأوغاريت وجبيل وكذلك تركيز معظم الاساطير اليونانية المعاصرة

الحديث عن عظمة كريت وسطوتها • ويبدو أن « الفرعون » في مصر لم يكن بأكثر سطوة من « المينوس » في كريت ، الذي عزز سلطته المركزية ، وبسط نفوذه على الاصقاع المجاورة من خلال اسطول قوي يدين له بالطاعة • ويعتقد بعض العلماء أن الحضارة المينوية لم تبلغ أوج عظمتها الا في تلك الفترة التي كان فيها سلطان المينوس رمزا لوحدة البلاد وارادتها • وكان من الممكن لو استمرت هذه الحالة أن تتحول الحضارة المينوية من حضارة اقليمية الى حضارة امبراطورية ، الا ان القدر كان يمهد لظهور حضارة اخرى • وسرعان ما أدى غزو خارجي قام بـه الموكينيون ، الى اندثار الحضارة المينوية والى ان يحمل الموكينيون لواء الحضارة الاغريقيـة •

ويرى بعض المؤرخين الى أن هذا الغزو لم يكن مفاجئا ، وان الموكينيين قد تسللوا من بلاد اليونان الى شواطىء كريت قبل قرون من حدوث الدمار ، ويفترض المؤرخون أيضا أن التنافس التجاري بين كريت من جهة ، وموكيناي وحليفاتها في بلاد اليونان من جهة أخرى ، وتبعية المدن الاخيرة لكريت في فترة سلطانها وعظمتها ، أدى الى اذكاء نار العداوة التي تطورت لتنقلب الى حرب خسرت فيهـا كريت نفوذها وسلطانها الذي انتقل الى بلاد اليونان القارية الى غير رجعة •

ورغم غموض احداث وشواهد التاريخ الكريتي ، واقتصار معظـم هـذه الشواهد على المخلفات التي استخرجها الآثاريون من كنوسوس وغيرها من المدن الكريتية • فقد قدمت الاساطير الكريتية المعروفة ـ بعد التأكد من صحة بعض شواهدها ـ وملاحظات هوموروس في خالدتيه الالياذة والاوديسة عونا كبيرا وأمدتنا بمعلومات هامة عن حضارة كريت • يضاف الى ذلك ان بعض مؤرخينا القدامى مثل هردودت وثوكوديدس قد أشادوا في كتاباتهم خلال القرن الخامس بالدور الذي قدمته كريت للتراث الاغريقي بصورة عامة ، كما تحدث عنها بوليبيوس بعـد ذلك بثلاثة قرون ، وأشار اليها المؤرخ والجغرافي استرابون ، ولعل ما وجـده فلاسفة الاغريق في كريت من نماذج حية لمعظم دراساتهم الاجتماعية وبخاصة أرسطو وأستاذه أفلاطون • كل ذلك دفع معظم مؤرخي التاريخ القديم الى الاتفاق على ان

كريت قدمت للحضارة الهللينية تراثا دينيا وفنيا ظل فترة طويلة من الزمن عمادا وجذرا من جذور هذه الحضارة خلال العصر الكلاسيكي وبعده •

واذا كان يصعب علينا تعداد المكتشفات الاثرية التي اكتشفها الآثاريون في كريت ، الا أن من الضروري أن نشير الى أهمها من الناحية التاريخية والتي تمثلت في مجموعات نقوش الدساتير التي تمتعت بها مدن كريت المختلفة ، وقد قامت العالمة الايطالية مارجريتا جاردوتشي (M. Gaurducci) بجمع هذه النقوش ونشرها في أربعة مجلدات كبيرة •

ولعل مجموعة « جورتونا » القانونية تلي المجموعة السابقة في الاهميــة ، وهذه المجموعة عبارة عن نصوص قانونية تخص مدينة جورتونا ــ ثاني مدن كريت بعد العاصمة كنوسوس ــ وقد تم اكتشاف تلك المجموعة تباعا إذ عثر على أول نقوشها عام (١٨٥٧م) عى حجر من أحجار جدار طاحونة وعثر على باقي المجموعة بعد جهد كبير في أماكن متفرقة • وتتألف المجموعة كاملة من اثني عشر عمودا نقشت بشكل دائري على جدار يعتقد العلماء بأنه كان جزءا من مبنى محكمة • ويتألف النقش من ٦٠٠ سطر مكتوبة بالطريقة المحراثية (Boustrophedon) القديمــة جدا رغم أن تاريخ النقش لا يتجاوز أواسط القرن الخامس ق•م ، ويبدو أن أول صورة صدرت لهذا القانون كانت بهذا الشكل ، ولهذا رغب كاتب النقش في القرن الخامس ألا يغير القانون القديم حتى في صورته الاصلية • وعلى أي حال فقد أقدم عدد من علماء النقوش الايطاليين عام (١٨٥٥م) وعدد آخر مــن علماء النقوش الالمان عام (١٨٨٤م) على نشر وتفسير هذه النقوش التي ألقت أضواء مناسبة على حضارة كريت في الفترة المينويــة • وبواسطة هــذه الاضواء تمكن المؤرخون المعاصرون من تكوين المعلومات التالية عن حضارة كريت في تلك الفترة •

٢ ــ السكــان :

ينتسب الكريتيون بصورة عامة الى عرق البحر المتوسط ، ومن النوع الذي كان يتصف باستطالة جماجمه ، وكان يعيش فيما بينهم بعض السكان من ذوي الجماجم المستديرة الذين طغوا فيما بعد على أصحاب الجماجم المستطيلة ، وهــذا

ما يؤكد تقسيم العلماء لأطوار الحضارة في كريت الى قسمين : القسم الاول هو الحضارة الكريتية البحتة ، والثاني هـو الحضارة التي حمل لواءها الاخائيون والدوريون ونقلوا مركزها الى بلاد الاغريق القارية • و لايعرف الكثير عن اللغـة التي كان الكريتيون يتحدثون بها سوى أنها لغة قريبة من لغة اللوكيين (سكان مقاطعة لوكية في آسية الصغرى) وأنها لا تشبه اللغات الهندية الاوربية ولا اللغات السامية التي كانت سائدة في ذلك الوقت •

وعلى عكس سكان بلاد اليونان الذين كانوا يميلون في لباسهم الى التعري فقد حرص الكريتيون على ستر أجسامهم ، وكان الرجال يغطون رؤوسهم بقبعـة ويستبدلونها في الحرب بخوذة معدنية أو جلدية ، وكانت النساء ترتدين أثوابا تشابه الاثواب المعاصرة ، ويتزيّن بالقبعات والمجوهرات لدرجة أن بعض العلمـاء أطلقوا على صورة امرأة كريتية عثر عليها مرسومة على أحد جدران قصر مـن القصور اسم (الباريسية) • وتختلف المنازل الكريتية عن المنازل اليونانية بطريقة تخطيطها ، فهي مثلا لا تخضع لقاعـدة معينة في توزيع الغرف حـول فناء الدار Auly كما تتصف أبواب الغرف بأنها تفتح للجهة الخارجية ، ولكنها تشابه المنازل اليونانية بأنها تصل غرفها ببعض إما بواسطة أبواب متصلة أو عن طريق دهاليز موزعة ، كما تشابهها بميزة العناية بالنوافذ التي تسمح بمرور النور والهواء • ويبدو أن مجمل الصفات السابقة للكريتيين وحضارتهم قد رجحت رأي المؤرخين الذين أكدوا على ان الكريتيين الاوائل لم يكونوا من العناصر الهندية الاوربيـة ولا من العناصر السامية ، بل كانوا ينتمون الى شعوب البحر المتوسط وعرقهم الخـاص •

٣ ـ الحياة الاجتماعيـة :

وتشير نتائج الحفائر ـ وبخاصة في المنازل والقبور ـ التي أجريت عـلى مستويات متفاوتة من أرض كريت أن الكريتيين القدماء كانوا كغيرهم من بنـاة الحضارات البدائية المغلقة يعيشون حياة اجتماعية قبلية بكل معانيها وارتباطاتها ، وأن هذه الحياة القبلية قد بدأت بالتفكك منذ بداية العصر المينوي الوسيط ، وان

العصر المينوي المتأخر قد شهد بداية سيطرة النزعات الفردية في المجتمع وتكوين الاسر الصغيرة • وهذا ما أظهرته الحفائر من اكتظاظ الشوارع والازقة في مدن كريت بالبيوت الصغيرة ، وكذلك الرسوم التي تصور كثافة السكان في الاسواق والمسارح • وتدل الظواهر التاريخية على أن المرأة الكريتية كانت — أسوة بالمرأة المصرية القديمة — تتمتع بمكانة اجتماعية تداني مكانة الرجل ان لم تكن أفضل منها ، وهذا ما ترجحه بعض الرسوم التي تصور النساء يحتللن المقاعد الامامية في المسارح • وتشير رسوم أخرى أن المرأة الكريتية كانت تقوم مثل غيرها من نساء العالم القديم بكثير من المهام الاسرية ، وبالاضافة الى انها كانت تشارك الرجل في أعماله الخاصة من زراعة أو صناعة ، كانت تشارك ايضا في رحلات الصيد وفي بعض الالعاب الرياضية •

وكانت الديانة الكريتية مزيجا من العقائد البدائية التي تقدس قوى الطبيعة بجميع أشكالها ، وهي بالاضافة الى أنها كانت تعبد الشمس والقمر والرياح والامطار وغيرها كانت تقدس الحيوانات التي تتصف بقدرة تناسلية فائقة كالافاعي والثيران • وكنتيجة حتمية لتصور الكريتيين بأن الامومة هي سر الطبيعة فقد قدسوا كل ما يتعلق بمظاهر الامومة ، وهكذا نجدهم يعبدون الاهة أنثى ويصورونها أماً لجميع الآلهة وبني البشر ، ويعهدون بأمور عبادتها الى كاهنات في كهوف مقدسة ، في حين كانوا يقيمون في بيوتهم مذابح صغيرة لتمجيد هذه الإلاهة وزوجها الذي أطلق عليه الاغريق فيما بعد اسم (زيوس) كما أطلقوا عليها اسم (ريا) • وكان الكريتيون يعتنون بموتاهم ، وذلك بدفنهم في توابيت فخارية ويضعون معهم بعض الطعام والمستلزمات الشخصية الاثيرة لدى الميت وبعض التماثيل التي تمثل البشر أو الحيوانات •

وكانت الالعاب الرياضية تمثل مكانة عظيمة في الحياة الاجتماعية لدى سكان كريت الاوائل ، ويبدو أن معظم الحفلات الدينية كانت تصاحبها مباريات رياضية ، وتصور النقوش أن أحب الالعاب الرياضية الى الكريتيين كانت الجري والمصارعة وقتال الثيران والصيد •

٤ ــ نظــم الحكــم :

وتشير الدلائل الاثرية من انتشار القصور المحصنة في كثير مــن مناطق البلاد وبعض الرسوم التي تصور الاشراف المسلحين دائما ، الى ان السلطة السياسية كانت في العصر المينوي الباكر والوسيط في أيدي رؤساء القبائل الذين رأسوا نظاما اقطاعيا ريفيا . ويبدو ان بداية العصر المينوي المتأخر قد شهد نكبة هؤلاء الاشراف على يدي الملك الذي استطاع أن يمركز السلطة في يديــه ، وألا يدع للاشراف الا سيطرة اسمية من خلال توطيده للامن وسيطرته على الشواطئ البحرية بأساطيله القويــة .

وبغض النظر عما تعنيه كلمة (مينوس) وهي التي حملها معظم ملوك كريت وفيما اذا كانت تعني لقبا معينا أو سلطة ما ، يبدو أن سلطة المينوس كانت ــ كما في معظم ممالك العصور القديمة ــ مستمدة من الآلهة . وكان يعتبر ممثل الالــه بين رعاياه من البشر ، وكان ملزما بتجديد مباركة الاله لسلطته مرة كــل تسع سنوات ، وذلك بأن يتصل بالاله في كهف مقدس .

وكان يساعد الملك في ادارة شؤون البلاد عدد من الموظفين والكتاب الذيــن يقومون على تصريف شؤون المواطنين وتسجيل شكاواهم والتزاماتهم تجاه الملك ، وكان لكل واحد من هؤلاء الموظفين خاتما يوقع به على معاملات الناس العاديــة ، في حين كانت المعاملات الهامة توقع بخاتم الملك . وتشير كثرة الالواح الفخارية التي عثر عليها في قصر كنوسوس على أن المركزية في المعاملات وبخاصة المالية منها كانت شديدة . كما تشير بعض الرسوم والنقوش الى أن الملك كان يحتفظ بجيش محترف يلبس أفراده لباسا خاصا ويحملون الحراب والاقواس ، وكانت هناك فرقة للعجلات الحربية . وتؤكد بعض المصادر الادبية عــلى أن الملوك المينويين كانوا يحتفظون تحت سيطرتهم المباشرة بأسطول قوي حقق لهم الامن الداخلي والسيطرة الخارجيــة .

٥ ــ الحياة الاقتصاديــة :

وكمعظم أراضي حوض البحر المتوسط ، كانت أراضي كريت صالحة لزراعة

الحبوب بأنواعها المعروفة آنذاك ، والكرمة والتين والزيتون • وكنتيجة حتمية لشهرة أراضي كريت بزراعة الكرمة والزيتون ، فقد تطلب هذا شهرة مماثلة في انتاج الآنية الفخارية والخزفية لتعبئة النبيذ والزيت • وكان من الطبيعي أن تقفز احتياجات الجيش المحلي بصناعة الاسلحة الى الامـام ، وهذا ما يبدو واضحا في أنـواع الاسلحة المكتشفة في الحفائر وتطورها خلال العصور المينوية الثلاث • وقد أدى استتباب الامن ووفرة الصنّاع والحاجة الى بعض المواد والمصنوعات غير المتوافرة محليا والتي استوردت من مصر وسورية وآسية الصغرى ، الى دفع عجلة التجارة الى الامام لدرجة تفوق فيها الكريتيون على بعض من سبقهم زمنيا في مجال التجارة البحرية في ذلك الوقت •

٦ ـ انهيار الحضارة المينويـة :

وحوالي عام (١٤٠٠) انهارت الحضارة المينويه بشكل فجائي أذهل العلماء والمهتمين بتاريخ كريت • وتشير الدلائل الاثرية من قصر كنوسوس التي اعتمـد عليها في تأريخ انهيار الحضارة المينوية ، الى ان النيران قد التهمت معظم موجودات القصر فجأة ، يدل على ذلك ما وجده الآثاريون من آثار تدل على أن الصناع الذين كانوا يهيئون الكلس لحاجة القصر قد تركوا أدواتهم على غير هدى ، كما اضطر الخدم (الذين يبدو أنهم كانوا يخدمون في حفلة رسمية) الى ترك الاواني التي كانوا يحملونها أمام باب قاعة الحفلات •

وقد ذهب المؤرخون والآثاريون في تفسير هذه الدلائل الاثريـة مذاهب شتى ، وابتدعوا عدة نظريات لعل أهمها نظريتان تؤمن احداها : بحدوث هزة أرضية عنيفة أدت الى حدوث حريق في أحد جوانب القصر ، وامتد حتى شمل معظـم القصر ، ويدلل أصحاب هذه النظرية على صحة نظريتهم بأن الوقت قد شهد دمار عدد من المدن الكريتية مثل جورنيه (Gournia) ، وبسيرا (Pseira) ، وزاكرو (Zakro) وغيرها • وتؤمن النظرية الاخرى بحدوث غزوة دورية مبكرة مهدت لغزوة الدوريين الكبرى عام (١١٠٠) • ويدللون على ذلك بأنه من غير المعقول أن يؤدي زلزال الـى انهيار حضارة بأكملها لو لـم يكن هناك بديل للحضارة

السابقة • وعلى أي حال ، ومهما كانت أسباب الحريق الذي أدى بقصر كنوسوس فمن المؤكد أن تاريخ حريق القصر كان نهاية تعيسة لحضارة راقية سيطرت في وقت ما على المقدرات السياسية والتجارية للحوض الشرقي للبحر المتوسط •

والحقيقة أنه اذا كان لا يهمنا سبب الحريق الذي التهم قصر كنوسوس فاننا نجد أنفسنا ملزمين بذكر الاسباب المنطقية التي أودت بهذه الحضارة • والتي يمكن تلخيصها فيما يلي :

تدل الآثار البشرية التي وجدت في مناطق شتى من الجزيرة على أن أصحاب الجماجم المستديرة الذين كانوا أقلية في القرنين الرابع عشر والثالث عشر ، قد أصبحوا أكثرية طغت على أصحاب الجماجم المستطيلة التي ينتسب اليها سكان كريت القدامى • ويذهب المؤرخون في تعليل ذلك الى أن المنافسة التجارية بين كريت المسيطرة على بحر ايجة وجاراتها من المدن الاغريقية في بلاد اليونان قد أذكى نار العداوة بينها ، وقد قام الآخيون من خلال هجراتهم السلمية المتتالية الى الجزيرة منذ عام (١٤٠٠) ، بدور كبير في التمهيد للغزوة الدورية الكبرى عام (١١٠٠) التي طمست بعض معالم الحضارة الكريتية المتميزة وأدخلتها في دائرة الحضارة اليونانية •

واذا كان تدخل الآخيين في الحضارة المينوية هو السبب المباشر لانهيار هذه الحضارة ، فمن المؤكد ان بعض الاسباب غير المباشرة قد لعبت دورها في تمكين الآخيين والدوريين من هذه الحضارة ، ولعل من أهم الاسباب اضمحلال الاهمية الاقتصادية التي تمتعت بها كريت بسبب المنافسة التجارية ، بالاضافة الى الفساد والتفسخ الذي أصاب المجتمع الكريتي بدءا من وصول هذا المجتمع الى الرخاء الذي نشده عندما عمل جاهدا على تكوين هذه الحضارة المتميزة •

ثانيا ـ موكيناي :

والحضارة الموكينية ـ فيما يعتقد ـ هي أول حضارة أنجبتها بلاد الاغريق القارية (اليونان) ، وهي التي كان مركزها مدينة موكيناي (Mykenae) بالقرب من الشاطيء الشرقي لمقاطعة أرجوليس (Argolis) في جنوب اليونان •

وموكيناي موقع مثالي لمدينة تسود سهل أرجوس في زاويته الشمالية الشرقية ، تبعد حوالي عشرة كيلو مترات عن أرجوس و ١٥ مترا عن البحر . والموقع كما تشير الادلة الاثرية كان مأهولا بالسكان منذ العصر البرونزي على الاقل ، وهنا حوالي عام (١٧٠٠) أقام ملك شديد البأس لا يعرف اسمه بالتأكيد ولا من أين أتى ، تحصينات ضخمة حول مدينة من أوائل العصر البرونزي ، كما شيد قصرا جديدا . وكان المدخل الى المدينة طريقا معبدا ، تحفه من الجانبين أبراج قوية ، وفي أهم مداخل المدينة انتصبت ولا تزال قائمة هناك بوابة الاسد العظيمة ، التي كانت تغلق يوميا بباب خشبي ضخم مزدوج العوارض تعلوه عارضة ضخمة متوجة بنقش بارز لأسدين متقابلين ، وحين يلج الزائر بوابة الاسد ويصبح خلف الاسوار التي يبلغ سمكها ستة عشر قدما تواجهه كتل من الركام التي تكونت من خرائب القصور والمنازل وأطلال المدينة الاخرى المنتشرة على المنحدرات الصخرية والسهل المحيط بالمدينة . وظل حال المدينة دون تغير بعد هجر المدينة في وقت غير معروف لبضعة قرون . وفي القرن الثاني قبل الميلاد زار المؤرخ باوسانياس المكان ووجده كما سبق وصفه « خرائب ضائعة في ركن من السهل قاتمة مشؤومة متداعية » .

وكانت هذه المدينة في يوم ما مدينة مزدهرة ذات شوارع عريضة ، ويتولى حكمها ملك قوي يقيم بالقلعة ، وكانت الجيوش تتدفق عبر بوابة الاسد رائحة غادية ، وكان بالمدينة كنوز عظيمة من الذهب . ويتحدث كل من هومروس وسوفوكليس عن غناها بالذهب . ويذكر باوسانياس أن المدينة أسسها برسيوس (Persios) الذي أطلق عليها اسمها ، اما لانه فقد غمده (مايكس) أو لانه عثر على نبات بالاسم نفسه في ذلك المكان . ويخالف الاستاذ شليمان (مكتشف المدينة) باوسانياس فيما ذكره ويقول أن التسمية جاءت من لفظ (موكيثموس) بمعنى (خوار) نظرا لكثرة الثيران التي احتواها سهل أرجوليس في الفترة نفسها . وباستثناء ما نعرفه عن الملك برسيوس ، فاننا نعرف أن المدعو أتريوس Atreos كان أحد ملوك المدينة وأنه خلف سلالة ملكية تذكر الاساطير أنها أحيطت بلعنات الآلهة ، وكان من أشهر ملوكها (آجاممنون) الذي قاد حملة الآخيين على طروادة .

ويعود الفضل في معرفتنا الكثير عن الحضارة الموكينية الى العالم الالماني هاينريش شليمان الذي أغراه تمكنه من الكشف في عام (١٨٧٠م) عن طرواده ، بمتابعة الكشف في عام (١٨٧٦م) عن موكيناي •

١ ـ الموكينيون وأشهر ممالكهم :

تشير الادلة الاثرية والدراسات الانثروبونوجية الى أن الموكينيين كانوا أهم العناصر البشرية المتميزة التي استوطنت بلاد اليونان القديمة ، وأنهم كانوا أحد الشعوب التي غزت تلك البلاد وامتزجت بسكانها الاوائل من جنس البحر المتوسط، وأنهم هم الذين أدخلوا اللغة اليونانية • والحقيقة أنه ليس لدينا أي دليل مادي يثبت أو يحدد المنطقة التي هاجر منها الموكينيون الى بلاد اليونان ، ولكن بعض دراسات شقافات الفخار المنتشرة في آسية الصغرى والحوض الشرقي للبحر المتوسط وبعض الدراسات اللغوية والمعمارية جعلت بعض المؤرخين يميلون الى الاعتقاد بأن الموكينيين هاجروا من منطقة شمال غرب هضبة الاناضول ، وليس من منطقة البلقان كما كان يعتقد قديما •

وتعتبر الالياذة والاوديسة ، أكثر مصادر معلوماتنا عن العصر مدار البحث بصورة عامة ، وأعظمها سحرا ، ولكنها في الوقت ذاته أعسرها فهما ، وأقلها نصيبا من ثقتنا • والحقيقة التي يجب أن نلفت النظر اليها هي أن شعراء الملاحم كانوا فنانين مبدعين ذوي أصالة تحول دون ان يكونوا مؤرخين مدققين صادقين • وعلى الرغم من أن معظم الموضوعات التي عالجوها تناولت أحداثا تاريخية ثابتة ، الا أن جل اهتمامهم كان منصبا على اجتذاب انتباه جمهور مستمعيهم ، ولذلك فلم يكونوا يترددون في صياغة قصصهم في قالب فني براق على حساب الدقة التاريخية ، بل قد يكلفهم ذلك في بعض الاحيان تغيير القصة بما يطمس معالمها ويخرج بها عن الاصل تماما • وأمام فقرنا بالوثائق والشواهد التي يمكن أن تلقي لنا بعض الضوء على احداث ذلك العصر الذي تغطي الملاحم الهومرية فترته الزمنية ، ليس أمامنا إلا أن نأخذ منها مالا يعارض منطق الاشياء ، وما يتفق مع ما نعرفه من شذرات المعلومات التي أمدتنا بها الحفائر الحديثة •

ويرجع الى الياذة هوميروس فضل كبير فيما نعرفه عـن الممالك الموكينية العديدة والتي كانت أشهرها مملكة يولكوس في اقليم تساليه ، ومملكة طيبة فياقليم بيئوتيه ، ومملكة أثينا في اقليم أتيكا • وكانت أشهر تلك الممالك سياسيا مملكـة بولوس (Pylos) التي فرضت سلطانها على اقليم مسنيه ، ومملكة موكيناي في اقليم أرجوليس •

وكانت كل مملكة من هذه الممالك تتكون من أرض يفصلها عن جارتها واد أو جبل وتتوسطها المدينة الرئيسية أو العاصمة ، ونظرا للمعوقات الطبيعية العديدة في بلاد اليونان ، فقد فرضت هذه التضاريس عزلة لم يكن من الممكن التغلب عليها الا بالالتجاء الى البحر •

ورغم التشابه الكبير في ملامح الحضارتين المينوية والكريتية وبخاصة في فن العمارة والنماذج الخزفية التي يعللها بعض المؤرخين باقامة بعض الموكينيين في كريت أثناء فترة ازدهارها ، فان المظهر العام للحضارة الموكينية يبدو أكثر بساطة وبدائية وأقل رفاها من الحضارة المينوية ، وهذا ما تنبئنا به الرسوم التي وجدت في قصور موكيناي وغيرها من المدن والتي لا تصور المناظر الطبيعية والجمالية بقدر ما تصور مناظر الجنود وساحات الحـرب ، وترينا الحفائر في قصور الموكينيين ومنازلهم أنهم كانوا أكثر ميلا للنظام والنظافة ، وذلك باعتمادهم على مجاري مياه الامطار لصرف النفايات التي كانوا يرمونها خارج منازلهم ومدنهم • وقد دلت بعض بقايا الحفائر على أنه كانت للموكينيين علاقات تجارية بالمصريين ، وذلك باكتشاف أنواع من الخزف والمصنوعات الحديدية المصرية ، وقد أوحت تلك الاكتشافات لبعض المؤرخين بأن الموكينيين كانوا على علاقة وطيدة بالمصريين الذين حثوهم على مهاجمة كريت وانهاء سطوتها ، ولكن هـذا الفرض لا يستند في الحقيقة الا على فروض أخرى غير مسندة تاريخيا • اذ ليس لدينا ما يثبت قيام اتصال مباشر بـين المصريين والموكينيين في فترة باكرة من تاريخ الاخيرين نظرا لعدم تأكدنا من وجود سفن تؤمن هذا الاتصال ، يضاف الى ذلك ان الموكينيين كقوم محاربين لا يمكن لمصر الاعتماد عليهم في تأمين حاجاتها التجارية مثلما فعل الكريتيون من قبل • كما لا تخبرنا الشواهد التاريخية بتمرد الكريتيين على المصريين ولا رفضهم الافادة من السلام الذي أمنه الفراعنة خلال تاريخ تعاملهم •

٣ ــ الكتابات الكريتية والموكينية ودورها في الكشف عن الحضارتين :

وكان ايفانس قد عثر عام ١٩٠٠ أثناء تنقيبه في قصر كنوسوس وغيره من المناطق في كريت على عدد كبير من الالواح الطينية المجففة التي شابهت كثيرا في كتابتها الالواح القليلة التي عثر عليها من قبل في موكيناي وبعض جزر البحر الايجي • ورغم الصعوبات التي واجهت ايفانس في قراءة هذه الوثائق التي لم تتجاوز احداها في الطول العشرة سانتيمترات وتفاوتت في أشكالها بين المستطيل والمربع والمخروط ، فقد تمكن أن يميز بين نوعين مختلفين من الكتابة أطلق على أولهما اسم الكتابة الاولى (Linear A) واقترح انها تعاصر الدور الاول من العصر المينوي الوسيط (٢١٠٠ ــ ١٩٠٠) وثانيهما اسم الكتابة الثانية (Linear B) واقترح معاصرتها للدور الثاني من العصر المينوي الوسيط (١٩٠٠ ــ ١٧٥٠) •

وظل الغموض يحيط بالمادة التي احتوتها هذه الالواح أكثر من نصف قرن ، وذلك بسبب تشبث ايفانس بهذه الالواح وعدم سماحه لاحد من علماء النقوش والمؤرخين بالاطلاع عليها الا لماما ، ويدين علم التاريخ للمهندس البريطاني مايكل فنتريس (M. Ventris) بفضل التوصل الى طريقة لقراءة وترجمة رموز الكتابة الثانية وذلك باعتماده على ألواح استخرجها عدد من الآثاريين من مناطق متفرقة في موكيناي وغيرها من مناطق كريت وعلى رأسهم ألان ويس وجورج ميلونس وجون بابا ديمتريو وكارل بليجن •

والحقيقة ان فنتريس نفسه مدين لعدد من العلماء الذين حاولوا قبله قراءة خطوط الالواح ولكنهم فشلوا في ذلك ، وذلك باعتماده على آخر ما توصلوا اليه من اكتشافات في هذا الحقل ، ويأتي في مقدمة هؤلاء العلماء (اليس كوبر) وهي عالمة امريكية لم تعش حتى ترى آخر مراحل فك رموز هذه الكتابة ، وكانت قد لاحظت بفحصها علامات الالواح أنها ظهرت لتمثل مقاطع من لغة ذات صرف واعراب ، وان مجموعات المقاطع تظهر دائما ذاتها ، ولكنها متبوعة في كل مرة بعلامة نهائية مختلفة ، كما لو كانت كلمة (دومينوس) في اللاتينية حين تصبح (دومينوم) في حالة المفعول به وتصبح (دوميني) في حالة المضاف وتصبح (دومينو) في حالة الجر ومفعول الاداة •

وبعد هذا التمهيد الهام وغيره من الدراسات الفاشلة حول طبيعة هذه اللغة ، فقد اقتحم فنتريس المشكلة كما لو كانت تجربة في المنطق ، ورغم انه ظل حينا من الزمن متشبثا بالاعتقاد بأن هذه اللغة كانت وثيقة الصلة باللغة الاتروسكية فقد قام بجمع الجذور والنهايات الشخصية المحتملة من هذه اللغة وأسس نماذج مركبة لروابطها مثل الشباك المستخدمة في الشيفرات السرية أو الكتابات الرمزية • وعندما راح يقيس الامثلة بشبكته مثلما فعل شامبليون في محاولته لفك رموز الكتابة الهيروغليفية ــ مع الفارق بين المهمتين ــ بدأت كل المقاطع والجذور والنهايات تتلاءم مع بعضها البعض ، ولشدة ما كانت دهشته حين اكتشف انه كان يطالع لغة تشبه اللغة اليونانية ولكنها أخشن منها ، وأحيانا لا تكون واضحة ، حتى لكأن انسانا مشقوق الحنك ينطقها خلال عاصفة رعدية ــ على حد قوله ــ ، ومن المسلّم به أنها كانت لغة يونانية ثانية في لهجة قديمة •

وبينما كان فنتريس يقوم بكتابة مقالة عن اكتشافه الرائع عثر أحد الآثاريين على ثلاثمائة لوح في موقع بولوس ، كان بينها لوح غريب في بساطته لدرجة قرر معها فنتريس أن ينشر محتوياته فورا • وكان واضحا أن هذا اللوح يشمل قائمة جرد لأحد المخازن الملكية ، ويتكون من لوح من الآجر يحوي على تسعة أعمدة وسلسلة من المقاطع متبوعة جميعها تقريبا بصورة إناء للزينة له مقبض أو اثنان أو ثلاثة أو أربعة مقابض • وكان من الواضح أن المقاطع تصف أواني الزينة • وقد استعاض فنتريس عن المقاطع بالاصوات التي سبق ان استنتجها وتوصل اليها ، وعلى هذا الاساس ، وأمام صورة اناء الزينة ذي الاربع مقابض توصل لقراءة كافة مقاطع اللوح •

وقد نشر هذا العالم الجليل في الاول من حزيران عام ١٩٥٢م طريقته في حل رموز هذه الكتابة بعد جهد استغرق اثني عشر عاما ، وخلال الخمسة سنوات التي سبقت وفاته المحزنة بحادث سيارة عام ١٩٥٦م وبمساعدة احد المتخصصين في فقه اللغة اليونانية القديمة جون شادويك (J. Chadwick) تمكن من كشف النقاب عن الكثير مما احتوته مخازن متاحف العالم من هذه الالواح • ودللا بشكل

شبه مؤكد على أن ما احتوته هذه الالواح من حروف، ورموز ليست إلا نموذجا من نماذج اللغة اليونانية القديمة جدا .

٣ ـ الحياة الاقتصادية والاجتماعية :

ولعل من المناسب الاشارة قبل البدء في الحديث عن مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الموكيني الى أنه كان من سوء طالع علم التاريخ أن معظم الوثائق والالواح التي اكتشفت في كريت أو موكيناي لم تتعد في امدادنا بأكثر من معلومات متناثرة ، وهي في الحقيقة لم تكن أكثر من سجلات وحسابات وقوائم جرد بأسماء عبيد وحائكات وسقاة وجنود ، وثمة وثيقة وجدت في بولوس تصف تجهيزات لدفاع ساحلي وتحوي قائمة بالوحدات العسكرية وقوادها ، ووثيقة اخرى تظهر بوضوح شخصا تناول راتبه من الزيت . وبالتالي فان مجمل هذه الوثائق لم تمدنا بأي نص يلقي شعاعا ولو خافتا على أي مظهر من مظاهر الحياة والحضارة الموكينية أو المينوية ، ومعلوماتنا بالتالي ليست إلا انطباعات سطحية لا يمكن أن ترقى الى مستوى المعلومات التاريخية الاكيدة .

كانت الزراعة تعتبر الركيزة الاولى للحضارة الموكينية ، ويعمل بها السواد الاعظم من عامة الشعب ، وتدل الالواح المكتشفة التي تسجل مقدار المحصول ونوعه وحصص الملك والآلهة منه على دقة فائقة في الاعمال الزراعية ، ولعل أهم الحاصلات كانت القمح والشعير والزيتون ، وقد تطلب النشاط الزراعي في هذه المواد نشاطا ملحوظا في المصنوعات النسيجية والفخارية والخزفية . وتشير الالواح وبعض البقايا المكتشفة الى أن الثور رغم قدسيته كان الى جانب السبائك النحاسية وحدة التعامل الرئيسة على طريق المقايضة .

وقد أقام الموكينيون مدنهم على قمم التلال وأحاطوها بتحصينات دفاعية ، وكانت تخرج من هذه المدن شبكة من الطرق تؤدي الى بعض المراكز التجارية أو الدينية أو الصناعية الهامة . وكانت تقام على طول هذه الطرق مراكز للحراسة . ولعل أشهر هذه المراكز كان مركز قلعة جبل الياس (Elias) المطل على مدينة موكيناي نفسها . ومن المرجح ان بعض هذه الطرق قد انتهت الي الموانيء البحرية

التي كانت تمون المنطقة بالحاجات الضرورية وتقوم بتصدير الفائض من المنتجات الزراعية أو الصناعية •

ورغم انعدام معلوماتنا الكلي عن النظام الاجتماعي في الحضارة الموكينية بصورة عامة ، فان انتشار القصور والقلاع بالقرب من موكيناي وغيرها من المدن ، وتشابه هذه القصور بالقصور التي وجدت في كريت ، يرجح أن النظام الاجتماعي السائد في موكيناي كان نظاما اقطاعيا ، وان الملك كان يسود طبقة من الاقطاعيين الذين كان لكل منهم جيش خاص يرفد جيش الملك عند الحاجة ، ويؤدي بعض الواجبات الضرورية للصالح العام • ورغم عدم معرفتنا بوجود أقنان في هذا النظام ، فمن المرجح أن طبقة المزارعين الصغار أو الفلاحين قد ارتبطت بعقد ما مع سيد المنطقة ألزمت بموجبه على تأدية بعض الضرائب المادية والمعنوية الى هذا السيد الاقطاعي أو الملك •

وتشير بعض الصور على الفخار والرسوم الجدارية وشواهد القبور الى تشابه الديانة الموكينية مع المينوية ، فكلا الديانتين كانت تقدس إلاهة أنثى أرفع مرتبة من بعلها أو شقيقها الذي ربطته بها اسطورة الخلق والموت والبعث من جديد التي آمنت بها كل المجتمعات الزراعية في المنطقة • وقد عبد الآلهان في مزارات صغيرة لكل منها مذبح كانت تقدم فيه القرابين • وتلقي الالياذة بعض الضوء على المظاهر التي ظهر فيها الموكينيون وكذلك الطرواديون وبعض عاداتهم وتقاليدهم فقد كانوا يرخون شعورهم ويربطونها بخيوط من الذهب والفضة ، وكان الرجال يرتدون في الصيف معاطف ذات أكمام تصل الى الركب ، وفي الشتاء أردية فضفاضة يستخدمونها في الليل أغطية للفراش • وكانوا يتزينون بالاقراط والعقود والشرائط والاحزمة ، في حين كانت الكاهنات والنساء الثريات يرتدين معاطف مطرزة طويلة •

وتخبرنا الالياذة أن الموكينيين عرفوا المقاعد والمناضد ، ولكنهم لم يعرفوا الاطباق ، بل كانوا يأكلون الطعام من على المائدة التي كانت تغسل بعد ذلك بالاسفنج ، وكانوا يأكلون لحوم الضأن والماعز والخنزير ، ونادرا ما أكلوا لحم البقر ، وكانت هذه الحيوانات اضافة الى الاوز تستدجن في ساحات المزارع ، أو داخل المنازل وخارجها • وكانوا يصطادون الغزلان والخنازير البرية ، والماعز البري

والارانب ويتلذذون بأكل المحار والاسماك • وقد عرف الموكينيون زراعة القمح والشعير وغيرها من أنواع البقول وغرس الكروم وأشجار الزيتون ، كما كانوا يضيفون العسل الى النبيذ لاعطائه مذاقا حلوا • ونظرا لعدم اقبال الاطفال والكبار على شرب اللبن (الحليب) فقد كان الجبن يعتبر طعاما شعبيا يستمتع به حتى الفقراء المعدمين • وفي حين أن الموكينيين لم يعرفوا القطط ـ ظهر القط في بلاد اليونان في حوالي القرن السادس قبل الميلاد ـ فقد كانوا يعتنون بتربية الكلاب للصيد والحراسة •

ولعل أهم ما يميز الموكينيين عن غيرهم من شعوب القارة الاغريقية كان ميلهم الطبيعي للقتال ، يؤكد ذلك أنواع الاسلحة المتنوعة التي عثر عليها مدفونة في قبور المحاربين ، وكذلك الرسوم التي وجدت على جدران القصور وأواني الطعام والشراب ، وهي التي سجلت لنا جوانب من معارك خاضها الموكينيون • وتدعم الالواح الكتابية أهمية الجيش في المجتمع الموكيني ، وتخبرنا أنه كان يتوافر لطبقة الاشراف أو الاقطاعيين العربات الحربية التي يعتقد بعض المؤرخين بأن استخدامها في الجيوش القديمة شكل ثورة في الاستراتيجيات العسكرية في ذلك الوقت ، ومن أهم الاسلحة التي كا نيتسلح بها الجيش الموكيني الدرع الذي يحمي صدر المقاتل والدرع الذي يحمي ساقه والخوذة التي كانت تصنع من حلقات أنياب الخنازير البرية بالاضافة الى الرماح والسيوف والنبال والسهام والخناجر • وكنتيجة حتمية لتماس الحضارة الموكينية مع البحر ، فمن المرجع انه كان للموكينيين قوة بحرية قوية ، يدعم هذا الرأي المعلومات التي أمدتنا بها الالواح التي عثر عليها في الحفريات المذكورة سابقا • وكذلك معلوماتنا عن عدد السفن التي حشدها الموكينيون في حربهم ضد طروادة •

ثالثا ـ طروادة :

ارتبط اسم طرواده في أذهان الكثيرين بالحرب التي خلدها هومروس في ملحمتيه باسم حرب طرواده ، وهي الحرب التي خاضها أهل المدينة العظيمة ضد الموكينيين (في تعريفنا) أو الآخيين (في تعريف هومروس) • والفرق هنا بين التعريفين هو أننا نعرف بالحضارة فيحين يعرف هومروس بأسماء القبائل •

ولا بد لنا قبل استعراض أشـهر الحروب التي خاضها الآخيون بصفتهم موكينيين ، والتي تعتبر احداثها التي وردت في الياذة هوميروس اكثر مصادر معلوماتنا أهمية ، من أن ننوه الى ان السبب الاخلاقي الذي ذكرته الالياذة كسبب الحرب لا يمكن ــ اذا قبلنا بصحة حدوثه ــ أن يكون وحده السبب الرئيسي والأوحد لهذه الحرب الطاحنة التي أدت الى اخفاء مدينة عامرة من مدن العصر القديم مـن الوجود ، ورغم قناعتنا بأن بعض حروب العالم قديمه وحديثه قد اندلعت بفعل حماقات لا علاقة لها بالشؤون السياسية أو الاقتصادية ، فانه يصعب علينا الاقتناع بأن اليونانيين والطروادبين قد تحملوا أوزار الحرب لمدة عشر أعوام في سبيل امرأة أو أن بريام (Priam) ملك طرواده قد بلغ به الخبل حد التضحية بطرواده والطرواديين لا لشيء سوى ان يتيسر لباريس (Paris) امتلاك هيلين (Helen) على حد قول ــ هرودوت ــ الذي أضاف بقوله « لست أصـدق أن بريام كان سيمتنع عن تسليمها في سبيل انهاء هذه السلسلة من الكوارث التي حاقت بمدينته ، حتى ولو كان هو نفسه الذي تزوجها » ، ولا شك ــ والحالة هذه ــ في أن من بين أسباب هذه الحرب :

أولا : النزعة العدوانية وحب الحرب التي اتصف بها الموكينيون •

ثانيا : عداء المصالح التجارية الذي يعتقد بعـض المؤرخين بأن سيطرة موقـع طرواده الطبيعي على مضيق بحر مرمرة وعدم استبعادهم لان تقوم طرواده في ذلك الوقت بفرض رسوم على السفن العديدة التي كانت تخترق هذا المضيق المائي الهام ، جعل بعض المدن تتحين الفرص للانقضاض عليهـا واخراجها من الساحة التجارية العالمية •

ثالثا : غنى طرواده بالمحاصيل الزراعية والحيوانية والصناعية •

فمن تفحص موقع طرواده يتبين أنها تقع في سهل غني خال مـن العوائق الجبلية ، وتذكر الاشعار الهومرية في كثير من فقراتها أن طرواده اشتهرت بتربيـة أكرم أنواع الخيول المعروفة ، كما أمدتنا الحفائر التي أجراها (شليمان) بالكثير من أدوات الغزل والنسج ، ولا شك والحالة هذه أن طرواده قامت بتصدير الفائض من انتاجها الزراعي والصناعي على الاقل ، ونافست بذلك الدول الموكينية التي ساءها تفوق طرواده في هذا المجال ، فنقمت وتحينت الفرصة السانحة للقضاء عليها

(طروادة)
التي لاحت عندما خطف فيها باريس اكثر أولاد الملك بريام وسامة هيلين زوجة منلاوس (Menelaos) ملك اسبرطة عندما زاره في احدى المرات ، وقد استاء اليونانيون من هذا الاعتداء على شرف أحد ملوكهم ، فتنادوا للذود عن هذا الشرف. وجمعوا أسطولا يربو عدده على (١٢٠٠) سفينة وجيشا بلغ حوالي مائة ألف مقاتل ، وعهدوا للملك آجا ممنون (Aga Memnoun) ملك موكيناي وأخ منلاوس بقيادتهم ، واتجهوا الى طروادة التي أغلقت من دونهم اسوارها ، فألقوا عليها الحصار . وقد اشترك في هذه الحملة معظم ملوك بلاد اليونان وامراءهم وأبطالهم ان لم يكونوا كلهم ، وكان أبرز هؤلاء يولوسس (Ulysses) ملك جزيرة ايثاكا وأخيلس (Achilles) ملك تساليه من الجانب الاغريقي وهكتور (Hektor) ابن الملك بريام من الجانب الطروادي .

وليس من أهدافنا سرد قصة الحرب وأسبابها كما وردت عند هومروس ، لان ذلك أمر يسهل تناوله في العديد من الكتب والروايات والمسرحيات التي أخرجت منذ أمد بعيد ، ولكن حسبنا أن نتعرض لفكرتها وأبرز صفات أشخاصها . فهومروس يعلن منذ بداية قصته أن محور كتابته هو غضب آخيلس ، والدمار الذي سيخلفه مؤديا الى موت الكثيرين من الرجال الابرار ، فثمة قوة متفجرة تتعلق بالموت تنطلق عارمة من محبسها في نفس آخيلس ، ونحن نرقبه في أنفاس مبهورة ، وقد راح يحطم كل شيء في طريقه ، ويتعارك مع كل من هم حواليه ، ولا يهدأ له بال حتى يقضي على أعدائه ، وليس هذا فحسب ، بل ويمثّل بهم كما فعل بجثة هكتور .

وفي ثنايا الالياذة ، تدوي صرخة الالم وهذه التساؤلات : لم يتحتم حدوث هذه الاشياء ؟ ولماذا يصر اليونانيون على الدمار ؟ وأي متعة يجدون في ذلك ؟ ومنذ البداية نعلم أن هكتور سيقتل وسيسحل من عقبيه حول أسوار طروادة ، وأن أخيلس سينتصر ، وان هيلين ستجتاز القصة كأنها الشبح ، جميلة صعبة المنال تعيش في فزع من جمالها بشكل خاص ، وفي سبيل هذا الشبح شن البشر هذه الحرب ، وفي سبيله لاقوا حتفهم ، وهي في هذا تمثل كل مغريات الحياة . كما يمثل أخيلس القضاء والقدر ، ويمثل هكتور الانسان اليائس المكافح ، وباريس

التهور والشجاعة ، وترينا الالياذة ان موت الرجال واراقة الدماء وعويل النساء أمر لا فكاك منه وكل هـذا عبث لاطائل منه ، وأن هناك مصير قاتـم يخيم على كل شـيء •

أما أن الحياة باطلة ، ومن ثم فانه لا معنى لها ، فهذا أمر كان هوميروس يدركه تمام الادراك ، كذلك كانهوميروس يعرف القتال وقسوته ، وصحيح انـه لم يقاتل في حرب طرواده ولكنه عرف مآسي المعارك الصغيرة ، ومنظر الجثث حين كانت ملقاة في العراء ، وكذلك عرف الفقر والعوز ، إذ بدون ذلك ما وجد مثل هذه المتعة في وصف فخامة الولائم وملابس الابطال المزركشة • وتقرر القصص المتواترة أن هوميروس كان ضريرا ، وهذا ما يتفق مع عشقه وتركيزه الدائم عـلى تألق الاشياء • وباعتباره من أهالي منطقة البحر الايجي ، فان ذلك يتفق مـع شعوره ـ الذي يبرز في الياذته ـ بالانعزال والوحدة ، ذلك لان عواطفه لم تكن مع أي من الجانبين المتقاتلين بل مع أشخاص معينين من هذه الكائنات البشريـة الذين وقعوا بين براثن تلك الحرب الهوجاء •

ويبرز من خلال الالياذة ، ثلاثة أشخاص في بهاء ساطع ، أخيلس المشاكس ويولوسيس الماكر ، وهكتور المحتوم المصير ، الذي ظل البطل الخاص في هذه الملحمـة الحماسية كما كان أخيلس بطلها العـام • وتكاد تكون جميع الفقرات الرقيقة فيها متعلقة بهكتور ، ويكاد هو أن يكون « هملت » في هذه الملحمة الذي اقتنصه العنكبوت وراح يرقب مصيره في صبر نافـذ محاولا الفكاك ، مؤملا في الهرب غارقا في أحلامه ومتنصلا منها ، متذكرا طفولته ومدركا أكثر من أي شخص آخر عدم بقاء الحياة وحتمية زوالها ، وللتبعات الفظيعة التي يحملها •

والى عهد قريب كان التاريخ المتعارف عليه لسقوط طرواده • التي شابهت كما أسلفنا في مظاهر حضارتها الحضارة الموكينية اجتماعيا واقتصاديا • هو عـام (١١٨٤) ، ولكن الابحاث الاثرية المتعمقةالتي أجراها شليمان وغيره من الآثاريين تعتبر هذا التاريخ متأخرا ، ويكاد الرأي يستقر على أن الفترة ما بين (١٢٦٠ ـ ١٢٥٠) هي التاريخ التقريبي لسقوط هذه المدينة • وبسقوط طرواده ينتهي عصر الحضارة الايجية ويبدأ عصر الحضارة اليونانية •

الفصل الثاني

الاغــريق

أصولهم ، هجراتهم ، دويلات مدنهم

أولا — أصول الاغريق وهجراتهم الباكــرة :

يتفــق التراث الشعبي مع الادلة المادية على أن الاغــريق أي الذين كانوا يسكنون بلاد اليونان القارية وايونيه وجزر البحر الايجي لم ينتسبوا الى عــرق واحد مميز ، وان كانوا بمجموعهم قد اعتمدوا اللغة اليونانية لغة رسمية وشعبية وبخاصة في المراكز الحضارية الكبرى منذ فترة باكرة من تاريخهم •

ويبدو أن المؤرخين القدماء اعتادوا في سبيل تعليل وحدة العرق واللغــة عند الامم الكبرى أن ينسبوا الشعوب والقبائل التي يتألف منها هذا العرق الى جد معين وأولاده وأحفاده ، وكانوا والحالة هذه يقبلون الاساطير الشعبية المتعلقة بذلك كأنها حقائق تاريخية مسلّم بها • وأمام غموض الاصول التاريخية لمعظم الامم التي شيدت حضارات هامة ، فان معظم المؤرخين المعاصرين يميلون الــى التسليم بهذه الاساطير لقيمتها الادبية وعدم استطاعتهم احلال بديل مناسب عنها •

وتخبرنا الاسطورة الاغريقية بهذا الشأن ان « زيوس » كبير الآلهة عندما أراد تدمير العالم بعد اشمئزازه من الانحلال الذي أصاب معظم بني البشر ، أوعز الى أتقى عباده (ديوكاليون) أن يلتجىء وزوجه (بورا) الى احدى قمم الجبال ، وقد أرسل زيوس طوفانا أهلك كل بني البشر عدا ديوكاليون وزوجه •

وتتابع الاساطير اليونانية الاخرى فتذكر أنه كان لديوكالين عدة أبناء كان

أشهرهم هيللين (Hellen) ثم أصبح لهيللين ولدان هما : دوروس (Doros) وأيولوس (Aeolos) ، الذيـن رزقـا بابنين همـا : يـون (Yon) وآخايوس (Achaeos) ، ومن هؤلاء انحدر رجال القبائل اليونانية الاربـع : الدوريون والايوليون والايونيون والآخيون ، كما انتسب الاغريق بمجموعهم الى هيللين فأطلق عليهم اسم الهيللينيين وأطلق على بلادهم اسم الهيلاس أو الهيلاد •

وبغض النظر عن ما تزعمه الاساطير وما تقدمه لنا من معلومات هامـة في بعض الاحيان ، لا يعرف بالتأكيد المكان الذي هاجر منه أوائل سكان بلاد اليونان الى هذه البلاد ولا الوقت الذي استوطنوا فيه • وان كانت معظم الدراسات الحديثة ترجح انتساب أوائل الاغريق الى الاقوام الهندية الاوربية ، التي تسربت من مناطق متعددة في حوض الدانوب الى بلاد اليونان في الفترة الوقعـة بين أوائل القـرن العشرين وأواخر القرن الحادي عشر ، وعلى شكل هجرات استهلتها القبائل الآخية التي استوطنت أولا تساليه وبعد ذلك البلوبونيز وبعض الجزر الايجية • وتلتها القبائل الايولية والايونية التي استوطنت المناطق نفسها واختلطت كسابقتها بسكان البلاد الاصليين وتمازجت حضارتا الطرفين • على أن آخر وأهم الهجرات الكبرى وأشدها عنفا كانت الهجرة الدورية التي تمت في أواخر القرن الثاني عشر واكتسبت صفة الغزو •

١ ـ الغزو الدوري :

وتشير الدلائل التاريخية لحوض البحر المتوسط ، أن معظم مناطقه قـد تعرضت لهرج سكاني أقام الدنيا خلال القرنين الثالث والثاني عشر ولم يقعدها الا بعد فترة طويلة من الزمن ، ويعزو بعض المؤرخين أسباب هذا الهرج الـذي أدى الى اندفاع بعض القبائل الغازية من آسية الصغرى شرقا وجنوبا ، الى حدوث سلسلة من الزلازل في منطقتهم •

وتدل التنقيبات الاثرية على أن الامبراطورية الحيثية قد سقطت بموجب هذا الغزو ، كما أن بعض الكتابات المصرية من عام (١٢٢٣) تشير الى غزوتين قامت بهما هذه الشعوب على مصر اطلق على احدها اسم غزوة (الاخاي واشا)

(Achae-Washa) أو (أقاي واشا) التي اشتركت مع الليبيين في الاغارة على مصر ، والثانية باسم غزوة الدانونا (Danuna) ، ومـــن الواضح انالغزوة التي حطمت الامبراطورية الحيثية أتت عن طريق البر ، وأن غزوتي مصر أتتا عن طريق البحر • أما بالنسبة للقبائل التي أغارت على بلاد الاغريق ، فمن شبه المؤكد أنهــا انحدرت برا ومن الشمال بالدرجة الاولى ، بدليل أن بعض الجزر وبخاصة جزيرة رودوس قد بلغت ذروة مجدها التجاري في تلــك الفترة ولم تتعرض مظاهــر حضارتها لأي تهديد أو تخريب •

ويحدثنا معظم مؤرخينا الاغريق ، أن هذه القبائل كانت قبائل هندية أوربية من العنصر الاغريقي نفسه ، وقد أطلق عليهم التراث الاغريقي اسم الدوريين ، وان هؤلاء قد اكتسحوا معظم مناطق البلوبونيز بعد جيلين فقط من سقوط طرواده (حوالي ١١٠٤) ، وقد أطلقوا على هجرتهم هذه اسم (عودة آل هيراقلس) •

ويروي الاغريق قصة (عودة آل هيراقلس) حسب عادتهم في قالب اسطوري لاضفاء المزيد من العظمة والجلال على تاريخهم • وليس من أهدافنا عرض تفاصيل هذه الاسطورة ، وان كنا نجد أنفسنا مرغمين على تلخيصها رغبة في الحفاظ على التسلسل الموضوعي للبحث ، ولما لاسطورة هيراقلس من أهمية في الادب والتراث الشعبي الاغريقي •

أغــرم زيوس بألكميني (Alkmene) زوج امفيتروون (Amphitryon) أحد أشراف مدينة طيبة ، وأولدها ولدا ، ولما كانت مثل هذه الامور تزعج هــيرا زوج زيوس الشرعية فقد صبت جام غضبها على محبوبة زيوس ووليدها ، فقامت أول الامر بتأخير ولادته ، وبعد ولادته ببضعة أشهر أرسلت هيرا ثعبانين الى مهد الطفل ليقتلاه ، ولكن الطفل استطاع خنق الثعبانين بيديه واكتسب منذ وقتها اسم هيراقلس أي الذي اكتسب المجد عن طريق هيرا •

وقد كبر هيراقلس ــ أو هرقل كما عرفه العرب ــ في طيبة على أنــه ابــن أمفيتروون الطيبي ، وتلقى أجود التعليم في كل الفنون والرياضات المعروفــة ، ولما قام هرقل باغتيال معلم الموسيقى أرسله امفيتروون الى الريف ليرعى ماشيته ،

وهناك بدأ يقوم بمغامرات جليلة • كانت أهمها قتل حيوانات مفترسة واقتناص بعض الحيوانات العجيبة وابادة الطيور والخيول آكلة اللحوم البشرية ، واعادة بعض الاشياء المقدسة المسروقة الى أصحابها ، واقامة صخرتين متقابلتين على مدخل البحر المتوسط الغربي (عمودي هرقل ،) وحمل العالم في غياب الاله أطلس ، ومشاركة الآلهة في صراعها ضد (المردة) وضد الطرواديين في حرب طرواده ، وتتميز معظم مغامراته بخصوماته مع هيرا وخلقها المشاكل في سبيله •

ونظرا لعلاقة هرقل بعدد كبير من نساء الارض ، فقد ادعت معظم قبائل بلاد الاغريق نسبتها الى هرقل عن طريق واحدة من النساء اللواتي اتصل بهن هرقل في حياته •

وتخبرنا بعض الاساطير الاغريقية ، بأن أولاد هرقل سكنوا احدى أقاليم مقاطعة تساليه ، وأنهم هاجموا أثينا ، وبعد ذلك بخمسين عاما احتلوا موكيناي وأقاموا في منطقة البلوبونيز • ورغم ان معظم المؤرخين المحدثين لا يعترفون بقيمة هذه الاسطورة من الناحية التاريخية ، بل يذهب بعضهم الى تبرير تلفيقها بدعوى حاجة الطبقات الحاكمة في منطقة البلوبونيز الى اسناد سلطتها الى حق إلهي موروث ، فان ذلك لا يمنعنا عن افتراض صحة بعض ما جاء فيها ، خاصة وان الدلائل التاريخية تشير الى أن الغزو الدوري للبلوبونيز لم يكن مدا بشريا بقدر ما كان هدفه القضاء على الآخيين ، وليس من المستبعد والحالة هذه أن يكون أولاد هرقل قد التجأوا الى الدوريين في شمالي تساليه وحرضوهم على مهاجمة الآخيين • ومهما كانت بواعث هذا الغزو فقد كان له نتائج خطيرة في تاريخ الاغريق •

وبادىء ذي بدء ، يجب علينا التعرض بايجاز يحتمه علينا واقع مصادرنا الى ما يذكره المؤرخون الاغريق في حالة الآخيين في القرن الثاني عشر ، والذين يجمعون على أن نصر هؤلاء في حرب طرواده التي استغرقت عشر سنوات قد أنهك قواهم وأضعف شوكتهم • والواقع أن الفراغ السياسي الذي خلفته مشاركة معظم ملوك الآخيين في حرب طرواده ، وغرق الكثير من السفن في طريق عودتها ، واضطرار بعض الهائمين الى الاستيطان في مناطق شتى من الجزر الاغريقية، والحالة الاقتصادية البائسة التي سببها انصراف عدد كبير من الرجال الى الحرب ،

يسمح لنا بتكوين فكرة عن حالة الاضطراب والفوضى التي عاناها الآخيون بعد عودتهم من حربهم ضد طرواده ، كما تساعدنا على تصور التهلهل السياسي الذي شجع القبائل الدورية على مهاجمة البلاد ، والحقيقة ان اختلاف مؤرخينا الاغريق على تحديد تاريخ محدد لعودة (آل هرقل) يساعدنا على ترجيح ما يذهب اليه بعض المؤرخين من أن الغزو الدوري لم يحدث دفعة واحدة ، بل على دفعات متتالية استمرت مدة من الزمن .

وتصف مصادرنا القديمة الدوريين ، بأنهم طوال القامة ، ذوي جماجم مستديرة ، ويتكلمون احدى لهجات اللغة اليونانية ، شجعان أشداء في الحرب ، وأنهم كانوا أول من أدخل معدن الحديد الى بلاد الاغريق ، وأن هذا هو السبب الذي مكنهم من اكتساح بلاد الاغريق في فترة وجيزة .

وعلى أية حال ، فقد قامت أولى موجات الدوريين التي انساحت من الشمال مارة بمقاطعتي مقدونية والورية بالاغارة على مقاطعتي تساليه وايتولية حوالي عام (١١٠٤) ، وقاموا بتخريب كل أثر حضاري لهاتين المقاطعتين ، ثم تابعوا طريقهم ، فهاجموا مقاطعة ميجارا برا ، ومقاطعة أليس بحرا ، وسيطروا خلال فترة وجيزة من الزمن على معظم أهم المراكز الحضارية في البلوبونيز وقتل واستعباد سكانها من الآخيين الذين فر قسم منهم الى البحر الايجي ، والتجأ القسم الآخر الى مقاطعة أتيكا ، وعندما حاول الدوريون تعقبهم تمكن الاثينيون من صدهم ، ولذا فقد ظل الاثينيون يغمزون من قناة بقية مدن بلاد الاغريق بأنهم سكان أصليون وان مدينتهم لم تستعبد من قبل الغزاة .

ورغم حرص الدوريين على التقوقع داخل نطاق منظماتهم القبلية ، وابتعادهم عن الاختلاط بسكان البلاد الاصليين رغبة في الحفاظ على نقاوة عرقهم ، فقد تنازلوا شيئا فشيئا عن تزمتهم هذا ، واختلطوا بالسكان الاصليين وبخاصة في منطقة تساليه أولا ، ثم عم الاختلاط في سائر أرجاء بلاد الاغريق القارية ، ولا شك في صحة ما يذهب اليه بعض مؤرخينا المحدثين من أن هذا التزاوج والتمازج بين العناصر المختلفة من الدوريين وسكان البحر المتوسط وآسية ، قد لعب دورا رئيسيا في استيلاد جيل جديد نشط يمتاز بالقدرات والمواهب التي كان يتحلى بها كل عنصر

بمفرده فيما سبق ، وهو الذي حمل فيما بعد لواء الحضارة الاغريقية التي ما زالت تعتبر في بعض علومها رمزا للابداعية حتى عصرنا هذا •

٢ ــ أثينـا والموكينيون :

ويذكر المؤرخان ثوكوديدس وباوسانياس أن أثينا قد استقبلت المهاجرين الآخيين الذين طردهم الدوريون من أراضيهم ، ويبدو أن الآخيين نجحوا في اقناع الاثينيين بهول الخطر الدوري ، وكذلك في تكوين جبهة للدفاع عن أثيناء وبقية بلاد الاغريق ضد الغزاة الدوريين • ويذكر أرسطو وكذلك بلوتارخوس ، أن الاثينيين لم يقوموا بواجب الضيافة فقط ، بل انهم منحوا المهاجرين حقوق المواطنة الاثينية[١] •

وتؤكد الادلة المادية والاثرية ما ذكره المؤرخون السابقون عن هجرة الآخيين الموكينيين واستقبال أثينا لهم ، وذلك بالازدياد الكبير في عدد سكان أثينا في تلك الفترة ، لدرجة تجعلنا نستبعد ان نعزو ذلك الى عوامل اخرى كالارتفاع في معدل الولادات ، كما يؤكد ذلك ما اكتشفه الآثاريون من انتشار استخدام اسلوب الحرق في تلك الفترة بدلا من الدفن الذي كان سائدا في فترة سابقة ، وهذا ما جعل بعض المؤرخين يميلون الى الاعتقاد ، بأن تكدس السكان وضيق المساحة المتوافرة وارتفاع تكاليف بناء المدافن ، قد أدى الى اعتماد اسلوب حرق الجثث الذي لا يكلف كثيرا ، كما لا يشغل الوعاء الذي يحفظ فيه رماد المتوفي حيزا كبيرا ، بالاضافة الى أنه يناسب عمليا الغرباء الذين لا يتركون وراءهم من يحفظ ذكراهم عن طريق اقامة الشعائر الجنائزية اللازمة مثل ايقاد المواقد خدمة لأرواح الاجداد •

٣ ــ الهجرات المتاخرة :

ويبدو أن حركة الهجرة الى اتيكا بعد الغزوة الدورية قد صاحبتها أو تلتها حركة هجرة معاكسة من بلاد الاغريق القارية الى سواحل آسة الصغرى ، ومن

---

(١) تعتبر هذه الخطوة في العرف السياسي الاغريقي أقصى درجات الكرم السياسي الذي يسبغ عادة على كبار اللاجئين فقط •

المحتمل جدا أن الهرج السكاني الذي أدت اليه غزوة الدوريين وما صاحبه من تخلخل الامن وتهلهل الحالة السياسية والاقتصادية والاكتظاظ السكاني في منطقة اتيكا ، قد أدى الى أن يقوم بعض السكان الذين طردوا أو هددوا بالهجرة سعيا وراء الامن والرزق • وربما ساعد التشابه في التركيب الجغرافي بين ساحل آسية الصغرى وبلاد الاغريق من حيث كثرة خلجانها الطبيعية التي تناسب الشعوب البحرية ، وكثرة الجبال التي تتخلل سهولها وتقسمها الى مناطق منعزلة ، وتميزها عنها بوفرة أمطارها وكثرة أنهارها ، كل ذلك وغيره قد ساعد على تكريس قناعة المهاجرين بصواب فكرة التوجه اليها أكثر من غيرها من مناطق البحر المتوسط •

ويحدثنا التراث الشعبي أن الايوليين من سكان تساليه وبيئوتيه في شمال بلاد اليونان استوطنوا مع بعض الآخيين في المنطقة الشمالية من ساحل آسية الصغرى وبخاصة جزيرة لسبوس وسهل طرواده ، وأقاموا بعض المستوطنات حول بعض المدن القديمة ، كما أسسوا مدناً حديثة كانت أشهرها مدينة ماجنيزية ، وأطلقوا على منطقة سكناهم اسم ايوليس (Aeolis) • في حين استوطن المهاجرون الآخيون والاتيكيون وبعض التساليين والايونيين الذين لم يكن لهم من قبل شأن يذكر المنطقة الجنوبية من ساحل آسية الصغرى ، وأسسوا مستعمراتهم ومدنهم التي أصبحت أشهرها مدينة ميلتوس ، وأطلقوا على هذه المنطقة اسم ايونية • والحقيقة انه يصعب وضع حدود اقليمية فاصلة بين ايونية وايولية ، وينهض دليلا على ذلك حالة مستوطنة فوكايه (Phokaea) ، التي تقع داخل المنطقة الجغرافية الايولية وينتسب سكانها الى القبائل الايولية ، ولكنها اعتبرت داخل النفوذ الايوني ، بالاضافة الى حالة جزيرة خيوس المشابهة • وعلى أية حال فقد سيطر النفوذ الايوني حتى على المنطقة الايولية وأصبحت كلمة ايونية تشمل كل الساحل الغربي لآسية الصغرى •

ولم تقتصر ظاهرة سيطرة النفوذ الايوني على تعميم التسمية ، بل ساعدت على اذكاء النعرة القومية ، ودفعت سكان المنطقة الاغريق الى العمل نحو الوحدة وبخاصة بين المدن والجزر الكبرى وأهمها (اريثراي ــ افسوس ــ بريني ــ ثيوس خيوس ــ ساموس ــ فوكايه ــ كلازوميناي ــ كولوفون ــ لبدوس ــ ميلتوس

ـ ميلوس) ، وقد تجلت وحدة هذه المدن في التزامها بشعائر عبادة الآلهة الاغريقية الكلاسيكية ، وكذلك في اقامة رابطة اقتصادية مشتركة ساعدت على رواج التجارة وبالتالي على التمكن من اقامة مستعمرات اغريقية جديدة على شواطىء البحر الأسود وغيرها من المناطق •

ومن هذا الموزاييك العجيب من الشعوب والقبائل والاعراق التي تضمنتها هذه المدن والمستعمرات انبثق أول شعاع لفجر حضارة جديدة ، فبعد ظهور ملحمتي هومروس الرائعتين الالياذة والاوديسة ، اللتين رغم كل ما يقال عن نسبتهما أو احداهما الى هذا الشاعر العظيم ، ورغم كل ما يقال عن وجود هذا الشاعر أو عدمه ، فانه مما لا شك فيه أن هاتين الملحمتين قامتا بدور كبير في اذكاء الرابطة القومية المشتركة بين الاغريق فترة طويلة من الزمن ، وابتدأت الثمار الحضارية لهذه المنظومة من المدن في الظهور شيئا فشيئا ممهدة السبيل لازدهار ثقافي وحضاري لم تشهد بلاد الاغريق مثيلا له من قبل ، فالى جانب إلياذة هومروس وأغاني سافو Sapho وأناكريون ، أخرجت أيونية مؤرخين نبغوا في عصرهم من أمثال هرودوت بالاضافة الى الكثير من علماء الطبيعيات • ورغم الدور الحضاري الذي لعبته المدن الايونية في التاريخ الاغريقي فاننا نجد من واجبنا تتبع المظاهر السياسية والحضارية لبلاد الاغريق القارية التي شكلت حضارتها العمود الفقري للحضارة الايونية ، ولعبت دورا سياسيا لم يكن بامكان ايونية أن تلعبه وبخاصة من الناحية السياسية نظرا لوقوع الاخيرة تحت السيطرة الفارسية وحتى بداية الفترة الهلنستية ، حيث سنفرد للكلام عن دورها السياسي والحضاري فصلا لاحقاً •

ثانيا ـ نشوء دويلات المدن :

يرى بعض المؤرخين ، أن التاريخ الفعلي لأية حضارة لم يبدأ الا بعد قيام المدن ، وما تبع ذلك من تعقد أمور الحياة ، وتحولها من مجتمع صغير تحكمه عادات وتقاليد القبائل ، وتسيطر عليه النزعات الفردية الدكتاتورية ، الى مجتمع كبير تحكمه قوانين وأنظمة تنظم حياة البشر ، الذين يقومون بدورهم بخدمة هذا المجتمع ، وتكريس أسس الثقافة والحضارة ونشرها في مناطق متفرقة من العالم •

والحقيقة ان الدول لم تخرج الى الوجود الا نتيجة لفرض الوحدة السياسية على مجتمعات كانت على قدر من الضآلة لا تسمح لها بأن تؤلف كل منها على حدة دولة لها كيانها وفاعليتها • واللفظة اليونانية التي تستخدم للدلالة على هذا الشكل من التكتل السياسي هي (Synoekismos) ومعناها الحرفي هو « الاسكان المشترك » • بيد انه يجب ألا يؤخذ هذا الاصطلاح الفني ، بمعناه الحرفي الدقيق ، فان مدلوله لا يقتصر أبدا على فكرة تجميع المناطق المدنية فحسب • ومن الثابت انه كان لكل حالة من حالات دويلات المدن جانب طبوغرافي • واللفظة اليونانية التي تستخدم للدلالة على المدينة الدولة التي تتكون نتيجة لعملية الاسكان المشترك هي (Polis) وأصل معناها هو « القلعة » • وقد كان من الطبيعي أن تقيم المجتمعات التي تسكن سكنا مشتركا داخل مدينة دولة ، قلعة مشتركة تصبح ملاذا لسكان الارياف ومواشيهم في حالة الحرب على أقل تقدير •

ولما كان هذا الاسكان المشترك يتضمن ــ ضمنيا ــ اقامة حكومة مشتركة ، فقد كانت القلعة تضم في العادة داخل أسوارها مركزا بلديا يحوي الى جانب المركز الحكومي المعابد العامة اللازمة للجمهور ، وأماكن اجتماعهم في العراء مثل السوق العامة (Agora) وأماكن اخرى مسقوفة لتصريف الشؤون المدنية العامة • وما من شك في أنه قد أصبح من المعتاد أيضا ان يتجمع حول المركز البلدي الدائم في النهاية أحياء دائمة لسكنى الافراد ، وقد يحدث أن تطوق هذه المدينة المنشأة في آخر الامر بسور خاص بها • ومع ذلك فلعله لم يكن من المألوف أن يتخذ جميع سكان المدينة الدولة مساكنهم داخل أسوار المدينة ، حتى ولو كانت المنطقة التي تحتلها من الصغر بحيث يسهل الوصول منها الى جميع الاراضي الزراعية فيما حولها ، كما أنه من الواضح انه كان يستحيل تحقيق ذلك في حالة اتساع المنطقة وامتدادها المحتمل •

وعلى سبيل المثال ، كانت اسبرطة ، اتحادا يضم خمس قرى في سهل لاكيدايمون الذي يخترقه نهر يوروتاس في الجزء الاوسط من مجراه • وقد ائتلفت أربع من هذه القرى منذ بداية تأسيس المدينة ، بيد أن القرية الخامسة وهي أموكلاي (Amyklae) ارتبطت نظرا لقدسية معبد الاله أبولون فيها بموقعها الاصلي على بعد خمسة كيلو مترات تقريبا شمال الوادي • ورغم ذلك فقد كان

سكان أموكلاي بحكم القانون مواطنين اسبرطيين يتمتعون بالحقوق ويلتزمون بالواجبات نفسها في اسبرطة . وعلى هذا القياس أيضا كان كل ساكن محلي في اقليم اتيكا وهو الاقليم التابع للمدينة الدولة أثينا ، يعد مواطنا أثينيا رغم بعد المسافة بين أقصى الاقليم وأقصاه الآخر لدرجة تقرب من المائة كيلو متر ، واضطرار سكان هذه المناطق القاصية الى اللجوء الى العواصم الثانوية في الاقليم بدلا من أثينا في أوقات الشدة ، وهذا ما أثبتته حرب البلوبونيز عام (٤٣١) . وبناء على هذا يبدو أن عدم تطبيق أسس الاسكان المشترك القائم على الوحدة الطبوغرافية تطبيقا كاملا في أثينا واسبراطة لم يكن شاذا ، فلم يكن جوهر الاسكان المشترك هو وحدة المساكن ، بل وحدة النفوس ، وبدون شك فان مثل هذه السيكولوجية لا يمكن بحال من الاحوال أن تفتعل افتعالا ، وهذا ما أكدته محاولة السياسي الطيبي إبا مينونداس (Epaminoudas) حين قام عام (٣٦٩) بالتأليف بين المجتمعات القروية الواقعة في جنوب غرب أركادية في مدينة دولة تحت اسم المدينة العظمى أو « ميجا لوبوليس » . وكان المقصود أن تكون الدولة الجديدة حاجزا يقوم في وجه اسبرطة ، وان تكون المدينة الجديدة أيضا بمثابة قلعة من قلاع الحدود . ورغبة في توفير القوة البشرية الكافية من السكان لهذه المدينة ، ولضمان متانة دفاعها ، فقد حمل إبا مينونداس مجموع القرويين من سكان اركادية على الهجرة والاقامة داخل أسوار المدينة الدائرية الشكل . ولكن هذا الاجراء قوبل بالسخط والتذمر العنيفين لدرجة رؤي معها أن الحكمة السياسية تتطلب السماح لسكان عدد من القرى المنقولين بالعودة الى أوطانهم درءا لخطر تصدع وانقسام السكان من جديد الى عناصرهم الاصلية . ويتضح لنا من هذا المثل ، أن ثمن انقاذ الوحدة السياسية للمدينة الدولة من خطر التفكك كان التضحية ببعض مظاهر الوحدة الطبوغرافية .

ورغم أهمية الدور الذي لعبته المدن الدول على الشاطىء الايوني في التاريخ الاغريقي حتى القرن السادس حين وقعت تحت حكم الفرس ، فان غموض احداث تاريخ وحضارة هذه الدويلات والرغبة في التركيز على احداث تاريخ بلاد الهيلاس التي انتقلت اليها زعامة العالم الاغريقي بدءا من أوائل القرن الخامس تجعلنا مرغمين على الاقتصار في حديثنا على تاريخ أهم المدن في بلاد اليونان مؤملين تناول تاريخ

المدن الايونية في سياق حديثنا عن التاريخ الهلنستي نظرا لوضوح ملامح تاريخها في تلك الفترة . ولما كانت اسبرطة وأثينا قـد اعتبرتا عاصمتي بلاد اليونان خلال الفترة التي تلت عصـر الاستقرار (أي استقرار القبائل التي انحدرت الى تلـك البلاد) ، وأصبحت كل واحدة منهما رمزا لشكل معين من أشكال الحياة وطريقة الحكم ، فسنكتفي هنا بايراد ما يخص تاريخهما بالتفصيل بعد استعراض تواريخ أهم المدن اليونانية من التي دارت فلكيهما باختصار دفعا للتكرار الممل وتشتت الحوادث .

ثالثا ـ الدويلات الصغرى :

١ ـ أرجوس (Argos)

تقع هذه المدينة في شبه جزيرة البلوبونيز في القسم الجنوبي من السهل الذي عرف باسمها ، على بعد حوالي خمسة كيلو مترات من البحر ، وقد أقيمت مبانيها على سفح مرتفع لاريسا (Larissa) وكذلك على مرتفع آخر وقع داخل أسوار المدينة . وفي هذين المرتفعين وجدت آثار حضارة تعود الى أوائل العصر البرونزي . ويذكر هومروس في الياذته مملكة ارجوس وملكها ديومد (Diomed) كأحدى القوى الكبرى التي قادها اجاممنون ضد طرواده . كما تذكر الاساطير ان المـلك تمنوس (Temenos) ـ أكبر أبناء هرقل ـ اتخذ ارجوس أثناء الغزو الدوري قاعدة لغزو البلوبونيز . ويبدو ان المدينة استمرت مزدهرة مرهوبة الجانب بدءا من أوائل القرن السابع حين قام الملك فيدون (Pheidon) بدحر الاسبرطيين وانتزاع سيادة البلوبونيز منهم ، وتنظيم أسس الحياتين الاجتماعية والاقتصادية[١] وحتى عام ٤٩٤ حين هزمها الاسبرطيون وتزعموا البلوبونيز من جديد . وبدءا من ذلك التاريخ تولد عداء تقليدي بين اسبرطة وارجوس جعـل الاخيرة تنحاز في معظـم الحالات الى جانب أثينا ، وان تتبنى النظام الديمقراطي نكاية بالاسبرطيين . ورغم الدور الثانوي الذي لعبته أرجوس في القرنين الخامس والرابع قياسا على دوري

(١) تذكر بعض المصادر الادبية أن فيدون كان أول حاكم سك نقودا فضيـة في بلاد اليونان .

اسبرطة وأثينا فقد اشتهرت بكونها مركزا حضاريا كبيرا أخرج للعالم عدد مـــن أشهر نحاتيه وفنانيه أمثال أجلاداس (Ageladas) وبولوكليتوس (Polykletos)

٢ ـ طيبـه (Thebes)

تقع على الحافة الجنوبية لأحد السهول الشرقية في مقاطعة بيئوتيه تعـزو الاساطير تأسيسها الى قدموس (Kadmos) الفينيقي ، وتعتبر المدينة الرئيسية في بلاد اليونان الوسطى خلال الفترة الموكينية ، وكانت قد تنازعت في فترة باكرة من تاريخها مع أرجوس وخسرت النزاع • وقد نجحت بعد ذلك في تأسيس عصبـة ضمت المدن البيئوتية • اصطدمت باسبرطة وانزلت بها هزيمة ليوكترا عام (٣٧١) وتبعا لذلك تزعمت بلاد اليونان لفترة قصيرة من الزمن •

وكانت طيبـة تعتبر بأشجارها مركزا من مراكز التسلية في بـلاد اليونان ، واكتشفت مؤخرا في موقعها آثار سكن انساني يعود الى ما قبل التاريخ وكذلك معبدا للاله أبولون •

٣ ـ كورنثـه (Korinth)

المدينة التي تسيطر على المضيق الذي يتوسط بـلاد اليونان ويتحكم في اتصالاتها البحرية الى حد كبير ، وتقع المدينة على بعد خمسة كيلو مترات عن البحر ولها ميناءان ، عثر في موقعها على فخار يعود الى عصور ما قبل التاريخ والهومرية والموكينية • وخلال الغزو الدوري وقعت كورنثه تحت سيطرة تمنوس ـ حاكـم أرجوس في تلك الفترة ـ ، وبعد فترة حكمتها سلالة من الملوك النشيطين الذين أسسوا عددا من المستعمرات أهمها كوركورا (Korkyra) في جزيرة كوركورا ـ احدى اكبر جزر اليونان الغربي ـ وسيراكوسا في صقليـة ، اشتهرت موانئهـا ببناء السفن الجيـدة • وقد بلغت كورنثه ذروة رخائها وقوتها في عهـد طاغيتها كوبسلوس (Kypselos) (٦٥٥ ـ ٦٢٥) • ويبدو ان نجاح الطغاة سياسيا جعل الكورنثيين يعتمدون على الطغيان كنظام حكم سياسي ، حتى استبدلوه في وقت غير معروف بنظام حكم دستوري قوامه حكومة مؤلفة من ثمانية وزراء ومجلس

مؤلف من ثمانين عضوا • ونظرا لاستمرار التجارة الحرفة الرئيسية في تاريخ كورنثه فقد تأرجحت علاقاتها مع المدن اليونانية حسب الصوالح المتعارضة أو المتوافقة وهذا ما سوف نلاحظه في علاقاتها مع أثينا بشكل خاص •

٤ ـ ميجارا

احدى مدن المضيق الكورنثي ، تقع في سهل خصب يسيطر على المواصلات البرية بين وسط اليونان وجنوبه • مارست في الفترة بين عامي(٧٣٠ ـ ٥٥٠) نشاطا استعماريا استيطانيا ملحوظا ، وكانت أشهر مستعمراتها ميجارا في صقلية وخلقدونية وبيزنطة في البوسفور وهراكلية في شمال غرب آسية الصغرى • وفي حوالي عام ٦٠٠ خضعت لطغيان ثياجنس (Theagenes) وبعده بقليل وقعت فريسة حرب أهلية أطمعت فيها جيرانها مثل كورنثه التي استولت على بعض أملاكها كما استولت أثينا على البعض الآخر ، كما سنتبين ذلك فيما بعد •



أهم مصادر الباب الاول :

ـ هرودوت

ـ ثوكوديدس

ـ الالياذة والاوديسة

مراجع مختـارة :

— Belgen. C. W. and Rawston. M, The Palace of Nestor at Pylos in western Messenia (Prinseton -1966).
— Bury. J. B. and Meiggs. R, A history of Greece (London 1977)
— Evans. A., Tke Palace of Minos (London 1921 - 1936).
— Desborough. V.R., The Last of the Mycenaens and their Successors (Oxford 1964).
— Finley. M.I., The World of Odysseus (London 1956).
— Higgins. R.A., Minoan and Mycenean art (London 1967)
— Hood. M.S., The Minoans (London 1971).
— Lorimer. H.L., Homer and The Monuments (London 1950).
— Marinatos. S, Crete and Mycenae (London 1960) trans.
— Rose. H.J, Handbook of Greek Myth (London 1972)
— Nilson. M.P, The Mionan - Mycenaean Religin and its Survivals in Greek Religion (London 1950)
— Schliemann. H, Mycene (1868)
— ———— , Mycenae and Tiryns (1880)
— Taylour, The Mycenaeans (London 1964)
— Vermeu le. E, Greece in the Bronze Age (Chicago 1964)

ـ اندريه ايمار وجانين أو بوايه ، الشرق واليونان القديمة (بيروت ١٩٦٤)

ـ توماس بلفينش ، عصر الاساطير (القاهرة ١٩٦٦)

ـ روبرت بين ، ذهب طرواده (القاهرة ١٩٦٥)

ـ سيد احمد علي الناصري ، الاغريق (القاهرة ١٩٧٤)

ـ محمد كامل عياد ، تاريخ اليونان (دمشق ١٩٧٠) .

الباب الثاني

تاريخ الدويلات الكبرى

الفصل الثالث

اسبرطـه

سبق أن ذكرنا أن الغزاة الدوريين استوطنوا خلال عصر الهجرة في منطقة البلوبونيز ، وبمرور الزمن أخذت بعض القرى في وادي نهر يوروتاس (Eurotas) في اقليـم لاكونية شـكل مدينة اطلـق عليها اسـم اسبرطـة أو لاكيدايمون (Lakedaemon) نسبة الى اقليم لاكونية الذي كان يسمى بالاسم نفسه ، كما أطلق على سكانها اسم الاسبرطيين أو اللاكيدايمونيين • وقد تطورت المدينة بدءا من منتصف القرن الثامن حتى أصبحت في مستهل القرن السادس أعظـم نفوذا وسلطة من أي مدينة دورية اخرى ، واعتبرت عاصمة للبلوبونيز من ذلك الوقت • ورغم السلطة والنفوذ التي اكتسبتها هذه المدينة على جيرانها بحد السيف تـارة وبالارهاب تارة اخرى ، فقد اختلفت عن غيرها من مدن بلاد اليونان في أنها مالت في طريقة حياتها الى العزلة والانطواء وترفعت عن استيراد المؤثرات الحضاريـة الاجنبية ، في الوقت الذي كانت باقي المدن الدول في بلاد اليونان تتصل بغيرها من المدن الاغريقية وغير الاغريقية اقتصاديا وثقافيا • فأبقت على نظام حكمها الملكي والاقطاعي في الوقت الذي انتقلت فيه باقي المدن الاخرى الى النظام الجمهوري • وهكذا مثلت اسبرطة في محافظتها على التقاليد القديمة قمة الرجعية في العـالم الاغريقي على حد زعم معظم مؤرخينا المعاصرين •

ويبدو أن عدم انجاب اسبرطة مؤرخ أو فيلسوف أو عالم شهير مثل الذين أنجبتهم باقي المدن الاغريقية ، كان سببا رئيسيا من أسباب عدم معرفتنا وجهة نظر الاسبرطيين في تمسكهم بالقديم واحتقارهم لاساليب الحياة الجديدة • ويبدو أنه السبب نفسه الذي اضطرنا للاعتماد على ما كتبه أعداء ومنتقدو النظام الاسبرطي • ويعتبر ما كتبه أرسطو في كتابه « السياسة » رغم عموميته ومحاولته التركيز على نقاط الضعف في دستور الاسبرطيين ، من أفضل مصادرنا عن تاريخ هذه المدينة الاجتماعي والسياسي ان لم يكن أفضلها على الاطلاق • في حين تمدنا بعض مصادرنا الادبية وأخصها قصائد الشاعر الاسبرطي تورتايوس (Tyrtaeos) ببعض المعلومات التي تتطلب حذرا شديدا قبل الاخذ بها • ولعل أول حوادث تاريخهم المتواتر ، أنهم بعد أن استوطنوا البلوبونيز استعبدوا سكان لاكونية ، ثم هاجموا مقاطعة مسينية (Messenia) التي تقع الى الجنوب الغربي من البلوبونيز وهي بلاد زراعية خصبة تقطنها بعض القبائل المسالمة التي تعمل في الزراعة بصورة رئيسية • وقد دافع هؤلاء عن بلادهم بضراوة ويأس شديدين حتى تمكن منهم الاسبرطيون ، وفرضوا عليهم جزية تعادل نصف محصولاتهم ، وساقوا بعضا منهم الى لاكونية للعمل في مزارعها بصفتهم مستعبدي حرب •

أولا ــ الارض والسكان وطبقاتهم :

وبموجب الاعراف والتقاليد الاسبرطية القديمة قسمت الارض التي تبعت اسبرطة الى قسمين : الارض العامة ، والارض المحيطة •

وكانت الارض المجاورة لمدينة اسبرطة تعتبر أرضا عامة ، وقد اقتسمها سكان المدينة بالتساوي تقريبا ، وبعد الحرب مع المسينيين أضيفت أراضي مسينية الى الاراضي العامة ووزعت على السكان بشكل متساو مساحة أو بالتعادل من حيث الانتاج • وكانت الدولة تقطع هذه الارض للاسر الاسبرطية لزراعتها والانتفاع بمردودها لقاء تعهد صاحب الاسرة بالخدمة في الجيش حتى بلوغه سن الستين ، وعند موت رب الاسرة ينتقل الاقطاع الى الابن الاكبر بالوراثة ، واذا مات هذا الرب دون أن يخلف ابنا صالحا للخدمة العسكرية عادت ملكية الاقطاع الى الدولة

التي تقوم باقطاعه الى أسرة جديدة ليس لها اقطاع سابق • ولـم يكن المواطن الاسبرطي صاحب الاقطاع يقيم في أرضه ، بل كان يتردد عليها لـلاشراف وتوجيه عمل الاقنان في الارض وتسلم المقدار المعين من الانتاج الذي كان يتعين على الاقنان تقديمه • ولهذا لم تكن الارض الاسبرطية تحوي منازل للسادة كما في ريف أتيكا بل أكواخا للرعاة والاقنان •

وينتسب السكان في اسبرطة الـى سلالات متعددة ، فمنهم الدوريـون والآخيون ، ومنهم سكان البلوبونيز الاصليين الذين استعمرت أراضيهم •

وقد قسم المجتمع الاسبرطي الى ثلاث طبقات اجتماعية هي : طبقة المواطنين الاسبرطيين (Spartiatai) وطبقة البريويكوي (Peroikoi) وطبقـة الهلوت (Helots) .

وكـان المواطنون الاسبرطيون الطبقة الحاكمة في المجتمـع الاسبرطـي ، ويسكنون مدينة اسبرطة نفسها ، ولا يعملون أي عمل سوى التدرب على الاعمال العسكرية ، ويتمتعون بكامل الحقـوق المدنية كحق الترشيح والانتخاب وشغل الوظائف العامة في الدولة ، ولم يتجاوزوا في عددهم في يوم من الايام الثلاثين ألفاً وقد انتظموا في ثلاث قبائل دورية الاصل هي :

١ ــ قبيلة البامفوليين (Pamyhyli)
٢ ــ قبيلة الدومانيين ((Dymanes)
٣ ــ قبيلة الهوليين (Hylleis)

أما طبقة البريويكوي وتعني باليونانية « الذين يسكنون حول المدينة أو بجوارها » ، فكانت تؤلف خط دفاع أول يحمي الاسبرطيين من تعديات سكـان المناطق المجاورة أو ينذرهم بوقوعها بالاحرى • ورغم ان ملكية أراضي هذه الطبقة قد اعتبرت ملكية خاصة يمكن تجزئتها وتوريثها وبيعها ، فقد كان القسم الاكبر من هذه الاراضي يجري في ملكية « أرض الملك » أو « أرض المعبد » • وكان أفراد هذه الطبقة الذين يبلغ تعدادهم في القرن السادس حوالي مائة وعشرين ألفـا ، يعتبرون مواطنين من الدرجة الثانية ، فلا يحق لهم الانتخاب أو الترشيح أو ممارسة

الاعمال العامة أو التزاوج مع طبقة الاسبرطيين ، في حين كان يسمح لهم بمزاولة التجارة والصناعة ، وكذلك الانخراط في صفوف الجيش كمشاة يحملون الاسلحة الثقيلة • ويعتقد بعض المؤرخين بأن أفراد هذه الطبقة يعودون بأصولهم الى سكان البلوبونيز أو سادته قبل قدوم الدوريين •

وتلي الطبقة السابقة في المجتمع الاسبراطي طبقة (الهلوت) أو الاقنان ، والتي يرجح بعض المؤرخين انتماء أفرادها الى أوائل سكان منطقة البلوبونيز ، بناء على المعلومات التي يذكرها المؤرخ (استرابون) والتي تفيد بأن كلمة (هلوت) اشتقت من (هلوس) وهو اسم أول مدينة استعبدها الاسبرطيون • وقد بلغ عدد هؤلاء في القرن السادس حوالي مئتين وعشرين ألفا ، ويبدو أنهم كانوا أرقاء دولة توزعهم على الاسياد الاسبرطيين للعمل في فلاحة أراضيهم ، مقابل الحصول على نسبة من المحصول • ويبدو أن أوضاع بعضهم كانت جيدة نتيجة عنايتهم بأراضي أسيادهم وتوفير قسم معقول من حصصهم من المحصول ، وهذا ما أكدته حادثة اعلان (كليومنس) ملك اسبرطة في القرن الثالث ، من أنه سيمنح الحرية لأي (هلوت) يستطيع دفع خمس (منات)[1] فضية ، وقد بلغ عدد الذين استطاعوا دفع المبلغ حوالي ستة آلاف •

ورغم أن أفراد طبقة (الهلوت) كانوا العنصر المنتج الرئيسي في المجتمع الاسبرطي ، وكانوا يشكلون فرقا خاصة بهم في الجيش الاسبرطي كمشاة يحملون أسلحة خفيفة ، فان وضعهم القانوني كان بشعا جدا ، إذ كانوا يلقون معاملة قاسية من قبل الشبان الاسبرطيين دون أن يجرأ أحد منهم على الشكوى ، ودون أن تكفل لهم الدولة أية حماية ، ولذا فقد كان من الطبيعي أن تمتلىء قلوبهم بالسخط والحقد على الدولة والاسياد ، وقد عبروا عن سخطهم مرارا بالتمرد والثورة ، وكنتيجة حتمية لقلة الاسبرطيين بالنسبة (للهلوت) و (البريويكوي) ابتدع الاسبرطيون لأول مرة في التاريخ نظام الشرطة السرية السياسية التي كانت تعرف باسم كروبتيه (Kryptia) وذلك لكي يتمكنوا من اكتشاف حركات التمرد والعصيان وسحقها قبل حدوثها •

---

(١) المنا (Mna) وحدة نقدية اغريقية تعادل (٦٠) ل.س تقريبا •

ثانيا ــ لوكورجوس والدستور :

ينسب الاسبرطيون ــ حسبما يذكر هرودوت ــ الى المشرع لوكورجوس (Lykurgos) صياغة دستورهم ، ورغم كل الشكوك التي يبرزها بعض مؤرخينا المعاصرين حول شخصية هذا المشرع ــ مثلما فعلوا في تشكيكهم بوجود طرواده ــ وتأكيدهم على أنه لا يمكن بحال من الاحوال أن يشرع شخص واحد مثل هــذا الدستور ، ويتمكن من فرضه على مجموعة من السكان أشرافا كانوا أم أقنانا . فان معظم الادلة التاريخية ، وبخاصة العصر الذي عاش فيه لوكورجوس ــ حوالي ٦٠٠ ق٠م ــ تؤكد بشكل قوي أن هذا المشرع قد ظهر فعلا في ذلك التاريخ ، ولعل ظهور مجموعة المشرعين في عصر واحد مثل زاليوكس (Zaleucus) في مدينــة لوكري (Lucri) بجنوب ايطالية ، ودراكون (Drakon) في أثينا ، وخاروندداس (Charondas) في كاتانا (Catana) بجزيرة صقلية ، وعثور النبي أشعيا عــلى وصايا موسى في معبد أورشليم ، يعد من أقوى البراهين عــلى وجود مثل هذه الشخصية ويبعد عنها صفة الاسطورية .

ورغــم استبعاد بعض مؤرخينا فكرة قيام شخصية واحــدة بوضع أصول الدستور الاسبرطي بكامله ، فان من غير المستبعد بل لعله مــن شبه المؤكد أن لوكورجوس هذا لم يقم الا بجمع قواعد الاعراف والتقاليد التي كانت سائدة في اسبرطة في وقت ما قبل عصره وأضاف اليها القليــل ، وقدمها بصورة رسمية الى الشعب لتحكم تصرفاته وميوله .

ويبدو أن لوكورجوس ــ حسبما يذكر هرودوت ــ كان قريبا ومتنفذا في بلاط أحد ملوك اسبرطه ، ورغبة في اضفاء شرعية دينية وقوة تنفيذية على القوانين التي استنها أو استخلصها من الاعراف والتقاليد القديمة ، فقد نسب لوكورجوس في حياته أو الاسبرطيون بعد مماته هذه القوانين الى وحي دلفي[(١)] .

---

(١) كان الاغريق يعتقدون بقدرة كهنة معبد الاله ابولون في مدينة دلفي المقدسة على التنبؤ بالغيب ، وبالتالي اختيار الاصلح . ولهذا كانوا يستشيرونهم أفرادا وجماعات ومدنا ــ في كثير من الامور أو يطلبون مباركتهم لعمل مــا يزمعون القيام به .

ويشير هرودوت وبلوتارخوس في كتاباتهما عن لوكورجوس الى أنه كان مصلحا بقدر ما كان مشرعا ، ويوردان عدد من الروايات حول حياته الخاصة وموته تثبت هذه الحقيقة من خلال ايذاء بعض الشبان له وصفحه عنهم وتأييدهم اياه فيما بعد وتعلقهم به لدرجة تقديسه •

ثالثا ــ الهيئات التشريعية والتنفيذية :

وتتكون الهيئات التشريعية والتنفيذيه في الدستور الاسبرطي من أربع هيئات رئيسية وهي :

آ ــ الملكان •

ب ــ الجروسية (Gerousia) أو مجلس الشيوخ •

ج ــ الابلـلا (Apella) أو الجمعية العامة •

د ــ الافورات (Ephoroi) أو الحكام (المراقبون ــ ضباط التنفيذ) •

١ ــ الملكان :

ويتربع الملكان بموجب هذا التقسيم على قمة التنظيم الحكومي ، ولا جدال في أن هذا النظام الملكي الفريد من نوعه في العالم قد ارتبط بفكرة ان وجود ملكين يتساويان في السلطة سيبعد عن احدهما فكرة الاستئثار بالحكم والاتجاه بأسلوب الحكم نحو الدكتاتورية • ويبدو أن أصول هذا التقسيم تعود الى قناعة كل من أسرتي الملكين بعجزها عن التصدي للأخرى ، ووجدتا أن خير وسيلة للاحتفاظ بالسلطة هو مشاركة احداهما الاخرى في الحكم •

وينحدر الملكان الاسبرطيان من عائلتين نبيلتين تدعيان نسبتهما الى هرقل[1] احداهما : عائلة أجيادس (Agiads) ، والاخرى عائلة يوروبونتيدس (Europontids) ، ويبدو ان عائلة أجيادس كانت أعرق نسبا من منافستها ولذلك فقد تمتعت بمكانة أسمى في نظر الاسبرطيين ، دون أن تكفل لها هذه المكانة أية امتيازات خاصة في الدستور الاسبرطي •

---

(١) انظر ما سبق ، الفصل الثاني ، الغزو الدوري •

ورغم أن الملكين كانا يقومان بقيادة الجيوش ، ويحضران اجتماعات مجلس الشيوخ • وكانت لهما بعض الامتيازات الخاصة التي لا يحظى بها غيرهما ، مثل حق الجلوس في أماكن الشرف في الاحتفالات العامة والمهرجانات الرياضية والدينية ، والمراسم الخاصة التي كانت تتبع عند موت احدهما ، فان سلطاتهما كانت نظرية ــ كما سيرد معنا فيما بعد ــ ولم يكونا ليمارسان حق الفصل الا في بعض القضايا الثانوية مثل التبني والاشراف على تزويج الايتام •

٢ ــ مجلس الشيوخ :

أما مجلس الشيوخ فكان يتألف بالاضافة الى الملكين من ثمانية وعشرين عضوا ، ورغم أن الدستور الاسبرطي كان يبيح لأي مواطن اسبرطي بلغ الستين ، ويملك أرضا لاكونية وأدى الخدمة العسكرية أن يرشح نفسه لعضوية مجلس الشيوخ ، فان طريقة انتخاب العضو التي تقضي بأن يمر المرشحون أمام أعضاء الجمعية العامة ، ويفوز بالمنصب من يحظى بأكبر قدر من التصفيق أدت الى أن يتمكن كبار النبلاء من الفوز دوما والسيطرة على مجلس الشيوخ بالتالي •

وتنحصر مهمة المجلس بالدرجة الاولى في النظر في شؤون السياسة الخارجية ، واعداد المشروعات العامة للعرض على الجمعية العامة ، بالاضافة الى مهمة الفصل النهائي في القضايا الجنائية التي يكون ضحيتها مواطنون اسبرطيون ، وكذلك حق الاشراف الاداري على هيئات الدولة المختلفة •

ولا جدال في أن التأثير الكبير والسلطة الواسعة التي تمتع بها هؤلاء النبلاء الطاعنين في السن على ادارة الحكومة ، قد أسهمت اسهاما مباشرا ورئيسيا في تكريس سياسة المحافظة على الماضي في اسبرطة اكثر من أية مدينة اغريقية اخرى •

٣ ــ الجمعية العامة :

أما الجمعية العامة ، فقد كانت نظريا الوحدة الدمقراطية في الدستور الاسبرطي، إذ كانت عضويتها مفتوحة لكل المواطنين الذين بلغوا الثلاثين من العمر ، وأتموا مراحل التدريب العسكري • وكانت الجمعية تعقد جلساتها بدعوة من الافورات ــ الذين سنتكلم عنهم فيما بعد ــ مرة في منتصف كل شهر قمري • وكانت سلطة

الجمعية العامة محددة بالموافقة أو رفض القوانين التي كانت تقدم اليها من مجلس الشيوخ بدون مناقشة • كما كانت تقوم بانتخاب الافورات وأعضاء مجلس الشيوخ نظريا فقط ، لان طريقة الانتخاب التي سبق ذكرها لم تكن لتترك مجالا لاختيار الاصلح ، كما أن قراراتها لا تأخذ الصفة الرسمية إلا بعد موافقة الشيوخ والافورات عليها • ويبدو أنه حتى الصلاحيات الهزيلة التي كانت للجمعية العامة قد أفزعت النبلاء المحافظين والمتسلطين على أجهزة الحكم ، وعملوا حتى تمكنوا من تأسيس مجلس مصغر عن الجمعية العامة ضم في عضويته أكبر الرجال المتنفذين في الدولة وبعض المعتدلين من الشباب • وعهد الى هذا المجلس الذي كان يعقد اجتماعاته بصورة سرية ببحث أهم القضايا التي تعترض الدولة ، والبت فيها بصورة نهائية دون عرضها على المجالس المختصة •

٤ ـ الافورات(١) :

وهي الهيئة الوحيدة التي لم يرد ذكر لها في دستور لوكورجوس ، ويبدو أن قدم هذه الهيئة وارتباطها بصدر حياة المدينة ، وثانوية الدور الذي كانت تقوم به أدى الى عدم ذكرها في هذا الدستور ، ولو أننا لا نجزم بمثل هذا التعليل ، وعلى كل حال فقد تعاظمت أهمية هذه الهيئة مع مرور الزمن وأصبحت بدءا من القرن السادس على الاقل تلعب دورا هاما لا يرقى اليه حتى دور الملوك في عز صولتهم •

وتتألف هذه الهيئة من خمسة أشخاص يطلق على كل واحد منهم اسم افوروس (Ephoros) وتعني حاكم أو ضابط تنفيذ أو مراقب • وكان هؤلاء الحكام يمثلون الشعب ويشرفون عليه ويستمدون سلطتهم منه ، وهم أشبه ما يكون (بترابنة العامة) في النظام الروماني ، وكان الحكام ينتخبون سنويا من قبل الجمعية العامة (الابللا) ويشرفون بدءا من تاريخ انتخابهم على الاخلاق والنظام العام وحفظ القانون ، ولذلك فقد رأسوا فرقة الشرطة السرية (كروبتيه) التي أسست أصلا لمناهضة حركات تمرد طبقة الاقنان ، وكذلك لمراقبة تصرفات الغرباء في المدينة ، وكانوا يشرفون على تدريب الشباب ، ويراقبون سلوك الموظفين والملوك

---

(١) عرف نظام الافورات في عدد من دويلات المدن دورية الاصل ، أهمها ثيرا ـ هراقلية ـ لوكانيه ـ بالاضافة الى اسبرطه •

أيضا ، وبخاصة في حالة الحرب حيث يرافق الملك اثنان من الحكام يراقبان سلوكه ويتأكدان مـن حكمته وشجاعته في ميدان القتال . كما كان الحكام يفصلون في بعض القضايا ، وبخاصة المشاكل المدنية والادارية ، أما في المجال الخارجي ، فقد كانوا يعقدون المعاهدات ويقابلون ممثلي الدول وسفراءها ويفاوضون المدن الاخرى شخصيا .

ورغم أن الحكام لم يكونوا مسؤولين أمام أية هيئة ، ويتصرفون بما يمليه عليهم ضميرهم وواجبهم وحبهم للوطن ، وعلى أكتافهم قامت السطوة والقوة الاسبرطيتان ، فان مجمل تصرفاتهم وبخاصة في القرن السادس تثبت بما لا يدع مجالا للشك بأنهم كانوا الاداة التنفيذية في أيدي النبلاء ومجلس الشيوخ .

رابعا ــ النظام الاسبرطي :

كان نظام الدولة الاسبرطية نظاما عسكريا متزمتا ، فقد كان الجيش هو الذي يعني قوة اسبرطة ومجدها ، ومن أجل تحقيق هذا الهدف فقد ضحت اسبرطة بدورها الحضاري من بين مجموعة الدويلات الاغريقية المتميزة في سبيل الحفاظ على مكانة عسكرية مرموقة .

ومن أجل تحقيق هذا الهدف فرضت اسبرطة على مواطنيها الالتزام بنظام صارم منذ ولادتهم ، ويبدأ هذا النظام بأن تحتفظ الاسرة بأطفالها الاصحاء الاقوياء فقط وان تتخلص من أطفالها المشوهين أو الضعفاء إما بقذفهم من مكان عال أو تركهم في العراء حتى الموت ، ويبدو أن خشية الحكومة الاسبرطية من تغلب عاطفة الابوة أو الامومة على أسرة ما ، دفعتها الى أن تطلب من كل والد أن يعرض طفله بعد ولادته على لجنة من الحكماء لتقرر صلاحية الطفل للعيش أو أن تحكم باعدامه . ولهذا فقد كان يطلب مـن الخاطبين التأكد من صحة مخطوبيهم قبل الزواج . وتروي بعض الروايات أنه فرضت غرامة نقدية على الملك (ارخيداموس) الثاني (٤٦٩ ــ ٤٢٦) لانه تزوج بامرأة قصيرة القامة .

ويعيش الطفل الاسبرطي القوي في كنف والديه حتى السابعة من عمره حيث ينتقل واجب تعليمه الى الدولة التي تلحقه بمدارس مشتركة يؤمها الاولاد والبنات معا . ويبدو ان تعليم البنات كان يقف عند انتهائهن من هذه المدارس ويحتم عليهن

بعد ذلك تعلم واتقان أمور المنزل الى جانب ممارسة الالعاب الرياضية والعناية بأجسامهن • ولم يكن يطلب منهن المشاركة في المهرجانات الرياضية وهن عرايا إلا للكشف عن عيوب التي لم تعتن بجسمها العناية الكافية • أما الذكور فكانوا ينتظمون بعد ذلك في السلك العسكري ، ويتلقون فيه عادة في التاسعة عشرة والعشرين من عمرهم تعليم الشبان الذي كان أساسه التدريب العسكري الشاق الى جانب التثقيف العادي ، حيث كانوا يدرسون القانون الاسبرطي والشعر الحماسي وكل ما يتعلق بحب الوطن والنظام • وعندما يبلغ الشاب الاسبرطي سن الثلاثين ، يعتبر مواطنا كامل الحقوق ، ويخضع للنظم العسكرية حتى سن الستين •

وكانت القوانين تسمح للشباب بقدر كبير من حرية الاختلاط ، وكانت الثلاثين هي السن المحددة للزواج بالنسبة للشبان والعشرين بالنسبة للشابات • وكان الزواج يتم عن طريق الخطف رغم اتفاق الاسرتين في معظم الحالات • ويبدو أن الاعراف كانت تعتبر العزوبة جرما يعاقب عليه بحرمان العازب من المشاركة في الاحتفالات العامة والسماح للنساء بمهاجمة العزاب وايذائهم ، كما كانت الاعراف نفسها تحتقر المتزوجين الذين لم ينجبوا والعزاب الذين بلغوا السن المناسبة للزواج ولم يتزوجوا ، وكانت النساء تعتدي على هؤلاءفي الطرقات العامة • وبصورة عامة كان وضع المرأة في المجتمع الاسبرطي جيدا ، بل كانت النساء تتساوى مع الرجال في كثير من الامور ، فكانت المرأة ترث وتوصي وتمارس التجارة وتشتري الاراضي وتستثمرها •

وكان على الشاب الاسبرطي المتمتع بكامل حقوقه أن ينضم الى احدى الخلايا أو الوحدات الاجتماعية التي كانت منتشرة في اسبرطة ، وتتكون عادة من خمسة عشر عضوا يشترط موافقتهم جميعا على انضمام العضو الجديد ، ولا يحق لهم فصله إلا في حالتين : التخاذل في المعارك أو العجز عن تقديم الاشتراك العيني والنقدي المترتب عليه • وكانت اجتماعات هذه الوحدات تتم عادة في المساء لتناول طعام العشاء البسيط والتباحث في الامور العامة وقد عرفت هذه الوحدات التي تشبه في أيامنا النوادي بأسماء مختلفة منها : أندريه (Andreia) وتعني : مجلس الرجال ، أو سوسيتيه (Syssitia) وتعني : العشاء الجماعي ، أو فيديتيه (Pheiditia) وتعني : الموائد العامة أو غيرها •

وكان الطعام بسيطا قليل الكمية ، لان كثرة الطعام في عرف الاسبرطيين تفسد الجسم رشاقته والعقل حكمته ، وكان على المنتسب الى هذه الوحدة ان يقدم في كل شهر كمية صغيرة من أساسيات المائدة كالخمر والطحين والجبن والتين المجفف ، ومبلغا صغيرا لشراء اللحم .

وتؤكد المعلومات المتوافرة عن المجتمع الاسبرطي ، أن التقشف والبساطة سادا المجتمع الاسبرطي ، وكانت الحكومة تحذر الافراد من السمنة ، بل تقوم بتوبيخ المفرطين في السمنة علنا ، وتعاقب الذين يتعاطون الخمر بكثرة[1] وتحرم التبرج بالملابس ولا تسمح الا بارتداء أثواب صوفية متشابهة . ودرءا لما يمكن أن يسببه الاجانب من بلبلة الافكار فقد كانت لا تسمح لهم إلا نادرا بزيارة المدينة وتحت المراقبة على الارجح .

وقد يتساءل البعض لماذا اختار الاسبرطيون هذه الحياة الصعبة وحرموا أنفسهم امتيازات حضارية كان يتمتع بها بقية الاغريق في مدنهم القاصية والدانية ، ولعل رد الاستاذ (أرنولد توينبي) على هذا التساؤل في كتابه « دراسة في التاريخ » يبدو معقولا الى حد كبير . ذلك أن معظم المدن الاغريقية كانت مدنا بحرية ، وانها وجدت حلا لمشكلة الانفجار السكاني (في القرن التاسع) في حركة الاستعمار والتوسع عن طريق البحر ، في حين لم يكن أمام الاسبرطيين الا التوسع برا على حساب الشعوب المجاورة الاضعف منها ، وأمام التفوق الساحق في العدد للشعوب المقهورة ، لم يجد الاسبرطيون مندوحة من أن يصرفوا كل جهودهم نحو الحفاظ على تفوقهم العسكري في محاولة لدرء مخاطر هزيمتهم على أيدي أعدائهم ، فيما لو التفتوا الى أمور الدنيا مثلما فعل غيرهم من اغريق مدن بلاد اليونان وايونية . وهكذا فقد تحتم على الاسبرطيين كيما يحتفظوا بجيرانهم عبيدا لهم أن يخضعوا هم أنفسهم الى عبودية الخدمة العسكرية الكاملة التي تبدأ من سن السابعة ولا تنتهي الا في سن الستين .

---

(١) كان المسؤولون يعلمون الشباب الاسبرطي مضار وبشاعة تعاطي الخمر بكثرة بارغام بعض افراد الهلوت على تجرع كمية كبيرة من الخمر ، والطلب الى الشباب مراقبة بشاعة حالتهم .

الفصل الرابع

أثينـــا

أولا ــ الارض والسكان :

تقع أثينا في مقاطعة أتيكا (Attika) في وسط شبه جزيرة اليونان ، وتتصل منذ أقدم العصور بالمقاطعات الشمالية والجنوبية اليونانية بطرق معروفة ، كما ترتبط بآسية الصغرى بسلسلة من الجزر الصغرى المأهولة • وأقليم أتيكا ، اقليم جبلي في الغالب أمطاره قليلة ، وأنهاره ايضا ، ولهذا فقد اشتهر هذا الاقليم بفقره في المصادر الطبيعية باستثناء بعض السهول الضيقة التي كانت تصلح لزراعة القمح الذي لم يعد يكفي السكان في فترات متأخرة من تاريخ أثينا • وقد عوضت الطبيعة أتيكا عن فقرها بالسهول الصالحة لزراعة الحبوب ، بمناخ مناسب لغرس أشجار الزيتون والكروم ، اضافة الى المراعي الجبلية التي ساعدت على تربية قطعان من الماشية (وبخاصة الماعز والاغنام) كما احتوت جبالها عـلى بعض المعادن الثمينـة وأهمها الفضة والرصاص وبعض أنواع الرخام الممتاز ، وهيأت خلجـان الاقليـم المتعددة وموانئـه الطبيعية فرصـة لاستقدام ما نقص الاقليم مـن أساسيات أو كماليات •

يعتقد بعض المؤرخين المحدثين أن فقر اقليم اتيكا قد دفع عنه الغزاة والطامعين، ويعتمدون في اعتقادهم هذا على مايزعمه بعض مؤرخي أتيكا القدماء من اتصاف سكانه بصفاء العرق • وتفند معظم الشواهد التاريخية والادلة الاثرية الحديثة هذا الزعم والاعتقاد وتشير الى أن هذا الاقليم قد سكن منذ العصر الحجري بشعوب غير يونانية انشأت فيه الكثير من القرى ، لعل أهمها على سبيل المثال لا الحصر الايجيون والكريتيون والآخيون وبخاصة الموكينيون الذين وفد قسم منهم ــ كما

عرفنا — الى اتيكا بعد طرد الدوريين لهم من اقليم البلوبونيز والتجأ القسم الآخر الى آسية الصغرى ، واستطاع القسم الاول منهم أن يتفاعل مع حضارة اتيكا القديمة وان يفرض عليها لغته (اليونانية) وعاداته وتقاليده .

ويبدو أن تكدس هذه الشعوب في اقليم أتيكا لم يصاحبه ذلك الشعور بالغلبة بين العناصر المتمايزة ، اذ أن معظم شواهد تاريخ اتيكا تثبت بما لا يقبل الجدل أن الاتيكيين طوال تاريخهم لم يعرفوا البغض والحقد بين العناصر الوافدة والعناصر المستقبلة ، ورغم انقسام هذه الشعوب حتى فيما بينها الى طبقات وأحزاب متناحرة ، فان النزاعات بين هذه الطبقات لم تكتسب صفة العنف الشديد كما في غيرها من المدن الاغريقية وبخاصة اسبرطة بل كانت خلافاتها تحل دائما في نطاق المصلحة العامة وبالطرق السلمية المعروفة وقتئذ .

ثانيا — تأسيس الدويلة ونظم الحكم :

تذكر الاساطير اليونانية أن الملك ككروبس (Kekrops) وكان نصفه رجل ونصفه الآخر ثعبان هو أول ملوك أثينا[١] ، ورغم اختلاف الاساطير في أصل ككروبس فيما اذا كان مصريا أو كريتيا ، الا انها تتفق في أنه هو الذي أنشأ المدينة ، وأنه وضع قواعد الزواج وحرم الذبائح البشرية وكرس عبادة الآلهة وبخاصة زيوس وأثينا ، وانه قام بدور الحكم في النزاع بين الآلهين بوسيدون وأثينا حول امتلاك مدينة (أثينا) فحكم لصالح أثينا لانها أوجدت شجرة الزيتون التي تعتبر أنفع للانسان من الحصان الذي أوجده بوسيدون .

وقد حكم من ذرية هذا الملك عدة ملوك أشهرهم ايجيوس وابنه ثسيوس الذي ارتبطت باسمه مغامرات عديدة في الاساطير اليونانية أشهرها ثسيوس والمينوتوروس التي تعرضنا لها سابقا ، ويرجع اليه الفضل في دمج مدن أتيكا الاثنتي عشر في مدينة واحدة أطلق عليها اسم اثيناي (Athenae) بصيغة الجمع للدلالة على أنها كانت أكثر من مدينة .

---

(١) تذكر بعض الاساطير الاقل اهمية ان أول ملوك أثينا كان المدعو اكتايوس (Aktaeos)

ولعل من الشواهد التي يمكن استخلاصها من معظم الاساطير التي حيكت حول نشأة وتاريخ أثينا القديم جدا هي أن توحيد مدن اتيكا قد تم منذ فترة قديمة تصل الى القرن الثالث عشر ق٠م • كما تشير تفاصيل الاساطير نفسها وبخاصة التي رويت عن ثسيوس أن هناك علاقات كانت تربط سكان أتيكا بغيرهم من سكان بلاد الاغريق وبخاصة جزيرة كريت •

ورغم عـدم وضوح تسلسل المناصب وماهيتها في الفترة الباكرة مـن تاريخ المدينة ، فان من المرجح أن نظام الحكم في أثينا قام في بدايته على الملكية المطلقة التي لم تدم طويلا أمام اصرار النبلاء على أن يلعبوا دورهم في الحياة السياسية ، فالتفتوا حول الملك مكونين مجلسا استشاريا سرعان ما سيطر على مقاليد الامور الفعلية في البلاد وطغى على سلطان الملك ، وتوزعت بذلك السلطات بين عدد من كبار موظفي الدولة •

ويبدو أن أول منصب استحدث وانتزع بعضا مـن سلطات الملك وبخاصة العسكرية منها كان منصب قائد الجيش (Polemarchos) الذي تبعه انشاء منصب الحاكم (Archon) وهو الذي انتزع من الملك سلطاته الادارية ، وفي بادىء الامر كان شغل الوظائف الثلاثة مدة الحياة اسوة بما كان الملك يتمتع به ، وفي منتصف القرن الثامن عدلت المدة الى عشر سنوات ، ثم عدلت مرة أخرى لتقتصر على سنة واحدة في بداية القرن السابع • ولا يعرف بالضبط متي أضيفت الى هذا الثالوث المكون من الملك والقائد والحاكم مجلس يضم ستة مـن الفقهاء والمشرعين الذين كانوا يقومون بتسجيل القوانين والاشراف على تطبيقها ، وكذلك الاجتهاد في بعض القضايا التي لم تتعرض لها مواد القانون المطبق • ولم يمض وقت طويل حتى أسس هؤلاء جميعا مجلسا يتألف من تسعة أعضاء أطلق عليـه اسم « مجلـس التسعة » أنيط به الاشراف على شؤون الحكومة الاثينية في تلك الفترة • وكان كبار الموظفين هؤلاء يتحولون بمجرد انتهاء فترة ولايتهم الى أعضاء مدي الحياة في مجلس كان يطلق عليه مجلس أو محكمة الـ (Areopagos) التي كان يناط بها مهمة انتخاب (الملك والقائد والحاكم) وبقية كبار الموظفين ، وكذلك الفصل في القضايا الجنائية التي كانت تعد من أهم وظائفه • ولا يعـرف بالتحديد الوقت الذي تم فيه الغـاء

الملكية في أثينا وان كانت بعض الروايات القديمة تذكر انه حكم أثينا في تاريخهـا الباكر ثلاثون ملكا فقط ، كما تذكر الروايات نفسها أن آخر ملوك أثينا ويدعى (Kordos) كان رائعا في شجاعته وعدالته وغيرته ونزاهته ، لدرجة رؤي معهـا بعد مقتله وهو يحارب الغزاة الدوريين انه لا يمكن ان تلد النساء رجلا بمثل صفاته • لذا فقد قرر الاثينيون الغاء منصب الملك والاكتفاء بمنصبي الارخون والبولمارخوس لادارة شؤون الدولة • ومن الطبيعي أنه لا يمكن الاتكال على مثل هذه الرواية ، الا انها على الاقل تعكس لنا سلمية الغاء منصب الملك وانتقال السلطة الى الارستقراطية المحلية •

ثالثا ــ طبقات المجتمع والتطور الاقتصادي :

ورغم كل مظاهر المساواة والالفة التي سادت المجتمع الاتيكي بصورة عامـة والاثيني بصورة خاصة في فترة تكوينه ، فقد شابه هذا المجتمع بقيـة مجتمعات العالم القديم في احتوائه على طبقات متمايزة ، وان لـم تصل هـذه الطبقات في تمايزها الى مستوى بقية المجتمعات الاغريقية وبخاصة في اسبرطة •

وتأتي في قمة الهرم الاجتماعي طبقة الـ (Eupatridae) أو طبقة النبلاء ، وهي الطبقة التي استأثرت بالسلطة لمدة طويلة بعد الغاء الملكية وقبل تكريس الدمقراطية الاثينية بصورتها المعروفة ، فكان منهم كبار الاقطاعيين وكبار الموظفين وبخاصة أعضاء محكمة الاريوباجوس ، الذين تأتمر الحكومة بأوامرهم ورغباتهم التي كانت تعبر في معظم الاحيان عن مصالحهم بالدرجة الاولى على حساب مصالح الطبقات الاخرى •

وفي المرتبة الثانية تأتي طبقة الـ (Georgoi) أو طبقة صغار المزارعين ، الذين كاوا يملكون قطعا صغيرة من الارض تكفي بالكاد أودهم وعائلاتهم الكبيرة على الغالب •

وتأتي في الدرجة الثالثة طبقة الـ (Demiurgoi) ، أو (الحرفيين) ، الذين كانوا يشتغلون بالصناعة أو بالتجارة أو عيرها من الاعمال الحرة • وتخبرنا بعض المصادر أن أوضاع بعض هؤلاء كانت أفضل حالا من معظم أفراد طبقـة صغـار المزارعـين •

ورغم الاختلاف الكبير بين الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية للطبقات الثلاث فقد كان أفراد هذه الطبقات يعتبرون من وجهة نظر حقوقية مواطنين يحق لهم الاشتراك في عضوية الـ (Ekklesia) أو مجلس الشعب الذي لم يكن[1] في عهد الحكم الارستقراطي ليقوم بأي عمل سوى المصادقة على القوانين التي تعرض عليه من قبل مجلس التسعة أو محكمة الاريوباجوس •

وتأتي في أسفل السلم الاجتماعي طبقة رابعة من السكان المعدمين الذين لم يكونوا يعتبرون من المواطنين ولا يحق لهم الانتساب الى القبائل الاثينية الاربع المعروفة ولا ممارسة أي نشاط سياسي ، وقد أطلق على هذه الطبقة اسم طبقة الـ (Thetes) أو طبقة المعدمين الذين لا يملكون أرضا للزراعة ولا مالا للتجارة أو الصناعة ، بل كانوا يعيشون من عملهم اليومي ، وكان جل أفراد هذه الطبقة من الاجانب •

وكان معظم سكان أتيكا وحتى أوائل القرن السابع يعتمدون في معيشتهم على الزراعة والرعي بالدرجة الاولى وصيد الاسماك بالدرجة الثانية ، وأثناء حالة السلم التي سادت المنطقة بعد أواخر الهجرات الدورية ، تزايد عدد السكان بشكل جعل من المتعذر على أراضي المنطقة وسواحلها أن تفي باحتياجات السكان الاقتصادية ، فيمم عدد من سكان أتيكا صوب البحر في محاولة لرفد اقتصاديات البلاد بعائدات التجارة التي تعلموا أصولها عن الفينيقيين ، ويبدو أنهم نجحوا في ذلك حتى بذت أثينا جميع المدن التي سبقتها في ذلك ، وبخاصة في مجال انشاء المستعمرات التجارية على سواحل البحر المتوسط •

ونظرا للطلب المحموم على الزيوت والخمور اليونانية ، فقد نشطت حركة زراعة هاتين المادتين ، وتبعها نشاط ملحوظ في صناعة الآنية اللازمة لتعبئتهما وأقصد الفخار والخزف بجميع أصنافه •

وكنتيجة حتمية لتزايد النشاط التجاري فقد شهد العصر نشاطا مماثلا في حركة

---

(١) هيئة يحضرها كل الذكور البالغين في اتيكا ممن حملوا لقب مواطن ، لكل واحد منهم حق الكلام وحق التصويت برفع الايدي • وكانت الهيئة تعقد اجتماعاتها على قمة تل يقع غرب الاكروبول ويدعى بل بنوكس (Pnyx)

الانتقال من نظام الاقتصاد العيني الى نظام الاقتصاد النقدي ، وكان اليونانيون بصورة عامة قد اقتبسوا نظام سك العملات عن مملكة لودية في جنوب آسـية الصغرى بدءا من أوائل القرن الثامن ، وأصبح لكل مدينة نقدها المستقل الذي رسمت عليه صور آلهتها وأبطالها ، ونتيجة لهذا كله فقد تغير مفهوم الثروة ، وأصبح الاغنياء من امتلكوا أكبر قدر من النفوذ وليس أكبر مساحة من الاراضي ، وفـي حين ترفع بعض النبلاء الاقطاعيين عن ممارسة التجارة اندفع بعضهم الآخر للحاق بقطار الثروة ، وبهذا فقد نشأت حتى بين طبقة النبلاء نفسها فروق في الثروة وفي الاوضاع الاجتماعية ، زاد في حدتها ان بعض أفراد عامة الشعب أصبحوا يملكون أكثر من معظم النبلاء •

ومن الطبيعي والحالة هذه أن تقلب هذه الظروف الاقتصادية الجديدة مفهوم نظام الطبقات ، وان تنظم المعايير الجديدة للثروة التسلسل الطبقي الاجتماعي ، وهذا ما كرسه صولون (Solon) في اصلاحاته الاجتماعية التي سنتحدث عنها لاحقـاً •

رابعا ـ الازمات الاجتماعية والتطور السياسي :

١ ـ محاولة كولون الفاشلة للاستيلاء على السلطة :

ولم يقتصر الانقلاب الاجتماعي على تدهور حال بعض النبلاء وارتقاء بعض أفراد عامة الشعب سلّم الجاه والثروة ، بل تعداه الى قيام بعض أفراد الطبقـة المتوسطة (أو المثرين الجدد) بالمطالبة بامتيازات لم تكن لهم فيما سبق ، وبخاصة عندما اضطرت الحكومات الارستقراطية الى الاعتماد عليهـم في الجيش الـذي تعاظمت أهميته بعد توسع التجارة الاثينية واندفاع هؤلاء للانخراط في صفوفه •

ويبدو أن تفاقم الازمة الاجتماعية أغرى أحد النبلاء في أثينا ويدعى كولون (Kylon) للقيام بمحاولة للاستيلاء على مقاليد الحكم • وكان كولون قد نـال حوالي عام (٦٤٠) شهرة كبطل رياضي أولمبي ، ويبدو أن زواجه بابنة ثيئاجنس (Theagenes) طاغية مدينة ميجارا وتشجيع الاخير له قد حفزه ونفر من زملائه على القيام بمحاولته حوالي عام (٦٣٠) التي لم يكتب لها النجاح والتي باءت بفشل

ذريع على أيدي أرخون ذلك العام وزعيم عائلة القمايون (Alkmaeonidae) [1] المدعو (Megakles) • ويبدو أن الطريقة التي قضى فيها على المؤامرة ، وذلك باعدام المتآمرين بعد التجائهم الى احد المعابد المقدسة ، أثارت النقمة على مجاكلس وعائلته ، واتفقت الآراء على ضرورة نفي عائلة القمايون ومصادرة أملاكها •

٢ ـ قوانين دراكون :

وأحس الاثينيون بعد مؤامرة كولون وتوتر الوضع السياسي مع ميجارا التي كانت تؤيد المتآمرين ونفي عائلة القمايون واشتداد النزاع بين الاحزاب والطبقات المختلفة بمرارة الوضع ، وبأن الحاجة باتت ماسة لوضع اجراءات تحول دون تأزم الوضع الى هذه الدرجة ، وهكذا عهد الجميع في عام (٦٢١) الى أحد المشرعين الستة ويدعى (Drakon) بمنصب أرخون وأعطيت له صلاحية سن وتطبيق القوانين التي يراها مناسبة للخروج بأثينا من مأزقها •

ويبدو أن دراكون أدرك بأن الفوضى الاجتماعية وانعدام الامن في أثينا كان مرجعه القوانين المتساهلة التي لم تستطع كبح جماح العواطف الوحشية وبخاصة في حوادث الانتقام والثأر • فقام بجمع القوانين والاعراف السائدة وأعاد تنظيمها وتنسيقها بعد أن أدخل عليها عقوبات شديدة صارمة اشتهرت بقسوتها على مر العصور ، حتى أصبحت كلمة (دراكوني) مضرب المثل في القسوة والبأس في معظم اللغات العالمية حتى وقتنا هذا • ولا يسعنا هنا ايراد ذكر القوانين والعقوبات التي استنها دراكون ، الا انه يمكن تلخيص أهم ما جاء فيها في مبدأين رئيسيين : أولهما اعتبار ايذاء الغير أيا كان مقداره من أكبر الجرائم المعروفة ، وجعل الاعدام عقوبة أقل هفوة في حقوق الغير • وثانيهما : منح حقوق المواطنة لكل الذين يتمكنون من تجهيز أنفسهم للحرب من الطبقات الدنيا •

٣ ـ اصلاحات صولون :

واذا كانت قوانين دراكون بقسوتها قد ساعدت على بث الامن والطمأنينة

---

(١) عائلة أثينية نبيلة لعبت دورا هاما جدا في الحياة السياسية الاثينية في القرون السابع والسادس والخامس ، من أشهر رجالاتها كليستنس وبريكلس •

في النفوس كما ساعدت قليلا على انصاف الطبقات الدنيا ، فانها لم تستطع أن تحد من خطورة الموقف المتأزم نتيجة تزايد أعداد السكان وتزايد الاستغلال الاقتصادي، واتساع الهوة بين الاغنياء والفقراء ، وبات لفترة وجيزة وكأن أثينا على أعتاب ثورة اجتماعية كبرى ، لولا ان القدر مهد لظهور مصلح تم على يديه تطويق الازمة وانفراج الموقف ، ويدعى صولون .

ويعتبر صولون واحد من أبرز الساسة والشعراء الذين أنجبتهم أثينـــا ، ولد بين عامي ٦٤٠/٦٣٥ وتوفي بين عامي ٥٦١/٥٦٠ وهو ينحدر بنسبه من واحدة من الاسر الاثينية النبيلة ، ويروي بلوتارخوس ان والد صولون كان ثريا وانه فقــد الجزء الاكبر من ثروته في أعمال الخير ، مما اضطر صولون للارتحال بعيدا والعمل في التجارة ، وقد اكتسب صولون من تجارته وأسفاره ثروة كبيرة وخبرات واسعة مكنته عند عودته من اكتساب ثقة جماهير العامة مثلما اكتسب ثقة الطبقات العليا .

ويبدو أن كثرة اسفار صولون وغيابه الطويل عن أثينا أوقدا فيه حب الوطن بشكل جنوني ، وقد عبر عن هذا الحب في قصائده الوطنية العديدة التي ألقاهـا عندما تنازل الاثينيون عن جزيرة (Salamis) لصالح مدينة ميجارا بعد نــزاع طويل ، وقد ألهبت قصائده ــ التي شرحت أهمية الجزيرة لأمن أثينا ــ عواطف الجماهير في أثينـــا ، فعهدت اليه بمهمة استرجاعها ونجح في ذلك ، مما أدى الــى انتخابه أرخونا حوالي عام (٥٩٤) ولم يكن قد تجاوز بعد الخامسة والاربعين من عمره . وقد أدرك صولون بعمــق تجاربه وحسن ادراكه خطر الديون ونقمـة المحرومين والمبعدين عن وطنهم ، فعمل منذ انتخابه على انجاز برنامج اصلاحي اجتماعي شامل .

وكانت أولى نقاط البرنامج اعــلان العفو العام عن كــل المدانين بجرائــم ــ باستثناء جرائم القتل ــ والسماح للمنفيين بالعودة الى وطنهم . كما قام صولون بالغاء جميع الديون الفردية والعامة ، وأمر بفك الاملاك المرهونة وتحرير أصحابها ، ثم أصدر قانونا يقضي بتحريم استعباد الاشخاص الذين يعجزون عن دفع ديونهم . ودرءا لاثارة حقد الفقراء ، حرم صولون علــى الاغنياء البذخ على موائــدهم واحتفالاتهم وحدد ذلك بمبلغ معين لا يمكن تجاوزه . ورغبة في الحيلولة دون

سيطرة أفراد قلائل على مساحات كبيرة من الارض ، ولما لم يكن بامكان صولون تحديد حد أعلى للمساحة التي يمكن للفرد أن يمتلكها ، فقد أصدر قانونا وسع بموجبه حق الارث ، فأصبح الاولاد غير الشرعيين يرثون في حالة عدم وجود أولاد شرعيين ، كما ألغى العرف المتبع بأن تتزوج البنت الوارثة من أقرب أقرباء والدها ، وبذلك ضمن ملكية اكبر عدد من المواطنين للاراضي الزراعية ، وانتقلت الزراعة في المنطقة ـ اذا جازت التسمية ـ من زراعة واسعة الى زراعة حثيثة تدريجيا •

ولما كان انتاج الارض الزراعية في أتيكا من القمح يكاد لا يكفي سكانها ، فقد حرّم صولون تصدير القمح وقصر التصدير بصورة عامة على الزيت والمصنوعات الخزفية • ووضع حوافز لتنشيط الزراعة ، ونظم المكاييل والموازين وسك عملة جديدة بعد تخفيض قيمتها بما يعادل ٣٠٪ ، وبذلك سمح لأعداد كبيرة من الطبقات الدنيا بالانتقال الى صفوف الطبقات الاعلى بعد تنظيمه المجتمع على أسس مادية •

وأصبحت هذه الاسس تقضي بأن يكون في عداد الطبقة الاولى أو طبقة (Penta kosiomedimnoi) أو الذين يملكون أرضا تنتج خمسمائة مكيال من الحبوب أو أكثر أو ما يعادلها ثمنا ، وقصر عليهم الوظائف الكبرى وأن يكون في عداد طبقة الفرسان أو الـ (Hippeis) من امتلك أرضا تنتج بين (٥٠٠) الى (٣٠٠) مكيال أو ما يعادلها ثمنا ، وكانوا يخدمون في الجيش كفرسان ، وكان يحق لهم شغل الوظائف أقل شأنا من الوظائف الكبرى • وأن يكون في عداد طبقة الزيوجيتاي (Zeugitai) من امتلك دخلا يتراوح بين (٢٠٠ ـ ٣٠٠) مكيال أو ما يعادلها ثمنا ، وكان جل أفراد هذه الطبقة من الحرفيين وصغار التجار والمزارعين ، وكانوا يخدمون في الجيش بصفتهم مشاة • وأن يكون في عداد طبقة المعدمين ، سائر المواطنين الاحرار الذين لا يستطيعون أن يكسبوا الحد الادنى للدخل وهو (٢٠٠) مكيال ، وقد تطور النظام السابق فيما بعد لتعتمد الدراخمات بدلا عن المكاييل •

وخشية من تسلط فئة معينة من فئات المجتمع الاثيني على السلطة فقد سن صولون قانونا لترشيح الموظفين حسب قبائلهم ، فكانت كل قبيلة ترشح عشرة من أبنائها لشغل الوظائف العامة ، ثم تجري القرعة بين المرشحين لاختيار العدد المطلوب

لكل وظيفة على حدة • وعن طريق الترشيح القبلي المذكور آنفا ، كوّن صولون مجلسا مؤلفا من أربعمائة عضو تنتخب كل قبيلة من قبائل أثينا الاربع ، مائة منهم • وزيادة في تدعيم الدمقراطية ، فقد بعث صولون من جديد مجلس الشعب (الاكليزيه) الذي كان قد لعب دورا هاما في العصر الهومري ثم تقلصت صلاحياته عندما سيطر الارستقراطيون ، وقد عهد صولون الى هذا المجلس بمهمة انتقاء كبار الموظفين — التي كانت من اختصاصات مجلس الشيوخ — ، وكذلك محاسبة هؤلاء الموظفين ، كما عزز صولون سلطة محكمة الاريوباجوس التي اهتز مركزها إبان الصراع الطبقي الاجتماعي السابق ، وأناط بها حماية القوانين وجعلها أعلى سلطة دستورية والمشرف العام على سير أمور الدولة وسلوك موظفيها •

ويبدو ان التقدم الفكري في بلاد اليونان عامة وأثينا خاصة قد دعم اصلاحات صولون التي كرسها بفرضه عقوبات صارمة على المخالفات بحق القوانين التي أصدرها ، ولم يكن بحاجة الى الادعاء كما فعل حمورابي ولوكورجوس وغيرهما من مشرعي العالم القديم بأن الآلهة قد أوحت بها اليه •

ولعل نظرة عامة على اصلاحات صولون تدفعنا الى القول أن أبرز ظاهرة في برامجه الاصلاحية كانت الاعتدال • ويبدو ان الامل الكبير الذي عقده عليه أفراد الطبقات الدنيا في مقابل الثقة الكبرى التي منحه اياها النبلاء قد ساهما في بروز ظاهرة الاعتدال بروزا جعل بعض مؤرخينا المحدثين يختلفون في تقييمهم اصلاحاته ، ففي حين يدلل البعض على حكمة صولون بعدم اندفاعه في تأييد مطالب المتطرفين من العامة بالتشدد في معاملة النبلاء بتوزيع الاراضي ، لان مثل هذا العمل يعتبر مخالفا للعدالة في مفهوم ذلك العصر ، وان الاقدام عليه سيؤدي الى اضطرابات اجتماعية وحروب أهلية تعود بعدها الاوضاع الى سابق عهدها من عدم المساواة • يؤكد البعض الآخر ان اصلاحات صولون لم تؤد الا الى تمييع القضية الاجتماعية الاساسية وهي تحقيق المساواة بين الطبقات المختلفة ، وانه لم يفعل أكثر من انه كرس حقيقة تمتع أقل الناس عددا بأكثر السلطات • ورغم هذا الخلاف في الرأي فان كلمة حق تقال في ضوء التطورات الاجتماعية اللاحقة وهي ، ان صولون قد وضع بذور الدمقراطية الاثينية يشهد على ذلك الاستنكار الكبير الذي لاقته

اصلاحاته من قبل الارستقراطيين وكبار الاغنياء خلال عهده وبعده ، وما وصفه معظم كتاب القرن الخامس الاثينيون من أنه أبو الدمقراطية وواضع أصولها •

وفي عام (٥٧٢) اعتزل صولون منصب (الارخون) بعد أن شغله مدة اثنين وعشرين عاما ، وطلب من كبار وصغار موظفي الدولة أن يقسموا على اتباع قوانينه دون أي تغيير مدة عشر سنوات ، ثم رحل هذه المدة وتجول في آسية الصغرى[١] وقبرص ومصر ، وعاد ليشهد انهيار الدمقراطية وقيام الطغيان في أثينا على يدي قريب له يدعى (Pisitratos) .

٤ ـ الطغيان وبيسيستراتوس :

ولا بد لنا قبل الحديث عن بيسيستراتوس من أن نمهد السبيل بالتعريف بالمقصود بكلمتي الطغيان والطغاة ، وكذلك نشأة الطغيان في مراكز العالم الاغريقي المتعددة وانتقاله الى أثينـا •

فقد أطلق الاغريق على كل من يستولي على الحـكم بالقوة أو بطريقة غـير شرعية كلمة لودية الاصل هي تورانوس (Tyrannos) أو طاغي ، وكـان الطاغي الاغريقي عادة ينصب نفسه وصيا على الطبقات المستضعفة ليكسب مـن أعدادهـا الغفيرة دعما له ولسياسته ، والحقيقة ان كثيرا من الطغاة كانوا عقلاء ومستنيرون وأنهم وضعوا أيديهم عـلى الامراض التي تنخر في أجسـاد مجتمعاتهم وحققوا بسياستهم كثيرا من التقدم ، وكانوا أنجح في بعض الحالات مـن الارستقراطيين

---

(١) يذكر هرودوت حادثة غير مؤكدة عن لقاء جرى بين صولون وملك لوديـه (Kroesos) الذي اشتهر بثرائه الاسطوري ، وكيف أن كرويسوس سأل صولون بعد ان أطلعه على كنوزه عما اذا كان هناك مـن هو أسعد منـه ، فأجابه صولون بأن كل الذين يموتون في سبيل أوطانهم أو أسرهم إسعـد منه رغم فقرهم ، وعندما غضب كرويسوس شرح له صولون بأن الاغريـق لا يعترفون بسعادة أنسان الا اذا مات سعيدا لانهم لا يعرفون ماذا يخبىء القدر للانسان بعد نجاحه فيما حققه وان الحياة في نظرهم صراع مستمر ومن الطبيعي الا يسعد الانسان عند فوزه في جولـة لان المباراة ما زالت مستمرة •

أو الدمقراطيين في مجال الخدمة العامة ، رغم أن بعضهم (وبخاصة الطغاة العملاء لدولة أجنبية) كان دمويا وعنيفا ، وارتكب مجازر تقشعر لهولها الابدان حتى أصبحت كلمة طاغية تعني بمفهومنا الحديث (الحاكم الذي لا يتورع عن القيام بأي عمل لا أخلاقي في سبيل دوام حكمه) .

ولا شك أن ظهور الطغاة في أية مدينة قد تواكب مع تدهور حال بعض الافراد نتيجة للانفتاح والرخاء التجاري ، وما تلا ذلك من تعقد أمور الحياة وقيام طبقات من المثرين الجدد الذين حاولوا السيطرة على مقاليد الامور فحنق عليهم الارستقراطيون والعامة معا . كما تواكب أيضا مع تعاظم الحاجة الى افراد الطبقات المعدمة للخدمة في الجيش وحماية التجارة ، وعندما أدرك هؤلاء أن أمن وسلامة ورخاء البلاد مرهون بسواعدهم بدأوا يبحثون عن فرص لتحسين أوضاعهم عن طريق اعتماد زعماء ييسرون لهم هذه الفرص . وكان طغاة هذه الفئة يستغلون عودة جيوشهم الظافرة للسيطرة على مقاليد الامور .

ورغم المعارضة العنيفة التي كان يبديها الفلاسفة السياسيون لأنظمة الطغيان وأشهرهم أفلاطون ، يكاد لا يخلو تاريخ مدينة اغريقية منذ القرن السابع وحتى أواخر القرن الثاني من طاغية أو أكثر . ولعل أشهر الطغاة في بلاد اليونان القارية كانوا طغاة مدينة كورنثة (المدينة الثالثة في الاهمية في تاريخ اليونان القديم بعد اسبرطة وأثينا) الذين يعود اليهم الارتقاء بكورنثة وتقدمها خلال القرنين السابع والسادس . ويبدو أن بيسيستراتوس قد راقه ما توصلت اليه كورنثة من تقدم خلال حكم الطغاة فعول على أن يحذوا حذوهم في أثينا .

وكان بيسيستراتوس ـ كما أسلفنا ـ أحد أقرباء صولون من ناحية والدته وكان قائداً للجيش الاثيني (بولمارخوس) وقد اكتسب شهرة عسكرية في عهد صولون ، وبخاصة في الحرب ضد مدينة ميجارا . وبعد مغادرة صولون أثينا انجلت منازعات الارستقراطيين والعامة عن تكوين احزاب ثلاثة مثلت الاتجاهات السياسية المتعارضة وهي (حزب السهل) وضم كبار ملاك الاراضي ومثّل الارستقراطيين والطبقة الاولى ، و (حزب الشاطىء) وضم التجار وأصحاب السفن ومثّل الطبقات المتوسطة ، و (حزب الجبل) الذي تألف من تحالف الفلاحين

والعمال • ورغم أن بيسيستراتوس كان ينتسب الى عائلة ارستقراطية ، فقد خطط لتدعيم شهرته العسكرية بشعبية واسعة ، واستطاع بعد فترة وجيزة تزعم حزب الجبل • وبدأ أولى محاولاته الثلاث للاستيلاء على السلطة لتحقيق مبادىء حزبه في توزيع الاراضي على الفقراء والمعدمين •

وكانت أولى محاولاته لاقتناص السلطة عندما قدم الى مجلس الشعب وقد تمزقت ملابسه وسالت دماؤه من جروح في جسمه ، وزعم أن خصوم حزبه وأعداء الشعب اعتدوا عليه ، وطلب أن يسمح له بتشكيل حرس خاص لحمايته ، ورغم اعتراضات قريبة صولون ، فان معظم الاعضاء تحمسوا له ووافق المجلس على طلبه باتخاذ حرس مؤلف من خمسين رجلا • وسارع بيسيستراتوس الى انتهاز الفرصة وتجنيد اربعمائة من الجنود بدلا من خمسين ، واستطاع بواسطتهم اقتحام الاكروبول (مقر الحكومة) واعلان نفسه دكتاتورا عام (٥٦٠) • ونظرا للسياسة الشعبية التي انتهجها فقد تكاتف حزبا الشاطىء والسهل بعد خمس سنوات وقاما بانقلاب أدى الى اسقاطه وهربه من أثينا •

ولكن الوفاق بين الحزبين لم يدم طويلا اذ سرعان ما احتدم الخلاف بينهما ، وعلم بيسيستراتوس بذلك ، فاتفق مع مجاكلس (Megakles) زعيم عائلة القمايون المتنفذة في أثينا ، وقام بمحاولته الثانية للعودة الى الحكم ، وذلك عندما سيّر اتباعه الى المدينة وفي مقدمتهم عربة امتطتها امرأة جميلة فارعة القوام ترتدي زي الإلاهة أثينا ، وكان أتباعه يهرولون الى جانبها وينادون أن الإلاهة أثينا تؤيد عودة بيسيستراتوس لحكم مدينتها ، ويبدو أن هذه الحيله قد انطلت على دهماء وسذج المدينة الذين سارعوا الى تقديم مساعدتهم وفروض طاعتهم الى الإلاهة وربيبها حوالي (٥٥٠) • ولكن محاولته الساذجة هذه سرعان ما تكشفت واستطاع حزب الشاطىء أن يطرده بعد سنة واحدة من عودته الى المدينة •

ويبدو ان الظروف كانت تمهد لعودته مرة ثالثة ، إذ سرعان ما استغل تردي الاوضاع في المدينة ، وعاد بعد ثلاث سنوات من هربه (٥٤٦) بعد أن هزم أتباعه الجنود الذين أرسلوا لمقاومته ، وقد حافظ على دكتاتوريته هذه المرة مدة تسع عشر عاما وحتى وفاته عام (٥٢٧) • وقد تميز بيسيستراتوس بالذكاء والدأب

والمهارة في معالجة الامور • وصحيح انه كان طاغية انتزع السلطة انتزاعا ، إلا إنه لم يقدم على تغيير الكثير من معالم الدستور الذي استنه صولون ، بل عمل جاهدا على تدعيمه وكان جل ما قام به انه عدل بعض مواد الدستور اللازمة لتوطيد سلطته • وترينا سيرة حياته من سكن في بيت متواضع والتقدم للمحاكمة عندما اتهم بجناية وعطفه على الطبقات الفقيرة ، انه كان طاغية دستوريا وان حكمه لم يكتسب صفة العنف بالقدر الذي كان متوقعا بعد حادثتي نفيه من أثينا •

ولا شك أن بيسيستراتوس كان أول حاكم في أثينا عمل نحو بناء امبراطورية اثينية ، فاتبع سياسة تشجيع المغامرين والباحثين عن الثروة من الشباب على انشاء المستعمرات الاستيطانية • كما عمل على النهوض بالمرافق الزراعية ، فقام — بعد عودته الاخيرة — بتوزيع الاراضي الزراعية التي هجرها النبلاء على الفلاحين المعدمين ، وأمدهم بالمال اللازم ، ووجههم نحو غرس أشجار الزيتون والعنب ، في حين اعتمد في انتاج الحبوب للاستهلاك المحلي على المستعمرات الاثينية التي أنشأها في عهده في كثير من مناطق بلاد الاغريق القارية وغيرها • وشجع في الوقت نفسه التجارة الخارجية فسهل لها الخروج من منطقة اتيكا وسك لاول مرة قطع « التترا دراخمات » (أربع دراخمات) لتتناسب مع تعاظم الحركة التجارية ، واعتمد موانيء بحرية معينة لتصريف منتجاته من الزيت والخمر وأهمها ميناء سيجيوم على الشاطيء الايوني ، ولا شك في أن تشجيعه للتجارة الخارجية ارتبط بعقد معاهدات تجارية مع كثير من مدن ودول البحر المتوسط • أما في مجال السياسة الادارية الداخلية ، فقد قام بيسيستراتوس بتعيين قضاة متجولين في الارياف للفصل في القضايا الجنائية الصغيرة ، فتخلص بهذا الاجراء من خطر توافد جماعات كثيرة من الريف الى أثينا يسهل تحريضها واثارتها من قبل خصومه ، كما قام بتشييد الكثير من المنشآت والمرافق العامة كالمعابد والطرقات وأقنية ري وصرف المياه ، وبذلك فقد وضع حدا للبطالة التي كانت تسبب الكثير من المتاعب لرجال الحكم •

وان نظرة عامة على فترة حكمه ، ترينا انه لولا وجود بيسيستراتوس لما قدر لاصلاحات صولون أن تلعب دورها في دفع عجلة ازدهار أثينا الى الامام ، فقد كانت أثينا في حاجة ماسة الى طاغية مثل بيسيستراتوس لكي ينظم شؤونها التي بقيت

مهزوزة منذ تأسيسها وحتى بداية القرن السادس • واتضح معها أن الحرية والعدالة لا يمكن تحقيقهما في ظل المبادىء الدمقراطية فقط ، لان الكثير من أفراد الشعب سواء من الطبقات العليا أو من الطبقات الدنيا ، لا تدرك من الدمقراطية الا ما يخدم مصالحها الخاصة ، وبالتالي فان هذين المبدأين (الحرية والعدالة) لا يمكن تحقيق مضامينهما الا بفرضهما بالقوة على يد مصلح مستبد ، وهكذا فقد شكل حكم بيسيستراتوس منعطفا بارزا في تاريخ أثينا ساعد على تقدمها وازدهارها وعلى أن تلعب دورها المعروف في الحضارة العالمية •

وتوفي بيسيستراتوس في عام (٥٢٧) ، عن ثلاثة أبناء : هيبياس (Hippias) وهيبارخوس (Hipparchos) من زوجه الاولى ، وتسالوس (Thessalos) من زوجه الثانية • وعهد بيسيستراتوس قبل موته الى ابنه الاكبر هيبياس بادارة دفة الحكم ، وكان يساعده في ذلك شقيقه هيبارخوس الذي تخصص في ادارة شؤون الادب والفن ، في حين استبعد الاخ الثالث من المشاركة في الحكم •

ويبدو أن النجاح الذي حققه هيبياس في مجال السياسة لم يرافقه نجاح أدبي وفني مماثل ، فقد أغرق هيبارخوس في ملذاته لدرجة أدت الى قيام شابين من النبلاء بتدبير مؤامرة اغتيال الاخوين ، وفي حين تمكن المتآمرين من قتل هيبارخوس نجا هيبياس وأمر بالقبض على القاتلين واعدامهما •

وكانت هذه الحادثة نقطة تحول من الحكم الفردي المستنير الى الحكم الفردي الدموي ، ويبدو أن مبالغة هيبياس في الانتقام لأخيه عكست خوفه على نفسه ، فأكثر من الجواسيس واستخدم وسائل البطش والارهاب ، وشعر الاثينيون عندئذ بوطأة الطغيان ، فقويت حركة المعارضة ، واعتبر القاتلان بطلين من أبطال الحرية ، وكرّما فيما بعد باقامة تمثالين لهما فوق الاكروبول •

واستغل الارستقراطيون المنفيون بزعامة أسرة (القمايون) سخط الناس على حكم هيبياس ، ولما لم يكن في وسعهم الاستيلاء على مقاليد الامور في أثينا بالقوة دون الاستعانة بقوة أجنبية ، فقد سارع (Kleisthenes) زعيم أسرة القمايون الى الاتفاق مع الاسبرطيين • فمصالح الاسبرطيين العليا مرتبطة باستمرار النظام الارستقراطي في معظم مدن اليونان ، وحكم الطغاة الذي يعتمد بالدرجة الاولى على

الطبقات الدنيا من شأنه أن يثير نقمة الطبقات الكادحة المسحوقة في اسبرطة ، كما ان من شأن الطغاة دوما ان يثيروا في عامة الشعب النعرة القومية والميل الى تكوين الامبراطوريات ، وهذا ما كانت اسبرطة تسعى الى دفعه لانه لن يكون الا على حسابها وضد مصالحها ، وهكذا قامت اسبرطة بمؤازرة الارستقراطيين بزعامة كليسثنس في الهجوم على أثينا وطرد الطاغية في عام (٥١٠) الذي فرّ الى الملك الفارسي دارا (Darios) وطلب مساعدته على استعادة سلطانه .

٥ ــ كليسثنس واعادة الدمقراطية :

ولم تكن الامور قد توطدت بعد في أثينا عندما شب نزاع بين كليسثنس الذي رغب في اعادة النظام الدمقراطي ، وبين نبيل آخر يدعى (Issagoras) الذي أخذ يدعو الى اعادة النظام الارستقراطي بتأييد من الاسبرطيين . ورغم ان التأييد الاسبرطي قد أثمر عن خسارة كليسثنس الانتخاب لمنصب الارخون وهربه من أثينا ، فانه تمكن بعد ثلاث سنوات (٥٠٧) وفي ظروف غامضة من العودة والاستيلاء على مقاليد الامور واقصاء النفوذيين الارستقراطي والاسبرطي .

وكان كليسثنس يتصف الى جانب ذكائه ومنطقية تفكيره بايمان مطلق بالدمقراطية، ولذا فانه لم يدخر وسعا في سبيل تكريسها وترسيخ أصولها في أثينا . واذا كان بامكاننا أن نعتبر صولون أبو الدمقراطية الاثينية ، فان كليسثنس كان حاميها والمدافع عنها ضد الارستقراطية والدكتاتورية . ولعل أول وأهم عمل تنظيمي قام به كليسثنس وقوض بموجبه اركا نقوة الارستقراطيين ، هو الغاء التنظيم والتصنيف القبلي القديم بموجب عدة قرارات يمكن ايجازها فيما يلي :

ألغى كليسثنس النظام القديم الذي قسمت (أتيكا) بشريا بموجبه الى أربع قبائل تقوم على أساس المولد والمنبت ، وأحل محله نظام تقسيم الاتيكيين الى عشرة قبائل وقسم كل قبيلة الى عشرة جماعات (Demos) تقوم على أساس محل الاقامة والتقسيمات الاقليمية ، وبمعنى آخر أصبح ارتباط المواطنين بوحداتهم الادارية حتى ولو كانوا يسكنون في مناطق متفرقة . وبهذا القانون وضع حدا للنعرات الاقليمية ونفوذ الزعامات الاسرية واخطاء النظا مالقبلي . وقد أسند القانون الى كل

قبيلة انتخاب قائد (Strategos) من قادة الجيوش العشرة الذين يساعدون قائـد الجيش الاعلى (Polemarchos) • ومن الجدير بالذكر ان مجلس القادة قد تطور فيما بعد ليصبح بمثابة مجلس الوزراء بعد توزيع الاختصاصات في عهد بريكلس اللاحـق •

وفي ضوء هذا التنظيم العشري للقبائل ، ألغى كليسثنس مجلس الاربعمائة الذي اعتمده صولون فيما سبق ، وأحل بدلا عنه مجلسا دعي (Boule) مكونا من خمسمائة عضو تنتخب كل قبيلة من القبائل العشرة خمسين عضوا يمثلونها في هذا المجلس الذي أصبح يعادل الجمعية العمومية للشعب الاتيكي ، وكان هؤلاء الاعضاء ينتخبون لمدة عام واحد بالقرعة من المواطنين الذين بلغوا الثلاثين من العمر شريطة ألا يعاد انتخاب العضو لاكثر من دورتين •

وقد أوكل الى هذا المجلس سلطات دستورية وتشريعية وقضائية واسعـة أهمهـا :

١ ـ انتخاب الاراخنة
٢ ـ مراقبة تقارير الموظفين ومحاسبتهم على أعمالهم
٣ ـ الاشراف على مالية الدولة التي كانت تدار من قبل عشـرة موظفين تنتخبهم القبائل العشرة
٤ ـ تهيئة المشاريع القانونية قبل عرضها على مجلس الشعب
٥ ـ تأليف محاكم من أعضاء مجلس الشعب للنظر في القضايا التي ترفع اليه سواء من الموظفين أم من أفراده ، وتعتبر أحكامه نافذة •

ولعل أخطر وأهم اصلاحات كليسثنس على الاطلاق من التي زادت في تدعيم سلطات مجلس الشعب هو حق النفي عن طريق الاستفتاء وهو ما كان يطلق عليـه (Osrakismos) ، حيث أصبح من حق مجلس الشعب أن يصوت عند الاقتضاء على نفي أي مواطن يخشى منه على أمن الدولة لمدة عشر سنوات ، شريطة أن يؤيد الحكم ستة آلاف مواطن على الاقل ، دون ان يفقد المنفي بعد عودته حقوق مواطنته أو أن تصادر ممتلكاته خلال غيابه • والقصد من ذلك ـ كما هو واضح ـ تجنب استغلال احد المواطنين لظرف من الظروف ، واغتصاب الحكم عن طريق القوة •

وجدير بالذكر ، أن الامتيازات الدمقراطية التي اكتسبها سكان أتيكا في ولاية كليسثنس لـم يتمتع بها كل السكان بل كانت مقصورة علـى من اكتسبوا لقب مواطنين (Politai) وأصبحت هناك فروق في الامتيازات بين سكان اتيكا وأثينا أنفسهم ، فلم يعترف الدستور الاثيني بمواطنية النساء والعبيد والصناع والحرفيين ذوي الاصول غير الاتيكية حتى ولو كانوا من أصل اغريقي ، وأطلق على كل واحد من هؤلاء لقـب (Astaios) بمعنى قاطن أو ساكـن لا يتمتع بحقوق المواطن العـادي .

ولعل نظرة خاطفة على اصول دستور صولون واصلاحات كليسثنس تدفعنا الى القول ، انه رغم الدعاية السياسية الواسعة لهذا النظام ورغم ان بعض مؤرخينا يبالغون في القول لدرجة ادعاء بعضهم ان الدمقراطية الاثينية كانت أكمل نظـام استطاع البشر وضعه حتى ذلك العهـد وهذا صحيح الى حد ما ، فـان النظام الاثيني للحكم لم يختلف كثيرا في جوهره عن النظام الاسبرطي فكلا النظامين أعطى أقلية السكان حقوق المواطنة ومنعها عن الاكثرية ، وقد تعامت الدعاية الاثينية عندما اتهمت النظام الاسبرطي بالرجعية والقسوة ، وادعت بأن النظام الاثيني كان رمـز العدالة الاجتماعية ، فقد حرم النظام نفسه كما رأينا النسـاء والعبيد والصناع والحرفيين وهم غالبية السكان من حقوقهم المشروعة ، وخص الامتيازات بأقليـة سيطرت على الجمعية العمومية (البولي) ومجلس الشعب (الاكليزيه) . وتناسى النظام أن جمهرة العامة التي لم تتمتع بحقوقها كانت هي جسد الدولة الحقيقي ودرعها في النوائب ، وانهم هم الذين استعذبوا الموت في سبيل دويلتهم وانهم هم الذين دفعوا الثمن غاليا في جميع المناسبات .

وازاء الغموض الذي يسيطر على مجرى الحوادث بعـد كليسثنس الذي لا نعرف عن مصيره سوى انه كان عرضة للنفي بموجب قانونه الذي أصدره ، وازاء غموض حوادث العلاقات العامة والخاصة في بلاد الاغريق القارية واقتصارها عـلى اشتداد النزاع بين الحلف البلوبونيزي بزعامة اسبرطة وبين أثينا ، هـذا النزاع الذي تطور فيما بعد ليصبح عداءا شاملا وطويلا بين المدينتين ، وازاء انصراف معظم مؤرخينا القدامى عن تتبع أحداث بلاد الاغريق القارية الى احداث ايونيـة

التي بدأ تاريخها يستلفت أنظارهم بدءا من نهاية القرن الخامس ، يبدو من المناسب أن نستخلص بايجاز شديد بعض أهم ما تتوقع حدوثه من واقع الاحداث اللاحقة لهذا التاريخ •

فقد انكمش حجم الاستعمار الاغريقي لشواطىء البحر المتوسط وفيما وراء البحار ، وضعف بنتيجة تدهور معدل المواليد واستقرار أنظمة الحكم (التي كانت تدفع بالمعارضين والمغامرين الى الهجرة) وظهور أمم قوية أخذت على عاتقها استثمار خيرات أراضيها وعدم السماح لغيرها من الامم بالسيطرة على مقاليد أمورها الاقتصادية أو السياسية ، ولعل أهم هذه الدول كانت مملكة لودية وعاصمتها ساردیس في آسية الصغرى ، والاتروسكيون الرومان في شبه جزيرة ايطاليا غربا ، والقرطاجيون جنوبا ، على أن أعظم الاخطار التي اضطر الاغريق الى مجابهتها ، كان الخطر الفارسي الذي وفد عليهم من أقاصي الشرق •

— أهم مصادر الباب الثاني :

— Aristotle, Politica.

— Diodorus Siculus, World History, Books 4 - 6.

— Nicolaos of Damascus, World History

— Pausanias, Description of Greece.

— Strabo, Geography.

— مراجع مختـارة :

— Boardman. J, The Greeks Overseas (London 1964).

— Bury. J. B, and Meiggs. R, A history of Greece (London 1977)

— Dunbabin. T, Western Greeks (Oxford 1948).

— Ehrenberg. V, From Solon to Socrates (Oxford)

— Finley. M.I., Problèmes de la Guerre en Grèce ancienne (Paris 1968)

— Huxley. G.L, Early Sparta (London 1962).

— ——— The Early Ionians (London 1966).

— Starr. C. G., The Origins of Greek Civilization (New York 1961)

— Woodhouse. W.J., Solon the Liberator (London 1938).

— ارنولد توينبي ، تاريخ الحضارة الهلينية (القاهرة ـ ١٩٦٣)

— اندريد ايمار وجانين اوبوابيه ، الشرق واليونان القديمة (بيروت ١٩٦٤)

— سيد احمد علي الناصري ، الاغريق (القاهرة ـ ١٩٧٤)

— محمد كامل عياد ، تاريخ اليونان (دمشق ـ ١٩٧٠)

الباب الثالث

العلاقات الخارجية والداخلية

الفصل الخامس

الحــروب الفارســية

أولا ــ تعاظم القوة الفارسية وأسباب الحروب :

١ ــ سقوط مملكتي لودية ومصــر :

وليس من أهدافنا ايراد مقدمة طويلة عن تأسيس الامبراطورية الفارســية الاخمينية وتوسعها غربا بعد تحطيم نفوذ الميديين ، ولكن حسبنا أن نورد موجزا عن قيام هذه الامبراطورية والاسباب غير المباشرة ثم المباشرة للحروب الفارسية •

ففــي عام ٥٤٩ استطاع (Kyros) احد ضباط الملــك الميدي أستواجس (Asyages) دخول العاصمة الميدية (Ekbatana) والاستيلاء على الحكم ، وكان الملك الميدي قد ارتبط برباط مصاهرة مع الملك (Kroesos) ملك لودية في آسية الصغرى • وعندما سمع الملك اللودي بأخبار استيلاء قورش على السلطة ، نشط في سبيل اعادة صهره استواجس الى عرشه رغبة في دفع خطر قورش وطمعا في الحصول على مقاطعة كبدوكية فيما لو حالفه الحظ في تلــك العملية ، ولكن اتصالاته بالملك البابلي (Nabunidos) الذي خشي انتقام قورش ، وتقاعــس الاسبرطيين عن امداده بالمساعدة ، والقوات المتواضعة التي أرسلها فرعون مصــر (Amasis) كل ذلك لم يؤد فقط الى فشله في اعادة صهره ، بل الى خسارتــه مملكته على يدي قورش ووقوعه أسيرا في أيدي الفرس •

٢ ـ التوسع الفارسي غربا والاسباب غير المباشرة للحرب :

وبعد هذا الانتصار ، كان من الطبيعي والمنطقي أن يفكر قورش في التقدم غربا للاستيلاء على الساحل الايوني ومدنه التي اشتهرت بغناها كمنفذ تجاري هام لطرق التجارة الشرقية ، وازاء تقاعس المدن الايونية عن القيام بأي عمل وحدوي مشترك سيطر الملك الفارسي عليها جميعا وقسم ايونية الى ولايتين فارسيتين .

ورغم قصر مدة حكم ابنه قمبيز (Kambyses) (٥٢٩ ـ ٥٢١) فقد استطاع هذا العاهل القضاء على ثاني أكبر مملكة معاصرة تتعاطف مع الاغريق وهي المملكة المصرية عام (٥٢٥) ، وبهذا العمل لم يعد أمام الامبراطورية الفارسية مركز حضاري واحد في العالم المعروف وقتئذ لم يخضع لها باستثناء بلاد الاغريق القارية . ولكن القدر الذي أعطى قمبيز الكثير أنكر عليه تحقيق هذه الأمنية فمات في سورية في ظروف غامضة وتربع على عرش فارس ضابط من نبلاء الفرس يدعى (Darios) وهو الذي تذكره المصادر العربية باسم دارا . وكان دارا (٥٢١ ـ ٤٨٦) ملكا مستنيرا بلغت فارس في عهده أوج عظمتها وعصرها الذهبي ، فقد استطاع في فترة وجيزة من حكمه أن يوطد الامن وينشط الحركة الاقتصادية في كافة اصقاع الامبراطورية باستثناء ايونية ، ويبدو ان دارا قصد من وراء اهمال رعاية المصالح التجارية للمدن الايونية ، ودعم النشاط التجاري الفينيقي ممارسة ضغط سياسي على هذه المدن وضرب الحركة التجارية فيها ، خشية تعاظم نفوذها ، ودرءا لمخاطر قيام قوة اقتصادية كبرى بعيدة عن مركز الامبراطورية تتحكم في مصائرها ، أو قيام تكتل سياسي مناوىء لها .

وأدرك الايونيون ا ن دارا كان يمهد لخنقهم اقتصاديا وسياسيا فهو لم يكتف كأسلافه ملوك الفرس باعتماد (الطغاة) في المدن الايونية الكبرى ، بل قسم امبراطوريته الى عشرين ساترابيه (ولاية) يدير كل ولاية ساترابها ، ويرتبط الجميع بالقصر الملكي في (Susa) بأوامر وتقارير متتالية بواسطة نظام سريع للبريد لم يعرفه العالم القديم وقتئذ ، وهكذا أصبحت أيونية على بعدها لا تبعد عن العاصمة الفارسة أكثر من اسبوع بعد ان كانت تبعد ثلاثة أشهر ، وشعر الايونيون تبعا لذلك بقسوة المراقبة اكثر من السابق .

٣ ـ الاسباب المباشرة (ثورة المدن الايونية) :

رغم كل ما يذكره مؤرخنا الكبير هرودوت من أن ثورة المدن الايونية قد نشبت نتيجة لمطامع (Histiaeos) طاغية مدينه ميلتوس (ملطية) وخليفته وقريبه (Aristagoras) ، فان أساليب البحث السليمة تدفعنا الى عدم التسليم بما يذكره مؤرخنا الكبير ، والبحث عن أسباب أكثر منطقية ووجاهة •

فقد مر بنا كيف أن الفرس رغبة في عدم السماح بقيام قوة اقتصادية وسياسية تثير مخاوفهم في أقاصي أمبراطوريتهم ، عملوا جاهدين على تنشيط التجارة الفينيقية على حساب الايونية ، كما دأبوا على منح الطغاة والدساتير الاوليجاركية(١) دعمهم وتأييدهم في معظم المدن الايونية حيث يسهل التعامل مع مثل هذه الانظمة بالمقارنة مع بقية الانظمة المعروفة في اصقاع العالم الاغريقي آنئذ •

ومن الطبيعي أن تدهور الحالة الاقتصادية المستمر ، والاستقلال الاسمي المرهون بمزاجيات الطاغي والساتراب والملك ، ومقارنته بالحرية السياسية والفكرية التي كان يتمتع بها سكان معظم مدن بلاد الاغريق القارية ، دفع معظم سكان أيونية الى التفكير في محاولة الثورة ، علّهم يفلحون بمساعدة أبناء عمومتهم على الجانب الآخر من البحر الايجي في التخلص من نير التسلط الفارسي •

وكان هيستيايوس طاغية مدينة ملطية مغامرا بطبعه مما اضطر الملك الفارسي أن يستدعيه للاقامة بين أفراد حاشيته ، فعهد الطاغية الى قريبه اريستاجوراس بادارة شؤون المدينة أثناء غيابه الذي طال مدة اثني عشر عاما ، وفي تلك الاثناء عهد الملك الفارسي الى اريستاجوراس بقمع ثورة في جزيرة (Naxos) • وفي الوقت الذي فشل اريستا جوراس في مهمته وخشي غضب الفرس تسلم رسالة من قريبه هيستيايوس يحثه فيها على الثورة حيث توقع ان يكلفه الملك الفارسي بالقضاء عليها وبذلك يتخلص من اقامته الاجبارية في قصر الملك •

وكانت المدن الايونية على أحرّ من الجمر في انتظار اللحظة الحاسمة ، وفي

---

(١) الحكم الاوليجاركي : احد الانظمة السياسية المعروفة في العالم الاغريقي ، ويعني حكم الاقلية المتميزة ، ويختلف عن النظام الارستقراطي ، باعتماد قاعدة انتقاء الزعيم على اساس الثروة لا على اساس النبالة الموروثة فقط •

خريف عام ٤٩٩ استولى الثوار الملطيون على السفن الفارسية العائدة من حصار ناكسوس ، وكان هذا العمل ايذانا ببدء الثورة ، وسرعان ما تطايرت الانباء وعمت المدن الايونية حيث قامت جماهير الشعب بطرد طغاتها وقتل بعضهم وتسليم مقاليد الامور الى حكام منتخبين •

وكان من الطبيعي أن يفكر اريستا جوراس بطلب مساعدة أقوى دويلتين في بلاد اليونان ضمانا لنجاح الثورة ، فسافر الى اسبرطة حيث فشل في اقناع الاسبرطيين على الانتصار لثورته ولكنه استطاع اقناع مجلس الشعب الاثيني بذلك وبخاصة عندما ذكر لهم اقامة طاغيتهم السابق هيبياس بن بيسيستراتوس في بلاط الملك الفارسي وتحريضه اياه لاعادته الى أثينا • وقرر مجلس الشعب الاثيني وتحت تأثير حماسه الشديد ارسال عشرين سفينة لنجدة الايونيين ، في الوقت الذي تحمست مدينة (Eretria) في جزيرة (Euboea) وقررت ارسال خمس سفن اخرى • ولعله من السهل أن تتصور مدى خيبة الأمل التي مني بها الايونيون عندما علموا مقدار النجدة المتواضعة التي أرسلها أبناء عمومتهم ، ولكنهم قد أدركوا عمق مصيبتهم وانغماسهم الذي لا يمكن التراجع عنه في الثورة ، فقد قرروا المضي فيما ذهبوا اليه ، ولكن دون أن يوفقوا في توحيد كلمتهم أو صفوفهم •

وقد أفادت الحملة الفارسية الموجهة لاخضاع ايونية كثير من هذا الوضع واستطاعت في عام ٤٩٤ أن تدمر (ملطيه) المركز الرئيسي للثورة بعد مقاومة بحرية وبرية يائسة شارك فيها الجنود الاثينيون والاريتريون ، وبذلك تداعت أركان الثورة ، واستطاع الجيش الفارسي اخضاع جميع المدن الثائرة في صيف ٤٩٣ •

ثانيا ـ الحرب الفارسية الاولى :

١ ـ الاسباب والاوضاع العامة :

وكان الملك الفارسي (دارا) قد أقسم أثناء الثورة الايونية ان ينتقم من أثينا وأريترية ، وبخاصة عندما سماعه بمشاركة جنود هاتين المدينتين في الهجوم على (ساردیس) العاصمة الاقليمية الفارسية واحراقها • ورغم قناعة معظم مؤرخينا

بأن الانتقام من أثينا كان العامل الرئيسي في الاستعداد للحملة ، فان سيطرة الفرس على معظم أصقاع العالم المتمدن أو كلها بعد فتح مصر باستثناء بلاد اليونان ، وقرب هذه البلاد من حدود الامبراطورية الشمالية الغربية في ايونية ، والانظمة الدمقراطية التي كانت تتبعها بعض دويلات هذه البلاد ، كل ذلك من شأنه أن يكوّن دوافع مهمة للحملة التي قصدت القضاء على الخطر المتمثل في بقاء هذه البلاد خارج نطاق الامبراطورية وبالقرب من تخومها .

ولا شك أن عيون الملك الفارسي قد أسهمت اسهاما مباشرا في تكريس الحملة وذلك عندما أكدت له أن الحالة السياسية في بلاد اليونان تسير في صالحه ، فمن المعروف أن معظم ملوك العالم القديم وحتى أقواهم من الناحية العسكرية ، كانوا لا يقومون بتدبير حملة دون الوقوف على ما يؤكد لهم ، أنـه يكمن في الهدف المنشود من عوامل الضعف ما يهيىء لهم فرصا معقولة للانتصار .

وكانت حالة بلاد اليونان تهيىء فعلا تلك الفرصة ، وبيان ذلك أن أهم مدنها كانت لا تكف عن التنازع فيما بينها ، وحتى داخل المدينة الواحدة ، فقـد كانت كورنثة لا تكف عن الاعلان عن أنانيتها واهتمامها بمصالحها الخاصة ، كما استحكم الخلاف بين ارجوس واسبرطة وبين اسبرطة وأثينا ، وبين أثينا وجزيرة ايجينا القريبة منها ، ولم يكن الوضع الداخلي في أقوى مدينتين وهما : اسبرطة وأثينا بأفضل حالا من الوضع الخارجي بين الدويلات اليونانية المتنازعة .

ففي اسبرطة تفاقم الخلاف بين الاسرتين المالكتين ، واضطربت الامور مما أدى الـى لجـوء الملـك الاول الـى الملـك الفـارسي وهـروب الملك الآخـر الى تساليه . أما في أثينا ، فلم تكن الحالة بأقل سوءا ، فقد فشلت زعامات الحزب الدمقراطي في تأمين حاجات السكان المعيشية بسبب سيطرة الفرس على بحر ايجة ، كما تسبب تدخلها وفشلها في الثورة الايونية الى نقمة عامة الشعب بتحريض مـن زعامات الحزب الارستقراطي والحزب الموالي للطغاة (هيبياس بشكل خاص) .

٢ ـ المرحلة الاولى (تدمير اريترية) :

وفي ربيع عام ٤٩٠ أبحر عدد كبير من سفن الاسطول الفارسي ، يحمل عددا

من الجنود تبارى مؤرخو الاغريق في تضخيم عددهم ، وان لم يكن يزيد بحال من الاحوال عـن خمسين ألفا بقيادة (Artaphernes) و (Datis) مـن السـاحل الكليليكي الى جزيرة يوبوية وفيها امتنعت عليهم أريترية (المدينة التي شاركت أثينا في مساعدة ثوار ايونية) ، وقاومت مقاومة يائسة لمدة سبعة أيام استطاع بعدها الفرس بمساعدة بعض الخونة من ابنائها دخول المدينة واستباحتها وحرقها وفرض العبودية على جميع سكانها • وبذلك حققت الحملة القسم الاول من غايتها وبقي عليها تنفيذ القسم الآخر وهو الاستيلاء على أثينا والانتقام منها •

٣ ـ المرحلة الثانية (موقعة سهل الماراثون) :

وبايعاز من طاغية اثينا السابق ـ الذي كان يرافق الاسطول الفارسي ـ كما أسلفنا ـ نزل الجيش الفارسي عند سهل (Marathon) ـ شمال شرقي أثينا ـ اعتقادا بأن هذا السهل يهيىء جوا ملائما لان يلعب فرسان الفرس المتميزين دورا يحسم المعركة لصالحهم •

وكان من الطبيعي أن يثير نزول القوات الفارسـية في سهل ماراثون فزعـاً شديدا ، سيما وان سمعة هذه القوات قد سبقتها عن طريق المروجين الذين أرسلهم الملك الفارسي كتمهيد للحملة ، وكذلك عن طريق أنصار الطغاة في المدن اليونانية • ولما كانت المدينة الهدف وأول مدينة تتعرض لخطر الغزو هي أثينا ، فقد اجتمع مجلس شعبها في جو من الخوف والقلق ، وفي حين اتفقوا على ارسال رسالة يحملها أحد الرياضيين المشهورين[1] لطلب المساعدة من اسبرطة، اختلفوا حول كيفية ملاقاة القوات الفارسية ، كما احتدم الخلاف حول اذا كان من الانسب انتظار قدوم القوات الفارسية ومجابهتها على أبواب المدينة أم الزحف باتجاهها ، وقد انتصر الرأي الثاني الذي نادى به أحد قادة أثينا العسكريين ويدعى (Miltiades) الذي اتجـه بصحبة حوالي عشرة آلاف أثيني وألف متطوع من مدينة (Plataea) وعدد من القادة العسكريين البارزين والشاعر المسرحي الاثينـي المعروف ايسخولوس الى ماراثـون •

---

(١) يقال ان هذا الرياضي قطع المسافة بين المدينتين وتبلغ ١٥٠ ميلا في يومـين •

ويعتبر ما كتبه هردودت عن سير العمليات الحربية من أهم مصادرنا عن هذه الحرب ان لم يكن أهمها ، ورغم ما يعيب عرضه من نقص واضح في المعلومات ومبالغة وخلط في بعض الاحيان ، فان بامكاننا استخلاص المعلومات التالية :

فقد كان من مصلحة الاثينيين تأخير ساعة الصدام أكبر قدر ممكن انتظارا للجيش الاسبرطي في حين كان العكس في صالح الفرس ، وقد تأخرت النجدة الاسبرطية بدعوى ان أعراف اسبرطة الدينية تحرم عليها القتال قبل انتصاف الشهر القمري • وعندما علم الفرس بواسطة عيونهم أن الجيش الاسبرطي أصبح قريبا ، قرروا المسارعة بالهجوم في صباح يوم الثالث عشر من ايلول عام (٤٩٠) • واستطاع ميلتيادس بخطته المحكمة التي تقوم على أساس أن يتقهقر قلب الجيش الاثيني وان يطبق جناحاه على القوات الفارسية على شكل (كماشة) ، ان يحقق نصرا باهرا على الجيش الفارسي الذي هرب معظم افراده نحو سفنهم في عرض البحر وقتل عدد كبير منهم • وقد حاول قادة الجيش الفارسي بما تبقى لديهم من الجنود الذين لم يشتركوا في المعركة أو الذين فروا منها وكذلك جنود الاسطول مهاجمة أثينا من البحر أثناء انشغال الجيش الاثيني في جمع غنائمه واحصاء قتلاه ، ولكن ميلتيادس فوّت عليهم هذه الفرصة وذلك بتحركه السريع نحو أثينا بعد ابحار الاسطول الفارسي ، وعندما وصل الاسطول الى المياه الاثينية كان الجنود الذين قاتلوا في ماراثون ينتظرونه على أبوابها ، ففتّت في عضد الفرس وأقلعوا بسفنهم خائبين •

وفي اليوم التالي للمعركة ، وصل ألفي مقاتل اسبرطي الى أثينا ، وعندما علموا بأخبار الانتصارات الاثينية ، قاموا بزيارة موقع ماراثون وفي أثناء عودتهم الى بلادهم مروا بأثينا حيث قدموا التهاني بالنصر وعبروا عن أسفهم لعدم المشاركة في المعركة •

وكان من الطبيعي أن يستغل الاثينيون مثل هذا الانتصار لتمجيد أبطالهم ، ولكنه بات من غير الطبيعي أن يكثروا من تلفيق الاساطير حول هذه المعركة لدرجة بات معها من المتعذر معرفة الحقيقي من المختلق ، ولعل اسفاف الاثينيين في هذا المجال ، وتطور اعتدادهم بأنفسهم الى غرور مطلق بشجاعتهم وأفضلية أنظمتهم

ومحبة الآلهة لهم ، كانت بعض أهم الاسباب التي دفعتهم نحو التفكير في بناء امبراطورية وجلبت عليهم كثيرا من النكبات كما سيرد معنا فيما بعد .

ثالثا ـ فترة ما بين الحربين وظهور تميستوكلس

يذكر هرودوت : أن النصر الذي حققته أثينا في ماراثون زاد من شعبية ميلتيادس بشكل لم يسبق له مثيل مما أدى الى تعاظم غرور هذا القائد ، وفي سبيل المحافظة على مكانته بين الناس طفق ميلتيادس يبحث عن مشاريع جديدة تكرس عظمته وشهرته ، وفي ربيع عام (٤٨٩) أي بعد أقل من سنة من معركة ماراثون ادعى ميلتيادس أن المصلحة العامة تقضي ارسال حملة الى جزيرة (Paros) ـ من جزر الكوكلادس (Kyklades) ـ التي رحبت بالفرس أثناء الحرب كما اشتهرت بمناجم ذهبها ، ويبدو ان شهرته الذائعة الصيت قد لجمت أية معارضة لبغيته هذه ، وبالفعل فقد توجه ميلتيادس نحو الجزيرة التي أحسنت الدفاع عن نفسها ، وعاد ميلتيادس بخفي حنين حيث حوكم على تهوره وحكم عليه بجزاء نقدي كبير ، ولكنه مات بعد مدة قصيرة متأثرا بجراحه التي أصابته أثناء حصار باروس .

ولما كان نصر ماراثون نصرا للحزب الدمقراطي فقد قويت شوكة هذا الحزب الذي عمل بزعامة تميستوكلس (Themistokles) على نفي زعماء أنصار الطغاة والارستقراطيين على حد سواء . وكان تميستوكلس الذي ينتسب الى أسرة نبيلة وفقيرة في الوقت نفسه شابا مغرورا أجاد صنعة الكلام وتمتع بكل الصفات التي تجعله سياسيا ناجحا . وكان بحق الرجل الذي ترك أثرا عميقا في تاريخ أثينا يكاد لا يرقى اليه أي سياسي آخر باستثناء بريكلس .

وتتلخص أهداف سياسة تميستوكلس في أن ينهض بأثينا بحريا وان يجعل منها أكبر قوة بحرية في العالم الاغريقي . وقد بدأ تميستوكلس لعمل باتجاه هذا الهدف منذ (٤٩٣) عندما انتخب أرخونا ، وذلك عندما قرر نقل ميناء أثينا من موقع (Phalerum) القريب ، الى موقع (Piraeos) العميق والمنيع . وعندما انتخب لمنصب القائد (استراتيجوس) طلب استمرار العمل بتحصين المرفأ . وقد واجه تميستوكلس معارضة عنيفة من بعض المتنفذين لسياسته البحرية ، ولكن اعلان

جزيرة (ايجينا) الحرب على أثينا وعجز أثينا عن صد العدوان (الايجيني) ، أعطى سياسة تميستوكلس مبررا كانت تحتاج اليه الى جانب الرغبة في التحصن ضـد احتمال غزو فارسي آخر وتأمين البضائع اللازمة من المقاطعات البعيدة • وهكذا ما ان قدم عام (٤٨٠) حتى كان لـدى أثينا اسطولا يقارب (٢٠٠) سفينة على الاقل ، بعد التغلب على المصاعب المالية باكتشاف مناجم الفضة في جبل (Laurium) في أتيكـا •

رابعا ـ الاستعدادات الفارسية واجتماع كورنثة (٤٨١) :

وكان دارا الاول قد بدأ الاعداد لحملة حربية ثانية أعظم وأقوى من الاولى عددا وعدة عندما فاجأه الموت عام (٤٨٦)فورث ابنه اكسركسس (Xerxes) فيمـا ورث مسؤولية تحقيق هذه المهمـة ، وكان الجيش والاسطول اللذين أعدهما دارا وأضاف عليهما ابنه قد احتويا على قوات من كافة أصقاع الامبراطورية بما في ذلك قوات من اغريق آسية الصغرى وايونية المشايعين للفرس • وكذلك قوات من الهند ومصر وليبية واثيوبية وفينيقية وغيرها •

وعندما وصلت الاقاويل والشائعات عن الاستعدادات الفارسية الى درجـة اليقين ، أدرك الاغريق لاول مرة في تاريخهم أن الخطر قد أحدق بهم جميعا ، وبخاصة اسبرطة وأثينا اللتين اتفقتا على دعوة جميع المدن اليونانية الى مؤتمر عام للتباحث فيما يجب تحضيره ضد الاستعدادات الفارسية التي سمعوا عنها •

وفي عام ٤٨١ عقد مندوبوا احدى وثلاثين مدينة اغريقية لبث الدعوة اجتماعا عاما في معبد الإله بوسيدون بالقرب من خليج كورنثة •وفي المؤتمر دعا تميستوكلس الى توحيد الكلمة ونبذ الخلافات في مواجهة الخطر فوافق الجميع ، ثم أقسـم المندوبون على القيام بواجب الدفاع المشترك ، وحددوا عدد المقاتلين الذين يتوجب على كل مدينة ارسالهم ، كما انتخبت اسبرطة لما لها من قوة وسمعة عسكرية زعيمة لهذا الحلف الدفاعي ، فاختير الملك الاسبرطي (Leonidas) قائدا للقوات البرية ، كما اختير الملك الاسبرطي الآخر (Euripiades) قائدا للقوات البحرية • وقـرر المؤتمرون تنظيم جهاز للتجسس على الاستعدادات الفارسية •

وتشير المصادر الى أن بلاد اليونان أصبحت في فتـرة ما قبل الحرب مسرحا للأقاويل والشائعات التي تدعو الى اليأس وتثبيط الهمم ، وقد ساهم في ترويج هذه الشائعات الجواسيس الذين أرسلهم الفرس ، وكذلك بعض المدن التي لـم تشارك في المجهود الحربي الاغريقي مثل طيبة وارجوس وبعض مـدن تساليه ، وكذلك تنبؤات الكهان الغامضة في معبد دلف الذين يبدو أنهم قد تسلموا مـن الفرس مبالغ كبيرة لقاء تعهدهم بالعمل على اشاعة الذعر بين بلاد اليونان • وزاد الطين بلة ان جهاز الحلف الدفاعي أرسل ثلاثة جواسيس الى ساردیس في آسـية الصغرى ـ مركز الجيش الفارسي ـ فقبض الفرس عليهم ، وأمر الملك اكسركسس بالابقاء على حياتهم وان يطاف بهم على الجيش الفارسي وان يعودوا الى بلادهم ليرووا مشاهداتهم •

خامسا ـ احداث الحرب :

وفي ربيع عام ٤٨٠ عبر الجيش الفارسي الذي بلغ تعداده[١] ثلاثمائة ألف مقاتل وستين ألفا من الفرسان البوسفور على متن حوالي ثمانمائة سفينة ، واخترق اقليم تراقية • وعند وصوله الى شواطىء مقدونية انضم اليـه الاسطول وأدرك القادة اليونانيون أن المضائق المائية والممرات الجبلية التي تزدحم بها بلادهم هي سلاح دفاعي هام اذا أحسـن تحصينها ، فقاموا بتحصين ممـر تمبي (Tempe) الهام الذي يربط بين تساليه ومقدونية كما رابط الملك الاسبرطي ليونيداس مع قوة مكونة من سبعة آلاف رجل عند مضيق ثرموبولاي (Thermopylae) في حـين وقف الاسطول اليوناني متأهبا عند رأس (Artemisium) في شمال جزيـرة يوبوية لحماية الممر المائي بين اليابسة والجزيرة •

١ ـ معركة ثرموبولاي :

وعندما تقدم اكسركسس بجيشه جنوبا كان يعلم ان اليونانيين يرابطون عند الخانق الجبلي في ثرموبولاي ، وثقة منه بجنوده ، فقد دفع بهم ثلاث مرات دون أن

---

(١) يبالغ هرودوت في تقدير عدد أفراد الجيش الفارسي لدرجة يصل به الى ثلاثة ملايين ونصف .

يحقق أي تقدم فقد كانت كثرة العدد لا تعني شيئا في مثل هذا الموقع الحصين •
ونتيجة لعجزه عن التقدم قبل الاستيلاء على هذا الموقع ، اقترح أحـد ضباطه أن يرسل فرقة صغيرة لتتسلل عبر الجبال وتفاجىء المدافعين من الخلف ، وقد نجحت هذه الفكره في تحقيق عنصر المباغتة ، وقاتل الملك الاسبرطي بشجاعة نادرة حتى سقط ورجاله بعد أن كبدوا الفرس خسائر كبيرة ، وأخروا تقدم قواته أطول فترة من الزمن •

٢ ـ معركة ارتمسيوم :

وفي الوقت الذي كانت فيه القوات اليونانية تقاوم بضراوة القوات الفارسية عند ثرموبولاي ، دارت معارك بحرية عدة بين الاسطولين اليوناني والفارسي عنـد رأس ارتمسيوم في أقصى الشمال الشـرقي لجزيـرة يوبوية ، وفيهـا استطاع تميستوكلس بدهائه وكفاءته الحربية أن يحقق بعض الانتصارات الجانبية دون أن يتوصل أي من الطرفين الى نصر حاسم •

٣ ـ الاستيلاء على اثينـا :

وحسب الخطة المتفق عليها كان على جيش الحلف البري أن يكون في الوقت الذي دارت فيه معركة ارتمسيوم قد أتم استعداداته في بيئوتية لصد الفرس المتقدمين جنوبا ، وعندما عاد الاثينيون من ارتمسيوم علموا ان القائد الاسبرطي ـ بدافع من أنانيته ورغبته في الدفاع عن البلوبونيز فقط ـ أمر جيشه بالمرابطة عند مضيق كورنثه حيث أقام خط دفاعه الاول ، وترك أتيكا بكاملها تحت رحمة الغزاة دون أيـة مقاومة •

ولمواجهة هذا الخطر ، قرر الاثينيون ، بايحاء من تميستوكلس اخلاء أثينا من سكانها ، وقامت بعض السفن بنقل النساء والشيوخ والاطفال الى الجزر القريبة مثل سالاميس وايجينا ، في حين أسند الى بعض الرجال التحصن في هضبةالاكربول ومقاومة العدو أطول مدة ممكنة •

وتقدم اكسركسس بقواته يخرب كل مايقع عليه نظره ، وعند وصوله الى أثينا وجدها مخلية فضرب الحصار على اكروبولها الذي صمد مدة اسبوعين ، وفي ٢١

ايلول عام (٤٨٠) دخل الفرس الاكروبول ، وقتلوا المدافعين عنه ونهبوا ما تبقى في معابده ثم أشعلوا النار في بقية المنشآت .

٤ ـ معركة سالاميس :

وعندما كانت القوات الفارسية في أثينا ، كان تميستوكل يحاول اقناع قائد الاسطول الاسبرطي (يوريبيادس) بالهجوم على الاسطول الفارسي المرابط في فاليروم (ميناء أثينا البحري القديم) ، ولما كان الاسبرطيون مهتمين بالدفاع عن البلوبونيز فقد رفضوا طلبه رغم أن الاسطول الاثيني كان أكبر الاساطيل المشاركة في أسطول الحلف . وكانت خطة القائد الاسبرطي تنطوي على محاولة استدراج الاسطول الفارسي ومنازلته عند مضيق كورنثه .

ورغم قلة عدد السفن اليونانية التي بلغت (٣٧٨) سفينة ، ونتيجة رفض الاسبرطيين منازلة الفرس في موقع سالاميس ، أقدم تميستوكلس منفردا على المغامرة بارسال رجل ، وأسند اليه مهمة الوقوع في قبضة الفرس واخبارهم بأن الاسطول اليوناني بكامله قد وقع في مصيدة المياه بين سالاميس والبر الاتيكي وانه يحاول الفرار منها . وفي الحال أرسل اكسركسس اسطولا مصريا لسدّ المضيق ومنع السفن اليونانية من الهرب من المنفذ الغربي ، واتجه ببقية السفن الفارسية الى مياه المضيق في محاولة للقضاء على السفن اليونانية ، ولكن كثرة عدد السفن الفارسية التي أعاقت حركتها ، وخفة حركة السفن اليونانية وكفاية الاسطول الايجيني والاثيني ومهارة قادته حققت للاغريق نصرا باهرا على السفن الفارسية التي تدافعت في سبيل الخروج من المأزق المميت .

وعندما عم اكسركسس بنتيجة المعركة التي خسر فيها أكثر من (٢٠٠) سفينة وعددا كبيرا من رجاله قرر العودة فورا بصحبة (٦٠) ألفا من جنوده الى آسية الصغرى عبر الهلسبونت ، وعهد الى أحد قادته المدعو (Mardonios) استئناف الحرب في الربيع القادم ، الذي انسحب الى تساليه لاعادة تنظيم قواته وقضاء فصل الشتاء وتقصير طرق تموين الجيش التي ربما كانت أحد الاسباب التي دفعت اكسركسس للعودة .

٥ ـ معركة بلاتايه :

وفي عام (٤٧٩) تنكر الاثينيون لتميستوكلس ومـا حققه في سالاميس ، واتهموه بالغرور والفشل في اقناع البلوبونيزيين بالمشاركة في الدفاع عن أثينـا ، وانتخبوا اكبر منافسيه اريستيدس واكسانثيبوس قائدين ، الاول لقيادة الجيش والثاني لقيادة الاسطول • ويبدو ان القيادة الاثينية الجديدة لم تستطع اقنـاع البلوبونيزيين بأهمية متابعة الحرب ضـد القوات الفارسية المرابطـة في الشمال فاستحكم الخلاف بين أعضاء الحلف الدفاعي •

وحاول القائد الفارسي ماردونيوس استغلال هذا الخلاف لصالحه فعمل على اقناع الاثينيين بعقد معاهدة صداقة حتى يفتت قوى الاغريـق ، وأمام فشله في استمالة حتى الارجوسيين (أعداء اسبارطة التقليديين) قرر الزحف في ربيع عـام (٤٧٩) الى أتيكا • وعندما علم الاثينيون والميجاريون بتقدم ماردونيوس ، اتجه وفد منهم مع وفد من مدينة بلاتايه الى اسبرطة لاقناعها بالدفاع عن أثينـا في الوقت الذي أخليت فيه هذه المدينة مـرة اخرى ، وبعد لأي تمكن الوفدان من اقنـاع الاسبرطيين بصواب فكرة ارسال جيش الى ما وراء مضيق كورنثة •

وعندما علم القائد الفارسي ماردونيوس باتجاه الاسبرطيين نحو أثينا سارع باخلائها بعد تدميرها مرة اخرى وانسحب شمالا في محاولة لتقريب مراكز تموين جيشه ، وتهيئة مواقع صالحة للقتال والحركات العسكرية وبخاصة حركة الفرسان • وبالقرب مـن مدينـة بلاتايه التقى الجيش الفارسي الـذي كان يقدر عـدده بمائة وعشرين ألف رجل بجيش الاغريق الذي بلغ أربعين ألف رجل بقيادة الاسبرطي باوسانياس ، وبعد مناوشات جانبية انسحب الجيش الاغريقي وبقي الاسبرطيون لحماية مؤخرته بعد ان تحصنوا في أماكن وعرة ، ورغم قلة عددهم تمكنوا من انزال هزيمة فادحة بالفرس وقتل قائدهم ماردونيوس مما اضطر هؤلاء الى الانسحاب شمالا ، ومنه الى بلادهم •

٦ ـ معركة موكالي ونهاية الحروب :

وفي ربيع عام ٤٧٩ تحرك الاسطول اليوناني مـن جزيرة أثينا الى جزيرة

ديلوس في انتظار اللحظة المناسبة للانقضاض على الاسطول الفارسي وتحرير ايونية من قبضة العدو ، ونتيجة لاندلاع الثورة في بعض مقاطعات الامبراطورية الفارسية الشرقية واضطرار اكسركسس الى سحب بعض قواته في ايونية،وكذلك التذمر الذي ساد المدن الايونية التي أكرهت على مساعدة الفرس في حملتهم الثانية على بلاد اليونان ، فقد تناقصت كفاية الجيش الفارسي بشكل مريع ، مما شجع الاسطول اليوناني على التحرك في بداية عام ٤٧٨ نحو جزيرة ساموس • ويبدو أن قائد الاسطول الفارسي أدرك عبث المقاومة فانسحب بأسطوله الى الشاطىء المقابل للجزيرة عند سفح جبل موكالي ، فتعقبه جنود الاسطول اليوناني الى البر ودارت معركة حامية انضم فيها الايونيون الى المهاجمين واستطاعوا دحر الفرس وحرق سفنهم •

وعلى أثر هذا الانتصار الكبير ، قامت المدن الايونية بطرد حكامها المعينين من قبل الفرس وأعلنت استقلالها وانضمت بتأييد من أثينا الى الحلف الدفاعي الهليني رغم معارضة اسبرطة •

سادسا ـ نتائج الحروب الفارسية :

يبالغ بعض مؤرخينا المعاصرين ويختلف بعضهم الآخر في تقدير نتائج الحروب الفارسية سلبا أم ايجابا ، ففي حين يفترض الاولون أن الحضارة العالمية كان من الممكن ان تتأخر قرونا عدة لو نجح الفرس في بسط سلطانهم على بلاد اليونان ويمعنون في تفصيل وبسط أسباب قناعتهم هذه ، يرى الآخرون بأن حضارة ايونية لم تزهر الا إبان الحكم الفارسي وان الفرس لم يكونوا يبغون من بسط سطانهم على قطر ما إلا جعله يدور في فلكهم من ناحية السياسة الخارجية ويدفع الجزية التي كانت تفرض عليه ، وان الفرس لم يتدخلوا في السياسة الداخلية لأية دويلة أو مدينة خاضعة لهم الا في أقل القليل ومن النواحي التنظيمية الادارية البحتة •

والحقيقة ان نشاط وازدهار المدن الايونية تحت السيطرة الفارسية لا يمكن أن يؤخذ مثلا على عدم تدخل الفرس في الحياتين : الاجتماعية والاقتصادية أو الفكرية لان تبعية ايونية للامبراطورية الفارسية كانت تبعية سلمية نسبيا ولم تكن ايونية في يوم من الايام تلك القوة المزعجة التي تحدت السطان الفارسي وجرحت

كرامته كما فعلت الدويلات اليونانية بعد معركة ماراثون مثلا • ولم يكن من المستبعد ان يقوم الفرس بمعاملة الدويلات اليونانية معاملة مهينة فيما لو انتصروا عليها وبخاصة بعد الحرب الفارسية الثانية •

ورغم كل ما يذكره بعض المؤرخين من أنه لم يكن للحروب الفارسية نتائج خطيرة من الوجهة التاريخية العالمية ، بدعوى ان الفشل الذي منيت به الحملتان الفارسيتان لم يؤثر في كيان الامبراطورية الفارسية التي ظلت تسيطر على جميع البلاد التابعة لها من مصر الى السند ، وان خسائر الفرس المادية سواء من الرجال أم من السفن كان من الممكن تعويضها بسهولة في مملكة يزيد عدد سكانها عن الخمسين مليونا وتتمتع بموارد هائلة ، ومن جهة ثانية ان انتصار اليونانيين لم يبدل من مكانتهم الدولية • ورغم ما يبنيه المؤرخون السابقون من أسانيد تدحض فكرة مساهمة الحروب الفارسية في تنمية الشعور القومي لدى الاغريق بدعوى ان هؤلاء لم يكفوا عن التنازع ، ويدللون على ذلك بقيام الحرب البلوبونيزية بين اسبرطة وأثينا بعد الحروب الفارسية مباشرة ، فان تسليمنا بما يذكره مؤرخونا من آراء سابقة لا ينفي بل يؤكد فكرة مساهمة الحروب الفارسية في تنمية الشعور القومي الاقليمي والعام ، ولعله ينهض دليلا على ذلك ما سنراه فيما بعد من نشوء فكرة الاحلاف الكبيرة بقصد الدفاع عن بلاد اليونان ولو ظاهريا على الاقل ، كما يؤكد ذلك رد الاسكندر المقدوني على رسالتي الملك الفارسي دارا الثالث أثناء غزو الاول للامبراطورية الفارسية بعد حوالي مائة عام من الفترة التي تتناولها في بحثنا هذا • ولا شك — في ختام هذا العرض — أن ابرز النتائج الملموسة والمباشرة للحروب الفارسية كانت تعاظم القوة العسكرية الاثينية تعاظما أدى الى نتائج لا يحمد عقباها كما سنرى في الفصل التالي •

الفصل السادس

تأسيس الامبراطورية الاثينيــة

أولا ــ السياسة الاثينية وأثرها في تكريس عداء اسبرطة :

١ ــ سور أثينا وبداية العداء مع اسبرطة :

كان من الطبيعي أن يقوم الاثينيون الذين عادوا الى مدينتهم في خريف عام ٤٧٩ اثر معركة بلاتاية ، باعادة تعمير مدينتهم التي خربهــا الفرس مرتين ، فلــم تكن أثينــا بعد تخريبها الا كتلة من الانقاض ، ولم يكن ريفها الا صحراء انتشرت في فيافيها جذوع الاشجار المقطوعة • ويبدو ان الروح الوطنية وعظم المحنة التي تعرضت لها أثينــا ساهمت في تآلف القلوب بين الاحزاب المتنافرة ، واتفق الجميع على ضرورة العمل بأسرع وقــت ممكن لاعادة بناء المدينة ومرفئها الجديــد في بيرايوس وربط الموقعين بسور ضخم ، يكفل للاثينيين الدفاع عن مدينتهم سيما وانهم اتفقوا على ان تتركز قوتهم في البحر وليس في البر •

ويروي ثوكوديدس ــ احد كبار مؤرخي الفترة ــ أن الاسبرطيين ساءهم قيام الاثينيين بتحصين مدينتهم ، وبرروا خشيتهم من ذلك بأن تحصين أثينا مــن شأنه أن يؤمن حصنا للفرس فيما اذا احتلوا أثينا مرة اخرى • ورغم تفاهة هــذا التبرير ، فقد رأى الاثينيون ان من صالحهم مراوغة الاسبرطيين حتى يتيسر لهم بناء ارتفاع معين من السور يكفل لهم الدفاع عن أثينا فيما لو قررت اسبرطة مهاجمتهم ومنعهم الاستمرار في العمل • ويبدو أن الحماس الذي أبداه عموم الاثينيين مــن رجال ونساء وأطفال في سبيل انهاء العمل قد ساعد على نجاحه ولكن على حساب نقمة الاسبرطيين وسخطهم •

٢ ـ الحلف الديلوسي :

واستغل الاثينيون عدم قدرة اسبرطة على التصدي لهم عسكريا نظرا للاضطرابات الداخلية التي عانت منها وقتئذ ، وراحوا يدعون الى انشاء حلف دفاعي بهدف اتمام الحرب ضد الفرس وتحرير باقي المدن الاغريقية الواقعة تحت الحكم الفارسي ، ونجح هؤلاء في دعوتهم وتم الاتفاق على تكوين حلف من المدن الايولية والايونية ، وسرعان ما انضمت الى هذا الحلف بعض المدن الواقعة في اقليم تراقية وجزر لسبوس وساموس وخيوس ويوبوية وغيرها •

وفي حين اتفق الجميع على أن تساهم الجزر الكبيرة المقتدرة بعدد معين من السفن حسب امكاناتها ، طلب الى المدن والجزر الصغرى أن تساهم بمبلغ مالي يتوافق مع امكاناتها على ألا تنقص المبالغ في مجموعها عن (٤٦٠) تالانت (أي ما يعادل مائة وخمسين ألف ليرة سورية تقريبا) ، وتقرر أن تحفظ هذه المبالغ في معبد الاله ابولون في دلفي حيث يجتمع الاعضاء برئاسة المندوب الاثيني الذي يشرف على الموظفين الاثينيين المكلفين بجمع مساهمات الاعضاء • وهكذا حظيت أثينا بأكبر سلطة تنفيذية ومالية من سلطات الاتحاد •

٣ ـ نفي تميستوكلس وتسلم كيمون الزعامة :

وفي الوقت الذي كانت فيه أثينا تكرس زعامتها في الحلف الديلوسي بدأت اسبرطة العمل على توكيد سيطرتها على جيرانها بالقوة • وفي هذه الفترة وفي الوقت الذي وجهت اسبرطة تهمة الخيانة والتعامل مع الفرس لملكها باوسانياس وادانته وحكمت عليه بالاعدام ، واجه تميستوكلس تهمة مماثلة وجهها اليه زعيما الحزب الارستقراطي اريستيدس العجوز وكيمون الشاب • ويبدو أن تميستوكلس أحس بخطر الادانة فالتجأ في عام (٤٦٥) الى الفرس ومات بعد مدة قليلة في كنفهم ، فكانت نهاية مزرية لبطل معركة سالاميس •

وعندما آل الحكم الى الارستقراطيين حكم منهم اريستيدس الذي توفي بعد فترة وجيزة ثم كيمون • وكان كيمون الزعيم الجديد للارستقراطيين رجلا ثريا وكريما اكتسب سمعة طيبة نتيجة كرمه وكذلك لشجاعته في قيادة بعض قطع الاسطول

الاثيني إبان الحروب الفارسية • ويبدو أن صداقته مع الاسبرطيين أتاحت له حرية العمل في مجال الدعوة الى الانتساب للحلف الديلوسي • وفي حين وفق في اقناع بعض المدن بالانتساب أرغم بعضها الآخر •

٤ ــ أثينـــا تتعسف في صلاحياتها :

ولم تكتف أثينـــا بارغام بعض المدن على الدخول في الحلف ، بـــل تعداه الى حجب حق الانفصال عن الحلف عن المدن الاعضاء ، وتحويل المدن المتمردة الى مستعمرات خاضعة مباشرة للحكومة الاثينية ، وهذا ما حصل عندما تمردت جزيرتا (ثاســوس وناكسوس) وقامت أثينـــا بقمع التمرد بالقـــوة وحولت المدينتين الى مستعمرتين تخضعان مباشرة لحكومة أثينـــا •

وفي عام ٤٦٤ قامت أثينـــا بنقل خزانة الحلف (التي نقلت في فترة سابقـــة من دلفي الى جزيرة ديلوس) من ديلوس الى أثينا متذرعة بأسباب أمنية • وظهر من تدخل أثينا في الشؤون الداخلية للمدن الاعضاء في الحلف أنها كانت تخطط لتسخير الحلف واعضائه لمصلحتها الخاصة ، أو أنها تعمل لبناء امبراطورية ، وأصبح الحلف معرضا في أية لحظة الى التفكك والانهيار لولا ظهور الزعيم الاثيني بريكلس في الوقت المناسب •

٥ ــ فشل كيمون وظهور بريكلس :

وحدث في أعقاب الزلزال العنيف الذي ألحق بأسبرطة أضرارا كبيرة (٤٦٣/ ٤٦٢) أن انتهزت طبقة المستعبدين فيها هذه الفرصة وقامت بثورة لم يستطـــع الاسبرطيون التصدي لها بقوة مناسبة ، فطلبوا النجدة من أثينـــا ، ووجد كيمون الفرصة سانحة للبرهنة على منافع التعاون بين أكبر مدينتين اغريقيتين ، وسار على رأس قوة من المشاة قوامها (٤٠٠٠) رجل لنجدة اسبرطة • ويبدو ان الاسبرطيين استبطأوا النجدة فقاموا بالاعداد لهجوم مباغت واستبعدوا اشتراك الاثينيين فيـــه نظرا لقناعتهم بعدم كفاية الاخيرين في معارك الجبال • وعندما وصل كيمون وقواته طلب اليهم الاسبرطيون العودة الى أثينـــا فعادوا ساخطين ناقمين • وردا على تلك الاهانة قام الاثينيون بايواء ورعاية الفارين من حكم اسبرطة ووطنوهم في منطقـــة قريبة من أثينـــا •

واتنهز خصوم كيمون السياسيين فرصة فشل الحملة الاثينية ، وضخموا كثيرا مـن الاهانة التي لحقت بالكرامة الاثينية ، وراحوا يكيلون التهم جزافا لكيمون وسياسته • وقاد هذه الحملة الدعائية محام شاب متهور يدعـى (Ephialtes) وصديق له يدعى (Perikles) ، وكان من نتيجة حملتهما أن أيد الاثينيون في عـام (٤٦٢/٤٦١) اقتراحا بنفي كيمون ، كما قرروا عقـد معاهد صداقة مـع مدينة ارجوس العدو التقليدي لاسبرطة • ولكن افيالتس لم يعش طويلا اذ أغتيل أثنـاء حوادث الشغب التي صاحبت نفي كيمون ، وتسلم زمام الامور لمدة ثلاثين عامـا تالية رجل أثينا القوي بريكلس •

٦ ــ اصلاحات بريكلس :

ويبدو ان بريكلس كان قد اتفق مع صديقه افيالتس قبل موته عـلى خطة اصلاحية تعطي المزيد من الدمقراطية للشعب ، وهذا ما توحي به السرعة التي تم فيها اعلان برنامجه الاصلاحي بعد تسلمه السلطة مباشرة • وقد شمل برنامج بريكلس الاصلاحي أربع نقاط رئيسية :

آ ــ تحديـد صلاحيات محكمة الاريوباجوس في القضايا الجنائيـة التي تخص مواطنين اثينيين ، وزيادة سلطات مجلس (البولي) عـلى حساب سلطات المحكمة السابقة

ب ــ ادخال نظام الاجور لكل الوظائف التي يشغلها أصحابها بالانتخاب أسـوة بالوظائف التي يعين أصحابها تعيينا • وذلك رغبة في اعطاء هذه الوظائف صفة الجدية والحد من عمليات الارتزاق منها ، وبذلك لم تعد لهذه الوظائف صفة شرفية يقدم عليها المقتدرون فقط بل فتح المجال أمام الفقراء لشغل هذه الوظائف • وقد بلغت اجرة واحدة من هذه الوظائف (٢ ــ ٣ أوبول)[1] يوميا وكانت تعادل نصف ما كان يكسبه الاثيني في ذلك الوقت •

جـ ــ ادخال نظام الاجور للمحلفين الذين كانـوا يعملون في المحاكم الشعبية ،

---

(١) الاوبول (Obol) وحدة نقدية صغرى تعادل (٦٠) قرشا سوريا تقريبا

وبذلك وجد الفقراء وظائف يتمتعون بعائداتها فسيطروا بذلك على الهيئة القضائية •

د — توسيع حق الانتخاب لمنصب الارخون بحيث يشمل جميع طبقات المجتمع الاثيني ، وكانت سابقا مقصورة على الطبقتين الاولى والثانية • وبهذا فقد منح بريكلس للطبقات الاثينية الدنيا أكبر سلطات حصلت عليها هذه الطبقات في تاريخها •

وقد أعاد بريكلس تشكيل مجلس (الجنرالات العشرة) الذي أصبح بمثابة مجلس للوزراء ، وكانت قرارات وتوصيات المجلس تحول الى الاراخنة لتنفيذها ، وكان هؤلاء الجنرالات ينتخبون انتخابا مباشرا من قبل الشعب الذي ينتخب رئيسه أيضا ، وقد حكم بريكلس أثينا بصفته رئيسا لهذا المجلس طيلة حياته التي امتدت حتى عام (٤٢٩) •

٧ — بداية المناوشات مع اسبرطة :

وأدرك بريكلس أن موارد أتيكا المحدودة لا يمكن أن تعود بالرخاء على الاتيكيين المتزايدين عددا بصورة مستمرة ، وانه لا بد من تحويل قسم من هؤلاء الى مستعمرات خارجية • وكان من الطبيعي أن تصطدم سياسة من هذا النوع بمصالح القوى الاخرى في المنطقة ، ولذا فقد احتاط بريكلس للامر وطلب من مجلس الاكليزيه الموافقة على بناء أسوار طويلة لحماية أثينا ومرفأها بيرايوس من عدوان محتمل • ونظرت اسبرطة الى مشروع تحصين أثينا نظرة عدائية ، ولوحت لبعض الساخطين الاثينيين من الاوليجاركيين بفرصة الاستيلاء على زمام السلطة بمساعدتها • واتفقت مع هؤلاء على تسيير جيش اسبرطي لغزو أثينا مقابل تعهد الاوليجاركيين بايقاد نار الفتنة في المدينة أثناء الغزو • وفي حين تمكن الجيش الاسبرطي من هزيمة القوات الاثينية التي كلفت بصده : عجز الاوليجاركيين عن القيام بفتنتهم • ورغم فشل المؤامرة فقد رأى بريكلس ان من صالح أثينا تأجيل انتقامها من اسبرطة حتى يتيسر له القوة الكافية • ولما كان من المحتمل ان تصطدم سياسته الخارجية القائمة على أساس تشجيع الهجرة الاتيكية الى الخارج بمصالح الفرس فقد عقد معهم معاهدة اعترف فيها الطرفان بحدود نفوذ كل منهما دون تحديد

مدتها ، واتبع تلك المعاهدة بمعاهدة اخرى مع اسبرطة لمدة ثلاثين عاما تنازلت بموجبها أثينا عن بعض نفوذها في بلاد اليونان مقابل اطلاق يدها في مناطق البحر الايجي • وكان من الطبيعي ألا تكون المعاهدة مع اسبرطة معاهدة سلم بقدر ماكانت هدنة مؤقتة استعدت فيها أثينا لحرب ضروس مع اسبرطة استمرت سبعا وعشرين سنة • وتدعى هذه الحرب باسم الحرب البلوبونيزية ، والتي سنستعرضها بعد ايراد لمحة موجزة عن الحضارة الاغريقية في عصر بريكلس نظرا لاهميتها الفائقة •

ثانيا ــ أثينا في عصر بريكلس :

ينحدر بريكلس بنسبه من أسرة ثرية عملت في السياسة فترة طويلة فأمه حفيدة المصلح كليسثنس وهو بالتالي ينتسب الى آل القمايون •

وقد تلقى بريكلس تعليمه العام وتخصص في الفلسفة الا انه برع في الخطابة حتى أصبح أحد أشهر خطباء الاغريق على الاطلاق • وكان يتمتع بشخصية محببة وطاغية في آن واحد ، وقد تمكن بقوة شخصيته وطلاقة لسانه وقوة حجته ونظافة يده من تدعيم مركزه كرجل دولة خلال فترة السلم التي استمرت من (٤٤٥ ــ ٤٣١) ، وعمل خلال هذه الفترة على تدعيم قوة أثينا البحرية والبرية تمهيدا لانشاء الامبراطورية الاثينية الاولى تحت زعامته • وكان في الحقيقة لا يخفي نواياه الاستعمارية بل يصرح بها مما ألّب عليه وعلى سياسته عددا كبيرا من الافراد والمدن في بلاد اليونان وكرّس محبته بين الاثينيين ذوي الميول الاستعمارية ، وحققت أثينا في عهده مزية التمتع بفوائد الحكم الارستقراطي والدكتاتوري مع جميع مزايا الدمقراطية ، ونظرا لصعوبة اجمال كل انجازات بريكلس في المجالات المتعددة فسنكتفي في هذه العجاله بالتعرض الى أهمها وأبرز مظاهرها •

١ ــ الادارة :

مر معنا سابقا كيف دعم بريكلس سلطات المجالس الشعبية على حساب النفوذ الذي تمتع السياسيون التقليديون ، وعلى هذا تحولت مهام الاراخنة من مهام سياسية الى تنفيذية ، وأصبحوا يشرفون على تنفيذ القوانين المحولة اليهم عن طريق مجلس الشعب (الاكليزيه) الذي كان يقر مشاريع القوانين المحولة اليه بالتالي عن

طريق مجلس الخمسمائة بعد دراستها ومناقشتها . ونظرا لتعاظم أعمال المجلس وتنوعها ، وكنتيجة حتمية لطبيعة وكثرة عــدد الحضور في جلساته[1] وصعوبــة اتفاقهم على صياغة القوانين ، فقد تطلب الامر تكليف مجلس من المتخصصين في ذلك . ونظرا لتدهور مكانة المجلس البوني (Boule) قبل عصر بريكلس وكان في أصله يشبه تقريبا مجلس الشيوخ ، فقد رؤى الافادة من خبرات أعضاء هذا المجلس هؤلاء وتكليفهم بالاطلاع على مشروعات القوانين وتعديل صياغتها قبل عرضها على مجلس الشعب اضافة الى تكليفهم بالاشراف على اقامة المشروعات والمباني العامــة والانفاقات الحكومية ، وكذلك شؤون الدولة الخارجية على ألا تكتسب قرارات مجلسهم الصفة التنفيذية قبل عرضها على مجلس الشعب .

وفي مجال القضاء قســم بريكلس السلطات القضائية بين عدد مــن المحاكم البدائية والاستئنافية ، وأصبح بمقدور أي مواطن أن يطعن في الحكم الصادر ضده أمام محكمة أعلى بشرط تحمله لعقوبة أشــد اذا أيدت محكمة الاستئناف الحكم السابق . وبادخال نظام الاجور للمحلفين ، ضمن بريكلس الحد بشكل كبير من نفوذ المقتدرين الذين يقاضون أناسا أقل ثراء منهم . وقد صور الكاتب المسرحي الشهير اريستوفانس في بعض كوميدياته جانبا من أصــول المحاكمات في المحاكم الاثينية ، والتي تؤكد حرية الاتهام والدفاع لجميع المواطنين في تلك الفترة .

٢ ــ الحياة الاقتصادية :

ورغم انعدام معلوماتنا عن الزراعة والصناعة في أثينــا في الفترة الكلاسيكية واقتصارها عــلى بعض شذرات معلومــات وصلتنا في كتابات بعــض المؤرخين والمسرحيين القدماء ، فان معظم الشواهد تؤكد أن فلاحة الاراضي كانت أهم مهــن ذلك العصر ، وان الصناعات الفنية اليدوية ، وبخاصة تلــك التي كان يعمل بهــا الحرفيون الاجانب شهدت نهضة ونشاطا كبيرين في عصر بريكلس .

ونظرا لقوة الاسطول الاثيني التي عمل بريكلس جاهدا على تكريسها فقــد

---

(١) بلغ عدد الحضور في هذه الجلسات في عصر بريكلس ثلاثة الاف من أصل حوالي اربعين الف مواطن في اقليم اتيكا .

نشطت الحركة التجارية بتوافر الامن والاستقرار السياسي ، وباتت السفن الاثينية تنقل البضائع من الساحل السوري وشرق البحر المتوسط حتى غربه • وكنتيجة حتمية للاحترام الكبير الذي تمتعت به العملة الاثينية في الاسواق التجارية فقد نشأت طبقة أثرت من التجارة وعملت على تنشيط حركة الاستعمار الاستيطاني وغيره من التي دعا اليها بريكلس منذ أوائل حكمه • وكانت أثينا تستورد في عصر بريكلس القمح وتصدر الزيتون وزيته والاواني اللازمة لتعبئته ، وكذلك بعض المصنوعات الفنية الفخارية والمعدنية وبخاصة الاسلحة •

وكانت مساهمات الحلف الديلوسي أهم واردات خزانة الدولة على الاطلاق التي بلغت في عهد بريكلس بعد زيادتها نتيجة انتساب عدد جديد من الاعضاء (٦٠٠) تالانتا (= مليون ونصف ليرة سورية تقريبا) • وقد شكل هذا المبلغ حوالي ستون بالمائة من الدخل العام للدولة الذي بلغ ألف تالانت في عهد بريكلس • في حين شكلت الضرائب المفروضة على التجارة والاعمال الحرفية ودخول المحاكم وايجارات أراضي الدولة القسم المتبقي من دخل الدولة العام •

٣ ــ الحياة الاجتماعية :

لا يعرف بالتأكيد تعداد سكان أثينا في عصر بريكلس وان كانت الدراسات القائمة على الاستنتاج ترجح بلوغ عدد سكان اقليم أتيكا حوالي ثلاثمائة ألف نسمة • وقد انقسم هؤلاء بحكم وضعهم الاجتماعي الى مواطنين وحرفيين أجانب وعبيــد •

وتذكر معظم اشارات مصادرنا من العصر نفسه ان معظم الطبقات حتى الثرية منها كانت متواضعة في مستوى حياتها من ناحية الملبس والمآكل وأثاث المنازل ، في حين كانت الدولة تنفق ببذخ وسخاء على تجميل العاصمة وتحسين مرافقها العامة[١] وبخاصة في مناسبات الاعياد التي تعددت بشكل كبير وكانت أهمها أعياد الديونوسية

---

(١) تذكر بعض الروايات أن بريكلس انفق دخل الدولة بما فيها مساهمات الحلف الديلوسي لمدة عام كامل على تجميل أثينا وتزيينها لكي تبدو مؤهلة لاحتلال مركز الزعامة كعاصمة لامبراطورية اغريقية •

(Dionysea) وهي التي كان يحتفل فيها بعيد الاله ديونوسيوس وهو رب الخمر واخصاب الطبيعة ، وكانت هذه الاعياد اباحية الطابع ينتشر فيها شرب الخمر بشكل مثير وملفت للنظر وجالب للمشاكل ، وكذلك عيـد البان اثينايه (Panathenaea) وهو العيد الذي كانت تكرم فيه الربة أثينا ، والاعياد الاولومبية وغيرها من الاعياد الاقل أهميـة .

وتؤكد المصادر نفسها أن المرأة الاثينية كانت مهضومة الحقـوق في الفترة الكلاسيكية بصورة عامة[1] ، ولم تكن تحسب في عداد المواطنين ، بل كان يطـلق عليها لقب قاطنة (Aste) . ولم يفلح الا عدد قليل من السيدات في ممارسة أعمال الخدمة العامة سياسية أم اجتماعية باستثناء (Aspasia) عشيقة بريكلس نفسه .

ولم يكن التعليم في أثينا الزاميا كما كان في اسبرطة وغيرها من المدن ، ولكن الجو العام الذي كان يقدس العلم والمعرفة فرض عـلى عموم الاثينيين تعليـم أولادهم ، وكان العامـة يعلمون أولادهم أصول القـراءة والكتابـة والحساب والموسيقى والشعر والتجارة وكذلك التربية البدنية في كتاتيب خاصة . في حين كان الاثرياء يرسلون أبناءهم الى حلقات خاصة يديرها فلاسفة ذاع صيتهم كثيرا في عصر بريكلس وهم السفسطائيون ، وبتعلم أبنائهم الجدال والمناظرة والمنطق والبلاغة التي برع فيها السفسطائيون يضمن الاثرياء لأولادهم مؤهلا يؤهلهم لاحتلال مكان في قلوب العامة والسيطرة على مقاليد الامور السياسية بالتالي .

الآداب :

وقد عاصر بريكلس عدد كبير من الشعراء لـم تصلنا مؤلفاتهم الاصلية وان كانت قد وصلتنا ترجمات بعضها اللاتينية ، ويأتي في مقدمة هؤلاء الشعراء الشاعر والموسيقي (Pindar) من اقليم بيثوتية الذي كان ينظم شعر المديح في الابطـال الاولمبيين والملوك والنبلاء والآلهة ، وقد انتشر شعره كثيرا في تلك الفترة نظـرا

---

(١) يذكر المؤرخ اكسنوفون على لسان بريكلس قوله « ان افضل النساء هـن اللواتي لا يأتي الرجال على ذكرهن لا بخير ولا بسوء » ولعل هذا القـول يعكس لنا السلبية التي كانت تعاني منها المراة في عهد أفضل ساسة اثينـا فكرا وعمـلا .

لنجاح ألحانه ، لدرجة أصبحت المدن والجماعات تتنافس في الاغداق عليه لنظم وتلحين قصائد وأناشيد خاصة ، كما يفعل الملحنون في هذه الايام •

وقد نحى معظم الشعراء نحو العمل المسرحي نقربها من الجماهير التي أغرمت بالمسرح وكانت تتردد عليه باستمرار قلما مارسته جماهير مدينة اخرى • وقد انقسم أدباء وشعراء العصر الى قسمين اهتم بعضهم بالاعمال التراجيدية[1] في حين اهتم معظمهم بالاعمال الكوميدية • ولا شك ان أشهر كتاب المسرح التراجيديين ثلاثة هم : ايسخولوس (Aeschylos) وأشهر مسرحياته (ثلاثية أجاممنون) ، وسوفوكلس (Sophokles) وأشهر مسرحياته (أوديب) ، و (Euripides) وأشهر مسرحياته مستمدة من أصول اسطورية ابطالها الآلهة اليونانية وأشخاص حرب طروادة ، وفي هذه المسرحيات يبرز يوريبيدس فلسفته فيسخر من الاساطير وبالتالي التقاليد القديمة ، ويدعو الى الاشتراكية عن طريق تبني نظام اجتماعي جديد يقل فيه استغلال الرجال للرجال والرجال للنساء والدولة للمواطنين •

أما الكوميدية[1] وهي كلمة تفيد معنى العمل المسرحي الضاحك فقد خطت في عهد بريكلس وعلى يدي (Aristophanes) (٤٥٠ — ٣٨٥) أكبر خطواتها • وكان اريستوفانس قد ركز في نقده السياسي على كبار قادة وسياسيي أثينا ، وأظهر جميعهم في قالب مضحك فسخر منهم ومن آرائهم وجهلهم بالامور العامة • وقد كتب عددا كبيرا من أعماله أشهرها (الطيور) و (الضفادع) و (الغيوم) و (الفرسان) وهي عناوين رمزية سخر في مضمونها من (العدالة) و (معاصره يوريبيدس) و (الفلاسفة) و (حكام أثينا) بعد بريكلس على التوالي • ولعل هذا يوضح لنا مدى حرية القول التي تمتع بها الادباء في عصر بريكلس •

٥ — الفلسفة :

وهي العلم الذي برع فيه الاغريق بصورة عامة واليونانيون بصفة خاصة دون

---

(١) يعتقد بعض المؤرخين ان كلمة (تراجيدية) مشتقة من اسم الحيوان المفضل للاله ديونوسيوس راعي المسرح وهو (تراجوس) ويعني الجدي الذي يشبه صوته صوت الانسان الباكي •

(١) اللفظة مؤلفة من كلمتين (كوموس) و (اودي) وتعني : الاغنية الريفية •

غيرهم من شعوب العالم القديم ، وقد أنجبت الحضارة اليونانية في عصر بريكلس عددا كبيرا من الفلاسفة تعجز هذه العجالة عن ذكرهم وان كا نبمقدورنا أن نذكر أشهرهم وهم : أناكساجوراس (Anaxagoras) معلم بريكلس نفسه ، وسقراط ، و بروتاجوراس (Protagoras) ، أشهر السفسطائيين •

٦ ـ العلـوم :

وبغض النظر عما يبديه بعض المؤرخين من أن معظم العلماء كانوا فلاسفــة في طبيعةعملهم، فمن الثابت أن العلوم بمفهومها العام قد تطورتفيعهدبريكلس تطورا ملحوظا،وحسبنا أننشيرالىأشهرأطباءهذهالفترةكانهيبوقراطس (Hippokrates) الذي لا زالت معظم كليات الطب في جامعات العالــم حتى يومنا هذا تطلب الــى تلامذتها ترديد القسم[1] الذي علمه هذا الطبيب لتلامذته قبل أكثر من خمســة وعشرين قرنا • وقد قام عالم الطبيعيات أمبدوكلس (Empedokles) (٤٩٣ ــ ٤٤٣) بتحديد عناصر الحياة في أربعة هي : النار ، والهواء ، والتراب ، والماء ، كما كان لتعريفاته هذه العناصر أكبر الاثر في تقدم نظرية التطور • وتذكر المصادر قيام العالم دموقريتوس (Demokritos) (حوالي ٤٦٠) بتطوير نظرية (الذرة) ، وذكر لاولمرةفيالتاريخ أنالمادةتتكون منذراتلاترى• وهي دائمة الدوران حول نفسها ومحورها • وقــام بعض علماء تلك الفترة بتأكيد فكــرة كروية الارض واثباتها نظريــا • ورغم أن علم الحساب كان بدائيا لم يدخل عليه الا القليل من التعديل في عصر بريكلس الا ان الاغريق فيعهده اعتمدوا النظام العشري في الحساب والاثني عشري والستيني في الفلك والجغرافية ، كما عرفــوا الكسور البسيطة وكذلــك الهندسة النظرية التي برع فيها الفلاسفة ودرسوها ليس لفائدتها العملية بل لفوائدها في الاستدلالات المنطقية وتمرين الاذهان •

٧ ـ التاريــخ :

وفي ذلك العصر خطا التاريخ أول خطواته في مجال البحوث النظرية الجادة بعد

---

(١) القسم طويل ويتضمن قسما بآلهة الطب وفي مقدمتهم ابولون ، وعهــد بالوفاء بهذا القسم ، واحترام المعلم ، وعدم احتكار المعرفة ، ومساعــدة المرضى في كافة الاوقات ، وعــدم استخدام الطب للاعمــال الشريرة ، والحفاظ على سرية المرض •

أن كان مادة للتفكه والاعتبار ، وقد حقق هذه الخطوة مؤرخان جليلان لازالت أعمالهما تعتبر منهلا من مناهل التاريخ الاغريقي الهامة وهما : هرودوت ، وثوكوديدس • وكان هرودوت من مدينة هاليكارناسوس على الساحل الغربي لآسية الصغرى قد ولد بعد فترة وجيزة من بدء الحروب الفارسية وعاش الى حرب البلوبونيز ، وكان أول من اعتمد في كتاباته على الرحلات والمشاهدات ، ورغم ما يؤخذ على جهله بلغات الشعوب التي كتب عنها وارجاعه المسببات الى عوامل فردية تدل على سطحية تفكيره وتدينه الشديد ، فانه بدون شك كان أول مؤرخ جمع المادة التاريخية ثم نقحها بالقدر الذي يدركه ويفهمه وصاغ منها بعد ئذ مادة بحوثه • وتتكشف طبيعة كتابات هرودوت من بعض ما ذكره هو عن نفسه حين يذكر « ان من واجبي تسجيل كل ما أسمع ، ولكني لست ملزما بتصديقه » • وقد خلّف هرودوت لدارسي تاريخه تسعة أجزاء أطلق على كل واحد منها اسم ربة من رباب الفنون التسع[1] ، وفي حين أفرد القسم الاكبر من مؤلفاته لتاريخ الامبراطورية الفارسية ، خصص الاجزاء المتبقية منها للحروب الفارسية ، كما أفرد أحد كتبه لوصف مصر وتاريخها وعاداتها ودياناتها ، وذكر فيه عبارته الخالدة « مصر هبة النيل » •

أما ثوكوديدس ، فقد تخصص في كتابة تاريخ حرب البلوبونيز ، وهذا ما سنبحثه بالتفصيل عند استعراضنا هذه الحرب بعد قليل •

٨ ـ الفنون :

وكان الاثينيون قد نشطوا بعد انسحاب الفرس من مدينتهم التي دمرت معظم معالمها ، لاعادة بناء هذه المدينة ، ولم يبخل بريكس عند تسلّمه السلطة بغال أو نفيس في سبيل هذه الغاية • وقد دعى بعد تسلمه السلطة اشهر مخططي المدن في عصره وهو (Hippodamos) الملطي للاشراف على تخطيط المدينة من جديد •

---

(١) ربات الفنون التسع (Musae) من الربات الثانويات في الديانة الاغريقية ، وهن : ميليتي (للتأمل) ونيمي (للذاكرة) و أودى (للاغنية) وكليو (للتاريخ) ويوتيربي (للشعر الوجداني) وثاليا (للكوميدية والشعر الرعوي) وميلبوميني (للتراجيدية) وتيربسيخوري (للرقص) وايراتو (للشعر الغزلي) •

وقام هذا المهندس بتخطيط المدينة ومينائها على النسق الذي عرف باسمه أي (الهيبودامي)[1] مستخدما مساهمات الحلف الديلوسي لهذا الغرض .

وقد ركز بريكلس جهوده على تزيين أكروبول اثينا الذي تهدمت تماثيله ومعالمه أثناء الاحتلال الفارسي للمدينة ، والاكروبول عبارة عن مرتفع من الارض يشرف على مدينة أثينا والى جوارها ، أقام بريكلس على سطحه عددا من المعابد أشهرها معبد البارثنون الذي خصص لعبادة الربة أثينا ، والذي وضعت فيه وفي غيره من المعابد تماثيل أبدع في صنعها المثّال فيدياس (Phidias) أشهرها تمثال « الربة أثينا » . ومن بين فناني عصر بريكلس ايضا مورون (Myron) الذي صنع تمثال « رامي القرص » والذي لا زالت صورته تتصدر الشعارات الاولمبية حتى يومنا هذا . وكذلك المثّال بولوكليتوس (Polykleitos) الذي وصلنا من تماثيله تمثال « حامل الرمح » والذي يعتبر التجسيد المثالي للجسم الرياضي في جميع العصور .

---

(١) يعتمد النظام في تخطيطه للمدن على فكرة احتواء المدينة على شارعين رئيسيين (او ضعفهما) متعامدين يقطعان المدينة ويؤديان الى مداخلها الرئيسية ، وتخرج منهما عدة شوارع فرعية متعامدة معهما ومع بعضها البعض محدثة قطعا من الارض (أو جزيرات حسب التعبير الروماني (Insulae) تخصص للمساكن الخاصة أو المنشآت العامة .

الفصل السابع

الحرب البلوبونيزية (٤٣١ ــ ٤٠٤)

لا يمكن لأي دارس متتبع لتاريخ الحضارة الاغريقية ان يتعرض الا باستفاضة تتناسب وأهمية هذه الحرب الهوجاء التي اصطلت بنارها معظم ــ ان لم نقل كل ــ دويلات العالم الاغريقي طوال سبعة وعشرين عاما ، وذلك لان هذه الحرب بمقدماتها ونتائجها تلخص بكل معاني الكلمة المعالم الرئيسة لتاريخ بلاد الاغريق ، وتمثل بحق تراجيديا التاريخ الاغريقي كله . فقد قامرت فيها أقوى وأكثر دويلة اغريقية تحضرا بكل امبراطوريتها التي بنتها بالعرق والدم من أجل السيطرة على بلاد اليونان ، ولكنها خسرت ودفعت في سبيل ذلك ثمنا غاليا جدا ، ونقصد بذلك (أثينا) .

ولا شك أن الحرب التي خاضتها أثينا ضد البلوبونيزيين وزعيمتهم اسبرطة كانت ثمرة متوقعة لسياسة الغرور التي انتابتها وهي في قمة عظمتها ، وأدت بها الى ممارسة الضغط المشوب بالاذلال على أصدقائها قبل أعدائها ، وانتهى بها الامر الى الاصطدام بأكبر قوة برية في العالم الاغريقي وفقدانها لسطوتها السياسية مع احتفاظها بمكانتها الحضارية .

وباستثناء كتابات المؤرخ الحاذق (Thukydides) الذي عاصر الحرب كما سنلاحظ من تاريخ حياته ، نكاد لا نجد أثرا يذكر للحرب في كتابات غيره من المؤرخين الذين عاصروا الحرب أو لم يعاصروها . وبناء على ذلك نجد أنفسنا مرغمين على تتبع مراحل حياة هذا المؤرخ قبل التعرض لاحداث الحرب نفسها .

أولا ــ ثوكوديدس :

ولد ثوكوديدس في الفترة بين عامي ٤٦٠/٤٥٥ وتوفي عام ٤٠٠ ، وهو ابن

للمدعو (Oloros) ، تتبين من كتاباته أنه بدأ في جمع المادة اللازمة لمؤلفه عند بداية حرب البلوبونيز، وانه عاش طوال الحرب متتبعا مجراها بعناية شديدة ، وانه مرض بالطاعون الذي اجتاح أثينا عام ٤٣٠ ، وكان أحد القائدين اللذين انتخبهما الاثينيون لقيادة احدى حملاتهم في تراقية ، حيث كان لديه ترخيص باستغلال مناجم الذهب هناك ، وعندما فشل في الدفاع عن مدينة (Amphipolis) قرر الاثينيون نفيه عام ٤٢٤ وبقي في منفاه مدة عشرين عاما أتاحت له الفرصة في التمعن في أحوال الفرقاء المتحاربين •

ويتبين مما كتبه (Merkelinos) — احد شرّاح حياته — أن كليون — أحد كبار الساسة المتنفذين في أثينا أثناء الحرب — هو الذي اقترح نفي ثوكوديدس ، كما يتضح من الكتابة نفسها انه نفي بتهمة الخيانة ، ويجب ألا توهمنا الاشارة السابقة بأن ثوكوديدس كان خائنا فعلا لوطنه ، ومعلوماتنا عن تنكر أثينا لأشهر قادتها تدفع بنا الى تصديق التهمة دون الاخذ بها على محمل الجدية ، فمن الثابت — من خلال كتابات ثوكوديدس — انمؤرخنا الجليل كان مخلصا أشد الاخلاص لوطنه ، لدرجة ان ثوكوديدس عندما أدرك ما ينوي مواطنوه فعله بعد وصول نبأ فشله في مهمته العسكرية ، آثر عدم العودة الى وطنه ، وعندما قرروا نفيه ، لم يزد عن اثبات هذا القرار في تاريخه دون ان يتوقف عنده للدفاع عن نفسه أو للوم المسؤولين عن هذا القرار • ويبدو انه بعد صدور هذا القرار قضى ثوكوديدس جانبا كبيرا من وقته في التنقل من مكان الى آخر سعيا وراء جمع المعلومات عن سير الحرب ، ولهذا فانه عندما يصف الحادثة فانه يصفها بعين عسكري خبير ، يحس ويتفهم كل شاردة وواردة ، ولعل أهممافي تاريخه انه استطاع أن يطابق الدراسة النظرية بدراسة ميدانية ، ولذا يمكن اعتبار تاريخه أقرب ما يكون الى الكمال •

وتقسم كتب ثوكوديدس عن الحرب الى خمسة أجزاء هي :

آ — المقدمة وقد ضمنها الكتاب الاول من مؤلفه الكبير •

ب — احداث العشر سنين الاولى من الحرب ، ضمنها الكتاب الثاني •

جـ — المحاولات الفاشلة لعقد السلام ، ضمنها معظم الكتاب الخامس •

د ـ الحرب الصقلية ، ضمنها الكتابين السادس والسابع •
هـ ـ مقتطفات عن المراحل الاخرى للحرب ، ضمنها الكتاب الثامن •

ولعل من الجدير بالذكر الاشارة الى ان الجزء الثاني (ب) والجزء الرابع (د) هما الجزءان الرئيسيان اللذان يتحدثان مباشرة عن الحرب •

ثانيا ـ أسباب حرب البلوبونيز :

وتتجلى قدرة ثوكوديدس على التفرقة بين بواطن الامور وظواهرها عندما نراه يفرق بين الاسباب الحقيقية التي أدت الى الحرب البلوبونيزية وبين المشاحنات التي سبقت الحرب • ويبين انه استعار ذلك من علم الطب ، وهو الذي كان أول العلوم التي فرقت تفرقة علمية بين العرض والجوهر ، ولا جدال في أن وقوف ثوكوديدس على السبب الحقيقي للحرب كان ثمرة تفكير عميق متصل في المشكلة التي عالجها ، فهو لم يلق على الحرب تلك النظرة السطحية التي ألقاها عليها الكاتب المسرحي أريستوفانس والمؤرخان ديودوروس وبلوتارخوس ، وهم الذين عزوا نشوبها الى قرار بريكلس بحرمان مدينة ميجارا من المتاجرة مع أثينا ، بل درس الحرب دراسة عميقة هدته الى معرفة سببها الحقيقي ، ففي رأيه ان هذا القرار والخطوتين اللتين اتخذتهما أثينا قبل الحرب وهما : قبول أثينا محالفة جزيرة كوركورا (كورفو الحالية الى الغرب من الساحل الغربي لبلاد اليونان) وكانت مستعمرة غنية من مستعمرات كورنثه وتسيطر على طريق التجارة الغربي ، وقيام أثينا بمحاصرة مدينة بوتيداية وكانت مستعمرة اخرى لكورنثة في شبه جزيرة خاليكيديكي (شمال شرق اليونان) ، وهذا القرار وهاتان الخطوتان شكلت أهم أسباب التذمر والشكوى من سلوك أثينا ، أما السبب الحقيقي للحرب فهو اطراد نموقوة اثينا الى حد أفزع اسبرطة وهدد كيانها ، وهذا هو الرأي السائد اليوم •

١ ـ انتصار أثينا لجزيرة كوركورا ضد كورنثة :

واذا كانت أسباب التذمر والشكوى من سلوك أثينا واطراد نمو قوتها جعل امكانية الحرب محتملة فان الاحداث التي تلت ذلك جعلت الحرب مؤكدة الوقوع •

وبيان ذلك أن خلافا نشب بين مدينة كورنثة وكانت احدى كبريات اعضاء حلف البلوبونيز وبين مستعمرة استيطانية هامة لها هي جزيرة كوركورا ، وكان سبب الخلاف بين المدينة الام ومستعمراتها ، هو تأييد كوركورا لاحد الاطراف المتنازعة في مستعمرة اخرى لكورنثة في شمال البلقان وتأييد كورنثة للطرف الاخر ، وأمام عجز كوركورا عن التصدي لقوة كورنثة استنجدت بأثينا التي لم تتورع عن التدخل وهزيمة كورنثة في معركة بحرية عام ٤٣٣ •

وكانت بوتيدايه مستعمرة اخرى لكورنثة وقعت بالقوة تحت سيطرة أثينا في حين كانت تؤيد كورنثة قلبا وقالبا ، وبتشجيع من الاخيرة قامت فيها ثورة طلبت تأييد الحلف البلوبونيزي فأرسلت كورنثة لها عددا من المتطوعين تمكنوا من توسيع رقعة الثورة ، الا انهم اضطروا في النهاية الى الاستسلام لقوة أثينية في خريف عام ٤٣٢ •

٢ ـ قرار بريكلس بحصار ميجارا واعلان الحرب :

ويبدو أن اسبرطة قد آثرت (نتيجة سياسية العزلة ولشدة خشيتها من قوة أثينا) أن تكتم غيظها من التحرشات الاثينية رغم مناشدة كورنثة وحليفاتها اياها التدخل ، وقد لعب الغرور الاثيني دوره هنا في اذكاء الحرب الباردة ، وذلك حين اعلن بريكلس قراره المشهور بتحريم دخول السفن الميجارية لموانىء أثينا وحليفاتها ، وحرمان تجار ميجارا من التعامل مع الاسواق التي تسيطر عليها اثينا ، ولما كانت مدينة ميجارا أحدى أهم مدن حلف البلوبونيز ، وكانت مصالحها التجارية تتهدد فيما لو طبق هذا القرار بشكل يؤثر حتى على حياة سكانها ، فقد كانت الخطوة الاثينية هذه بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير ، ولم يعد باستطاعة اسبرطة السكوت عن مثل هذه الاعمال فدعت مجلس حلف البلوبونيز للاجتماع •

واجتمع مجلس الحلف في اسبرطة وسط جو مشحون بالنقمة والحقد والكراهية ضد اثينا ، ورغم الاصوات الكثيرة التي نادت بالحرب المباشرة فقد انتصر رأي الاقلية المعتدل والقائل بوجوب ارسال سفارة مشتركة الى أثينا ،

ومطالبتها بأن تلغي حصارها ميجارا وبوتيدايه ، وان تخلي جزيرة ايجينا من حامياتها •

بيد انه لما رفضت اثينا مطالب الحلف ارسلت اسبرطة انذارا اكتفى بابلاغ الاثينيين الطلب التالي : « ان الاسبرطيين يرغبون في السلام ، وسوف يكون هناك سلام اذا منحتم الاغريق حريتهم ، » وكان من الطبيعي ان هذا الانذار لم يكن موجها الى اثينا بقدر ماكان موجها الى بقية المدن الاغريقية التي تدور في فلك أثينا ، واثارة الاحزاب المناوئة لها داخل تلك المدن وتفتيت القوة الاثينية البحرية بوجه خاص • وقد عرفت اثينا بدورها هدف اسبرطة من الانذار وأسرعت بارسال ردها الشهير « ان اثينا تقبل التحكيم ، ولا ترغب أن تطلق شرارة الحرب ، ولكنها ستدافع عن نفسها بعنف اذا ماهوجمت » • وعندما تطورت الاحداث على هذا النحو ، أصبح مؤكدا أن الحرب ستنشب عاجلا ، وبدأت أثينا واسبرطة ترسل وفودا الى المدن الاغريقية لتحديد مواقفها من الحرب المقبلة •

ثالثا ـ حرب العشر سنوات :

١ ـ ميزان القوى

ويحدثنا ثوكوديدس في صدر الكتاب الثاني ان « عواطف الاغريق كانت مع الاسبرطيين لانهم نصبوا انفسهم محرري بلاد الاغريق ، وكانت المدن والافراد في لهفة على بذل قصارى الجهد لمساعدتهم بالقول والعمل ، واذا عجز شخص عن المشاركة بدا له وكأن الدنيا قد توقفت ، فقد كان استياء الناس من الاثينيين شديدا وكان بعضهم يتطلع الى الخلاص منهم ؛ والبعض الآخر يخشى الوقوع تحت سيطرتهم » • وبالاضافة الى أن عواطف معظم الاغريق كانت مع اسبرطة ، فقد كان تساندها كافة مدن البلوبونيز باستثناء اقليمي ارجوليس وآخايه اللذين أعلنا حيادهما • كما كانت تساندها اهم المدن في اليونان الاوسط كورنثة وميجارا وطيبة وكذلك اقليمي لوكريس الشرقي وفوكيس في شمال غرب بيئوتية وبعض المدن والاقاليم الاخرى الاقل أهمية •

وفي مواجهة هذه القوة اعتمدت اثينا على اسطولها القوي وولاء حليفاتها

في أيونية وشبه جزيرة خالكيديكي وتساليه واركانانيه وجزيرتي يوبويه وكوركورا وعدد من الجزر والمدن الصغرى الاقل أهمية • وكان التفوق البحري الاثيني يقابله تفوق اسبرطي بري ، ولذلك فقد تركزت خطط اثينا الاستراتيجية على تجنب الدخول في معارك برية مع اسبرطة في حين ابتعدت اسبرطة عن الدخول في مجابهة بحرية مع الاسطول الاثيني ، وحاول كل من الطرفين جر الاخر الى معركة يتفوق فيها على خصمه مع محاولة توجيه ضربات منهكة لقوة الخصم في الاوقات المناسبة •

٢ ـ انطلاقة الحرب :

وكان وضع مدينة بلاتاية في اقليم بيئوتية جنوبي طيبة شاذا جدا ، فقد كانت تؤيد اثينا وتقع هي وممتلكاتها في ارض معادية بالقرب من مدينة طيبة ، ويبدو أنها كانت على علاقة سيئة بطيبة التي استغلت انضمامها الى أثينا وقامت بمهاجمتها في آذار (مارس) من عام٤٣١ قبل بداية الحرب الفعلية بين أثينا واسبرطة بشهرين كاملين •

وأدرك بريكلس بثاقب نظره ان القوات الاسبرطية لن تتأخر عن مهاجمة اقليم اتيكا ، وامام عجزه عن حماية سكان الاقليم نظرا لضعف قواته البرية ، فقد طلب من سكان الاقليم هجر مساكنهم والالتجاء الى اثينا والتحصن بأسوارها ، في الوقت الذي طلب من الاسطول متابعة تزويد العاصمة باحتياجاتها الغذائية والقيام بهجمات متفرقة على شواطىء البلوبونيز والمدن الحليفة لاسبرطة •

وصدق ماتوقعه بريكلس اذ سرعان ما اجتاحت القوات البلوبونيزية اقليم أتيكا في ربيع عام ٤٣١ ، وبدأت بتخريب الحقول وقلع أشجار الزيتون وغرسات الكروم وحرق القرى أمام أعين الاثينيين الذين بدأوا يتهامسون حول تقاعس بريكلس وينتقدون تخاذله امام العدو • ولما لم يكن امام بريكلس فرصة للتصدي للقوات الاسبرطية ، فقد حاول جاهدا بما اوتي من مقدرة خطابية امتصاص نقمة الجماهير عن طريق تذكيرهم بالواجب الملقى على عاتق العظماء وان المجد لايمكن الحفاظ عليه دون تحمل تكاليفه ، كما أخذ يبث فيهم الامل ويؤكد لهم اخبار

انتصارات أساطيلهم ،واختتم مرة احدى خطبه بقوله :«واذا اضطررنا آخر الامر الى الحد ولو بمقدار من عظمتنا ، فكل شيء له مدّه وجزره ، وسيذكر الناس دوما أننا من بين سائر المدن الاغريقية كان لنا اكبر عدد من الرعايا ... واذا كانت الكراهية دوما نصيب اولئك الذين يطمحون الى حكم غيرهم .. فان هذه الكراهية لاتدوم طويلا ، في حين ان جلال المجد يبقى خالدا الى الابد » .

٣ ـ الطاعون يجتاح أثينا وموت بريكلس :

وفي مطلع عام ٤٣٠ هاجمت القوات البلوبونيزية اقليم اتيكا مرة اخرى وردت أثينا بهجوم بحري يائس على شواطىء البلوبونيز والمدن الحليفة لاسبرطة ، وفي تلك الاثناء ساءت الحال في أثينا لدرجة كبيرة فقد أنزلت الحرب فيها خسائر بشرية ومادية أدت الى تدهور الروابط الاسرية بشكل لم يسبق له مثيل . وأصبح همّ كل فرد تأمين معيشته واحتياجاته الخاصة ، ويصور لنا الشاعر الكوميدي اريستوفانس الحالة الاجتماعية على أسوأ صورة ، وذلك عندما تفشت ظاهرة الانحلال الخلقي التي أدى اليها ذلك النقص الكبير في عدد الرجال الذين التهمتهم الحرب أو الذين كانوا بعيدين في ساحات الوغى ، ولم يقتصر سوء الحال على هذا الامر ، فقد ساعد تكدس البشر في اثينا والحالة الصحية التي تردت فيها الى انتشار مرض الطاعون في نهاية ذلك العام . ويصف لنا ثوكوديدس الحالة العامة بكثير من الاسى ، ويصف كيف أن المرضى كانوا يرمون بأنفسهم في الابار وخزانات المياه لاطفاء لهيب اجسادهم المحترقة بالمرض ، ويبرر ثوكوديدس انهيار الروح المعنوية عند الاثينيين وانتشار الالحاد والعبث بالقانون بقوله ان « الناس شاهدوا الموت بأم أعينهم يلحق بالورعين والملحدين على السواء ، كما لم يكن احد ليخشى العقاب من جراء خرقه للقوانين لان احدا لم يكن يضمن عيشه حتى ينال العقاب » . ولذا فقد سادت ظاهرة اللامبالاة والانغماس في الملذات قبل ان ينفذ القدر في مرتكبيها حكم الاعدام بالطاعون .

وقد بلغ من شدة هذا المرض ان قضى على مايقرب من ثلث سكان اقليم أتيكا . وفي نهاية عام ٤٢٩ سقط بريكلس ضحية لهذا الوباء وفقدت أثينا بموته

اعظم سياسييها وأشجع أبنائها ، واهتزت البلاد لفقده وزادت الحالة سوءا على سوء ، وخلا الجو السياسي للانتهازيين من أمثال كليون الذي استمال غوغاء آثينا وأشهر عداءه للنبلاء والطبقة المتوسطة على حد سواء ، وتفجر بهذا الوضع الصراع الاجتماعي الرهيب بين العامة والنبلاء على حساب المصلحة العامة وفي الوقت غير المناسب .

٤ ـ انتصارات أثينية متفرقة :

ومن كومة هذه المصائب نجح الاسطول الاثيني بقيادة احد اميرالاته في حصار مدينة بوتيدايه واجبارها على الاستسلام ، كما تمكن عام ٤٢٧ من القضاء على ثورة أشعلتها اسبرطة في موتليني (Mytelene) عاصمة جزيرة لسبوس واحدى أهم حليفات اثينا في بحر ايجه . ويبدو أن المقاومة العنيفة التي أبدتها المدينة دفعت كليون الى اصدار حكم باعدام جميع أهالي المدينة القادرين على حمل السلاح وبيع النساء والاطفال في اسواق النخاسة ، وقد خفف هذا الحكم بعد استعطافات الشيوخ والنساء الى اعدام زعماء الثورة ومصادرة سفن المدينة وكافة أراضيها وتوزيعها على مستوطنين اثينيين مهاجرين . فكان هذا القرار المتهور بحق من أقسى القرارات التي ساهمت في تكريس عداء الاغريق لاثينا في وقت كانت فيه أثينا أحوج ما تكون الى أقل المساعدة والدعم . وعندما حقق الاسطول الاثيني انتصارا حاسما على مؤيدي اسبرطة في الساحل الايوني ، وبعد ضمان السيطرة الاثينية على الجبهة الغربية صدرت الاوامر الى معظم الاسطول الاثيني بمهاجمة اسبرطة في عقر دارها .

وفي عام (٤٢٥) ابحر الاسطول الاثيني حول شبه جزيرة البلوبونيز واستطاع احتلال مدينة بولوس (Pylos) في مقاطعة مسينية وكذلك الحاق هزيمة بالقوات الاسبرطية التي حاولت صد الهجوم . وعندما طلبت اسبرطة عقد سلام مع الاثينيين رفض الاخيرون هذه الفكرة ، واستعدوا لمتابعة الحرب .

٥ ـ نكبات أثينية ونهاية الجولة الاولى من الحرب :

وفي مطلع عام ٤٢٤ وحين كان الاسطول الاثيني يضغط بشدة على شواطىء

البلوبونيز الشمالية الشرقية محاولا احتلال نيساية (Nisaea) أرسل الاسبرطيون احد أشهر قادتهم المدعو براسيداس لتهديد خطوط مواصلات المواد التموينية الاثينية من البحر الاسود في اقليم تراقية على الشاطىء الغربي للبوسفور ، وبعد ان تمكن من فك الحصار عن نيساية اتجه شمالا حيث استولى على مدينة أكاثوس (Akanthos) وحاصر امفيبوليس ، ولم تستطع الحملة التي أرسلتها أثينا بقيادة مؤرخنا ثوكوديدس انقاذ المدينة التي سقطت في أيدي الاسبرطيين •

وعندما حاولت أثينا ارسال حملة لاحتلال اقليم بيئوتية هزمت هزيمة ساحقة ، كما تبعتها هزيمة اخرى عندما حاولت استرداد مدينة امفيبوليس وقتل في هذه المعركة كلا من كليون الاثيني وبراسيداس من الجانب الاسبرطي • ويبدو ان الظروف كانت ـ بمقتل صقري الحرب الاثيني والاسبرطي ـ تمهد لسلام كان الاثينيون والاسبرطيون يتوقون اليه ، وجاءت المبادرة نحو السلام من جانب ثري أثيني يتمتع بثقة الاسبرطيين يدعى (Nikias) ، وقد وافق الطرفان بمساعي نيكياس وبعد مفاوضات طويلة على عقد سلام لمدة خمسين عاما أهم شروطه :

١ ـ ان يحتفظ الطرفان المتحاربان بالاراضي التي احتلاها •

٢ ـ ان يتبادل الطرفان الاسرى بأسرع وقت ممكن •

رابعا ـ المرحلة الثانية من الحرب وانهيار أثينا :

وهكذا اسدل الستار على الطور الاول من أطوار الحرب بعد أن تكبد الطرفان خسائر فادحة ، ودون أن يحقق أي منهما مكاسب تذكر على حساب الطرف الآخر ، ولو أن أثينا كانت أقرب الى ان تكون الحرب عامة في صالحها رغم أنها دفعت من أجل ذلك ثمنا كبيرا •

ويبدو ان شروط السلام أو الهدنة بتعبير أدق قد حققت بعضا من مطالب الاثينيين والاسبرطيين من دون بقية حلفائهما الذين لم يوافقوا أصلا على السلم كما لم يدعوا بدورهم للتوقيع عليه ، ولذا فقد ساد التذمر بين هؤلاء الحلفاء وبخاصة أعضاء الحلف البلوبونيزي لدرجة دعت بعضهم الى الدعوة للثورة على اسبرطة

بتشجيع من أثينـــا ، وكان المحرض على هذه الثورة سياسي جديد لمـــع نجمه في أثينـــا في تلك الفترة ويدعى (Alkibiades)

١ ـ الكيبيادس السياسي المتهور :

وكان الكيبيادس ابناً لأحد سياسيي أثينا ، ولكنه ترعـــرع في بيت بريكلس العظيم ، وكان جميل الصورة ذكيا ومثقفا ومغرورا وانتهازيا في الوقت نفسه ، وكان تلميذا وصديقا حميما للفيلسوف الكبير سقراط ، شارك معه في عدد من معارك العشر سنوات الاولى من الحرب ، واستطاع بسحر شخصيته ان يستميل القلوب وان يفوز في الانتخابات بمنصب القائد • وسرعان ما عمل على تدعيم أركان الحزب الدمقراطي الذي كان ينادي بمتابعة الحرب لاكتساب مزيد من الشهرة عـــن طريق الانتصارات العسكرية ، ولذلك دعم فكرة التدخل لمساعدة الثـــوار في أرجوس وماتتينيه وايليس ضد اسبرطة •

٢ ـ بدء المناوشات :

وفي العـــام التالي (٤١٨) ، وفي الوقت الذي خسر فيه الكيبيادس معركـــة الانتخابات لم تعـــد اسبرطة تتحمل التدخل الاثيني في المدن الثائرة عليها ، فأرسلت حملة بقيادة ملكها (Agis) لسحق الثورة التي أذكى نارها الجنود الاثينيون في تلك المدن ، وفي معـــركة بالقرب من ماتتينيه هـــزم الاسبرطيون الثوار والجنود الاثينيون الذين كانوا يساعدونهم ، واستعادت اسبرطة بذلك بعض بريق شهرتهـــا العسكريـــة •

وعندما أعيد انتخاب الكيبيادس في العام التالي ، دفعت أثينا ثمنا باهظـــا لحماقة ارتكبها في جزيرة ميلوس ، وكانت أحدى جزر البحر الايجي الحليفة لأثينـــا وقد ضاقت ذرعا لشدة فقرها بالاتاوة المفروضة عليها كمساهمة في تكاليف الحلف الديلوسي ، وعندما طالبتها أثينـــا بدفع هذه الاتاوة ، ثـــار سكانها وامتنعوا على القوات الاثينية فترة من الوقت ، ولكنهم لم يلبثوا ان استسلموا لهـــذه القوات التي عاقبتهم باعدام معظم ذكورهم وبيع نسائهم وأطفالهم وتقسيم أراضيهم بموافقة مسبقة من الكيبيادس •

وقد أثارت مذبحة ميلوس موجة من الحقد والكراهية تجاه أثينـا ، وارتفعت أصوات أعدائها واصدقائها على السواء منددة بهذا العمل البربري الشنيع ، لدرجة ان ثوكوديدس الاثيني نفسه عبر صراحة عن اداتنه لهذا العمل ، كما عبر الشاعر المسرحي يوريبيدس عن أسفه لمثل هـذا السلوك البربري في مسرحيته « نسـاء طروادة » • ولم يكن هذا العمل هو العمل الوحيد الذي تورط فيه الكيبيادس ، بل ارتكب حماقة اخرى أدت الى الحاق أكبر الاذى بسمعة هذه المدينة التي كان مـن الاولى بها أن تبحث عن أصدقاء لها في مثل هذا الوقت ، وكانت هذه الحماقة هـي تدخل أثينا في النزاع بين اغريق صقلية •

٣ ـ حملة صقلية :

سبق أن عرفنا شيئا عن هجرات بعض اغريق بلاد اليونان القارية الى بعض جزر البحر المتوسط الشرقية والغربية ومنها صقليه، ولما كان المهاجرون الاوائل الى صقلية أقليـة يخشون بأس القـوى المجاورة ، فقد شكلوا اتحـادا في عـام (٤٨٠) واستطاعوا هزيمة حملة قرطاجية تهدف الى استعمار الجزيرة • ولكن هذا الاتحاد والوئام لم يدم طويلا ، فسرعان ما دب الخلاف بين المنتصرين وتطور الى قتال بين عدد من المدن • وكان من الطبيعي ان يجد المتنازعون في العداء بين أثينا واسبرطة فرصة لطلب المعونة ، وفي عام ٤٢٧ طلبت مدينة ليونتيني (Leontini) مساعدة أثينـا ضد جارتها سيراكوسه وكانت مستعمرة غنية لكورنثة وحليفة اسبرطـة ، ولكن أثينـا المنغمسة في حرب العشر سنوات لم تستطع التدخل في الوقت المناسب وعندما طلبت مدينة (Segesta) الطلب نفسه في عـام ٤١٦ ارسلت أثينا وفـدا للاطلاع على الاحوال العامة والبت في هذا الطلب •

ولمـا كان أهل المدينة يعلمون جيدا جشع الاثينيين ، فقد حاولوا قدر طاقتهم اظهار أنفسهم بمظهر الاغنياء ، عن طريق تناقل المواطنين لاعداد من أطباق الذهب والفضة بين البيوت التي زارها الوفد • وعندما عاد الوفد ، وقصّ على مسامع الكيبيادس مشاهداته هناك ، سال لعاب الاثينيين لمساعدة هذا الحليف المغرق في الثراء ، ولم يجد الكيبيادس صعوبة في اقناع الاثينيين بأهمية ارسال نجدة الى هذه المدينة ضد سيراكوسة مستعمرة كورنثة عدوة أثينـا ، ووافق الجميع على ارسال

هذه الحملة باستثناء نيكياس ، الذي انتخب رغما عنه مع الكيبيادس وقائدين آخرين يدعى احدهما (Lamachos) والثاني (Demosthenes) لقيادة الحملة .

وفي صبيحة اليوم المحدد لابحار الحملة ، أفاق الاثينيون ليجدوا معظم تماثيل الاله هرمس (ابن زيوس واله الحظ والتجارة والمسافرين) محطمة ، ويبدو ان بعض السكارى أو بعض جواسيس كورنثة وسيراكوسة قد أقدموا على هذا العمل لاعاقة أو الغاء الحملة ، وتطيَّر الجميع من هذا الطالع السيء وبدأوا يتهامسون حول فكرة الغاء الحملة ، ولكن الكيبيادس تمكن بعد لأي من اقناع الاثينيين مرة أخرى فوافقوا مرغمين .

ولم تكد الحملة تصل الى سواحل سيراكوسة حتى نجح بعض أعداء الكيبيادس السياسيين في تلفيق تهمة ضده واصدار الاوامر بالقبض عليه ومحاكمته ، ولما وصل الامر الى الكيبيادس قرر الهرب والالتجاء الى اسبرطة ، وهناك كشف للاسبرطيين عن نقاط الضعف في الاستراتيجية الاثينية وطلب اليهم ارسال حملتين احداهما الى مدينة ديكليه شمال أثينا وكانت مركزا هاما من مراكز تموينها والاخرى الى سيراكوسه لانقاذها من خطر الوقوع في قبضة أثينا . ويبدو أن نوعية المعلومات التي قدمها الاثيني الخائن كانت على درجة من الاهمية والخطورة بحيث مكنت الاسبرطيين عام ٤١٤ من الحاق هزيمة برية وبحرية كبيرة بالقوات الاثينية ، التي فقدت معظم قادة الحملة مثل نيكياس ودموسثنس ولاماخوس ضمن خمسة واربعين ألف جندي بين قتيل وجريح وأسير ، كما تعرضت أثينا لأقسى أزمة اقتصادية بسبب احتلال الاسبرطيين لمنطقة تموينها الرئيسية في ديكليه .

٤ ــ احداث الحرب الاخيرة واستسلام اثينا :

وفي عام (٤١٢) عقد الفرس اتفاقا مع اسبرطة تعهدت فيه اسبرطة تهيئة الجو للفرس لاستعادة ممتلكاتهم في ايونية ، مقابل مساعدة الفرس لهم في حربهم ضد أثينا ، ويبدو ان تكالب الاخطار على أثينا قد أيقظت في نفس الكيبيادس المشاعر الوطنية،فعمل على مساعدةالقوات الاثينيةعندما حاولت الاستيلاء على جزيرة خيوس ، كما مهدت له ظروف غامضة عودته الى مدينته ، حيث قام منذ (٤١٢) وحتى

عام (٤٠٧) بقيادة الاسطول والقوات الاثينية ، وحقق لأثينا بعض الانتصارات الجانبية على الاساطيل والقوات الفارسية في كل من ايونية وجزر البحر الايجي ، وفي مطلع عام ٤٠٦ هزمت بعض قطع الاسطول الاسبرطي اسطولا أثينيا مما أدى الى استصدار قرار اثيني بعزل الكيبيادس الذي فر الى مقاطعة فروجية في آسية الصغرى حيث اغتيل بعد ذلك بمدة قليلة .

ورغم أن أثينا قد حققت بعد فرار الكيبيادس في معركة (Arginosae) نصرا مبينا على القوات الاسبرطية ، فان تقاعس قادة الاسطول عن مد يد العون الى الجرحى الاثينيين أثناء المعركة أثار الشبهات حولهم فأعدم ستة منهم ، وبذلك خسرت أثينا عددا من أكفأ قادتها العسكريين وحفرت بنفسها قبرها الذي اتجهت اليه بمحض اختيارها . إذ سرعان ماحقق الاسبرطيون نصرا على الاسطول الاثيني عام (٤٠٥) وأسروا كل سفنه باستثناء تسع منها ، وبذلك أسقط في يد أثينا وبدأت استعداداتها للحصار الذي توقعته . وتوجه اسطول اسبرطي يسانده جيش كبير بقيادة الملك باوسانياس لاحتلال أثينا التي تمنعت أول الامر ثم قبلت شروط التسليم التي قضت بأن :

١ ــ تقتصر السيادة الاثينية على اقليم اتيكا وجزيرة سلاميس

٢ ــ تزال كافة التحصينات عن العاصمة وميناءها بيرايوس

٣ ــ لا يسمح للاثينيين بامتلاك أكثر من اثنتي عشر سفينة حربية

٤ ــ يسمح بعودة جميع المنفيين السياسيين

٥ ــ تعترف أثينا بزعامة اسبرطة وهيمنتها على كل بلاد اليونان .

ـ أهم مصادر الباب الثالث :

— Aeschylus (Persae)

— Aristophanes (Archarnians) (Knights) (Peace) (Wasps)

— Diodorus Siculus, World History, Books 4 - 6.

— Plutarchus, Lives, (Themistocles) (Aristides) (Cimon) (Pericles).

— Thucydides, History of the Peloponnesian War.

ـ مراجع مختـارة :

— Andrews and Dover, Historical Commentary on Thucydides (Oxford 1970).

—Burn. A.R., Persia and the Greeks (London 1963)

— Bury. J. B, and Meiggs. R, A history of Greece (London 1977).

— Dover. K.J., Aristophanes Comedy (London 1972)

— Ehrenberg. V, The People of Aristophanes (Oxford 1951).

— Grundy. G.B., The great Persian War (London 1901)

— Gomme. A.W, Historical Commentary on Thucydides (Oxford 1945 - 56).

— Hignett. C, Xerces Invasion of Greece (Oxford 1962)

— Hill. G. F, Sources for Greek History (London 1951).

— Hill. I.T., The Ancient City of Athens (London 1953).

— Kagan. D, Outbreak of the Peloponnesian War (Ithaca 1969).

— Lewis. N, The Fifth century B.C. (Toronto 1971).

— Meiggs. R, The Athenian Empire (Oxford 1972).

— Meritt and others, The Athenian Tribute Lists (Cambridge 1939-53).

— De Romilly. T, Thucydides and The Athenian Imperialism (Paris 1947) tran.

ـ ابراهيم نصحي ، ثوكيديدس ، (بنغازي ـ الجامعة الليبية ـ دون تاريخ)

ـ ارنولد توينبي ، تاريخ الحضارة الهلينية (القاهرة ـ ١٩٦٣)

ـ ارنولد توينبي ، الفكر التاريخي عند الاغريق (القاهرة ـ ١٩٦٦)

الباب الرابع

نهاية القوى الكبرى

الفصل الثامن

التسلط الاسبرطي ونهاية اسبرطة

(٤٢١ ـ ٣٧١)

أولا ـ اسبرطة بعد الحرب :

١ ـ السياسة الخارجية :

واذا كان هناك من نتيجة حاسمة للحرب البلوبونيزية ، فهي أن اسبرطة أبعدت عن طريقها منافسا خطرا ، وانفردت بمسرح السياسة الاغريقية بعد ان ورثت عن أثينا امبراطوريتها البحرية ، واضطرت والحالة هذه ان تخرج من نطاق قوقعتها في بلاد البلوبونيز لتلعب ولكن لفترة بسيطة دورا عالميا لم تكن مؤهلة له .

وكان سلوك اسبرطة مع غريمتها بعد الحرب كريما وذكيا ، فقد رفضت بشدة تلبية رغبة حليفاتها تدمير أثينا وازالتها من الوجود ، وردت على حليفاتها بأنها لا تستطيع تدمير قطعة عزيزة من بلاد اليونان ، فهي لازالت تذكر دور الاثينيين في حماية بلاد اليونان من الخطر الفارسي في ماراتون وغيرها من المعارك القومية ، ويرى بعض الباحثين ان الكرم الاسبرطي كان مدفوعا برغبة العمل على جعل أثينا رأس حربة للقوة الاسبرطية ضد أطماع طيبة التي بدأت تظهر رغبتها بالعمل على

فرض سيطرتها على اقليم بيئوتية ، أسوة بالسيطرة الاسبرطية على اقليم لاكونية والسيطرة الاثينية على اقليم اتيكا • ويبدو ان العداء الشديد الذي كان الاثينيون يكنونه للاسبرطيين أفشل مخططات الاخيرين السابقة ، فعندما قامت طيبة بمساعدة اللاجئين السياسيين الاثينيين على اسقاط نظام الحكم الاوليجاركي في أثينا ، لم تجد اسبرطة بدا من الاعتراف بالامر الواقع وعقد معاهدة مع منافستها اعترفت فيها بعودة النظام الدمقراطي اليها • ونسيت اسبرطة في غمرة انتصارها الشعار الذي رفعته ابان الحروب البلوبونيزية ألا وهو تحرير كافة المدن الاغريقية ، وأخذت في اقامة حاميات لها في المناطق التي استولت عليها ، كما بدأت محاولاتها لاسقاط كافة الحكومات الدمقراطية في المدن الاغريقية • واقامة حكومات أوليجاركية تأتمر بأمر قواد الحاميات العسكرية المرابطة بالقرب منها • وعندما فشل هؤلاء القواد في معالجة أمور المدن التي رابطوا بالقرب منها ، ومالوا الى الحياة المترفة بعيدا عن حياة الجدية التي اعتادوا عليها في اسبرطة ، ادركت جميع المدن في بلاد اليونان ان الحكام العسكريين الاسبرطيين ليسوا بحال من الاحوال بأقل من أسلافهم جباة الضرائب الاثينيين تعسفا وشدة ، وراحت حتى المدن التي انشقت عن أثينا أثناء الحرب تئن تحت وطأة القسوة الاسبرطية وتتأسف على أيام التسلط الاثيني •

وعندما تعاظم هذا الشعور الى نقمة عامة وجدت اسبرطة ان خير حل للوضع العام هو كسب صداقة دولة عظمى مثل فارس تساعدها في حفظ الامن وتدرأ عنها خطر حليفاتها قبل أعدائها • ولذلك فقد عمل اميرالها الشهير لوساندر (Lysander) جاهدا على المحافظة على صداقته مع الامير قورش (Kyros) ابن دارا ووالي آسية الصغرى • وكان دارا قد عين ابنه الاصغر قورش واليا على آسية الصغرى أثناء حياته وعهد بولاية العهد الى ابنه الاكبر اكسركسس (Xerxes) ولما قضى دارا ، خلفه على العرش ابنه الاكبر وولي عهده اكسركسس الذي أبقى على أخيه الاصغر منصبه رغبة في ابعاده عن مقر الحكم • ولا يعرف سبب غير طموح قورش للنزاع الذي استحكم بين الاخوين، وعندما احتدم النزاع أخذ قورش في اعداد حملة عسكرية للاطاحة بحكم أخيه ، وطلب مساعدة اسبرطة التي لم تتردد في امداده بالعون وساعدته على تجنيد جيش من المرتزقة الاغريق تحت قيادة اسبرطي يدعى لكيارخوس ، وقد بلغ تعداد هؤلاء المرتزقة ثلاثة عشر ألف رجل منهم عشرة

آلاف وستمائة من المشاة كان من بينهم المؤرخ اكسنوفون (Xenophon) الـــذي أمدنا بمعلومات قيمة عن الحملة في كتابه الشهير (Anabasis) ويعني السير شرقا •

وبعـــد أن تجمعت جيوش قورش التي بلغت مائة ألف رجـــل بالاضافة الى المرتزقة الاغريق في مدينة ساردیس على الساحل الايوني انطلقت باتجاه الشـــرق وعبرت الفرات ودجلة ، وعلى مشارف قرية كوناكسا على نهر الفرات شمال بابـــل التقى جيش قورش بجيش أخيه ودارت معركة طاحنة أدت الى مقتل قورش وتفرق جيوشه ، في حين حافظ المرتزقة الاغريق على نظامهم وعادوا باتجاه الغرب في رحلة شاقة تكبدوا فيها من المشاق وصفها لنـــا اكسنوفون بالتفصيل في كتابـــه السابق الذكـــر •

٢ ـ تدهور العلاقات بين اسبرطة وفارس واندلاع الحرب :

واستغلت المدن الاغريقية في آسية الصغرى فرصة الخلاف بين قورش وأخيه وراحت الواحدة بعد الاخرى تثور وتطـــرد حامياتها الفارسية وتعلن استقلالها • ووجد اكسركسس صعوبة كبرى في السيطرة على هذه الثورات المتلاحقة التي كانت تحظى بتأييد كافة المدن اليونانية • وكنتيجة حتمية لتأييد اسبرطة قورش في ثورته السابقة الذكر فقد تأزمت علاقة فارس باسبرطة ، وتعاظم حقد اكسركسس عـــلى الاغريق عامة والاسبرطيين بشكل خاص •

وعندما رجح الاسبرطيون احتمال اندلاع حرب بينهم وبـــين الفرس قرروا أن يأخذوا زمام المبادرة ، فتذكروا فجأة الشعار القديم وهو حق المدن الاغريقية في الحرية والاستقلال ، وأصدروا بيانا أيدوا فيه ثورة المدن الاغريقية في آســـية الصغرى ووعدوها بالمساعدة العاجلة ، وأرسلوا فعلا قوة اسبرطية لتحرير هـــذه المدن ، ويبـــدو أن هذه القوة كانـــت ضئيلة لدرجـــة أدرك قائدهـــا أجسيلاوس (Agesilaos) استحالة تحقيق نصر مبين على الفرس ، فحاول التفاهم مع اكسركسس وأرسل رسولا يعرض عليه السلام والاعتراف بحرية واستقلال المدن الاغريقية ، ولكن الملك رفض الاقتراح وعين أحد الاثينيين ويدعى كونون (Konon) قائـــدا على الاسطول الفارسي في بحر ايجه وطلب اليه التصدي للحملة الاسبرطية •

وفي صيف عام ٣٩٤ ظهر الاسطول الفارسي بقيادة كونون قـرب شواطىء آسية الصغرى ، وعند مدينة (Knidos) في أقصى الشاطىء الجنوبي الغربي تمكن كونون من الحاق أكبر هزيمة بحرية لحقت باسبرطة في تاريخها ، وذلك عندما دمـر اسطولها وقتل قائده وأسر البقية الباقية من سفنه •

٣ ـ تدهور العلاقات بين اسبرطة وحليفاتها :

ولم تكن اسبرطة ـ كما أسفنا ـ بأحسن حالا في معاملتها حليفاتها من أثينا ، فقد احتفظت لنفسها بكل ثمار النصر الذي شاركت فيه حليفاتها وضحت من أجله ، وبدأت تعامل الجميع باحتقار وقسوة شديدين • وعندما تمردت مدينة ايليس (في مقاطعة ايليس شمال غـرب البلوبونيز) ، اتبع الملـك الاسبرطي اجسيلاوس في معاملتها المعاملة نفسها التي اتبعها الكيبيادس في جزيرة ميلوس سابقا ، وذلك حين أعدم المتمردين ونهب أراضي المدينة وفرض عليها شروطا لا تفرض في العادة على الحلفاء ، فتعالت الاصوات في المدن الحليفة لأسبرطة تحرض على التمرد والثورة •

واستغل الفرس فرصة سيادة هذا الشعور فأرسلوا عملاءهم الى أهم حليفات اسبرطة مثل ارجوس وكورنثة وطيبة لحضها على الثورة ، وكانت طيبة تستعد لمثل هذه اللحظة ، وسرعان ما استغلت نزاعا نشب بين مدينتي فوكيس ولوكريس وأيدت فيه الاخيرة حين أيدت اسبرطة الاولى ، وفي المعركة التي نشبت بين الطرفين ألحق الطيبيون هزيمة بالاسبرطيين وقتلوا قائد حملتهم •

وفي أواخر عام ٣٩٤ احتفل أعداء اسبرطة بانتصار طيبة ، وطالبت كورنثـة بتصعيد الحرب ضد اسبرطة وازالتها من الوجود • ولم ينتظر الاسبرطيون هجوم الاصدقاء السابقين بل أرسلوا في العام نفسه جيشا الى كورنثة لم يستطع الدخول في معركة حاسمة مع الكورنثيين لخشيته من تدخل طيبة • وعندما طلب الاسبرطيون من ملكهم اجسيلاوس العودة من آسية الصغرى لتدعيم حملتهم ضد طيبة ، أرسل الفرس قائد اسطولهم الاثيني كونون في مهمة لاعادة بناء أسوار مدينته • وفي حين لم يستطيع اجسيلاوس تحقيق نصر حاسم على الطيبيين نجح كونون في اعادة بنـاء أسوار أثينا ، وسرعان ما أحيا قيام الاسوار في نفوس الاثينيين رغبتهم في احيـاء

الامبراطورية مرة اخرى ، ونجحوا في اقناع حلفائهم السابقين في منطقة البحر الاسود بالانضمام اليهم مرة اخرى واعادة المساهمة المالية لدعم المجهود الحربي •

ثانيا ــ انتعاش السياسة الخارجية الاسبرطية :

١ ــ الصلح مع فارس « سلام الملك » :

وكان من الطبيعي وسط هذا الحشد من العداء الصارخ ان تبحث اسبرطة عن حلفاء تشد بهم أزرها ، ويبدو أن عدم نجاحها في محالفة أي من القوى الاغريقية الكبرى دفعها الى التثبت من صواب فكرة عدم الاستمرار في معاداة فارس ، فلجأت كعادتها الى مقايضة حرية المدن الاغريقية في آسية الصغرى مقابل صداقة الفرس ، ولم يكن من السهل اقناع اكسركسس بصواب التعاون مرة اخرى مع الاسبرطيين لولا براعة السياسي الاسبرطي (Antalkidas) • وأصبحت اسبرطة بموجب الاتفاق الجديد الذي عرف باسم « سلام الملك » مسؤولة عن تطبيق نصوصه التي نصت على ان تؤول كل مدن آسية الصغرى وجزيرة قبرص للملك الفارسي مقابل تعهد الاخير بحماية حرية باقي المدن الاغريقية في بلاد اليونان ، واتفق الطرفان على محاربة كل من يرفضون هذه الشروط ، مما اضطر أثينا وباقي الاطراف المتنازعة في بلاد اليونان الى قبول نصوص هذا الاتفاق مرغمين ، وارسال ممثليهم الى سارديس للتوقيع على الاتفاق بعد سماع نصوضه وكان هذا في عام ٣٨٧ •

٢ ــ الصدام مع الحليفات :

وكانت اسبرطة قبل تكليفها بمسؤولية تطبيق الاتفاق الجديد تسيء معاملة أصدقائها وأعدائها على السواء ، فما بالها الآن وقد استندت على صداقة وتأييد الملك الفارسي • وسرعان ما كشرت اسبرطة عن أنيابها واعتبرت أي محاولة للوحدة أو التحصين خرقا لنصوص الاتفاق ، وكان أول صدا ملها مع حلف أولونثوس المكون من تحالف المدن الواقعة في شبه جزيرة خالكيديكي (في أقصى الشمال الشرقي لبلاد اليونان) • واستغلت خلافا نشأ بين مدن الحلف نفسها وخلافا آخر بين الحلف ومقدونية ، للتدخل العسكري واكراه مدينة اولونثوس على حل الحلف

الذي كانت قد أقامته • أما ثاني صدام لها فكان مع مدينة ماتتينيه داخل البلوبونيز نفسها والتي ألزمت بهدم الاسوار التي كانت قد أقامتها في السابق وجزئت أراضيها الى خمس قرى منفصلة • ولم تتوقف اسبرطة عن معاملتها السيئة للمدن الاغريقية ، بل راحت ترغم هذه المدن على قبول منفييها السياسيين الموالين لاسبرطة ، وتقيم حامياتها وتفرض الحكومات العميلة لها بدعم من الملك الفارسي • وقد ساهمت هذه الاعمال في تكريس الشعور بالمـرارة والحقد والكراهية ضـد اسبرطة لدرجة أن مؤرخنا اكسنوفون الذي عرف عنه تعاطفه مـع الاسبرطيين وصف هزيمة طيبـة لاسبرطة فيما بعد بأنه جزاء اسبرطة على ما ارتكبته في حق المدن الاغريقية •

٣ ــ تعاظم قوة طيبـة :

وكانت اسبرطة قبل ذلك بوقت قصير وفي عام ٣٨٢ بالذات قد نجحت فـي تدبير مؤامرة ضد طيبة وساعدت بعض المتآمرين على قلب نظام الحكم الدمقراطي والاستيلاء على السلطة واقامة نظام حكم اوليجاركي يعتمد على حامية اسبرطية متمركزة في المدينة قوامها ألف وخمسمائة جندي • وكان من الطبيعي أن يفر أعداء النظام الى المدن القريبة ، وقد استقبلت آثينا هؤلاء الفارين وساعدتهم على تنظيم أنفسهم تمهيدا لعودتهم ، وكان على رأس هؤلاء الفارين سبعة من القادة الطيبيين لعب رجلان منهما دورا كبيرا فيما بعد في السياسة الطيبية يدعى أحدهما (Pelopidas) والآخر (Epaminondas). • والحقيقة أننا لا نعلم مدى صحة الرواية التاريخية التي تدعي بأن أبامينونداس وبلوبيداس واصدقاءهم السبعة تمكنوا بمساعدة بعض معاضديهم من السيطرة على طيبة تحت جنح الليل ، ولكن الثابت ان الحكم الدمقراطي عـاد مرة اخرى الى طيبـة بقيادة بلوبيداس وابامينونداس وفشلت محاولات اسبرطة المتعددة لاعادة عملائها الى الحكم مرة اخرى ، وكان فشلها هذا فاتحة لظهور أعظم منافسة لها تمت على يديها نهاية اسبرطة المفجعة •

إذ استطاع ابامينونداس وبلوبيداس بما أوتيا من مقدرة سياسية وعسكرية أن يدفعا عن طيبة الاخطار المحيطة بها لفترة طويلة مـن الزمن • ويبدو أنهما كانا يرميان من وراء سياستهما أن ينهضا بطيبة وتكوين امبراطورية خاصة اسوة بما كان

لأثينا واسبرطة ، وفي الوقت الذي انصرف فيه بلوبيداس الى تطوير الامكانات الفنية والتعبوية للفرقة المقدسة الطيبية [1] ، كان أبا مينونداس الذي عرف بثقافته العالية ومقدرته الخطابية وحنكته السياسية يحاول قدر طاقته الافادة من أوضاع الطبقات الدنيا في كل من مقاطعتي مسينية واركادية ــ المجاورتين لاسبرطة من الشمال ــ ، وفي عام ٣٧٠ رد أبا مينونداس الى هؤلاء حرياتهم ، كما أعانهم على تنظيم أنفسهم في مدينة دوله (بوليس) مستقلة • وفي عام ٣٦٩ قام ابا مينونداس باغلاق حدود اسبرطة الشمالية وذلك بجمع شتات الاقاليم الصغيرة التي كانت تقع في جنوب غرب اركادية في مدينة دولة جديدة هي ميجالوبوليس • وهكذا اكتسبت طيبة سمعة جيدة عند المدن الاغريقية واعتمدت على ولاء لا يتزعزع لاقليمين هامين هما مسينيه الى الغرب من لاكونية واركادية شمالها ، في الوقت الذي ما انفكت تطور في قواتها تدريبا وتسليحا وتكتيكا •

٤ ــ صلح كالياس (٣٧١/٣٧٠) :

وكانت اسبرطة تنظر بعين الشك الى الاستعدادات الاثينية وبخاصة تحصين أثينا ، واضطرت مرغمة الى المحافظة فترة من الوقت على علاقاتها السلمية معها خشيه تدخل طيبة ، ولكنه حدث في عام ٣٧٦ أن تحرشت بعض قطع الاسطول الاسبرطي بالاسطول الاثيني الذي كان يقوم بحراسة طرق التموين بين البحر الاسود وجزر بحر ايجه والذي كانت أثينا تستمد منه معظم احتياجاتها من المنتجات الزراعية ، فما كان من الاسطول الاثيني الا ان انقض على السفن الاسبرطية ودمرها تماما • واستعدت اسبرطة للرد على هذا العمل ، ولكن حدوث سلسلة من الزلازل في منطقة البلوبونيز التي أحدثت خسائر فادحة في الرجال والعتاد أوقفت استعدادات اسبرطة ، ورجحت الرأي القائل بوجوب التعاون مع أثينا لدرء الخطر المتمثل في الحشود الطيبية في الشمال •

---

(١) كان قوام كل وحدة من هذه الفرقة ، مائة وخمسون زوجا من الجنود الاصدقاء يحارب كل واحد منهم جنبا الى جنب مع أعز صديق له • وقد أثبتت هذه الفرقة المسلحة تسليحا خفيفا فاعلية كبرى في معارك طيبة •

وهكذا وتحت الحاح الحاجة والمصالح المشتركة ، بادرت اسبرطة باعلام أثينا رغبتها في عقد صلح معها ومع بقية المدن اليونانية ، ولما كانت أثينا تنظر بعين الريبة والحذر الى تصرفات طيبة تجاه حليفاتها فقد ردت على المبادرة الاسبرطية بارسال وفد من ثلاثة سفراء برئاسة أحد النبلاء الاغنياء ويدعى (Kallias) في حين ارسلت باقي المدن اليونانية ممثليها ، وأرسلت طيبة بدورها ابا مينونداس ، وبدأت المفاوضات ، واتفق الاثينيون والاسبرطيون على صيغة سلام عادل يفرض بالقوة على غرار « صلح الملك » مع الملك الفارسي على ان تضمن بموجبه حرية واستقلال كل المدن اليونانية ، وسمحت الصيغة بقيام تعاون واتحاد بين المدن بمحض ارادتها ، وحرمت قيام اتحادات تفرض فرضا . وعند التوقيع عى هذه الاتفاقية أصر أبا مينونداس الطيبي على التوقيع باسم اقليم بيئوتية كله وليس باسم طيبة فقط ، وأشار الى عدالة طلبه بضرورة اعتبار بيئوتية وحدة اقليمية متحدة مثلها في ذلك مثل اتيكا ولاكونية ، وعندما سأله ممثل اسبرطة متحديا ، وهل ستتركون كل مدينة في بيئوتية وشأنها ؟ ردّ عليه ابا مينونداس ، وهل تركتم كل مدينة في لاكونية وشأنها ؟ وعندما احتدم الخلاف صوت المؤتمرون ضد طيبة وطالبوا باغفال اسمها من الاتفاق ، وعندئذ انسحب ابا مينونداس ، واتجه الممثل الاسبرطي الى عاصمته طالبا الموافقة على ارسال حملة لتأديب طيبة .

وهكذا أصبح صلح كالياس خاتمة مؤقتة لتاريخ طويل من الحرب والعداء بين اسبرطة وأثينا ، وبدأت أثينا منذ هذا التاريخ تعيد بناء امبراطوريتها الثانية على حساب أخطاء اسبرطة التي دفعت بعد قليل من هذه المعاهدة ثمنا باهظا لانعزالها وتسلطها وعنجهيتها في معركتها ضد طيبة .

ثالثا — معركة ليوكترا ونهاية اسبرطة :

وكانت طيبة قد توقعت بعد انسحابها من مؤتمر صلح كالياس أن تبادر المدن الموقعة على بنود الصلح بتدبير هجوم خاطف لقلب حكومتها وارغامها على قبول بنود الصلح باسمها فقط ، فسارعت الى عقد اتفاق مع طاغية مدينة (Pherae) في اقليم تساليه المدعو (Jason) والذي كان يأمل في توحيد تساليه تحت زعامته ،

ولما كان يخشى تدخل الاسبرطيين في مشاريعه بموجب نصوص صلح كالياس فقد وافق على محالفة طيبة لتحقيق أطماعه • وصح بعض ما توقعته طيبة ، اذ لم يستمع الاسبرطيون الى نصيحة أحد قوادهم بالتريث حتى اعداد حملة مشتركة من كافة المدن الموقعة على صلح كالياس ، ووصفوا نصيحته بأنها رأي سخيف • وفي صيف عام ٣٧١ تحركت القوات الاسبرطية بقيادة (Kleombrotos) نحو طيبة ، ورغم ان القوات الطيبية كانت تقل بنحو خمسة آلاف رجل عن القوات الاسبرطية التي بلغ تعدادها احد عشر ألف رجل ، فان طريقة تحصنها في جبال (Leuktra) القريبة من طيبة ، ونجاح الخطة التي رسمها ابا مينونداس وبيلوبيداس والتي استخدمت خفة ومهارة الفرسان الطيبيين أفضل استخدام ، ساهمت في الحاق أكبر هزيمة في تاريخ الجيش الاسبرطي الذي لم تقم له قائمة بعد هذه المعركة بوقت طويل •

رابعا ــ أسباب سقوط اسبرطة :

ولا بد لنا في هذه العجالة من أن نبسط بايجاز يحتمه علينا واقع دراستنا أسباب انهيار أكبر وأقوى دويلة عسكرية شهدتها بلاد الاغريق خلال القرون السادس والخامس والرابع قبل الميلاد • والحقيقة انه اذا كانت معركة ليوكترا قد شكلت السبب المباشر في سقوط أمجاد هذه الدولة العسكرية فانها من دون شك لم تكن السبب الوحيد ، فقد بدأ الضعف يدب في أوصال هذه الدولة غداة انتصارها على أثينا في حرب البلوبونيز •

فمن المعروف أن سر قوة اسبرطة العسكرية يكمن في فلسفة التربية التي سنّها لوكورجوس ، والتي ألزمت جميع مواطني الدولة المدينة بالانصراف كلية نحو تهيئة أجسامهم لتحمل أوزار الحروب وقسوتها في جو من الجدية والصرامة والتقشف والانضباط الكامل • وعندما شاعت أخبار انتصار اسبرطة على أثينا في الحرب البلوبونيزية ، تذكر الناس قولا مأثورا شائعا واسطورة قديمة مفادها أن نهاية اسبرطة ستكون بسبب ثرائها ، والحقيقة ان انهيار أثينا ، وإرث اسبرطة إمبراطوريتها البحرية جلب عليها خيرات لم تكن تحلم بها ، فلقد تدفق الثراء على اسبرطة بشكل لم تعرفه من قبل ،والامبراطورية ــ كما تذكر مصادرنا ــ كانت تدر

عليها أربعة آلاف تالانت سنويا ، تضاف اليها الاسلاب والغنائم التي كانت تعود بها الحملات العسكرية سواء في بلاد اليونان أم ما وراء البحر في آسـية الصغرى ، وكذلك الضرائب والاتاوات التي كانت تفرض على عدد كبير من المـدن في مناطق متفرقة من العالم الاغريقي •

ولعلنا نعرف ما تأثير الثروة ــ وبخاصة المفاجئة منها ــ على أخلاق وعادات الشعوب ، والحقيقة أننا اذا اتهمنا المواطن الاسبرطي تخليه عن قوانين لوكورجوس بعد هبوط الثروة عليه ، فان قوانين لوكورجوس غير المرنة لـم تكن في الواقع لتتناسب مع ظروف الامبراطورية الجديدة كما لم يكن توزع الثروة الجديدة عادلا ، فالذين أفادوا أكثر كانوا طبقة المواطنين الاسبرطيين دون غيرهم من بقية الطبقات ، واذا كنا قد رأينا ان طبقة المستعبدين أو الهلوت كانت طبقة ساخطة ، فقد شاركتها في سخطها عناصر غفيرة من الطبقة الوسطى الذي ساءهم تدهور حالتهم الاقتصادية قياسا على الامتيازات والثروات التي تمتع بها المواطنون الاسبرطيون مـن الطبقة الاولى ، ولذا فقد ضموا أصواتهم الى الهلوت واتحدوا معهم ، وقاموا بعدة ثورات كانت أهمها ثورة عام (٣٩٨) التي قادهـا أحد الاسبرطيين من المبعدين يدعـى (Kindanon) والتي قضت اسبرطة عليها بقسوة شديدة هلعت لها قلوب بقيـة الساخطين • ورغم اننا لم نعد نسمع عن تمردات أخرى بعد ثورة كيندانون ، فان ذلك لا ينفي استمرار وجود الصراعات الاجتماعية في باطن المجتمع الاسبرطي •

ويبدو أن التوزيع غير العادل للثروة لم يسبب الاضطرابات الاجتماعية فقط ، بل ساهم في ابراز شخصيات من الموظفين الاثرياء سيطرت بقوة شخصيتها وثرائها العريض على مقدرات الدولة حتى على قرارات الملوك ، ولنا في لوساندر وبراسيداس أكبر مثل لهذا التعدي على صلاحيات كبار موظفي الدولة • وتخبرنا المصادر ان هذين القائدين كانا يتنافسان فيما بينهما على صالحهما الشخصي على حساب المصلحة العامة ، وبامتداد رقعة الامبراطورية اضطر هذان وغيرهما من كبار الموظفين عـدم توسيع دائرة منح السلطات لعدد كبير من الموظفين الذين أثبتت الاحداث عـدم صلاحيتهم للمهام التي أوكلت اليهم ، فساهموا في أخطائهم وحماقاتهم الخاصة في تكريس الحماقات العامة التي ارتكبتها اسبرطة بحق المـدن والشعوب الحليفة أو التابعـة •

ولعل أكبر مسمار دقته اسبرطة في نعشها كان متاجرتها بحرية المدن الاغريقية أكثر من مرة في تاريخها ، فحينا نجدها تتنازل للملك الفارسي بموجب معاهدات رسمية عن حرية المدن الاغريقية في آسية الصغرى مقابل دعم الملك الفارسي لهـا ماديا أو معنويا ، وتقوم بدور الشرطي ذي العصا الطويلة تدافع عن مصالح الفرس حتى داخل بلاد اليونان ، نجدها حينا آخر تحاول الظهور بمظهر المدافع عن حرية هذه المدن بل وتقاتل أحيانا في سبيلها . ولا شك ان التذبذب والتخبط في سياسة اسبرطة الخارجية قد أفقدها الثقة بهـا ، وبخاصة حين ماثلت الفرس في اعتمادها على الحكومات الاوليجاركية في معظم المدن الاغريقية في بلاد اليونان وخارجها .

ولا ننسى في عجالتنا ما كان للغرور الاسبرطي من أثـر في انهاك قوة اسبرطة العسكرية ، هذا الغرور الذي أدى الى توريط الجيش الاسبرطي في معارك عديدة وعلى جبهات متفرقة ، سهلت توجيه ضربات متعددة اليه أنهكت قوتـه وحطمت معنوياته الى أن استطاع الجيـش الطيبي توجيه الضـربة القاضيـة في ليوكترا عـام (٣٧١) .

الفصل التاسع

الامبراطورية الاثينية الثانية

(الاتحاد الكونفدرالي)

(٣٧٨ – ٣٣٨)

ولعله من باب سخرية القدر أن الدولة التي دكت أسوار أثينا ، هي التي دفعت بأثينا وساعدتها على اعادة بناء هذه الاسوار وبالتالي اعادة بناء امبراطوريتها •

أولا – احياء الامبراطورية :

وقد مر معنا سابقا ، كيف استغلت اسبرطة عداء المدن الاغريقية وتأييد حلفائها لتنزل بأثينا ضربة قاصمة لم تفق أثرها الا بعد فترة طويلة من الزمن • ولكن الضربة الاسبرطية لم تكن قاضية كالضربة التي تلقتها اسبرطة من طيبة ، بل تركت نارا تحت الرماد ، وأفاق الاثينيون من ضربة الهزيمة ليجدوا أنفسهم مكبلين بنظام حكم أوليجاركي اقامه الاسبرطيون ، فلم يتقاعسوا ، بل سارعوا بتصميم وعزم الى قلب الاوليجاركية واعادة الدمقراطية بمساعدة طيبة ، وقضى الاثينيون سنوات طويلة يصلحون ما خلفته الهزيمة والحكم العميل من التزامات وأوزار ، حتى نجحوا في اعادة بناء الاسطول واستعادة بعض الرخاء الاقتصادي السابق • وما ان تم لهم ذلك حتى بدأوا يفكرون في استعادة الامجاد القديمة • والواقع انه اذا كانت أثينا تدين لتميستوكل ببناء امبراطوريتها الاولى فانها تدين لكل من كونون وثراسيبولوس باحيائها •

١ – كونون وثراسيبولوس :

وكان كونون أحد القادة الاثينيين الذين هزموا في احدى المعارك البحرية

الاخيرة من حرب البلوبونيز ، ويبدو أن كونون هذا قد أحس بمرارة الهزيمة فلم يجرؤ على العودة الى أثينــا بل نفى نفسه بمحض اختياره ، وقد مر معنا كيف أنه عندما تأزمت العلاقات بـين اسبرطة وفارس نتيجة تأييد الاولى لقورش ضـد اكسركسس ، عهد اكسركسس الى كونون بقيادة الاسطول الفارسي الذي كان قوامه السفن الفينيقية وبعض السفن الايونية ، وقد استطاع كونون بما أوتي من كفايـة حربية وحقد دفين على اسبرطة من تحقيق نصر حاسم على الاسطول الاسبرطي مما أكسبه ثقة الفرس الذين رأوا من المناسب مساعدة كونون على العودة الى أثينـا لاعادة بناء أسوارها وتشكيل قوتها البحرية ، في محاولة لاعادة توازن القوى الى بلاد اليونان مرة اخرى •

وتتلخص خطة كونون لاعادة بناء الامبراطورية ، في محاولة استغلال الاخطاء الاسبرطية في حق المدن الاغريقية من جهـة ، والافادة قدر الامكان مـن قدرات الاسطول الفارسي لتحطيم الاسطول الاسبرطي من جهة اخرى ، في الوقت الذي يتم فيه تدعيم وتقوية الاسطول والقوة الاثينية البرية •

وقد أحسن كونون استغلال الخلاف الاسبرطي الفارسي ، فأقنع اكسركسس بصواب فكرة مساعدته على طرد الحاميات الاسبرطية من آسية الصغرى واعادة الحرية الى معظم المدن الاغريقية في تلك الربوع ، وعندما تم ذلك أدرك كونون أنه حقق الهدف الاول الذي رمى اليه وهو استعادة أثينـا ثقة المدن الاغريقية عـلى حساب اسبرطة وبقي عليه تحقيق الهدف الثاني وهو تدعيم القوة الاثينية العسكرية• ويبدو ان القدر كان يمهد لضرب أحلام الاثينيين في أحياء امبراطوريتهم بسرعة ، فقد تعاظمت الازمة الاقتصادية في أثينا نتيجة النفقات الباهظة التي أنفقها كونون لاعادة بناء الاسوار والقوة العسكرية ، كما تورط الاثينيون بمساعدة حاكم قبرص يوأجوراس (Euagoras) في ثورته على السلطة الفارسية ، ففقدوا بذلك سندا قويا لسياستهم ضد اسبرطة ، وتبخرت بذلك أحلامهم في احياء امبراطوريتهم لفترة من الزمن •

وفي غمرة هذه الاحداث المؤسفة برز ثراسيبولوس (Thrasibylos) ليدفـع بأثينا خطوة أخرى في سبيل اعادة الامبراطورية ، وكان ثراسيبوليس واحدا من أبرز

قادة أثينا العسكريين ، وكان دمقراطي النزعة يميل الى محاكاة سياسة بريكلس في الاستعمار وسيادة أثينا المطلقة • وكان قد أبعد أواخر حرب البلوبونيز الى طيبة حيث قام بتنظيم عدد من اللاجئين الدمقراطيين يقدر عددهم بألف رجل وقادهم في مغامرة مثيرة للاستيلاء على مرفأ بيرايوس الاثيني ، واستطاع بواسطتهم اعادة النظام الدمقراطي الى أثينا وتسلم منصب القائد •

وبدأ هذا القائد العمل لتحقيق مخططاته ، بأن قام في عام ٣٨٩ بحملة بحرية الى منطقة الهلسبونت والبحر الاسود • ضمن بنتيجتها طريق تموين أثينا بالمواد الغذائية ، وعن طريق دعمه للاحزاب الدمقراطية في عدد من المدن الايونية وبيزنطة ، أعاد فرض أتاوة قديمة كانت أثينا تجبيها من السفن المارة عبر الدردنيل وهي ١٠٪ من حمولة كل سفينة عابرة • وبتأييد من الحلفاء السابقين أعاد كونون النفوذ الاثيني الى كل من تراقية وخالكيدون وجزيرة ثاسوس وساموتراكي وخيوس ولسبوس ورودوس ، ولكن القدر أنكر على هذا القائد رؤية اكتمال مشاريعه لاحياء الامبراطورية ، إذ اغتيل في عام ٣٨٨ في مستعمرة (Aspendos) في بامفولية جنوب آسية الصغرى انتقاما لنهب قواته حقول المدينة •

٢ ـ العلاقات مع اسبرطة وفارس :

ولم تكن الخطوات التي أقدمت عليها أثينا ، لتخفي عن بصر وبصيرة اسبرطة التي ساءها تعاظم قوة أثينا البحرية واستعادة سيطرتها السياسية ، ولكن الازمات التي مرت باسبرطة في تلك الفترة وأخصها عداء الفرس لها منعتها عن القيام بأي دور ايجابي لمنع أثينا أو الحد من عملية استعادة نفوذها السياسي • ولكن بالرغم من كل العوائق لم تتقاعس اسبرطة فيعام ٤١١ عندما استنجد بها مؤيدوها في احدى مدن البحر الاسود ، وأرسلت حملة بحرية بقيادة اناكسيبوس لمناصرة هؤلاء ، ولكن الاميرال الاثيني (Iphikrates) فوت على هذه الحملة مبتغاها وتمكن من هزيمة قطع الاسطول الاسبرطي المرافقة للحملة ، وكرس بذلك النفوذ الاثيني في منطقة البحر الاسود ، وبدا لفترة من الزمن وكأن أثينا قد استعادت قوتها العسكرية والسياسية •

وفي عام ٣٨٨ أسند الاسبرطيون مهمة قيادة اسطولهم الى أميرال شهير يدعى انتالكيداس ، ويبدو ان هذا الاميرال قد أدرك أنه ليس من مصلحة اسبرطة استمرار عدائها لفارس التي تستطيع بما لها من نفوذ سياسي وعسكري تكبيل أية خطوة أو أطماع اسبرطية في منطقة شرق البحر المتوسط ومنطقة بحر ايجه • فاتجه من فوره الى افسوس حيث أوكل الى نائبه مهمة التصدي للاسطول الاثيني في حين اتجه هو الى العاصمة الفارسية سوسا،حيث تمكن بكياسته ودبلوماسيته اقناع الملك الفارسي بخطر تعاظم النفوذ الاثيني في ايونية على كل من اسبرطة وفارس ، وتوصل الحليفان القديمان الى صيغة « سلام الملك » التي مرت معنا آنفا[1] •

وتمكن انتالكيداس بظهوره على رأس الاسطول الاسبرطي في البحر الاسود عام (٣٨٧) من اكراه الاسطول الاثيني على الابتعاد من منطقة الهلسبونت والبحر الاسود الى شواطىء شبه جزيرة خالكيدون ، وبذلك أطبق على خناق أثينا الاقتصادي بتحكمه في طرق تموين موادها الغذائية • وزيادة في الضغط على أثينا أوفد مساعده لتهديد ميناء بيرايوس الاثيني من قاعدة جزيرة ايجينا المقابلة ، وازاء هذا الضغط لم تجد أثينا مفرا من اعلان موافقتها على بنود سلام الملك ، وارسال سفرائها لسماع بنوده والقسم على احترامه كما مر معنا •

ورغم خيبة الامل التي مني بها الاثينيون نتيجة ارغامهم على قبول سلام الملك الذي ألزمهم بقوقعة اقتصادهم ، واقتصاره على ما تنتجه بلادهم بالاضافة الى بعض الجزر التي أطلق السلام يدهم فيها ، فان سلام الملك أتاح للاثينيين التقاط أنفاسهم والاستعداد بقوة أكبر للانطلاق من جديد • واذا كان السلام قد حطم نفوذ أثينا السياسي عبر العالم الاغريقي ، فانه أبقى على نواة قواتها البحرية التي أنشأتها ، ودفعها نحو ايجاد صيغة جديدة للتعامل مع بقية المدن الاغريقية تختلف عن الصيغة السابقة التي أودت بامبراطوريتهم الاولى • وقد أثمرت الصيغة الجديدة في الابقاء على كثير من صداقات أثينا مع معظم المدن الاغريقية وعلى الاخص خيوس وبيزنطة وموتيليني (عاصمة جزيرة لسبوس) •

ولعل أثينا لم تفد قط من خطأ ارتكبه الاسبرطيون في تاريخهم مثلما أفادت

---

(١) انظر الفصل الثامن ، فقرة انتعاش السياسة الخارجية الاسبرطية •

من التدخل الاسبرطي في طيبة ، فقد تمكنت في عام ٣٨٠/٣٧٩ من احتواء المعارضين الطيبيين ،ودفعتهم الى احداث انقلاب سياسي تسلموا بنتيجته السلطة في طيبة وأعلنوا رغبتهم في عقد تحالف مع أثينا ، ونتيجة لهذا العمل فقدت أثينا أي أمل في اعادة الحوار مع اسبرطة ، لكنها في الوقت نفسه كسبت حليفا قويا كما كسبت تأييد معظم الحكومات الدمقراطية في العالم الاغريقي .

ثانيا ــ الاتحاد الكونفدرالي :

وما أن تأكدت أثينا من صدق الاندفاع الطيبي نحو التحالف معها ومن صدق النوايا الاسبرطية في تحطيم هذا التحالف ، حتى بادرت الى دعوة حليفاتها لارسال سفرائها والتشاور في امر اقامة اتحاد كونفدرالي لدرء التعديات الاسبرطية على حرية المدن الاغريقية ، وعند الاجتماع تحمست كل من رودوس وخيوس ولسبوس وبيزنطة للفكرة ، واتفق على أن تكون عضوية الاتحاد متاحة لاي عضو يود الانضمام وتتوافر فيه الشروط التي ستقرر ضمن اللائحة التنفيذية لهذا الاتحاد .

وفي ربيع عام ٣٨٧ انتهى احد القانونيين ويدعى ارسطو (من ماراثون) من صياغة مشروع الاتحاد بطريقة مُرضية ، ولا شك انه من حسن الحظ أن عثر بعض الاثاريين في اثينا عام (١٨٥١ م) على نقش يتضمن مقتطفات من مشروع ارسطو هذا ، فأتم بهذا النقص في معلوماتنا عن الاتحاد في النص الذي أورده المؤرخ ديودورس الصقلي .

ويبين النقش الغاية من الاتحاد بأنه انشأ للتصدي للاسبرطيين ، وتمكين المدن الاغريقية من ممارسة حرياتها وسيادتها على اراضيها ، ويدعو النقش جميع الاغريق وغير الاغريق [1] ، الى الانضمام للاتحاد على قدم المساواة مع الدول المؤسسة له ، بشرط ألا يكون المنضمون خاضعين للملك الفارسي أو ملزمين بدفع أتاوة له . وينص الاعلان على انه في حالة رغبة مدينة أو اقليم في الانضمام

---

(١) يقصد هنا بغير الاغريق اهل تراقية ومقدونية ومملكة ابيروس من الذين كان الاغريق يعتبرونهم برابرة (Barbaroi) .

للاتحاد يشترط ان يعلن شعبها تنازله عن أي ادعاء سابق بحقوق له يمتلكها عضو سابق في الاتحـاد •

وتكريسا لمبدأ استقلال كل عضو من اعضاء الاتحاد ، حظر احد بنود صك الاتحاد على مواطني الدويلات المتحالفة وحكوماتها امتلاك عقارات في مـدن غير مدنهم الاصلية بدءا من تاريخ انضمام الدويلة الى الاتحاد ، وفي حال المخالفة يقوم المجلس الاتحـادي ببيع هـذه الممتلكـات ويعطي نصف المبلغ الـى الشخص والهيئة التي بلّغت عـن المخالفـة ويذهب النصف الاخـر الى خزينة الاتحـاد •

ولعل أهم بنود صك الاتحاد كان تعهـد الاعضاء بتقـديم المساعـدة المادية والمعنوية لاي عضو يتعرض لعدوان خارجي ، ومعاقبة اي فرد يحـاول الخروج عن نصوص الاتحاد باسقـاط جنسيته وحقوقـه السياسية ، ومصادرة ممتلكاته وتقديمه للمحاكمة امام مجلس الاتحاد ليحكم عليه اما بالاعدام أو بالنفي•

١ ـ سلطات الاتحـاد :

وكان للاتحاد ـ بالطبع ـ ثـلاث سلطات تنظيمية : تشـريعية وتنفيذيـة وقضائية ، وكان يمثل السلطة التشريعية في الاتحـاد المجلس الاتحادي الـذي كان يساعده في اول عهد الاتحاد الاكليزيه الاثينية (مجلس الشعب) واعتبر المجلس الاتحادي والاكليزيه مؤسستان دستوريتان متساويتان في سلطاتهما التشريعية ، وبمضي الزمن وبازدياد مسؤولية اثينا الاتحادية طغت سلطات الاكليزيه علـى سلطات المجلس الاتحادي ، وبخاصة حين اعلان حالة الطوارىء ابّان المشاكل التي نشأت بين أثينا وبعض حليفاتها •

أما من ناحية السلطة التنفيذية ، فقد تمتعت اثينا بأكبر نصيب ، فبالاضافة الى كونها المقر الرسمي للمؤسسات الاتحادية ، كان موظفوها هم الذين يقومون بتنفيذ توصيات واوامر المجلس الاتحادي في السلم والحرب ، وقوادها هـم الذين يقودون الجيوش والاساطيل الاتحادية ، كما كان موظفوهـا يجمعـون مساهمات الدول الاعضاء المالية وغيرها •

ورغم أن نصوص الاتحاد ضمنت حرية القضاء في كل دويلة عضو من دول الاتحاد الا أن أثينا لم تلبث ان قضت على هذه الحرية بتدخلها في محاكم المدن الحليفة وبخاصة عندما تتعلق القضايا المعروضة بمخالفات اتحادية ، وهذا ما حدث في جزيرة كيوس (جنوب جزيرة يوبوية) حينما ضغطت اثينا على قضاة الجزيرة لكي تضمن عقوبة صارمة ضد المتمردين على شريعة الاتحاد ، كما غالت اثينا في تعديها على حرمة القضاء في باقي المدن الحليفة حين اجبرت هذه المدن على قبول قانون اتحادي يقضي باعتبار من تراهم (أثينا) من الافراد أيا كانت مواطنهم خارجين عن القانون وذلك بمقتضى حكم يصدر من احدى المحاكم الاثينية ، ويصبح ساريا في كافة مدن الاتحاد .

٢ ـ مراحل الاتحاد منذ تأسيسه حتى سقوطه :

وكأي محاولة وحدوية قامت في بلاد اليونان ، مر الاتحاد بمراحل ثلاث كانت على التوالي مرحلة الدعوة والتأسيس ، ثم مرحلة انهيار العلاقات ، وأخيرا مرحلة الصدام المباشر .

وفي المرحلة الاولى (٣٧٨ ـ ٣٧١) وصل الحماس في اعضاء الاتحاد ندرجة اقمتهم عن مصالحهم الخاصة ، وبدأ سباق التضحية لمصلحة الاتحاد بين سائر اعضائه ، وفي هذه الفترة ساد الانفعال العاطفي والاحساس المثالي لمبدأ الوحدة الهللينية . وتتميز هذه الفترة بتآلف القلوب والنوايا نتيجة الشعور بخطر اسبرطة على حرية المدن المتحالفة .

ولما كانت اثينا تشعر بالتهديد الاسبرطي اكثر من اية دولة عضو في الاتحاد فانها ساهمت في ميزانية الاتحاد كشريك أكبر وليس كدولة عضو ، واضطرت والحالة هذه الى فرض ضرائب جديدة على مواطنيها لدعم ميزانية الاتحاد ، ولم يقف الامر عند هذا الحد بل دفع الحماس بعض قادتها العسكريين مثل (Timotheos) وايفيكراتس الى بيع ممتلكاتهم بل والاستدانة وتسخير الجنود والبحارة بالعمل في الحقول والعمل كمرتزقة من أجل الحصول على الاموال اللازمة للمشاريع الاتحادية .

وتتفق معظم المراجع الحديثة على ان الاتحاد بدأ باعلان بنوده عـام (٣٧٨) وانتهت المرحلة التأسيسية فيه باعلان طيبه انسحابها عام (٣٧١) ، والواقع أن انسحاب طيبه لم يقدر أو يؤخر أعمال الاتحاد ، لان نوايا طيبه منذ دخولهـا الاتحاد كانت مكشوفة للجميع وهي الحصول على اكبر قدر ممكن من الـدعـم العسكري اللازم لتحطيم اسبرطة اولا ولبناء قوتها وفرض سيطرتها علـى اقليم بيئوتيه ثانيا • ولكن هزيمة طيبة إسبرطة في معركة ليوكترا التي مر ذكرهـا كان بداية النهاية بالنسبة للاتحاد ، فقد تساءل معظم الاعضاء عن الغاية مـن بقاء الاتحاد بعد زوال الحافز والدافع الرئيسي لقيامه بهزيمة اسبرطة ، وبخاصة عندما لاحظ الاعضاء المؤسسون ان الدول الخمس المؤسسة للاتحاد قـد تاهت في خضم العدد الكبير من الاعضاء المنتسبين والذي بلغ حوالي ٧٠ عضوا فـي فترة متأخرة من تاريخه ، وبدأت الشكوك تحوم حول أثينا من جديد والشائعات تؤكد أنها تسعى لتكريس مصالحها الخاصة على حساب الاتحاد ، وبخـاصـة عندما بدأت تسن بعض القوانين الاتحادية التي تحظر على دول الاتحاد الاتجار ببعض المواد التي تقوم اثينا بالاتجار فيها •

ورغم ندرة المعلومات التاريخية عن المرحلة التالية (٣٧١ ـ ٣٥٧) فاننـا سنحاول استنتاج بعض أهم ملامحها من خلال الاحداث السابقة واللاحقـة لهذه المرحلة • ومن المرجح والحالة هذه أن علاقات اثينا بحليفاتها بـدأت تسوء منذ هزيمة اسبرطة وانسحاب طيبه ، وبشكل خاص حين بـدأت بعض حليفات اسبرطة سابقا تنتسب الى الاتحاد وتطلب منه التدخل لمصلحتها ضد طيبه ، وتحت الحاح الاعضاء الجدد وجدت أثينا نفسها حليفة لعدوتها القديمة وعدوة لحليفتها الجديدة طيبه ، ولا شك أن هذا الوضع قد ساء معظم ان لم نقل كل اعضـاء الاتحاد القدامى الذين لم ينسوا أنهم أقاموا الاتحاد من أجل التصدي لاسبرطة ، وسادت موجة من الاعتراضات على قبول اصدقاء اسبرطة ، بل وصل الامر ببعض الاعضاء الى حد الانسحاب أو طلب الانسحاب والانضمام الى طيبه التي علـت أسهمها بعد انتصارها الساحق في ليوكترا •

وعندما وصل الامر الى حد فقدان الكثير من الانسجام بين اعضاء الحلف

بدأت اثينا في تحويل هذا الاتحاد الى حلف لصالحها أولا واراضي المتحالفين الى مناطق نفوذ ، وصارت تضرب بيد من حديد على المعارضين لسياستها الاتحادية، فتدخلت في كوركورا لصالح الحزب الموالي ، وأخضعت جزيرة كيوس ، مما دفع ببعض المدن التي انسحبت الى اعلان عودتها خشية ، وكذلك بعض المدن الجديدة الى الانضمام للاتحاد تقية ، ولكن على حساب سخط الجميع وتذمرهم من الاتحاد وزعيمته .

واذا كانت المشاكل والاحقاد السابقة قد كونت الاسباب غير المباشرة لصدام حليفات اثينا معها في المرحلة الثانية ، فقد تكرست هذه الاسباب بالتدخل الاجنبي من قبل (Maussolos) ملك كاريه وفيليب المقدوني ملك مقدونية ، اللذين أخذا بالاضافة الى طيبه يحثان المدن الحليفة على الانفصال عن اثينا ، رغبة منهم في التوسع وبناء امبراطوريات على أشلاء الامبراطورية الاثينية . ونجحت مجموعة (ماوسولوس ــ فيليب ــ طيبه) في المرحلة الاخيرة من الاتحاد (٣٥٧ ــ ٣٣٨) في اذكاء الاحقاد ، وانتظرت حليفات اثينا الساخطات سببا مباشرا لاعلان التمرد والثورة . ولاح هذا السبب عندما ثارت جزيرة خيوس وفشل قائد الحملة الاثينية التي وجهت ضدها في اخماد نار الثورة مما اضطر اثينا الى وقف عملياتها ضد خيوس في محاولة لامتصاص النقمة المتعاظمة ضدها في البحر الايجي . ولكن رغم ذلك فقد ثارت في عام ٣٥٦ جزيرتا رودوس وكوس وتبعتهما بيزنطة ، وفي العام نفسه قررت خيوس ورودوس وكوس توحيد أساطيلها والتصدي لأثينا بحرا ، وتم لها ما أرادت وسرعان ما قرر زعماؤها وقاموا بمحاصرة جزيرة ساموس الموالية لاثينا ونهبها من اجل جمع الاموال اللازمة لتدعيم الثورة واحراج مركز اثينا ، وازاء ذلك أرسلت أثينا حاميات عسكرية لحماية المدن الموالية وبعثت باسطول يتكون من ستين سفينة بقيادة تيموثيوس وايفيكراتس بالاضافة الى ستين سفينة اخرى بقيادة القائد خاريس لضرب الثورة في مهدها بيزنطة .

وفي الوقت الذي اتجه الاسطول الاثيني الى بيزنطة كان اسطول الثوار يفك حصاره عن ساموس ويتجه الى بيزنطة ، وعندما طلب القائد خاريس الى تيموثيوس وايفيكراتس القيام بالهجوم وأشارا عليه بالتريث ، اندفع وحده مهاجما

اسطول الثوار ولكنه رد خاسرا ، وعندئذ ادعى بأن زميليه غدرا به وتقبلا رشوة من الثوار • ولذا فقد استدعت اثينا هذين القائدين ، وحققت معهما ، وانتهت في تحقيقها الى ادانة تيموثيوس ونفيه الى جزيرة يوبويه بعد توقيع غرامة مالية كبيرة عليه ، بينما برّىء ايفيكراتس ولكنه أجبر على التقاعد • وبذلك فقدت أثينا أبرز قادتها واضطرت تحت ضغط الظروف العسكرية السيئة التي مرت بها الى الاعتراف باستقلال الجزر الثائرة خيوس وكوس ورودوس ومدينة بيزنطة ، وكذلك التودد الى الملك الفارسي •

وانتهز فيليب المقدوني انهماك اثينا في صراعها مع حليفاتها ، واخذ يتوسع شمالا في تراقيه على حسابها فاستولى على عدد من مدن الشمال ، كما تحالف مع بعضها الاخر بعد طرد النفوذ الاثيني من تلك المدن • وقد أغراه نجاحه وعدم تصدي اثينا له ، بالاستيلاء على ممتلكات اثينا في ساحل مقدونية وتراقية ، وأعلنت بيزنطة تأييدها له ، وحذا حذوها عدد آخر من المدن التابعة لبيزنطة في منطقة الهلسبونت والبحر الاسود •

وفي عام ٣٤٩ ثارت مدن جزيرة يوبوية على اثينا ، كما استطاع فيليب في عام ٣٤١ الاستيلاء على مدينة اينوس (Aenos) آخر حليفات أثينا في تراقية ، وعندما حاولت أثينا التصدي لفيليب اوقع بها هزيمة فادحة في معركة خايرونية التي كانت نهاية فعلية للامبراطورية الاثينية الثانية ، وبداية تأسيس الامبراطورية المقدونية •

ـ أهم مصادر الباب الرابـع :

— Xenophon (Anabasis) (Hellenica)

— Diodorus Siculus., World History 4 - 7.

— Tod. M.N., Greek Historical inscriptions vol. II (Oxford 1948).

ـ مراجع مختاره

— Accame. S, La lega Ateniese (Rome 1941).

— Bury. J.B., and Meiggs R. : A history of Greece (London 1977).

— Cawkwell. G. L, «The Crowning of Demosthenes» *C.Q.* vol XIX (1969)

— Jaeger. W. J., Demosthenes, The Origin and Growth of his Policy (Berkeley 1938).

— Marshall. F.H, The Second Athenian Confederacy (Cambridge 1905).

— Pickard-Cambridge. A. W, Demosthenes and the last days of Greek Freedom (New York 1914).

— Ryder, T.T.B, Koine Eirene (London 1963)

ـ أرنولد توينبي ، تاريخ الحضارة الهلينية (القاهرة ـ ١٩٦٣)

الجزء الثاني

تاريـــخ الاغريـــق

من الاسكندر حتى احتلال الرومان سورية



الباب الخامس

تأسيس الامبراطورية المقدونيـة

الفصل العاشر

المقدونيون حتى الاسكنـدر

اولا ــ المقدونيـون :

يبدو من المناسب أن نمهد لدراستنا المفصلة عن تاريخ سورية في العصـر الهلنستي بصورة خاصة أو تاريخ الامبراطورية السلوقية عامة بالتعرض في ايجاز الى انشاء الامبراطورية المقدونية ، ذلك أن سلوقس (مؤسس الامبراطوريـة السلوقية) كان أحد الضباط الذين شاركوا الاسكندر في بناء هذه الامبراطورية فضلا عن أنه كان أبرز الذين اسهموا فيما بعد في فصم عراهـا ، هـذا الى أن تتبعنا الموجز لبناء هذه الامبراطورية يتيح لنا القاء نظرة عاجلة على المسرح الذي جرت عليه احداث تأسيس سلوقس لامبراطوريته ، كما يهيء لنا الفرصة لان نبسط أفكار الاسكندر السياسية ولأن تتبين الى أي مدى سار سلوقس وخلفاؤه علـى نهجه أو خرجوا عليه ، والان ماذا عن ظروف قيام الامبراطورية المقدونية ؟

تؤكد معظم المصادر القديمة والمراجع الحديثـة على الدور الكبير الـذي لعبته النزاعات الاقليمية التي استشرت في اوصال بلاد الاغريق ، والتي تمخضت عن سلسلة من المحالفات والحروب بين أثينا وحليفاتها من جهة ، واسبرطة ومؤيديها من جهة ثانية ، كانت آخرهـا حرب البلوبونيز (٤٣١ ــ ٤٠٤) فـي بـروز

طيبه واحتلالها مركز الزعامة في العالم الاغريقي بعد تغلبها على اسبرطة • ويبدو أن بروز طيبة المفاجيء كزعيمة للاصقاع الاغريقية (القارية بشكل خاص) لم يكن وليد استعداد الشعب الطيبي بشكل خاص ، والاغريقي بشكل عام للتعاضد والتكاتف ، بل كان نتيجة لعبقرية احد قادة طيبة المدعو « ابامينونداس » الذي فرض هذه الزعامة فترة قيادته جيوش بلاده ، اذ سرعان ماعاد التفكك الى هذه الاصقاع بعد مقتله (٣٦٢) في احدى المعارك ضد المشاكس الاكبر في بلاد الاغريق ، ونقصد اسبرطة •

ولم يكن قدامى المقدونيين في قلب البلقان ، وهم قبائل هندية اوربية تمت الى الاغريق بصلة ، وتتكلم لهجة قريبة من هؤلاء باحسن حالا منهم من حيث التفكك والمنازعات ، وزاد في بؤسهم حرمان طبيعة بلادهم لهم من الموارد اللازمة للرقي والمرافيء الضرورية للاتصال بالخارج ، فظلّوا يحتلون آخر درجة في سلم المدنية ، وان شابهوا في أنظمتهم السياسية والاجتماعية الاغريق في العصر الهومري من حيث وجود الامراء الاقطاعيين ووجود النظام العقاري الوسط الذي يجمع بين فكرة المشاع وفكرة الملكية الفردية ، في حين لم يكن حكمهم الملكي يرتبط بأي قانون يحدد الخلافة ولم تكن قوتهم الجسدية المتميزة وشجاعتهم تلتزم بأي انضباط أو تدريب •

ورغم انه لا يعلم الشيء الكثير عن تاريخهم وملوكهم قبل فيليب الثاني والد الاسكندر ، الا أننا نعرف من ملوكهم الاسطوريين كارانوس (Karanos) وبرديكاس (Pedikas) وأرجايوس (Argoeos) ، وفيليب الاول ، وايروبوس (Aeropos) ثم اموتناس الاول (Amyntas) ، واسكندر الاول وبرديكاس الثاني وارخلاوس (Archelaos) جد فيليب الذي اغتيل في عام ٣٩٩ مما ادى الى قيام فوضى سياسية لم تنته الا بتدخل اسبرطة واجلاس ابنه اموتناس الثالث على العرش •

ولا يعلم عن تاريخ أموتناس والد فيليب وجد الاسكندر سوى انه توفي في عام ٣٦٩ وخلف ثلاثة أبناء (اسكندر وبرديكاس وفيليب) وقد انجلت منازعاتهم الخاصة ، ومع غيرهم من ادعياء العرش عن استيلاء اصغرهم فيليب على العرش •

ثانيا ــ فيليب وتنظيم المملكة :

ومعلوماتنا عن فيليب الذي تسلم الملك وكان لايتجاوز العشرين عاما تؤكد بأنه كان رجلا نشيطا طموحا مقتدرا في الحرب والسياسة ، وكان قد تتلمذ أثناء اقامته في طيبة فترة من الوقت على ايدي مشاهير القادة الطيبيين من أمثال ابامينونداس وبلوبيداس ، وتعرف أثناء تجواله في بلاد الاغريق بكل من أفلاطون وايسوقراط وارسطو ، واستطاع بما اكتسبه من خبرة سياسية ومهارة حربية ، التغلب على جميع منافسيه في المجال الداخلي ، كما استطاع بتنظيمه واعداده لجيشه على أسس مبتكرة أهمها نظام الفيلق (Phalanx) احراز انتصارات سياسية وعسكرية على اعداء مقدونية في الغرب واهمهم الالوريون ، والبايونيون (Paeonians) في الشمال ، كما اتاح له استيلاؤه على بعض أحراج المنطقة الشمالية الغربية ومناجم فضتها ، انشاء اسطول كان في أشد الحاجة اليه لمقاومة الاسطول الاثيني •

وكانت أثينا ــ بعد تأسيس امبراطوريتها الثانية ــ بتعقد مشاكلها مع حلفائها تحاول جاهدة تأليب أعداء فيليب السابقين وتوحيد صفوفهم لمواجهته ،ورغم ان فيليب كان قد أحرز كما أسلفنا بعض الانتصارات الجانبية على هؤلاء ، فقد أقدم ــ لتدعيم موقفه ــ على محالفة اسكندر ملك مقاطعة ابيروس [1] وتزوج من اخته اولومبياس التي ولدت له الاسكندر عام ٣٥٦ •

واستغل فيليب انشغال الاغريق بالحرب المقدسة الثالثة [2] وأكد سيطرته على جميع الشاطىء اليوناني المطل على بحر ايجه كما بلغت حدوده الشمالية نهر الدانوب • ورغم انه هزم الفوكيين وحلفاءهم ، فانه لم يستطع السيطرة على

---

(١) Epiros مقاطعه الى الشمال الغربي من بلاد اليونان الحالية ، يقع قسم كبير منها في البانية حاليا ، وقد لعبت هذه المملكة دورا سياسيا كبيرا في العصر الهلنستي •

(٢) جرت الحروب المقدسة الثلاث بين بعض أهم دويلات بلاد اليونان ، وذلك نتيجة للخلاف بين مدينة دلفي المقدسة ومينائها (كيرها) حول احقية الميناء في فرض رسوم على الحج القادم الى دلفي عن طريقه ، وقد دامت هذه الحروب متقطعة بين عامي ٥٩٠ ــ ٣٤٧

مضائق الترموبولاي • لكن محاولته أدت على الاقل الى ازعاج الاثينيين ــ الذين كانوا يتفانون في سبيل حرية هذه المضائق ــ كما ادت المحاولة نفسها الى تنبيه هؤلاء الى الخطر الذين كان يتهددهم من الشمال ، وكذلك الى تعاظم نفوذ الحزب المناوىء لفيليب في اثينا برئاسة الخطيب دموستنس (Demosthenes) (٣٨٤ ــ ٣٢٢) • وعندما هدأ النزاع السياسي والعسكري بين فيليب واثينا بموجب هدنة مؤقتة ، كان فيليب وقتها قد سيطر بشكل نهائي على جميع بلاد الاغريق الشمالية بالاضافة الى تراقيــة •

ولكن هذه الهدنة لم تدم لاكثر من عامين أو ثلاثة (٣٤٦ ــ ٣٤٣) ، وسرعان ما ابتدأ النزاع من جديد، حينما أيد فيليب بعض أعداء أثينا ضدها ، واستطـــاع دموستنس وحزبه أن يؤلفوا ــ ردا على هذا العمل ــ عصبة هلينية مضادة لفيليب والمدن تحت رعايته تضم عددا من المدن الاغريقية مثل كورنثة وميجارا وغيرها • في حين حافظت بعض المدن على علاقاتها السلبية بالاحلاف القائمة •

وتفاقمت الاحداث لتؤدي الى اعلان رسمي للحرب بين أثينا وحلفائها مـــن جهة ، وفيليب ومعاضديه من جهة ثانية • وكانت أهم معارك هذه الحرب موقعــة خايرونية (Chaeronea) ٣٣٨ التي قاد فيها الاسكندر ميسرة جيش أبيه ، وحقــق نصرا باهرا ساهم في تكريس النصر الكبير الذي حققته فيالق أبيــه على الجيش الاغـــريقي •

وفي عام ٣٣٧ عندما دعا فيليب جميع المدن الاغريقية الى مؤتمر عام فـــي كورنثة ، لبت الدعوة المدن جميعا باستثناء اسبرطة ، وأقرت اقامة حلف هلينـــي بزعامة فيليب ، كما أقرت استقلال كل دولة من الدول الاعضاء وضمان سلامـــة حدودها • واستجابة الى طلب فيليب قرر الحلف محاربة الفرس بقيادة مقدونيـــه واعداد جيش كبير لهذا الغرض ، وحدد المعونة الحربية التي كان يجب على كل دولة من الدول الاعضاء أن تسهم بها•

وعلى هذا النحو ، حقق فيليب هدفا من هدفيه اللذين رمى اليهما منذ بدء العمل على تأسيس امبراطوريته ، وهذا الهدف هو خضوع بلاد الاغريق لـــه ،

وارغامها على تأييدها اياه ، ولكن القدر لم يمهله لتحقيق هدفه الثاني ، وهو محاربة الفرس ، اذ انه سرعان ما اغتيل في عام ٣٣٦ بعد احتفاله مباشرة بزفاف ابنته كليوباترا على حليفه اسكندر ملك ابيروس • ونادى الجيش بابنه الاسكندر ملكا على مقدونية ورئيسا للحلف الهليني •

ثالثا ـ الاسكندر الاكبر :

١ ـ نشأته :

ولد الاسكندر في صيف عام ٣٥٦ ، وكان ثمرة زواج فيليب الثاني زواجا سياسيا من اولومبياس (Olympias) أخت اسكندر ملك ابيروس •

وتربى الاسكندر تربية خاصة لم يحصل عليها أي ملك من ملوك مقدونية الاوائل وخاصة من الناحية التعليمية ، فقد تولي تعليمه وهو في الثالثة عشرة الفيلسوف الكبير ارسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢) واستمد الاسكندر صفاته من مصادر ثلاث ؛ ذلك انه ورث عن ابيه الجلد والحزم والمهارة في معالجة الامور ، كما ورث عن امه تأجج العواطف وسرعة الانفعال والغضب ، واخيرا كانت لتعاليم استاذه ارسطو أبلغ الاثر في نضوج تفكيره واتساع أفقه اتساعا تجاوز في سمو كريم نطاق تفكير ارسطو وأفكار افلاطون استاذ ارسطو ، وهي الافكار التي اعتبرت المدينة الدولة أو الـ (Polis) كل شيء ، والشرقي غير جديد الا بأن يحكمه الاغريقي ويعامله معاملة العبيد •

٢ ـ استتباب الامر له :

على أي حال فانه ما ان ارتقى الاسكندر عرش مقدونية في العشرين من عمره ، حتى هبت عليه من الجنوب والشمال عواصف القلق والاضطراب ذلك ان الاغريق رأوا في موت فيليب فرصة للتخلص من التزاماتهم بموجب المعاهدات التي ابرموها معه • وابتهجت اثينا لمقتله ، كما طردت امبراقية [1] حامياته من

(١) مدينة اغريقية تقع شمال غرب بلاد اليونان في اقصى جنوب مقاطعة ابيروس شمال خليج أكتيوم ، كانت في الاصل مستعمرة كورنثيه •

اراضيها ، واستدعت ايتولية (٢) منفييها المناوئين لفيليب ، وتأججت نار الثـورة في طيبة ومعظم مدن البلدبونيز ، هذا الى انه في مقاطعتي تراقية والورية المتاخمتين لمقدونية من الشرق والغرب أخذت تظهر اعراض تنم عن تهديدهما مقـدونيـة نفسهـا .

ولم يتردد الاسكندر ، بل اتجه من فوره في صيف عام ٣٣٦ نحو الجنـوب واسترد سلطانه على تسالية ، واختير رئيسا لحلفها مدى الحياة مكان فيليب ، كمـا دانت له مدن حلف كورنثة واختارته قائدا لهذا الحلف مكان والده ، وكلّفتـه بغزو آسيـة .

ولما لم يكن في وسع الاسكندر أن يغزو آسية وتراقيـة على وشك الثورة والورية تستعد لغزو مقدونية مع الغرب . فانه في ربيع عام ٣٣٥ اتجـه صوب الشمال حيث قام بحملة جريئة ارغمت بعض الشعوب البلقانية المشاكسة علـى تقديم فروض الطاعة له . وفي طريق العودة علم بأن الالوريين استولوا على اقـوى القلاع التي كانت تحمي حدود مقدونية الغربية فخف الـى هناك حيث انـزل بالالوريين هزيمة فادحة . ولم يتابع الاسكندر هذا النصر بغزو الورية لمعاقبتهـا على ما أقدمت عليه ، لان الانباء التي وصلته من بلاد الاغريق استدعت مواجهتـه الموقف هناك سريعا .

ذلك ان الدمقراطيين من مواطني مدينة طيبة ـ وكانوا قد عادوا من منفاهم بعد ان ابعدهم فيليب ـ قبضوا على ازمة الحكم في وطنهم ، واستغلوا نبأ كاذبـا فحواه أن الاسكندر قد قتل للقيام بثورة للتخلص من السيطرة المقدونية ، وعلى الرغم من ان بعض المدن مثل أثينا عاضدت طيبة في ثورتها فانها لم تقدم على اتخـاذ اية خطوة ايجابية ، ولذلك بقيت طيبة وحدها في الميدان . وعندما ضرب الاسكندر حصارا حولها وطلب منها التسليم ، رفضت وحاولت عبثا مقاومة الاسكندر فهزم جيشها هزيمة منكرة ، واستباح المدينة ودمرها شر تدمير . وبعد ذلك عاد الـى مقدونية للتهيئة لغزو الشرق .

---

(٢) مقاطعة في بلاد اليونان الوسطى تشرف سواحلها على مدخل خليج كورنثه

الفصل الحادي عشر

(غزو الامبراطورية الفارسية)

اولا ـ أهم دوافع غزو الاسكندر للشرق :

منذ موت الاسكندر حتى الان ، كانت ولاتزال حياته وشخصيته واعماله من اكثر الموضوعات التي طرقها وأفاض في بحثها مؤرخو العصر الهلنستي ، ويواكب هذا الفيض من الدراسات اختلافات بيّنة في تفسير وتعليل جانب أو آخر من جوانب وحياة واعمال هذه الشخصية الفذة • ولابد لنا قبل عرض فتوحات الاسكندر من الاشارة بايجاز الى بعض أو أهم هذه الدوافع التي كان لها الاثر الاكبر في قيام ملك غربي ولاول مرة في التاريخ بغزو الشرق على رأس جيش صغير نسبيا •

ولا شك أن الاسس القويمة التي أقام عليها فيليب صرح مقدونية والاستعدادات التي جهزها قبل موته ، قد سهلت كثيرا من المصاعب العسكرية امام الاسكندر وكانت عاملا ماديا مهما جدا • وأسهم في تيسير مهمة الاسكندر فوزه برئاسة حلفي تسالية وكورنثة على نحو ما مر بنا سابقا • ولا يغرب عن البال ان الاسكندر ورث عن ابيه عزمه على محاربة الفرس تحقيقا لدعوة ايسوقراط (Isokrates) وكان من أشهر فلاسفة الاغريق وخطبائهم في القرن الرابع • ذلك أن هذا الفيلسوف كان قد اتجه الى فيليب مناشدا اياه تحقيق الدعوة التي لم يمل عن ترديدها على مدى نصف قرن تقريبا ، ولكنها ذهبت هباء وسط انهماك المدن الاغريقية في صراعاتها الدموية التقليدية • وفحوى هذه الدعوة ، هي أن خيروسيلة لانقاذ بلاد الاغريق من صراعاتها كانت تآنف الاغريق للثأر من البرابرة والسيطرة عليهم بحق سمو الحضارة الاغريقية على ماعداها ، وانشاء مدن في الاقاليم التي تقهر •

ولا شك أن حث ارسطو للاسكندر على الاطلاع وحب المعرفة كان دافعا آخر من دوافع الحملة الشرقية بدليل اصطحابه معه عددا كبيرا من العلماء والمتخصصين في مختلف فروع المعرفة ، وهو الامر الذي لم نعهده في غزوات الملوك السابقة لغزوة الاسكندر ،وفي رأي بعض المؤرخين أن ارسطو لم يوح الى الاسكندر بالقيام بحملته الشرقية وتكوين امبراطورية عالمية ، ومرد هذا الرأي ـ فيما يبدو ـ الى أن ما فعله الاسكندر كان مجافيا لافكار ارسطو وهو الذي لم يكن يقر قيام دولة أوسع نطاقا من الجمهوريات الصغيرة الاغريقية ، ولا المساواة بين الاغريق « والبرابرة » في المعاملة . واذا كان من الجائز أن ارسطو لم يوح الى الاسكندر بمحاربة الفرس ، فانه يجب ان نلاحظ ان ارسطو كان يعتبر هذه الحرب حربا عادلة ، وأن الصلة لم تنقطع بين التلميذ واستاذه الا عندما خرج التلميذ على تعاليم استاذه في معاملة « البرابرة » .

ويجب الا يفوتنا هذا التنويه بانه كانت تحت امرة الدولة الفارسية موارد لا تنضب من الاموال والرجال ، ولديها اسطول ضخم يسيطر على الحوض الشرقي للبحر المتوسط . غير انه كان يقلل من شأن ذلك كله ، ويغري على غزو هذه الدولة أنها كانت تفتقر الى القواد المجربين والى ما أحرزه الاغريق والمقدونيين من تقدم في فنون القتال في خلال النصف الاول من القرن الرابع .

ومع ذلك فان كثيرا من المؤرخين يهونون من قيمة هذه النقائص ، وذلك امعانا في اضفاء المزيد من صفات العظمة الخارقة على انتصارات الاسكندر السريعة . ذلك انه من غير المعقول منطقيا ان يقوم أي ملك مهما تبلغ درجة جرأته بتدبير هجوم على دولة تفوقه تفوقا هائلا من حيث العدد والعدة ، وتسيطر على موارد ومقومات عسكرية ضخمة دون الوقوف على مايؤكد له ولو الى حدما ، انه يكمن في هذه الدولة من عناصر الضعف ما يهيء له فرصا معقولة للانتصار عليها .

ثانيا ـ مراحل الغزو :

١ ـ استدعاء بارمينيون :

وفي خريف عام ٣٣٥ عاد الاسكندر من بلاد الاغريق الى مقدونية ليكمل

استعداداته ، واستعدادات والده فيليب من قبل • فاستدعى (Parmenion) — احد قواد والده — من آسية الصغرى ، حيث كان والده قد ارسله اليها في عام ٣٣٦ على رأس قوة استطلاعية • وعاد بارمينون بعد ان قام باستبقاء قسم من قواته على سواحل الدردنيل (الهلسبونت) •

٢ — آسية الصغرى وموقعة اسوس :

وفي ربيع عام ٣٣٤ عبر الاسكندر الدردنيل ، ومعه من الجند ما يربو على ثلاثين ألفا من المشاة ، وما يزيد على خمسة آلاف من الفرسان ، بعد أن ترك وراءه قائده العجوز أنتيباتروس (Antipatros) على رأس حوالي (٩٠٠٠) من المشاة و (٦٠٠) من الفرسان لتصريف امور الحكم في مقدونية ، والاشراف على الحالة في بلاد الاغريق • وان دل هذا على شيء فهو يدل على انه برغم أن حلف كورنثة أقام الاسكندر رئيسا عليه ، ووافق على محاربة الفرس ، فان الاسكندر كان يدرك شدة تمسك الاغريق باستقلالهم التام ، ويخشى على مؤخرته وخطوط مواصلاته من تمرد الاغريق اثناء محاربة الفرس •

ويبدو أن الملك الفارسي دارا لم يقدر مدى الخطر الذي وفد عليه من وراء البحر ، فكلف عددا من ولاته في آسية الصغرى بصدّ هجوم الغازي المقدوني • وبالفعل قام ولاة كل من فروجيه على الدردنيل ، ولودية وايونية وكبدوكية وفروجية الوسطى باعداد قوة كبيرة بقيادة ممنون الرودوسي ، واتخذوا لهم موقعا منيعا على الضفة الشرقية الشديدة الانحدار لنهر جرانيكوس (Granikos) تجاه مدينة لامبساكوس ، وعندما أقبل الاسكندر تغاضى عن نصيحة بارمنيون بالانتظار ، وقام بعبور النهر فجأة وتحطيم مقاومة الفرس الذين قاوموه مقاومة يائسة فقتل منهم واسر عدد كبير وفر الباقون • وهكذا تحطم الجيش الفارسي الذي تصور الملك الاكبر انه كان في وسعه الدفاع عن آسية الصغرى باسرها حتى جبال طوروس • ولم يبق امام الاسكندر الا الاستيلاء على المواقع المنيعة التي بها حاميات فارسية أو مرتزقة اغريق في خدمة الفرس •

وكان الفرس يعتمدون في حكمهم المدن الاغريقية في آسية الصغرى على

الطغاة والحكومات الاوليجاركية مع اقامة الحاميات في المراكز الحساسة وهي الطريقة نفسها التي اعتمد عليها انتيباتروس في حكم بلاد الاغريق باسم الاسكندر . ولكن الاسكندر نهج في آسية الصغرى بعد نصره السابق نهجا مغايرا لذلك . وهو الاعتماد على تأييد الحكومات الدمقراطية الحرة . ومرد ذلك الى أن الدمقراطيين كانوا يكرهون حكامهم الطغاة والاوليجاركيين وكذلك الفرس الذين أقاموا عليهم اولئك الحكام ، والى أن أعداء الفرس كانوا أصدقاء الاسكندر بحكم الصوالح المتبادلة ، ولهذا فان الفاتح المقدوني أعلن انه قد أتى للقضاء على الحكومات الاوليجاركية واعادة الدمقراطية ، والسماح لكل مدينة باسترداد حقها في الحرية والتمتع بقوانينها الخاصة .

وكان من جراء هذا الاعلان أن الدمقراطيين قاموا بالاستيلاء على مقاليد الامور في مدينة اغريقية بعد اخرى ، وبطرد الحكومات الموالية للفرس . وعلى هذا النحو اكتسب الاسكندر ولاء هذه المدن وضمن خطوطه الخلفية قبل متابعة زحفه .

ودلل الاسكندر مرة اخرى على حسن تقديره للامور ، وذلك بعدم تعريض نفسه لمجازفة الاشتباك مع الاسطول الفارسي وكان ثلاثة اضعاف اسطوله بل قرر تسريح هذا الاسطول لعجز موارده عن تحمل نفقات اسطول لايجني من ورائه فائدة مجزية لحملته ، ورأى أن خير وسيلة للقضاء على الاسطول الفارسي هي الاستيلاء على قواعده البرية في آسية الصغرى وسورية ومصر ليحجب عنه أي مدد أو مساعدة ، وتبعا لذلك فانه بعد نصره في معركة جرانيكوس ، استولى على افسوس وملطيه ثم على هاليكارناسوس بعد أن دافع عنها أهلها بضراوة بقيادة ممنون قائد المرتزقة والاسطول الفارسي .

وبعد استسلام معظم مقاطعات آسية الصغرى ومدنها الرئيسية وتعيين عدد من قادته على الولايات التي اخضعت ، خف الاسكندر شمالا للانضمام الى قوات بارمنيون عند جورديوم [1] ، حيث انتظر وصول الامدادات من مقدونية .

---

(1) مدينة تقع في مقاطعة فروجية الداخلية، وسط آسية الصغرى . وقد جاء في أساطير المدينة ان من يستطيع حل عقدة عربة جورديياس (أحد ملوك المنطقة الاسطوريين) يصبح ملكا على آسية ، وقد استطاع الاسكندر حل العقدة بضربة سيف بعد أن عجز غيره فيما سبق عن فكها بالطرق العادية .

وحدث عندئذ أن مات ممنون الرودوسي قائد الاسطول الفارسي والمحرك الاول للمشاكل وللثورات ضد الاسكندر ، وكان خليفته أقل منه كفاية وقوة ، وزاد في ضعفه أن دارا انقص قواته نقصا كبيرا فبقي في قيادته مكتوف الايدي بقوات رمزية .

ومن جورديوم اتجه الاسكندر في زحفه شمالا صوب أنقرة (Ankyra) حيث وفد عليه مبعوثون من بعض الولايات البعيدة لتقديم فروض الطاعة . وازاء زوال خطر ممنون ، والاستعدادات التي بدأ دارا يتخذها خف الاسكندر جنوبا لاحتلال البوابات الكيليكية (احدى مداخل سورية من الشمال) ذات الموقع الاستراتيجي الهام . وبعد الاستيلاء عليها اتجه طرسوس (Tarsos) ، وفيها أصابته حمى شديدة استطاع طبيبه فيليب معالجته منها [1] وبعد شفاء الاسكندر اوفد بارمنيون على رأس قوات للاستيلاء على الممرات المؤدية الى سهل اسوس (Isos) ولحق بـه عندما علم بوصول دارا الى منطقة بحيرة انطاكية (حاليا بحيرة العمق) .

وعندما نشبت موقعة اسوس ــ احدى اعظم مواقع التاريخ ــ في تشرين الاول (اكتوبر) عام ٣٣٣ ، استطاع الفيلق المقدوني اثبات قدرته القتالية وفعاليته تجاه الانماط التقليدية للحرب القديمة ، وهزم جيش دارا هزيمة قاسية ، وتفرقت فلوله في كل حدب وصوب .

٣ ــ نظم الاسكندر المؤقتة للبلاد التي فتحها في آسية الصغرى :

ولعله من المناسب أن نتوقف هنيهة لنشير في ايجاز الى أنه قبل متابعة الاسكندر زحفه الى ما وراء آسية الصغرى وضع نظما مؤقتة ــ ادارية ومالية وعسكرية ــ للبلاد التي فتحها هناك . وأمام ضيق الوقت استبقى معظم النظم الادارية الفارسية مع اجراء بعض التعديلات الطفيفة . واذا كنا سنرى انه في الولايات الشرقية حاول الاسكندر الفصل بين السلطات المدنية والعسكرية والمالية ، فانه في الولايات التي فتحها في آسية الصغرى اكتفى باقامة مشرفين ماليين مستقلين

---

(١) تذكر الروايات القديمة ان الاسكندر تسلم أثناء مرضه رسالة من قائده بارمنيون يتهم فيها الطبيب فيليب بانه تلقى رشوة من دارا لدس السم للاسكندر ، وان الاسكندر اطلع الطبيب على محتوى الرسالة بعد شفائه من مرضه . وفي هذا دليل على ثقة الاسكندر الكبرى بحاشيته وقوة شخصيته ورباطة جاشه .

تاركا للولاة المقدونيين الذين أقامهم بـدلا من الولاة الفرس الجمع بـين السلطتين المدنيـة والعسكريـة .

وحرص الاسكندر على التودد الى المدن الاغريقية ضمانا لاستقرار الامـور لصالحه . ذلك أن كل مدينة كان شعبها أو الاسكندر يعيد اليها الحكم الدمقراطي كان الاسكندر يعفيها من الضريبة التي اعتادت دفعها للملك الفارسي ، وفضلا عن ذلك فان الاسكندر ضم على الاقل بعض هذه المدن الى الحلف الهليني (كورنثة) الذي كان يرأسه ولم يكن معنى اعادة الاسكندر للدمقراطية في مـدن آسيـة الصغرى السماح بالعودة الى النزاعات والصراعات الحزبية القديمة ، ولعل تدخل الاسكندر في مدينة افسوس وجزيرة خيوس لوقف هذا الصراع وقتل الخصوم السياسيين ومنع اتهام احد مستقبلا بميوله الفارسية ينهض دليلا قاطعا على حرص الاسكندر على أن يسود الوئام بين الاغريق ، وكذلك بين الاغريق والفرس .

وبعد تنظيم شؤون المناطق المفتوحة ، وضمان خطوط مواصلاته وتثبيت حلفاء له في المدن الاغريقية . لم يقتف أثر دارا وانما اتجه صوب فينيقية لتحطيم الاسطول الفارسي المسيطر على بحر ايجه .

٤ ـ سورية وفينيقية :

وفي أول الساحل السوري أعاد الاسكندر تأسيس مرياندروس (Meriandros) الفينيقية القديمة وأسماها الاسكندرية (حاليا الاسكندرونة)ثم تقدم نحو ماراثوس (Marathos) = (عين الحية ، عمريت حاليا) فاستقبله فيها استراتون (Straton) نائب ملك أرواد والساحل المقابل له ، وقدم له تاجا من ذهب نازلا لـه عن أرواد وماراثوس ومملكته كلها ، وذلك في الوقت الذي كان فيه والده جروستراتوس وعدد من ملوك فينيقية وقبرص فضلا عن قائدي البحرية الفارسية في بحـر ايجه ينتظرون الاوامر للتحرك بمساعدة اجيس (Agis) ملك اسبرطة .

وفي ماراثوس كلف الاسكندر بارمنيون بالاستيلاء عـلى دمشق ، وكانت المدينة الرئيسية في سورية الداخلية . وبدون قتال تم الاستيلاء على دمشق حيث استولى بارمنيون ايضا على مهمات جيش دارا وخزانة حربه ، وكانت قد أرسلت

الى هذه المدينة أثناء معركة اسوس ، وقد أسهمت هذه الاسلاب في وضع حـد للتماعب المالية التي كان الاسكندر يعاني منها •

وفي ماراثوس ايضا تسلم الاسكندر رسالة من دارا يعرض عليه فيها التحالف والصداقة ، ولكن الاسكندر رفض هذا العرض وأذاع اعلانا سياسيا أورد فيـه الاسباب المبررة لقيامه بغزو الامبراطورية الفارسية •

وغادر الاسكندر ماراثوس صوب الجنوب ، حيث بلغه نبأ استسلام جبيل وترحيب سـكان صيدا بـه فدخل هـذه المدينة العريقة وأعـاد اليها ممتلكاتها ودستورها الخاص ، ثم تابع زحفه جنوبا وفي الطريق استقبل وفدا من سكان صور جاءه عارضا عليه في غياب ملكهم المرافق للاسطول الفارسي استسلام مدينتهم • بيد انه عندما طلب الاسكندر السماح له بدخول المدينة ليقدم القرابين لجده الاعلى الاله « ملقارت »[1] رفض الصوريون طلبـه •

وردا على هذا الرفض ، حاصر الاسكندر المدينة سبعة أشهر الى ان استطاع في أواخر تموز (يوليو) عام ٣٣٢ اختراق أسوار المدينة بهجوم عام ، والاستيلاء عليها بعد مقتل ثمانية آلاف من سكانها وأسر ما يقرب من الثلاثين ألفا بيعوا في أسواق النخاسة • وانتقم الاسكندر من المدينة فجعلها مركزا لحامية مقدونية ، ولما كان الاسكندرقد أبقى على الملكيةفي صيدا ،فقد آلت اليها زعامة الساحلالسوري• وفي أثناء حصار صور تسلم الاسكندر امدادات من جميع قطع الاسطول الفينيقي (فيما عدا القسم الذي كانت تسهم به صور) ، كما وصلت اليه سفن قبرصية ، وكان من نتيجة ذلك ومن نتيجة سقوط صـور وتدمير اسطولهـا أن الاسطول الفارسي فقد أفضل سفنه ، ولم يعد يشكل ذلك الخطر الكبير الذي كان الاسكندر يخشاه •

---

(١) ملقارت اله فينيقي شهير يعادل هرقل في الديانة الاغريقية والذي كـان الاسكندر يدعي انحداره منه مثلما فعل بالنسبة لآلهة آخرون • ويعلـل الاستاذ (جوكيه) رفض الصوريين بأن زيارة الاسكندر معبد ملقارت كانت تعني اعتراف الاله بحق الاسكندر في حكم المدينة في عرف ذلك العصر •

وفي أثناء حصار الاسكندر لصور تسلم رسالة ثانية من دارا عارضا عليه فيما عرضه محالفته والنزول له عن كل امبراطوريته غربي الفرات ، ولكـن الاسكندر رفض عروض دارا كلها ورد عليه ردا قاسيا وحاسما ، وتابع مسيره الساحلي في اتجاه مصر بعد أن ترك بارمنيون في دمشق لتنظيم شؤون سورية •

ويبدو أن غزة لم تتعظ بمصير صور فامتنعت عن التسليم اعتمادا على مناعة أسوارها ، وتأييد حلفائها من العرب • وقاومت غزة الاسكندر مدة شهرين كاملين (صيف ٣٣٢) الى أن استطاع اقتحامها والاستيلاء عليها ، وقتل الكثيرين من أهلها وأسر الباقي ، ولا بد من الاشارة هنا الى ان معظم المؤرخين المعاصرين يشكون في صحة زيارة الاسكندر لاورشليم وهي الزيارة التي ذكرها المؤرخ اليهودي يوسف (Josephus) ولم يرد لها ذكر عند غيره من المؤرخين القدامى •

٥ ــ مصر :

وبعد تحطيم غزة ، تابع الاسكندر طريقه الى مصر حيث وصلها في أواخر تشرين الاول (نوفمبر) عام ٣٣٢ ، فاستسلم والي مصر الفارسي لعلمه اليقين بعجزه عن مقاومة الاسكندر بعد هزيمة مولاه وهربه وسيطرة الاسكندر على سورية وفينيقية ، ولا سيما انه كان لا يستطيع الاعتماد على مساندة الشعب المصري وكان يكره الفرس كرها شديدا • وهكذا آلت مصر الى الاسكندر بدون قتال •

ولما كان المصريون يحقدون على الفرس لانتهاكهم حرمة دياناتهم ، فقد كان أول عمل قام بـه الاسكندر عندما حط رحاله في العاصمة المصرية ممفيس (منف) هو أن يظهر احترامه للديانة المصرية • ولذلك قدم القرابين في معبـد (فتـاح) للآلهة الوطنية والعجل المقدس (ابيس) ، ورسم نفسه فرعونا طبقا للطقوس الدينية المصـرية •

وبعد فراغه من تأسيس مدينة الاسكندرية ، أخذ الاسكندر جزءا من جيشه ونفرا مـن صحبه واتجـه في محاذاة الشاطـىء حتى وصـل الـى بارايتونيون Paraetonion) = مرسي مطروح) ثم توغل في الصحراء قاصدا الحج الى معبد (آمون) في واحة (سيوه) ، وكان يضارع في أهميته أعظم معابد الوحي الاغريقية ،

ويميل أغلب الباحثين الى ان الاسكندر قام بهذه الزيارة لتحقيق غايتين أمام الرأي العام العالمي وهما : اثبات صلة نسبه بالآلهة والفوز بمباركة الاله آمون لمشروعاته المقبلة • وقد كان من شأن تحقيق هاتين الغايتين أن ييسر على الملك الاله تكوين امبراطورية عالمية وبسط نفوذه في أرجائها •

وقبل أن يبرح الاسكندر مصر ، قام بتنظيم البلاد تنظيما دقيقا ، فمنحها استقلالا داخليا ، ووضع وادي النيل تحت امرة حاكمين احدهما على الاقل مصري ، في حين وضع الاقاليم المتاخمة للدلتا تحت اشراف رجلين من الاغريق ، وأمر الجميع أن يرعوا في حكمهم التقاليد المصرية القديمة وتحصيل الضرائب وتسليمها الى كليومنس (Kleomenes) النقراطيسي ، وكان أحد الحكام الذين عينهم الاسكندر وأوكل اليه أيضا الاشراف على انشاء الاسكندرية •

وعندما فرغ الاسكندر من مهامه في مصر ، برحها في ربيع عام ٣٣١ قاصدا بابل لملاقاة الجيش الفارسي ثانية بعد أن أعاد تنظيمه وتولى قيادته الملك الاكبر بنفسه •

٦ ـ تنظيم الاسكندر لسورية وفينيقية :

وفي طريقه عرج على سورية ، حيث قام بتعيين أحد قادته المدعو لاومدون (Laomedon) واليا عاما على سورية الكبرى ، وجعل له معاونين في ادارة المال والجيش •

ولا يعرف سبب غير خشية الاسكندر من طموح من يحكم مثل هذه الرقعة الهائلة من الارض دفعة لان يكوّن من أراضي الجزيرة (السورية) ولاية جديدة • وفي الوقت الذي كان الاسكندر يصدر أوامره بتثبيت معظم ملوك الساحل السوري على عروشهم كان قائده بارمنيون يقيم جسرا على نهر الفرات حيث كان مازايوس (Mazaeos) والي سورية الفارسي يرابط على الضفة الغربية على رأس قوة فارسية صغيرة •

٧ ـ ما وراء الفرات :

وتؤكد معظم الدراسات الحديثة ان القيادة الفارسية بذلت جهودا مضنية

خلال عام ونصف في سبيل اعادة انشاء جيش يتمكن من الصمود في وجه جيش محترف تقوده عبقرية فذة ، ورغم أنها حققت بعض النجاح في هذا المجال إلا أنها لم تتخذ الخطوة الاكثر ضرورة وحسما وهي تنحية الملك دارا نفسه عن القيادة العسكرية في ساحة القتال •

وفي تموز (يوليو) عام ٣٣١ لحق الاسكندر بقائده بارمنيون ــ وكان يرابط على ضفة الفرات الغربية ــ وعبر الفرات ثم الدجلة بدون مقاومة ، ثم اتجه صوب قرية صغيرة تدعى جاوجميلا (Gaugamela), (موقع تل جومل على بعد حوالي ٥٠ كم شمالي اربيل) حيث كان دارا قد عسكر على مقربة منها •

وأفلح جيش الاسكندر في الحصول على نصر كبير بعد معركة ضارية ، فر على أثرها دارا ، وزحف الاسكندر على بابل حيث سلم له مازايوس وكان قائدا بارعا حارب بكفاية واخلاص في معركة جاوجميلا ، ولكن فرار الملك من المعركة ترك في نفسه أعمق الاثر • وقد أكرم الاسكندر هذا الرجل وعينه واليا على بابل ، وكانت هذه هي أول مرة اسند فيها الاسكندر مثل هذا المنصب الى فارسي ، ولكن الاسكندر عين الى جانبه قائدا عسكريا مقدونيا ، وكذلك مشرفا على الشؤون المالية • وعندما سلم الى الاسكندر آخرون من الفرس البارزين عيّن منهم سبعة عشر ولاة ، ولكن الاسكندر أعطى مازايوس دون غيره من الفرس الذين أقامهم حكاما على بعض الولايات حق سك النقود • وازاء الترحيب الذي قوبل به الاسكندر في بابل أمر بالغاء جميع قرارات الملك الفارسي اكسركسس التي أبطلت العادات والتقاليد البابلية • وبعد ذلك تابع الاسكندر تقدمه نحو سوسا حيث عين عليها واليا فارسيا آخر وأسكن أسرة دارا ثم سارع صوب برسبوليس واستولى عليها ، وغنم من كنوزها ماقدر بمائة وثمانين ألف تالانت ، ولا يعرف السبب الذي دعاه بعد ذلك الى الاقدام عامدا متعمدا ــ برغم نصيحة بارمنيون ــ على احراق قصر أكسركسس ، وان كان بعض المؤرخين يعتقدون انه أراد أن يكون هذا العمل عبرة لآسية وايذانا بأنه تم الاخذ بثأر المعبد البابلي العظيم (E. Sagila) الذي خربه أكسركسس •

وعندما علم الاسكندر بأن دارا يعد العدة لمتابعة القتال في اكباتانا (Ekbatana)

ـ وكان قد فرّ اليها بعد معركة جاوجميلا ـ أسرع لملاقاته قبل أن يتم استعداداته ولكن قادة دارا تآمروا على مليكهم بعد يأسهم من قتال الاسكندر واغتالوه قبل وصول الاسكندر اليه بوقت قصير •

وكان من جراء اغتيال الملك الاكبر بعد الهزائم التي نزلت بالفرس وتفرق كلمتهم انه لم يعد في وسعهم بوصفهم دولة بل امبراطورية مغالبة الاسكندر • وهكذا طويت الى حد كبير آخر صفحة من صفحات الامبراطورية الفارسية وبدأ حكم جديد للمنطقة تحت رعاية حكام جدد يمثلون حضارة جديدة •

وكذلك كان من جراء انتصارات الاسكندر واغتيال دارا أن الاسكندر أصبح الملك الاكبر بحق الفتح ودعا نفسه « سيد آسية » ، وتبعا لذلك أصبح من حقه أن يعامل كل من يقاومه معاملة العصاة الخارجين على سيد البلاد • ولذلك فان الولاة الفرس الذين قدموا له فروض الولاء عفا عنهم وثبتهم في مناصبهم ، أما الذين قاوموه ووقعوا في الاسر فانه أعدمهم •

ومما يجدر بالملاحظة أنه منذ مقتل دارا دأب الاسكندر في المناسبات الرسمية على ارتداء الثياب الفارسية واتباع المراسم الفارسية بازدياد مطرد على نحو ما سيرد ذكره •

والمهم في الامر ، انه بعد أن أمن الاسكندر مؤخرته باستسلام ولاة طابورية وبارثيه وهركانية ، وغيرهم من ولاة الهضبة الايرانية وفرار بعضهم الآخر اتجه شمالا باتجاه باكترية لاقتفاء أثر هؤلاء وفي طريقه بلغ الاسكندر نبأ استسلام ساتيبارزانس (Satibarzanes) والي آريه فعفا عنه وثبته في ولايته وأرسل اليه أحد قواده لمرافقته وان لم يزوده بقوات كافية ، دليلا على رغبته في اتباع سياسة جديدة تقوم على أساس الثقة بالولاة الفرس • وعند وصول الاسكندر الى بلخ (Balekh) بلغه تمرد ساتيبارزانس ، مما اضطره الى العودة جنوبا واخضاع آرية ثانية رغم فرار ساتيبارزانس بصعوبة • وعلى مقربة من احدى المدن الهامة التي تدعى ارتاكوانا (Artakwana) أسس أول مدينة حملت اسمه في منطقة شرق الدجلة • وبعد تعيينه واليا جديدا على اقليم آرية تابع سيره • وفي طريقه باتجاه

باكترية توقف الاسكندر في المقر الملكي الفارسي في فرادا (Phrada) حيث حاكم (Philotas) أحد أفضل ضباطه ـ بتهمة الخيانة لشخص الاسكندر وأعدمه ، كما أصدر في العام نفسه (٣٣٠) أمرا باغتيال بارمنيون للشك الذي خامر الاسكندر حوله والاقاويل التي حيكت حول تصرفاته السابقة .

وبعد اعادة تنظيم بعض فرق الجيش أخضع الاسكندر كلا من ولايات الهند الشمالية والشمالية الغربية وكذلك باكترية ، وصغديانا . وبحلول عام ٣٢٨ نجح الاسكندر بعد جولة مثمرة في شمال شرق الهضبة الايرانية في فرض سيطرته على كافة الاصقاع التي دانت في فترة سابقة للمتمردين من بدو الساكا والصغديين والباكتريين ، وأهمهم أوكسو أرتس (Oxaartes) الذي استسلم رجاله للاسكندر بعد مقاومة عنيفة ووقعت أسرته في الاسر بما فيها ابنته روكسانا (Roxana) التي تزوجها الاسكندر فيما بعد متابعا بذلك سياسته التي أفضت الى سوء التفاهم وفقدان الثقة بينه وبين الاغرايق والمقدونيين . ذلك أن هذا الزواج كان زواجا سياسيا محضا قصد بـه اظهار احترامه للعرق الفارسي بصورة خاصة ، واسترضاء الامراء الشرقيين ، ووضع حد للحرب القومية بصورة عامة .

والى حين اغتيال دارا واستيلاء الاسكندر على العاصمة الفارسية اكباتانا في صيف عام ٣٣٠ كان الاسكندر ملكا مقدونيا ، وقائدا لحلف كلفه بمحاربة الفرس ، وقد بلغت هذه المهمة غايتها بتحطيم الدولة الفارسية ، ولعل الاغريق بحلفيهم شعروا بأنه لا علاقة لهم باستمرار زحف الاسكندر شرقا ، وخاصة عندما رأوه ماضيا في اتخاذ بعض الخطوات التي أشعرتهم وأكدت قناعتهم بأن الاسكندر لم يعد مليكهم فقط بل أصبح ملكا آسيويا ، ذلك ان الاسكندر عنى باحترام رعاياه الجدد من الشرقيين (مصريين وبابليين وفرس) لايمانه بأن التفرقة بين الناس في المعاملة يجب أن تقوم على أساس فضلهم وليس جنسهم ، وقناعته بأنه على الرغم من تأخر حضارات هذه الاقوام عن الحضارة الاغريقية ، فانه من الممكن تحضير هؤلاء والاستفادة من مقوماتهم الحضارية السابقة ، وهي عكس الفكرة التي كان ينادي بها أرسطو كما أسلفنا ، ودان بها الاغريق بوجه عام .

وقد ضاق رفاق الاسكندر بما لاحظوه من انه لم يكتف باقامته ولاة من

الفرس بل انه درج منذ وفاة دارا على التشبه بملوك الفرس في المناسبات العامة ثم شفع ذلك بزواجه من فارسية ، وأعقب ذلك باعداد العدة لتدريب عدد كبير من شباب الفرس على النهج المقدوني •

ولم يلبث الاسكندر أن انجرف في تيار المراسم والعادات الفارسية باقتباسه عادة السجود له (Proskynesis) وهي التي بمقتضاها كان يتعين على جميع من يقتربون من الملك أن يؤدوها • وعلى الرغم من ان بعض المؤرخين يرون في طلب الاسكندر الى رفاقه في باكترية السجود له ، خطوة أو محاولة تمهيدية للاعتراف به إلها للامبراطورية المقدونية ، وان معارضة هؤلاء كانت السبب الذي أدى الى القضاء على هذه المحاولة في مهدها فان مناقشة موضوعية للمشكلة تطرح أمامنا أبعادا جديدة غمضت على بعض مؤرخينا أصحاب الفكرة السابقة •

ذلك أن جميع تصرفات الاسكندر السابقة واللاحقة تدل دلالة أكيدة على ان الاسكندر لم يقصد بطلب السجود له الا اتخاذ خطوة أخرى في سبيل المساواة بين رعاياه الغربيين والشرقيين في المعاملة ، سيما وأن هذه العادة الفارسية كانت لا تنطوي على معنى التأليه في نظر أصحابها ، فقد كانوا لا يؤلهون ملوكهم • ويضاف الى ذلك أن أول المعترضين على هذا الطلب كان كاليسثنس (Kallisthenes) الذي رد على الاسكندر بأن يقصر العادات الشرقية على الشرقيين ولما كان الكل يسلّم بأن كاليسثنس كان أكبر داعية لألوهية الاسكندر فان من المعتقد انه لو كان يدرك أن هذا الطلب كان تمهيدا لاقامة الاسكندر إلها عاما بين الاغريق والمقدونيين لما اعترض عيه ، وفضلا عن ذلك فان القول بأن رفاق الاسكندر رفضوا السجود له لان ذلك كان ينطوي على تأليهه معناه ان الاغريق كانوا لا يقبلون هذا التأليه ، والقول بأنه ازاء ذلك عدل الاسكندر عن رغبته معناه عزوف الاسكندر عن الاقدام على ما يجافي مشاعر الاغريق ، فكيف يتفق ذلك مع ما طلبه الى مدن عصبة كورنثة بعد ذلك بثلاثة أعوام بأن تعبده ؟

ولاجدال في أن قبول المنفيين السياسيين في مدن العصبة ــ كما سيرد لاحقا ــ كان أمرا كريها الى مواطني تلك المدن • واذا سلمنا بأن تأليه الاسكندر كان أيضا أمرا كريها للاغريق ، فان معنى ذلك أن الاسكندر قد أقدم على اتخاذ خطوة كريهة ليرغم

الاغريق على أمر كريه آخر ، وهو ما لا يتفق مع موقفه من مسألة السجود ولا مع الاساليب السياسية السليمة •

وعلى كل حال ، إذا صح أن الاسكندر قد أقدم على اتخاذ اجراء كريه من أجل تحقيق هدف ثانوي ، فهل كان يكفي اعتراض رفاقه ليمتنع عن اقامة نفسه إلهاً عاما للامبراطورية وهو ما كان يعتبره الدعامة الاساسية للاحتفاظ بوحدة هذه الامبراطورية • قد يبدو معقولا ان يقال أن الاسكندر لم يفكر في الاتجاه الى التأليه لتحقيق أهدافه السياسية ، لكننا لا نستطيع أن نستسيغ الفكرة القائلة بأن الاسكندر لم يلجأ الى هذه الوسيلة الا لتحقيق هدف ثانوي • على حين انه من الواضح انه كان يتعذر عليه تحقيق هدفه الاساسي وهو وحدة الامبراطورية دون استخدام هذه الوسيلة ، التي تعتبر الوسيلة الوحيدة نتيجة استحالة تحقيق مزج سياسي معقول لاخلاط الشعوب والحضارات التي تضمنتها امبراطوريته • وقد تتفق مع الاستاذ « تارن » في أننا لم نسمع بعد محاولة باكترية عن أية محاولة اخرى قام الاسكندر بها للاعتراف به إلهاً عاما للامبراطورية ، لكن لعل الادنى الى الصحة القول بأنه لم يحاول ذلك اطلاقا وذلك لسبب بسيط وهو انه كان قد أرجأ اتخاذ هذه الخطوات الحاسمة حتى يتم بناء امبراطوريته ، غير ان موته المبكر اختطفه قبل ذلك •

وعلى أية حال ، فقد كان من شأن هذه التصرفات التي قام بها الاسكندر ان رفاقه من المقدونيين والاغريق تصوروا ــ نظرا لعجزهم أو تعاميهم عن فهم المغزى الحقيقي الذي رمى اليه الاسكندر ــ انه تحول الى ملك فارسي ، ورأوا أن من واجبهم وقفه عند حده • مما تسبب له في كثير من المتاعب كانت أولاها مؤامرة (فتيان القصر) وهي التي ارتبط بها اسم كاليسثنس •

وبيان ذلك أن أحد فتيان الحاشية ، تآمر ونفر من زملائه على حياة الاسكندر، بايحاء من كاليسثنس الذي أثبت التحقيق انه ردد على مسامعهم تحبيذه قتل الطغاة، ولعل مجرد حدوث هذه المؤامرة يكفي للدلالة على عجز رفاق الاسكندر بما فيهم أنضجهم عقلا وأكثرهم ثقافة مثل كاليسثنس عن تفهم مرامي الاسكندر السياسية •
ولم يكن من شأن التآمر على حياة الاسكندر ان يصرفه عن السير قدما في

اتجاهه • ذلك أنه حين كان لا يزال في باكترية خطا خطوتين في هذا الاتجاه احداهما هي انه وضع فرقة الفرسان الملكيين تحت قيادته الخاصة ، وضم اليها قلة من أبناء نبلاء الفرس • والخطوة الاخرى هي أنه أعاد جميع فرسانه البلقانيين الى بلادهم عدا التراقيين منهم واستبدل بالذين أعادهم فرسانا من الشرقيين ممن استبسلوا سابقا في مقاتلته قبل اخضاع ولاياتهم ثم أخلصوا في خدمته •

٨ ـ غزو الهنـد :

وبعد اعادة تشكيل قواته في مدينة تاكسيلا (Taxila) أصـدر الاسكندر أوامره الى هذه القوات ــ التي بلغت حوالي ثلاثين ألفا ــ بالتحرك باتجاه الهند التي لم يكن يعرف عنها الا معلومات ضئيلة جدا • ولم يكن مدلول الهنـد عند الاسكندر عندما غزاها أكثر من اقليم البنجاب ؛ ولما كانت هذه (الهند) جزءا من امبراطورية دارا الاول فـان غزوها كان أمـرا محتوما لاستكمال فتح هـذه الامبراطوريـة •

وفي بداية صيف عام ٣٢٧ ، خرج الاسكندر من مدينة باكترا ، وفي طريقه صوب مدينة كابول لقي عددا من الزعماء المحليين الذين قدموا له خمسة وعشرين فيلا كانت معهم ، ولكنه لم يستخدمها الا في أغراض النقل ، وبعد تقسيم قواتـه وتكليفها بمهمات مختلفة خاض الاسكندر بقسم من قواته حربـا ضد بعض القبائل المشاكسة وهزمها ، وأبقى في مناطقها بعض الحاميات •

واستطاع الاسكندر بما أوتي مـن كفاية حربية ومهارة دبلوماسية اكتساح معظم الاقاليم المتاخمة لمملكة باورافا (Paurava) شمال غربي الهند • وكان ملكهـا بوروس (Poros) قـد تحالف مع بعض الحـكام المجاورين • وبعد أن أعـاد الاسكندر تنظيم فرسانه ، فاجأ غريمه بوروس ــ الذي عسكر بالقرب من أحـد الانهار ــ بحركة التفاف سريعة أفقدت قواته وفيلته قدرتها على القيام بأي هجوم معاكس مجدي ، وانتهت المعركة بهزيمة قوات بوروس بعد استبسالها في المعركة بقيادة ملكها استبسالا منقطع النظير • ونظرا لشدة اعجاب الاسكندر بشجاعـة بورس وقواته فانه عرض عليه أن يصبح حليفا له وحاكما وطنيا يتمتع بقسط من

الرعاية والحماية ، فوافق بوروس على هذا العرض الكريم ، كما بارك مساعي الاسكندر لاصلاح ذات البين بينه وبـين حليف هندي آخر للاسكندر المدعـو تاكسيلاس (Taxilas) ويبدو ان الاسكندر قد خشي بعد ذلك من قيام أحدهما أو كلاهما بثورة على سلطته ، فحاول جهده لاقرار موازنة بين قوات وممتلكات كل من الطرفـين .

٩ ـ العودة شرقا :

وابتدأت مشاق الزحف الهندي بابتداء فصل الصيف ، وعندما أصر الاسكندر على متابعة مسيره لاستكمال سيطرته على بعض الشعوب التي لم تعلن ولاءها ، تمرد الجيش وقد أنهكه التعب وأضناه اشتداد الحر والحنين الى الوطن . ورغم استياء الاسكندر من تصرف قواته واعتكافه لمدة ثلاثة أيام في انتظار عدول الجيش عن تمرده ومتابعة المسير ، قرر في النهاية العودة وسط تهليل الجنود وفرحتهم ،وبعد عناء شديد في طريقي العودة البري والبحري وصل الاسكندر وجيشه الى سوسا في ربيع عام ٣٢٤ .

وفي سوسا ، أقام الاسكندر وليمة كبرى احتفالا باتمام غزوه للامبراطورية الفارسية ، وفي هذا الحفل عقد قرانه وثمانين من ضباطه على فتيات وسيدات مـن نبيلات الفرس ، كما عقد قران ١٠,٠٠٠ من جنوده عـلى فارسيات ، ومما يجدر بالذكر ان الاسكندر وصديقه هيفايستيون زفا الـى ابنتي دارا وكانت بارسيني (Parsini) من نصيب الاسكندر . وكان هذا الاجراء بمثابة خطوة اخرى نحو تقوية أواصر الرباط بين الشرق والغرب عن طريق المصاهرة .

وقلق الاغريق والمقدونيون من تصرفات الاسكندر ـ وهي التي جعلته يبدو لهم ملكا فارسيا أكثر منه مقدونيا ـ وتفاقم خلافهم معه تفاقما شديدا وخاصة عندما جاء حكام المدن الجديدة ومعهم ثلاثون ألفا من الفرس الذين تدربوا على النهج المقدوني للانخراط في صفوف الجيش . ذلك أن رجال الاسكندر ربطوا بين هذه الظاهرة والظواهر الاخرى التي مـر ذكرها ، واعتبروها دليلا عـلى استشراق الاسكندر ، ولكنه لم يعر ذلك اهتماما ومضى في طريقه وكأن شيئا لم يكن .

وفي هذه المرحلة (٣٢٤) ، كان الاسكندر قد أصدر مرسومه الشهير الذي وجهه الى المدن الاغريقية في حلف كورنثة ، وفيه يبلغهم أوامره بالسماح للمنفيين السياسيين[1] وأسرهم بالعودة الى مدنهم ، واستثنى من ذلك مدينة طيبة • وكان هدف الاسكندر من ذلك استقرار الاوضاع في بلاد الاغريق بالقضاء عى الصراع الحزبي في المدينة الواحدة ودرء خطر هذا الحشد الهائل من الرجال المشردين بلا وطن الذين كانوا يعرضون خدماتهم كمرتزقة على من يشاء •

ويتبين من المصادر القديمة ان الاسكندر اتخذ في العام نفسه اجراء آخر وهو أنه طلب الى مدن حلف كورنثة تأليهه • ويرى الباحثون ان المقصود بذلك التأليه هو اتاحة الفرصة للاسكندر للتدخل في شؤون العصبة • لان الاسكندر رئيس الحلف مقيد بميثاق الحلف ، واما الاسكندر الاله فانه لا حدود لسلطته وتبعا لذلك يرجح الباحثون ان هذا الاجراء كان سابقا وليس لاحقا لطلبه الخاص باعادة المنفيين السياسيين •

وبعد ذلك بقليل ، وعندما قرر الاسكندر أن يعيد الى مقدونية الطاعنين في السن من رجال الجيش ، تأكدت وساوس المقدونيين ، وظنوا ان الاسكندر كان يرمي الى اقصائهم عنه تدريجيا ونقل مركز الامبراطورية من مقدونية الى آسية تمشيا مع سياسته المشربة بروح العطف نحو الآسيويين • وساعد على تأكيد وساوس المقدونيين مالاحظوا من اهتمام الاسكندر الشديد وولعه بانشاء المدن الجديدة والمستقرات العسكرية في كافة أنحاء الامبراطورية لفارسية ، فقد كان من شأن ذلك توكيد سياسة المزج والمساواة التي رحب بها الاسكندر ودعمها بالكثير من تصرفاته، على حين أنها لم ترض كبرياء وأنفة معظم عناصره فرفضوها ضمنا ، وجهرا أحيانا ، ولذا فان رجال الجيش جميعا ــ باستثناء الحرس والفرق الفارسية ــ ثاروا على الاسكندر وطالبوا باعادتهم جميعا الى أوطانهم •

وغضب الاسكندر غضبا شديدا مما اجترأ عليه رجاله ، وبعد أن أمر رجال الحرس بالقبض على زعماء الفتنة ، القى في جموع الجيش خطبة مؤثرة ختمها بتسريح الجيش من خدمته ، وبعد اعتكافه لمدة يومين دعا زعماء الفرس اليه ، وطلب منهم مساعدته على انشاء جيش قوامه فارسي ، وتسمياته وأنظمته مقدونية ، ونتيجة لهذا

---

(١) انظر : ص ٧٥ •

التصرف ، وكلمات الاسكندر النافذة فتّت في عضد الجيش ، وتراجع عن موقفه وعاد الجميع يطلبون الغفران والسماح ، فعفا عنهم الاسكندر ، وتم الصلح الذي ظل طويلا مفقودا بين الاسكندر ورجاله •

واحتفالا بالصلح ، أقام الاسكندر وليمة كبرى اختتمها باقامة صلاة من أجل السلام متمنيا ان يدوم الوئام والتعاون بين الفرس والمقدونيين وجميع عناصر الامبراطورية وان يسود الحب والود والاخاء بين هذه العناصر • ولعل ابتهاله هذا يثبت لنا بما لا يدع مجالا لشك في أن الاسكندر لم يكن مدعيا في تصرفاته السابقة ولا مداهنا غايته الوصول الى مكاسب سياسية مؤقتة ، بل كانت معظم تصرفاته تعبيرا صادقا عن ايمان بعقيدة راسخة كما لو كان يحمل رسالة مقدسة وجب عليه تأديتها على أحسن ما يكون • وبعد الحفل ، أمر الاسكندر باعادة الجنود القدامى ــ ويقدر عددهم بعشرة آلاف ــ بصحبة قائده كراتروس (Krateros) الى مقدونية وبلاد الاغريق محملين بالهدايا الثمينة •

ثالثا ــ موت الاسكندر وتفكك الامبراطورية :

وفي ربيع عام ٣٢٣ ، وصل الاسكندر الى بابل ، وانفذ بعثة استكشافية وكلفها بمهمة التأكد من أي النظريتين أصح : نظرية أرسطو القائلة بأن بحر قزوين لم يكن الا بحيرة كبيرة ، أم النظرية القديمة القائلة بأن هذا البحر ليس الا خليجا ناتئا من المحيط • وحين كان معنيا بوضع مخططاته الحربية لغزو بلاد العرب ، دهمه مرض خطير أقعده عن الحركة وأدى الى وفاته في ليلة العاشر أو الحادي عشر من شهر تموز (يوليو) ٣٢٣ ،وكان قد عمّر ثلاثة وثلاثين عاما ، وامتد حكمه اثنتي عشر عاما تقريبا •

١ ــ مؤتمر بابل :

عقب وفاة الاسكندر ، عقد قواده في بابل مؤتمرا للفصل في مشكلة ولاية العرش والنظم التي تتبع في حكم الامبراطورية المقدونية ، وقد تفتحت أمام كل واحد منهم الآمال والمطامح بموجب الموقف الجديد والمفاجيء •

وبعد بحث مسألة ولاية العرش بحثا مستفيضا احتدمت في خلاله المناقشة وكاد أن يقع صدام مسلح بين الفرسان والمشاة ، تم الاتفاق على أن يرتقي ارهيدايوس ، (Arrhidaeos) ابن فيليب الثاني العرش تحت اسم فيليب ايضا ، والاعتراف بحق جنين روكسانا اذا ولد ذكرا في مشاركة فيليب الملك بوصفهما شريكين تحت الوصايــة •

وقرر المؤتمر ايضا تعيين برديكاس ، وكان أقــوى القواد نفوذا قائدا عاما للجيش ومهيمنا على شؤون الامبراطورية وتعيين كراتروس وكان عندئذ في طريقه الى مقدونية لاعادة قدامى المحاربين كما أسلفنا وصيا على الملك المعتوه وكذلك على طفل روكسانا عندما يولد • كما قرر المؤتمر توزيع ولايات الامبراطورية على قواد الاسكندر ليحكموها بوصفهم ولاة من قبل العــرش المقدوني • وازاء انصراف كراتروس الى بلاد الاغريق لنجدة انتيباتروس في الحرب الهلينية أو « اللامية » ، وكانت نتيجة للثورة التي تزعمتها أثينا بعد وفاة الاسكندر للتخلص من السيطرة المقدونية اغتصب برديكاس الوصاية لنفسه ، وكان لا بد من وقوع الصدام بينه وبين كراتروس وانتيباتروس •

٢ ـ الصراع بين برديكاس ومناهضيه :

وعندما اغتصب برديكاس الوصاية لنفسه ، أخذ يصدر الاوامر الــى حكام الولايات باسم العرش ويطلب منهم الامتثال الى هذه الاوامر ، ولمــا كان معظم هؤلاء الحكام ينتمون الى أعرق الاسر النبيلة في مقدونية ، ويعتزون أشد الاعتزاز بأصلهم العريق وانتصاراتهم الباهرة ، وكان بعضهم يعتبر نفسه جديرا بأن يخلف الاسكندر ، بل ان أقلهم اعتزازا بنفسه كان لايمكن أن يسمح بأن يعامل غير معاملة الند للند ، ولما كان لكل من هؤلاء الحكام أطماع شخصية ، فانه لم يكن هناك مفر من أن يؤدي تضارب الاطماع الى صراع عنيف ولم ينقض وقت طويل حتى خرج كثير من حكام الولايات على طاعــة برديكاس ، ذلك أنه من ناحية عندما طلــب برديكاس الى ليوناتوس (Leonatos) وانتيجونوس فتح بعض أقاليم آســية الصغرى ، آثــر الاول الذهاب لمساعدة انتيباتروس في الحرب اللامية في حــين

رفض الثاني تنفيذ الاوامر ، وعندما طلب برديكاس الى انتيجونوس تفسير مسلكه فـــر" الى انتيباتروس وكراتروس وحثهما على تشكيل حلف للقضاء على برديكاس الذي أصبح يقوم بدور الملك في آسية •

ومن ناحية اخرى تحدى بطلميوس ــ والي مصر ــ برديكاس تحديا صارخا باعدام مساعده كلومينس النقراطيسي وكان صديق برديكاس • كما انتهز بطليموس فرصة وقوع فتنة واضطرابات في قورينائة (برقة في ليبية الحالية) واستولى عليها • وأسوأ من ذلك كله أن بطلميوس اغتصب جثمان الاسكندر عندما كان في الطريق لدفنه في مقدونية ، وقام بنقل الجثمان الى مصر ، ولم يلبث بطلميوس ان انضم الى الحلف الذي تألف بزعامة انتيباتروس لمناهضة برديكاس •

وهكذا عندما واجه برديكاس حربا في جبهتين في عام ٣٢١ ، اسند الى حليفه يومنس (Eumenes) والي كبدوكية مهمة صد قوات انتيباتروس وحليفيه ، وتولى بنفسه مهمة تأديب بطلميوس ، وكان من أهم مساعديه في هذه الحملة سلوقس قائد الفرسان ، وبايثون (Peithon) والي ميديه ، وانتيجنس (Antigenes) قائد فرقـــة أصحاب الدروع الفضية ، وكذلك قائد الاسطول •

وقد فشل برديكاس في الاستيلاء عى بلوزيون (الفرمـــا) • وفي المحاولتين اللتين قام بهما لعبور فرع النيل البلوزي فقد الكثير من جنده ،وحيثانه كان صلفا متكبرا ومكروها بين جنوده ، فان ما مني به من فشل حفز نفرا من ضباطه كان من بينهم سلوقس على اقتحام خيمته والاجهاز عليه •

وقام ضباط جيشه بعرض منصب الوصاية عــلى بطلميوس ، ولكنه أشـــار باختيار وصيين مؤقتين الى أن يجتمعوا بأنتيباتروس وكان في طريقه الى الجنوب لنجدة بطلميوس بعد أن ترك جانبا من قواته بقيادة كراتروس للقضاء على يومنس• ورغم أن يومنس كان قد أحرز نصرا عى جيش كراتروس الذي قتل في المعركة عام (٣٢١) ، فانه لم يكن قويا لدرجة تعقب انتيباتروس الذي تابع سيره ، واجتمع بالجيش العائد من مصر في تريباراديسوس •

٣ ــ مؤتمر تريباراديسوس (Triparadeisos) (٣٢٠) :

واجتمع قادة الجيش في جو مضطرب تماما ، إذ أن المشـــاة المقدونيين كانوا متذمرين تذمرا شديدا لعدم رضائهم عن قتـــل برديكاس الذي لم يشاركوا فيـــه وكذلك لعدم حصولهم بعد على المكافأة المالية التي وعدهم بها الاسكندر سابقا ، وتعقدت الامور بصورة أكبـــر وبخاصة عندما اتهمت زوج فيليب ارهيدايوس بايثون باهدار حقوق الملك (المعتوه) ويبدو أنها كانت ترمي الى الغاء الوصايـــة ووضع السلطـــة التنفيذية في قبضة زوجها أو عـــلى الاصح في قبضتها • بيد ان تدابيرها ذهبت سدى ، فقد قرر المؤتمر اسناد منصب الوصايـــة الى انتيباتروس وكذلك الاعتراف بمنصب بطلميوس في مصر ، وتعيين ولاة جدد مكان أصدقاء برديكاس • وتناولت هذه التغييرات عـــددا كبيرا من ولايات آســـية الصغرى والولايات الشرقية •

ولعل من أهم مقررات تريباراديسوس التي كانت لها نتائج بعيدة المدى هي :

١ ــ تخلي سلوقس عن منصبه كقائد الفرسان الرفقاء مقابل تعيينه واليا على بابـــل •

٢ ــ احتفاظ انتيجونوس بولايته أو عـــلى الاصـــح بولاياته في آســـية الصغرى مع تعيينه قائدا عاما للجيش الملكي في آسية وتكليفـــه باخضاع يومنس ، وحيث أنه تقرر أيضا نقل كنوز سوسا الى احـــدى قلاع اقليم كيليكية فان هذه الكنوز أصبحت تحت اشراف القائد العام للجيش • وعلى هذا النحو توافر لانتيجونوس من الاموال والرجال ما كان يهيىء لمثل هذا الرجل الطموح الموهوب الفرص لتحقيق أطماعه الواســـعة •

أهم مصادر الباب الخامس

— Appianus., Syrian Wars.
— Aristotle., Politics, 8.
— Arrian., Anabasis of Alexander, 1
— ———., Indica, 26.
— Curtius, Alexander, 1, 3.
— Diodorus, 8, 16, 17, 18.
— Josephus., Antiquities, 6, 11.
— Justin.,9, 11, 14.
— Pausanias., 1.
— Plutarchus., Alexander 14, Demosthens 27, Eumenes 5.
— Strabo., 756.
— Xenophon., Hellenica, 4.

مراجع مختارة :

١ ـ ابراهيم نصحي ، تاريخ مصر في عصر البطالة (القاهرة ١٩٦٦) ج١ .
٢ ـ مفيد رائف العابد ، الاسكندر الاكبر (دراسة سياسية فكرية) ، مجلة الفكر العسكري (دمشق) الاعداد (٢ ـ ٣) عام ١٩٧٨ .

— Abel. F.N. «Alexandre le Grand en Syrie et en Palestine» Revue Biblique, (Paris 1934).
— Babelon. E. Les Rois de Syrie (Paris 1890).
— Bevan. E. The House of Seleucus (London 1902).
— Bury. J.B. History of Greece to the death of Alexander the Great (N. Y. 1913).
— Cambridge Ancient History, vol. 6.
— Cavignac. E. Population et Capital dans le monde mediterranéen antique (Strasbourg-Paris 1923).
— Ehrenberg. V. Alexander and the Greeks (Oxford 1938)
— Jouguet P. Macedonian Imperializm and the hellenization of the east (London 1928).
— Macurdy. G. H. Hellenistic Queens (Oxford 1932).
— Park. H. W. Greek mercenary Soldiers (Oxford 1933).
— Samuel A.E. Ptolemic Chronology (Munchen 1962)
— Tarn. W.W. Alexander the Great (Cambridge 1951) 2 vols.
— Welles. B. Alexander and the Hellenistic World (Toronto 1970).

الباب السادس

تأسيس الامبراطورية السلوقية

الفصل الثاني عشر

سلوقس الاول

حتى معركة غـزة

أولا ــ أصله ونشأته وصفاته :

يحيط الغموض بأصل سلوقس ونشأته ، وتتضارب الروايات حول ذلك مثلما هي الحال بالنسبة لبطلميوس ، ومع ذلك فاننا سنحاول أن نستشف مـن مصادرنا ما يعين على القاء بعض الاضواء على هذا الموضوع ، وعلى تكوين فكرة واضحـة عنـه •

ولد سلوقس بين عامي (٣٥٨ و ٣٥٤) في مدينة يوروبوس (Europos) في مقدونية وهو ابن للاوديكي وانطيوخس ، وكان جده لأبيه يدعى ايضا سلوقس ، ويعتقد انه كان قائدا مشهورا في جيش فيليب والد الاسكندر • واسم سلوقس ، اسم مقدوني صميم كثيرا ما استخدمته الاسر المقدونية النبيلة منذ عهد بعيد ، غير انه لم يستخدم في بلاد الاغريق ذاتها الا بعد موت الاسكندر • ورغم أن نقشين من عهد انطيوخس الاول يشيران الى وجود صلة قرابة بين السلوقيين والاسكندر ، فانه لا يمكن الجزم بأن سلوقس كان فعلا يمت بصلة الى أسرة الاسكندر عـن طريق والدته •

ولا شك أن سلوقس رغم ذلك لم يكن من عامة الشعب وانما من النبلاء ذلك ان مصادرنا تصفه أثناء الحملة مرة بأنه كان أحد رفقاء الاسكندر ومرة بأنه أحد الاصدقاء • ومما يجدر بالملاحظة أن وصف أصدقاء ورفاق لم يكن يطلق الا على النبلاء • ويؤيد ما نذهب اليه أنه بعد وفاة الاسكندر أسندت الى سلوقس قيادة فرقة « الفرسان الرفقاء » وبما أن هذه الفرقة كانت مؤلفة من نبلاء مقدونية ، فانه لا يمكن ان تتصور اسناد قيادة هذه الفرقة الى رجل لم يكن من النبلاء •

ويمكن تكوين فكرة ما عن شخصية سلوقس وصفاته من التفرس فيما وصل الينا من صور على النقود أو تماثيل ذلك أن هذه التصاوير وبخاصة التماثيل النصفية منها تطالعنا بملامح سلوقس الشخصية • وهي جبهة عريضة عالية ، وعينان غائرتان ، وأنف دقيق وشفتان حازمتان ، وذقن عريضة قوية ، ورقبة عريضة قوية العضلات وكلها ملامح تفصح ــ إذا جاز التعبير ــ عن صفات رفيعة جديرة بعاهل عظيم كشفت سيرة حياته عن صفاء ذهنه وزلاقة لسانه وقوة ارادته ودهائه السياسي وطموحه •

ثانيا ــ مصاهراته :

كانت المصاهرات السياسية من أهم الاساليب الدبوماسية في العصر الهلنستي ، وتحدثنا المصادر القديمة بأن سلوقس كان ابن عصره في هذا الصدد اذ عقد خلال حياته زيجتين كانت أولاهما من اباما (Apama) الفارسية وثانيتهما من الاميرة المقدونية استراتونيكي (Stratonike) ابنه دمتريوس ، واذا كان الشك لا يرقى الى هاتين الزيجتين فان هناك شكوكا قوية حول ما ترتب على اتفاق المصاهرة الذي عقد بين سلوقس والملك الهندي تشاندرا جوبتا • وعلى كل حال فاننا سنستعرض الزيجتين المتفق عليهما وكذلك اتفاق المصاهرة سالف الذكر لنتبين فيما اذا كان سلوقس قد توخى من وراء ذلك كله أهدافا كان يتطلع الى تحقيقها •

ومما يجدر بالملاحظة أولا ان زواجه من أباما كان أطول زيجاته أمدا وأكثرها رسوخا ، فقد كانت الملكة السلوقية الاولى أباما احدى عرائس زواج سوسا الكبير (عام ٣٢٤) عندما تزوج الاسكندر الاميرة بارسيني واعطى كل واحد من قواده

زوجا فارسية . وجدير بالملاحظة ثانيا أن أباما تنفرد بأنها من بين تلك السيدات جميعا كانت الوحيدة التي أصبحت جدة لسلالة من الملوك الهلنستيين ، علما بأن بطلميوس وسلوقس كانا القائدين الوحيدين اللذين نجحا في تأسيس ملك دام طويلا . بيد أنه لا يعرف شيء عن زوج بطلميوس الفارسية سوى أنها اختفت من سيرة الأسرة البطلمية بسرعة فائقة مما حمل بعض مؤرخينا على الاعتقاد بأنها قد طلقت مباشرة بعد موت الاسكندر ومغادرة بطلميوس بابل الى مصر ، نظرا لانعدام أهميتها السياسية بالنسبة لزوجها الذي حكم مصر بالمقارنة مع أهمية أباما بالنسبة لسلوقس الذي امتد سلطانه على رعايا من الفرس .

ولعل احتفاظ سلوقس بزوجه بعد موت الاسكندر – من بين كافة القادة الذين تزوجوا في سوسا – وعدم تطليقها أو – على الاقل – عدم هجره لها خلال الفترة التي قضاها قائدا متجولا في قوات برديكاس أو لاجئا في بلاط بطلميوس ، أو هائما ومكافحا قبل استرداده بابل – كما سيمر معنا فيما بعد – يبدو أمرا جديرا بالتساؤل فهل كان سلوقس يمني نفسه منذ موت الاسكندر بالفوز ببابل والولايات الشرقية ، وخطط لتحقيق هذه الامنية مثل ما خطط بطلميوس للفوز بمصر ، ورغبة منه في دعم شرعية سلطانه على المقاطعات الفارسية التي كان يتطلع الى الحصول عليها قرر أن يحتفظ بزوجه الفارسية .... ؟

واذا كان هذا الاحتمال جائزا على أساس ان لكل انسان تطلعاته التي يعمل دائبا – حسب امكاناته – على تحقيقها ، فاننا نفتقر الى الشواهد التي تثبته ، واذا صح هذا الاحتمال فان معناه أن سلوقس كان يتطلع الى ولاية بابل كولاية مثالية لحكمه المرتقب ، ولكنه مما لاشك فيه أن قوة هذا الدافع ليست كافية للاحتفاظ بزوجه لو لم تكن هناك دوافع أخرى ، كحبه لها أو اعجابه بشخصيتها مثلا .

ورغم أن سلوقس لم يكن مخلصا تماما لمجموع افكار الاسكندر السياسية والحضارية فانه كان أخلص قادته على الاطلاق وأكثرهم وفاء لبعض أصول هذه الأفكار ، وقد ظهر هذا واضحا جليا في متابعته أمرين بوجه خاص : واحدهما هو اقتفاء أثر الاسكندر في نشر الحضارة الاغريقية عن طريق العديد من المراكز

الكثيرة التي أنشأها والامر الآخر هو : احتفاظه بزوجه التي منحه الاسكندر إياها يوم عرس سوسا الكبير ٠

أما الزواج الثاني لسلوقس ، فقد كان من استراتونيكي ابنة دمتريوس وهي التي تزوجها في غمرة محالفات التصاهر التي عقدها خلفاء الاسكندر بعد معركة إبسوس ٠ ومعنى ذلك أن هذا الزواج كان زواجا سياسيا توخى سلوقس من ورائه دعم قدراته العسكرية باكتساب مودة حليف قوي تدين له بالولاء مدن اغريقيه كثيرة ، ويسيطر على اسطول كان لايقل كثيرا عن اسطول غريمه بطليموس ويؤكد ما ذهبنا اليه أمران أحدهما : الاهمية التي كان سلوقس يعلقها على تزايد نفوذه في المناطق الغربية من امبراطورية الاسكندر (تلك المناطق التي كان لدمتريوس فيها هيمنة واضحة) تمهيدا لتحقيق الخطوة التالية في طريق حلمه الكبير في استعادة السيطرة على امبراطورية الاسكندر ، وثانيهما : خلع استراتونيكي على ابنه بعد فقد والدها دمتريوس مكانته السياسية والعسكرية ٠

وإذا سلمنا بصحة روايتي المؤرخين ابيانوس ولوكيانوس عن وقوع انطيوخس في غرام زوج أبيه استراتونيكي غراما أضناه الى حد تهدد حياته ، فلعل أن نزول سلوقس عن زوجه لابنه الوحيد لم يكن مبعثه انقاذ حياة ابنه فحسب بل ايضا عدة عوامل أخرى ، وربما كان من أهم هذه العوامل حنين سلوقس الى زوجه الاولى التي قضى برفقتها أياما حالكة وأياما مشرقة ، ورغبته في استعادة ثقة الفرس الذين لا يبعد أن يكون قد أساءهم اقصاء أباما ، دون استنفار عداء الاسرة الانتيجونية ، وهي الاسرة الاقوى نفوذا في بلاد الاغريق القارية لتكون حليفة طبيعية لابنه بعد وفاته ، كل هذه العوامل مجتمعة أو بعضها أسهمت في ذلك القرار الذي اتخذه سلوقس بخلع زوجه ٠

والحقيقة أن تأكيد بعض المؤرخين بأن سلوقس قد استبعد أباما من الصورة الملكية عند زواجه من استراتونيكي تتفق مع استقرار الامور في الشرق لصالح سلوقس ، وكذلك مع العرف السائد بين المقدونيين من حيث عدم اتخاذ اكثر من زوج واحدة في وقت واحد ٠ ولعل افتقارنا الى أدلة تثبت اغداقه أي مظهر من مظاهر التشريف على الزوج الجديدة (باستثناء اطلاق اسمها على واحدة فقط من

والمدن العديدة التي أنشأها) وتنازله عن هذه الزوج لابنه يدلان على انه لم تكن لهذه السيدة عند سلوقس مكانة خاصة تداني من قرب أو بعد مكانة أباما عنده •

ورغم الغموض الذي يحيط بأمر المصاهرة التي ارتبطت بالمعاهدة التي اتفق عليها بعد انهاء حالة الحرب بين سلوقس وتشاندرا جوبتا ، نظرا لتفاوت وجهات نظر مؤرخينا المحدثين حول تفسير بعض الاصطلاحات التي أوردتها بعض مصادرنا الادبية القديمة ، فانه بات من المؤكد انه لا سلوقس ولا أي واحد من أبنائه كان طرفا في هذه المصاهرة نظرا لمعرفتنا بأن سلوقس لم يكن له إلا زوجان (أباما واستراتونيكي) وابنة واحدة (فيلا) وهي التي ولدت بعد المعاهدة • ونحن والحالة هذه نؤيد وجهة نظر الاستاذ بوشيه لوكليرك بأن الاتفاق لم يستتبع حتما تكريس المعاهدة بتصاهر الطرفين ، وان الاتفاق على التصاهر لم يكن الا رمزا للصداقة الحميمة بين الطرفين ، ولا سيما ان الظرف الهندي كانت تسيطر عليه العصبية الطائفية ويقدس مثل هذه المصاهرات •

ويتضح من أمر سلوقس في مصاهراته انه كان ابن عصره فعلا ، وكان يتصرف بمصاهراته كما أسلفنا بوعي وحكمة لما لهذه الزيجات من آثار سياسية معروفة • ذلك انه ضمن باستبقاء أباما ولاء ودعم المناطق الفارسية ، في حين كسب بزواجه من استراتونيكي وقوف دمتريوس الى جانبه وترحيب رعاياه من الاغريق والمقدونيين • فما ان قضى لبانته من هذا الزواج حتى خلع زوجه على ابنه ، وفضلا عن ذلك فانه أمّن بمصاهرته مع العائلة الموريانية حدوده الشرقية ، وضمن مصادر تموينه بالمواد والسلع الضرورية لاقتصاد امبراطوريته وقوتها العسكرية •

ثالثا ــ سيرة سلوقس حتى اقامته واليا على بابل :

١ ــ مرحلة الفتح :

لم يقم سلوقس في حملة الاسكندر الشرقية بدور يضارع الادوار التي قام بها القواد الكبار الذين اصطرعوا بعد وفاة الاسكندر • والواقع أن سلوقس رغم عدم شغله منصبا كبيرا في جيش الاسكندر فانه كان واحدا من أخلص رفاقه الذين اعتمد عليهم في حملته وعهد اليه بعدة مهام متنوعة كان بعضها حاسما في بعض

المواقف • وان دل تعدد وتنوع هذه المهام عن شيء فهو يدل عـلى انه عند بداية حملة الاسكندر اذ كان سلوقس من المقربين الى الاسكندر فانه لم يكن ضابطا مجربا شأنه شأن الضباط المحنكين الذين اضطلعوا بأدوار كبرى طوال الحملة • غير أن سلوقس لم يلبث أن أحرز من الخبرة وأثبت من الكفاية والشجاعة ما أكسبه ثقـة الاسكندر فاختاره في زمرة من اعتمد عليهم الفاتح الكبير في فتح عدد مـن الاقاليم وأسند اليه قيادة فرق متعددة في بعض المعارك •

٢ ــ غداة موت الاسكندر :

ويبدو أن ثقـة الاسكندر في سلوقس كان يقابلها قدر كبير من محبة سلوقس ووفائه لقائده • ويروي المؤرخ آريانوس أن سلوقس قد أظهر مع عدد من القادة المقربين حزناً عظيماً عندما شارف الاسكندر على الموت ، واستشاروا الاله فيما اذا كان من الافضل ادخال الاسكندر الى المعبد ، فأشار عليهم ــ كما روى آريانوس ــ بأن يبقى في مكانه حتى يلفظ آخر أنفاسه •

وبعد موت الاسكندر مباشرة أسندت الى سلوقس قيادة فرقـة الفرسان الرفقاء وهي التي سبق أن تولـى قيادتها أكبر القادة مثل هيفايستيون وبعـده برديكاس في حياة الاسكندر • ولا شك في أن قيادة مثل هذه الفرقة المؤلفة مـن نبلاء مقدونية كانت شرفا عظيما ، وتكسب شاغلها مكانة سامية لا تفوقها الا مكانة القائد العام للجيش • ولم يستمر سلوقس في منصبه هذا طويلا ، إذ أنه تنازل عـن هذا المنصب في عام ٣٢١ لصالح كاساندروس بن انتيباتروس ليشغل منصبه الجديد واليـا على بابـل •

رابعا ــ سيرة سلوقس حتى فراره الى مصر :

١ ــ ولاية بابل :

ولا جدال في أن رجلا مثل سلوقس ، عريق الاصل ، ومحاربا شجاعا اكتسب تقدير الاسكندر لكفايته العسكرية ، كان واسع الاطماع ويعتبر نفسه جديرا بأن تسند اليه احدى الولايات الهامة في الامبراطورية • ويبدو أن قناعته يوم مؤتمر

بابل بتولي قيادة فرقة الفرسان الرفقاء لم تمنعه من تحيّن الفرص لتحقيق أطماعه • ولا شك أنه قد مهد لذلك تمهيدا قويا بتآمره على حياة برديكاس ومشاركته في الاجهاز عليه ، وكذلك بانقاذ حياة الوصي الجديد انتيباتروس عندما تمرد عليه الجنود المشاة قبل الوصول الى اتفاق تريباراديسوس • ولما كان من أهم ما عني به القواد في مؤتمر تريباراديسوس ، هو تعيين خلفاء لانصار برديكاس ، وكان سلوقس قد قام بدور رئيسي في الاجهاز على برديكاس ، فانه حقق أمله المنشود بالحصول على ولاية بابل •

٢ ــ الاوضاع المحيطة بالوالي الجديد :

وكانت مهمة سلوقس في حكم ولايته مهمة عسيرة لعدة أسباب ، فرغم أنها كانت تمتلك كثيرا من المميزات والمقومات وتشابه ولاية مصر في كثير من النواحي الاستراتيجية والاقتصادية ، فانها بحكم موقعها الجغرافي كانت شديدة القرب من مواقع الاحداث وتبعا لذلك شديدة القرب من ميادين القتال • حقا ان مركز الامبراطورية انتقل الى مقدونية بعد مؤتمر تريباراديسوس واقامة انتيباتروس وصيا ، بيد انه كان لقرار هذا المؤتمر تعيين انتيجونوس قائدا عاما للجيش الملكي في آسية نتائج بعيدة المدى أثرت في مجرى الاحداث العامة •

وقبل أن نرى ما كان من أمر انتيجونوس ، يجب أن نلقي نظرة عاجلة على الشرق حيث نجد بين حكام الولايات الشرقية اثنين من القادة الكبار وهما : بيوكستاس (Peukestas) وبايثون (Peithon).

وكان بيوكستاس قد حصل من الاسكندر نفسه عى ولاية فارس (Persia) وقد ثبتت قرارات مؤتمري بابل وتريباراديسوس حقوق بيوكستاس في ولايته هذه • ويبدو أن هذا القائد قد تأثر بفكرة الاسكندر التي ترمي الى ازالة الفوارق بين الاجناس وحكمها على قدم المساواة • وعمل ضمن هذا المنظور باخلاص وحماس منقطعي النظير،كما يبدو أنه نجح في ذلك لدرجة أن موت الاسكندر لم يؤثر عى مركزه العام ، بل زاده قوة ورسوخا •

وكان بايثون (الوالي الآخر) قد منح ولاية ميدية بمقتضى قرارات مؤتمر

بابل • وتعتبر هذه الولاية من أهم الولايات في المنطقة الايرانية وأغناها على الاطلاق بالرجال والمواشي والخيول على وجه الخصوص • ويبدو أن هذه المقومات المادية قد فتحت أبوابا واسعة أمام بايثون الذي سنحت له أول فرصة في أعقاب موت الاسكندر ، وذلك حين تمرد الجنود الاغريق في تلك المنطقة ، ومنحه برديكاس على أثرها صلاحيات واسعة وامدادات ضخمة لقمع الثورة ، كما منحه صلاحية دعوة جميع ولاة الهضبة الايرانية لمساعدته في حال وقوع أية تطورات جديدة • وظهر فيما بعد أن بايثون كان يخطط لاستغلال الثوار لحسابه الخاص ، إلا أن ذكاء برديكاس واستسلام العصاة أفسدا عليه هذا المخطط •

ولم يستطع برديكاس بعد هذا الشك الذي خامره حول نيات بايثون أن يتركه في تلك المنطقة أثناء حملته المقبلة على مصر ، ورأى أن من الافضل استدعاءه بحجة مصاحبته في غزو مصر ، مما أدى الى نقمة بايثون على برديكاس والمشاركة في قتله على حدود مصر عام ٣٢١ ، فانتخب بعد مقتل برديكاس وصيا مؤقتا مشتركا مع أرهيدايوس ثم عاد بعد تريباراديسوس الى ولايته ميديه متمتعا بكل ما كان له من احترام ونفوذ سابقين •

وكان طموح بايثون من النوع الذي لا يطيق الانتظار حتى تنضج الثمرة ـ كما يحلو لبعض مؤرخينا وصفه ـ ولهذا فانه اعتمادا على قوته وتفوقه بدأ العمل على فرض ارادته على باقي ولاة المنطقة • وعندما تأكد شعور هؤلاء بأن أوضاعهم العامة مهددة ، اجتمعوا للتباحث فيما يجب عمله ضد المعتدي • وازاء ما كان بيوكستاس يتمتع به من مكانة مرموقة بين بقية الولاة ، فقد اعتبر زعيما لهذا الحشد من الزملاء الذين قرروا غزو « بارثيه » ، وقاموا فعلا بمحاربة بايثون وهزيمته • وفي أعقاب هذه الهزيمة ، فر بايثون الى سلوقس والي بابل ينشد مؤازرته ويغريه باقتسام الغنائم ، ولكن سلوقس كان أفطن من أن يبادر الى المشاركة في هذه المغامرة وآثر انتظار نتائج سير الاحداث في الغرب •

وفي الغرب قام انتيجونوس بشن هجوم ضد يومنس (ممثل الاسرة المالكة)

في آسية الصغرى ثم في فينيقية وأجبره على الانسحاب صوب داخل آسية • وقد سارع يومنس بالاتجاه شرقا مؤملا استغلال الخلاف الناشب في الشرق بين بايثون وباقي القاده لصالح الحكومة المركزية •

وفي تلك الاثناء توفي الوصي انتيباتروس وآلت الوصاية بعد مؤامرات متعددة الى كاساندروس (Kassandros) بن انتيباتروس ، الذي عمل على التخلص من أولومبياس والدة الاسكندر ثم فيليب أخي الاسكندر وزوجه وأخيرا اسكندر الرابع وأمه الفارسية روكسانا • وبذلك قدم خدمة كبرى الى التيار الانفصالي المتنامي بين القادة انتيجونوس وابنه وبطلميوس وسلوقس •

وعندما وصل يومنس الى الشرق وطلب الى سلوقس وبايثون مساعدته ضد انتيجونوس رفض الاثنان بحجة ان مؤتمر تريباراديسوس اعتبر يومنس خارجا عن القانون ، في حين استقبل الولاة الآخرون بزعامة بيوكستاس مبعوثه بحماس شديد • ولما كان بيوكستاس قد حقق نصرا سابقا على بايثون فقد كانت قوى سلوقس وبايثون أضعف من أن تواجه يومنس وبيوكستاس وقررا تحت ضغط الحاجة التفاهم مع انتيجونوس والعمل تحت قيادته •

وفي صيف عام ٣١٧ أعد القادة الثلاث بزعامة انتيجونوس خطة نجحت في القضاء على يومنس وعزل معظم أعوانه والاستيلاء على الكنوز الملكية الفارسية في كل من مدينتي سوسا واكباتانا ، ولما كان انتيجونوس يؤمن أنه ليس هناك مكان في العالم يتسع له ولحليفه بايثون فقد قرر التخلص منه وقام فعلا بتدبير اغتياله وعدد من اعوانه خلال جلسة ودية • وعاد الى الغرب بعد ان اطمأن الى أن الامور استتبت لصالحه بحيث أصبح سيد الولايات الشرقية دون منازع •

٣ ـ فرار سلوقس الى مصر :

ولم يكن من شأن تصرفات انتيجونوس اللاأخلاقية مع حلفائه ومرؤوسيه السابقين الذين اغتالهم أن تبث الطمأنينة في نفس سلوقس ، ولما كانت فكرة مقاومة هذا الطاغية بقوة السلاح تبدو مستحيلة للفارق الكبير بين قوتيهما • لم يكن أمام سلوقس عندما أخذت نوايا انتيجونوس السيئة نحوه تظهر تباعا الا أن يختار بين

أمرين : إما البقاء في مركزه ومحاولة استرضاء انتيجونوس بأي ثمن ، واما الفرار من وجهه مؤقتا ، وانتظار الفرصة المواتية لمناهضته • وبيان ذلك ، أنه ما ان تـم القضاء على يومنس حتى بدأت نذر السوء تظهر ، وذلك عندما استرجع انتيجونوس ولاية (سوسيانا) وكان قد منحها الى سلوقس تحت وطأة الحرب ، ووضعها تحت امرة وال من الوطنيين ، ومع ذلك فان سلوقس تمالك أعصابه ، وأحسن استقبال انتيجونوس في طريق عودته الى الغرب ، كما حرص على عدم القيام بأي عمل يمكن أن يثير حفيظة انتيجونوس ضده • ورغم ذلك فقد اعتبر انتيجونوس خروجا على طاعته اقـدام سلوقس ــ دون استئذانه ــ على معاقبة أحـد موظفيه (موظفي سلوقس) ، ودعا سلوقس لمحاسبته على موارد ولايته تمهيدا فيما يبدو لعزله ، وقد رد سلوقس على انتيجونوس « بأنه لا يحق له محاسبته ، لان ولايته لم تمنح لـه من قبل انتيجونوس وانما من قبل المقدونيين بسبب خدماته التي قدمها للاسكندر » وحيث أن سلوقس كان متأكدا من عدم جدوى أية مفاوضات ، فانه فـرّ فجأة بصحبة خمسين فارسا من أصدقائه الى بطلميوس •

٤ ــ تكوين المحالفة الاولى :

ولم يقبع سلوقس خلال المدة التي قضاها في مصر ، كأي لاجىء سياسي آخر بل عمل منذ وصوله عام (٣١٦) على التهيئة للقضاء على انتيجونوس ذلك انه منذ وصول سلوقس الى مصر أخذ يوغر صدر بطلميوس على انتيجونوس ، ويكشف له عن خطره ويحثه على عقد محالفة بينه و بين كاساندروس (الوصي) ولوسيماخوس (أحد القادة في آسية الصغرى) لوضع حد لاعمال انتيجونوس التوسعية •

وقـد كللت جهـود سلوقس بعقـد اتفاق بـين بطلميوس وكاساندروس ولوسيماخوس على ارسال سفارة مشتركة الـى انتيجونوس لمطالبته بالاعتراف لبطلميوس بسورية جميعها وللوسيماخوس بفروجية على الدردنيل ، ولكاساندروس بكبادوكية ولسلوقس ببابل ، واقتسام أموال الامبراطورية التي استولى عليها بعد انتصاره على يومنس ، بيد أن انتيجونوس رفض مطالب الحلفاء وقابل مبعوثيهم باحتقار شديد ، فاستعد الطرفان للحرب •

وفي خلال فترة الصراع ضد انتيجونوس التي استغرقت الفترة (٣١٦ ــ

٣٠١) أسهم سلوقس بجهد وافر في عدة ميادين لنصرة حلفائه • ذلك أنه في عـام ٣١٥ تولى قيادة الاسطول البطلمي وهدد ايونية ، وحين كان انتيجونوس يمهـد لمهاجمة كاساندروس في مقدونية قام سلوقس بتهديد شواطىء ايونية ، ثم اشترك مع منلاوس شقيق بطلميوس في محاربة انصار انتيجونوس في جزيرة قبرص ، وفي عام ٣١٤ شارك في مهمة في البحر الايجي لصالح بطلميوس ، حيث حقق انتصارات هامة على حاميات انتيجونوس في مقاطعة كاريه في آسية الصغرى وفي جزيرة كوس في البحر الايجي •

ولعل أهم المعارك على الاطـلاق التي شارك فيها سلوقـس بوصفه حليفا لبطلميوس كانت معركة غزة • ففي أواخر العام (٣١٣ ــ ٣١٢) تابع انتيجونوس طريقه عبر سورية وآسية الصغرى صوب أوربة لاخضاع مقدونية ، بعد أن أرسل ابنه دمتريوس على رأس قسم كبير من الجيش في مهمة عاجلـة للقضاء على بقيـة الحاميات البطلمية التي طردت من سورية في فاتحة الحرب عام (٣١٥) ونجـح دمتريوس في هذه المهمة ، ودانت له بذلك كافة مقاطعات فينيقية وجنوب سورية مما أغراه بمتابعة الزحف في اتجاه مصر •

وحين كان دمتريوس يتابع تقدمـه في سورية صوب مصر ، قـرر المجلس الاستشاري لبطلميوس بتأييد من سلوقس أن الوقت قد حان لرد العدوان ، وانـه لا مجال لانتظار دمتريوس في مصر متبعين القاعدة الحربية القائلة : بأن الهجوم هو خير وسيلة للدفاع • وبالفعل فقد توجه جيش ضخم على رأسه قائدان محنكان هما بطلميوس وسلوقس عبر سيناء نحو فلسطين • وعلى تخومها وبالقرب من غزة التقى الجيش البطلمي بجيش انتيجونوس بقيادة دمتريوس ــ وكان شابا لم يتجاوز الاثنين وعشرين ربيعا ــ ، وجرت واحدة من أعظم معارك العصر ، حيث انتصرت الكفاية على التهور والشجاعة ، فهزم دمتريوس هزيمة قاسية وفرّ متجها نحو أبيه •

وقلبت نتائج معركة غزة موازين القوى في المنطقة وخاصة بالنسبة لانتيجونوس الذي فقد سورية ، كما اضطر الى وقف عملياته تجاه مقدونية ، وتعديل كل خطط عملياته المقبلة ، فكانت بحق أقسى صدمة وجهت اليه منذ بداية الحرب العظمى بين الحلفاء ، فلا عجب أن هذه الموقعة تعتبر في رأي بعض المؤرخين حدا فاصلا لاحدى حقب التـاريخ •

الفصل الثالث عشر

سلوقس من غزه حتى مصرعه

أولا : سيرة سلوقس من بابل حتى مصرعه :

١ ـ سلوقس يسترد بابـل :

ولم تقتصر نتائج معركة غزة على خسارة انتيجونوس سورية مؤقتا ، بقدر مـا كانت فاتحـة لبروز أعظـم منافس لـه تمت على يديه نهايتـه المفجعـة ، ذلـك أن سلوقس استغل نتائج المعركـة ، واتجه بصحبة نفر قليل مـن الرجال وبتأييد من بطلميوس لاستعادة ولايته السابقة بابـل . وفي طريقه قامت بعـض الحاميات المقدونية الساخطة عـلى انتيجونوس بالانضمام اليه ، وبهذا الدعـم العسكري ، ونتيجة للتأييد الشعبي الذي قوبل به سلوقس في منطقة بابل تمكن سلوقس بعد حصار قلعة بابل التي تحصن فيها أنصار انتيجونوس من السيطرة على بابل مرة أخرى . وفيما بعد اعتبر سلوقس هـذا اليوم بالذات (أول ديوس = اكتوبر ، تشرين الاول) عام ٣١٢ ميلاد امبراطوريته وبداية للتقويم السلوقي الذي سنتحدث عنه فيما بعـد .

٢ ـ سلوقس يدعم مركزه :

وقبل استعادة سلوقس ولايته كان انتيجونوس ، بسبب مشاكله المتعددة في الغرب مع كاساندروس والمدن الاغريقية ،قد أوكل أمر الولايات الشرقية الى نيكانور أو نيكاتور (Nikator) والي ميديه . وعندما سمع نيكاتور بعودة سلوقس خفّ الى بابل على رأس قوة مؤلفة من عشرة آلاف من المشاة وسبعة آلاف من الفرسان ، على حين أنه لم يكن بصحبة سلوقس أكثر من ثلاثة آلاف رجل واربعمائة فارس ،

ورغم هذا التفوق الساحق في العدد تمكن سلوقس بعد اعادة تشكيل قواته تشكيلا مرنا من عبور دجلة قبل نيكاتور وانزال هزيمة حاسمة في قوات خصمه فر على أثرها نيكاتور مع قسم من جنده ، وانضم باقي جيشه الى سلوقس • وقد أتاح هذا النصر الباهر لسلوقس فتح ميديه وسوسيانا وفارس •

وردا على الفشلين اللذين مني بهما انتيجونوس ، نتيجة لهزيمة دمتريوس في معركة غزة ، وهزيمة نيكاتور في مغالبة سلوقس ، قرر انتيجونوس المسارعة الى مهاجمة أقرب أعدائه بطلميوس • فأعاد غزو فلسطين وأرسل حملتين ضد البتراء لحرمان مصر طريق القوافل بين البتراء وغزة ، كما أرسل حملة ثالثة نحو البحر الميت لحرمان مصر قطرانه الضروري للسفن والتحنيط ، لكن هذه الحملات جميعا باءت بالفشل •

ولما كانت عودة سلوقس الى بابل تنطوي على اخطار تتهدد مشروعات انتيجونوس فانه قرر أن يعهد الى ابنه دمتريوس بغزو بابل • ويحدثنا ديودوروس بأن انتيجونوس زود ابنه دمتريوس بـ (١٥) ألفا من المشاة واربعة آلاف من الفرسان ، وأمره بالاسراع الى بابل لاستعادة السيطرة عليها ،وعندما أتم دمتريوس حشد قواته في دمشق وتحرك بسرعة الى بابل أدرك سلوقس خطورة الصدام المباشر في معركة نظامية فأخلى بابل من سكانها ودخلها دمتريوس دون أدنى مقاومة• وعندما فشل دمتريوس باللحاق بسلوقس وتحطيمه قرر العودة الى أبيه بسرعة • ويبدو أنه لم يستطع كتمان غيظه من عدم نجاحه في مهمته، فقام في طريق العودة بنهب كل الاراضي المحيطة ببابل انتقاما من سلوقس وسكان المنطقة • ولم يكن من شأن هذه التصرفات إلا الاضرار بموقف دمتريوس وموقف أبيه العام • وكما قال بلورتاخوس « لقد ترك دمتريوس قوى سلوقس راسخة أكثر من أي وقت مضى» • وكانت أهم نتيجة لهذه الحملة غير الموفقة اقناع انتيجونوس بضرورة عزل سلوقس عن حلفائه بعقد صلح مع هؤلاء الحلفاء • وفي ذلك العام (٣١١) عقد الصلح بين انتيجونوس وكاساندروس ولوسيماخوس وبعد ذلك مع بطلميوس أيضا • وقد استغل انتيجونوس مفاوضات الصلح للقيام بدعاية واسعة لصالحه بين الاغريق (وأهمها مناداته بتحرير المدن الاغريقية) وقد تضمنت شروط الصلح (أولا) أن يحتفظ كاساندروس بسيطرته على مقدونية حتى عام (٣٠٥) عندما يبلغ اسكندر

الرابع (ابن الاسكندر) رشده ويتولى الحكم بنفسه • (وثانيا) ان تتحرر المدن الاغريقية ولا تستبقى فيها حاميات •

ومن الجدير بالذكر ان شروط الصلح قد أدت الى ان يقوم كاساندروس بالتخلص من اسكندر الرابع ، وان يوطد لوسيماخوس مركزه في اوربا واسية الصغرى ، وبطلميوس في مصر وقورينائيه ، لكن المستفيد الاكبر من هذه الشروط كان انتيجونوس الذي حقق في هذا الصلح نصرا دبلوماسيا رائعا ، اكسبه نفوذا كبيرا في بلاد الاغريق ، فضلا عن فوزه بجوف سورية وكاريه ، والاعتراف له بكل الولايات الشرقية بما في ذلك ولايات سلوقس • واذا كان من اليسير أن نفهم لماذا رحب انتيجونوس بالصلح فانه من العسير ان نتكهن لماذا قبل اعداؤه هذا الصلح وضحّوا بحليفهم سلوقس ، اللهم الا اذا كانوا قد أدركوا وقتئذ انه لم يكن في وسعهم خوض غمار حرب ضدّ انتيجونوس •

٣ ـ فشل انتيجونوس في قهر سلوقس وعقد الصلح معه :

بعد عقد الصلح ، كان طبيعيا ان يستغل انتيجونوس صلح عام ٣١١ في محاولة لاستعادة الولايات الشرقية وذلك بعمليات عسكرية ضد سلوقس ،ونرجح نظرا لندرة او انعدام معلوماتنا عنها ــ انها امتدت من عام ٣١٠ حتى اخر عام ٣٠٨ وانها باءت بالفشل مما اضطر انتيجونوس الى عقد الصلح مع سلوقس في بداية عام ٣٠٧ • ولايمكن تفسير تطور الحوادث في الغرب تفسيرا شافيا الا اذا كان انتيجونوس قد انهمك طويلا في تلك العمليات • والواقع ان اخفاقه في قهر سلوقس كان عاملا حاسما في القضاء عليه أخيرا • إذ يبدو ان ذلك كان يتعذر لو لم يبق سلوقس قويا ومستقلا ، ولو لم تكن لديه فسحة من الوقت لدعم قوته في الشرق وتنظيم جيشه وزيادة قوته •

٤ ـ سلوقس يتوسع شرقا :

وتلوذ مصادرنا القديمة بالصمت عما اتبعه سلوقس لتأمين خضوع المقاطعات الايرانية خاصة مقاطعات الشرق البعيدة بصورة عامة ، بيد ان اقدامه على الصراع مع عاهل قوى كتشاندراجوبتا لايدع مجالا للشك بأن سلوقس كان قد

استطاع قبيل ذلك ــ أي بعد استرداده بابل وانتصاره على نيكاتور تأمين خضوع المقاطعات الايرانية بكاملها ، وان رغبته في دعم هذه السيطرة قد اضطره الــى غزو المقاطعات الهندية لتأمين حدوده الشرقية •

وتلوذ المصادر الهندية بصمت مطبق آخر عن غزوات دارا والاسكنــدر وسلوقس الهند ، ولا نستمد من مصادرنا الاخرى عن الصراع الــذي جـرى بين سلوقس وتشاندرا جوبتا سوى معاهدة الصلح التي عقدت بينهما على نحــو ما سيأتي ذكره • ويجدر بنا أن نعود قليلا الى عهد الاسكندر ليتسنى لنا تكوين فكرة مناسبة عن تطور الاحداث اللاحقة •

كان نهر السند (الهندوس) ورافده نهر بياس (Beas) يشكلان الحدود الشرقية التي رسمها الاسكندر لامبراطورية قبل مماته ، وكانت أقصى الاقاليــم الشرقية المجاورة للبنجاب قد قسمت الى عدد من الولايات ووضعت تحت تصرف عدد من القادة المقدونيين والملوك المحليين • ذلك ان الاسكندر اسند مقاطعتــي جدروسية (Gedrosia) واراخوسيه (Arachosia) الى احد ضباطه وهو الذي وهو الذي اعاد انتيجونوس تثبيته في عام ٣١٦ ، كما ان الاسكندر اقام على ولايتي وادي كابول (Kabul) والهندوكوش (Hundukush) نبيلا ايرانيا ، وعلى الولاية الواقعة في وادي نهر الهوداسبس قائدا مقــدونيا يدعى يوداموس (Eudamos) بالمشاركة مع راجا هندي يدعي تاكسيلاس (Taxilas) واما الولاية الواقعة بين نهر الهوداسبس ونهر بياس فان الاسكندر تركها لحليفه الملك الهندي بوروس •

ولما قضى الاسكندر نحبه ، اثبت هذا النوع من التقسيم الاداري للولايات بين القادة المقدونيين والنبلاء الهنود والفرس فشله لعدة اسباب أهمها ان الاحوال المناخية لم تشجع عددا من الاغريق على الاستيطان وان قوة الحركات الاستقلالية اشتدت باطراد نتيجة للمعاملة السيئة التي كالها معظم الضباط المقدونيين لسكــان البلاد الاصليين ، ولعل افظع مثل على ذلك كان المذبحة التي دبرها يوداموس لمدربي فيلة الملك بوروس • وانتهز الوطنيون فرصة غياب يوداموس ــ عندمــا ذهب للمشاركة في المعركة ضد بايثون والي ميدية ــ للقيام بثورة وطنية ضــد العناصر الاغريقية بقيادة احد امرائهم ويدعى تشانــدرا جوبتا وهــو مؤسس الامبراطورية الموريانيــة •

وتبعا للمحاولات التي بذلها سلوقس منذ عام ٣٠٥/٣٠٤ من أجـل التوسع وتأكيد سيطرته ومدها نحو الشرق ووصوله فعلا الى ابواب الهند لم يكن هنـاك مفر من وقوع صدام بينه وبين تشاندراجوبتا ، استمر حتى بداية عام ٣٠٢ •

وازاء صمت مصادرنا عن مجرى هذا الصراع لانعرف شيئا عن احداثه ، ولكنه من الجائز انه من ناحية ازاء شدة مراس تشاندرا جوبتا وامكانياته الهائلة ، ومن ناحية اخرى كفاية سلوقس وقدرة رجاله انقتالية ، لم يفلح أي من الجـانبين في احراز نصر حاسم على الآخر مما جعلهما اكثر ميلا الى التفاهم منهما الـى الاستمرار في خوض غمار حرب ضارية غير مجدية • ومن الجائز ايضا ان كفـة سلوقس كانت الارجح ، غير انه وقد خبر شدة مراس تشاندرا جوبتا وامكانياته الهائلة قدرا أن متابعة الصراع مع خصم من هذا الطراز كانت محفوفة بالمخاطر ، وقد تبدد القوة التي سعى جاهدا في بنائها مما سيجعله عاجزا عن مكافحة خصمه الحقيقي وهو انتيجونوس الذي كان يقف عقبة كأداء دون وصوله الى الغـرب والاتصال بالعالم الاغريقي ، وكانت النتيجة المنطقية المحتومة لفشل سلوقس في شق طريقه الى الغرب هي تحول مملكته الى دولة شرقية ، وهو ما كان لايمكن ان يرضى به او يقبله • ويبدو أنه قد ساعد على حسم الموقف نداء الاستغاثة التـي تلقاها سلوقس من حلفائه السابقين لوسيماخوس وكاساندروس وبطلميوس لشد ازرهم في القضاء على انتيجونوس الذي تعاظم خطره عليهم في تلك الفترة •

وعندئذ كان أمام سلوقس ان يختار بين أمرين : اما متابعة الحرب ضـد تشاندرا جوبتا برغم كل ما تنطوي عليه من مخاطر شديدة كان في مقدمتها احتمال نجاح انتيجونوس في تحطيم حلفائه ثم يستدير له فيقع بين شقي الرحى : أي بين انتيجونوس من ناحية وتشاندراجوبتا من ناحية أخرى ، واما أن يعقد مـع تشاندرا جوبتا صلحا يكفل له تأمين حدوده الشرقية وبذلك يستطيع ان يقـدم أقصى مساعدة ممكنة لحلفائه من أجل القضاء على غريمه الاكبر فتتحقق بذلـك أعـز أمانيـه • وقد اختار سلوقس الامر الثاني ، وتوحي السرعة التي تم بهـا عقد معاهدة الصلح وكذلك سرعة وصول سلوقس الى آسية الصغرى بترجيح الاحتمال الذي سبق أن ابديناه من ان مجرى الحرب جعل كلا مـن سلوقس

وتشاندرا جوبتا أكثر ميلا الى التفاهم منهما الى الاستمرار في متابعة الحرب • وقد تضمنت المعاهدة عقد مصاهرة بين الاسرتين المالكتين ، وحصول سلوقس على ٥٠٠ فيل من فيلة الحرب ، وتأمين حدوده الشرقية في مقابل التنازل لتشاندرا جوبتا عن بعض المقاطعات الشرقية ، مثل اراخوسيه وجدروسيه وغيرها •

ويبدو ان الفوائد التي جناها سلوقس من جزاء المقايضة لم تقتصر على مجرد عدد من الافيال دعمت قوته العسكرية وحققت النصر له في ابسوس ، بل تعدتها الى فوائد اقتصادية وتجارية هامة ساهمت في تكريسها سفارته الدائمة برئاسة مجاستنس (Megasthenes) في بلاط تشاندرا جوبتا على نحو ما سيأتي ذكره في معرض الحديث عن الحياة الاقتصادية •

ولم تقل الفوائد التي جناها مؤرخو هذه الفترة عن الفوائد التي جناها سلوقس نفسه ، اذ أن سفارة مجاستنس أسهمت في القاء الكثير من الاضواء على بلاط تشاندرا جوبتا ، حتى ليمكننا القول اننا ندين مجاستنس بكافة معلوماتنا عن بلاط الملك الهندي • وقد استمرت العلاقات الطيبة بين الملكين بفضل سفارة مجاستنس فترة طويلة من الزمن ، اذ تحدثنا مصادرنا عن بعض العقاقير الطبية الغريبة التي ارسلها تشاندرا جوبتا هدية ملكية الى سلوقس ، كما استمرت هذه العلاقة في عهد خليفتيهما ، ويروى ان اميتروخاتس (Amitrochates) خليفة تشاندرا جوبتا طلب الى انطيوخس الاول ان يرسل اليه تينا وخمرا وفيلسوفا ليعلمه الجدال والمناظرة ، فأرسل اليه انطيوخس التين والخمر واعتذر عن ارسال الفيلسوف بقوله « ان القانون الاغريقي يحرم بيع الفلاسفة » • وإذا كنا نشارك معظم مؤرخينا المعاصرين الشك في صحة هذه الرواية فاننا لا نستطيع ان ننفي طيب العلاقة بين البلاطين في تلك الفترة • وينهض دليلا على ذلك تلك الوفرة من النقود السلوقية التي عثر عليها الاثاريون في مناطق شمال غرب الهند وتعود الى عهد الملكين السلوقيين سلوقس الاول وانطيوخس الاول •

٥ ـ خلفاء الاسكندر يتخذون لقب ملك :

واثبتت الاحداث اللاحقة ان معاهدات الصلح التي عقدها انتيجونوس مع

اعدائه السابقين كاساندروس ولوسيماخوس وبطليموس اولا ثم بعد ذلك مـع سلوقس لم تكن اكثر من هدنة مؤقتة ، ذلك انه في عام ٣١٠/٣٠٩ عندما بـدأ المقدونيون يتهامسون حول بلوغ اسكندر الرابع الثالثة عشر من عمره ودنـو الوقت لتسلمه السلطة بنفسه قام كاساندروس الوصي بقتله وامه واتبع هـذا بزواجه من اخت الاسكندر الاكبر وادعى بعد زواجه وراثة حقوق الاسرة المالكة المقدونية والسيطرة على بلاد اليونان بأكملها • وردا على ادعاء كاساندروس هذا قام انيتجونوس بتحرير مدينة اثينا من حامياته واعاد اليها الدمقراطية ، كمـا رد على قيام بطلميوس بالتحرش بحامياته في آسية الصغرى وبعض جزر بحـر ايجة بايفاد ابنه دمتريوس الى قبرص واستولى عليها بعد معركة بحرية حطم بنتيجتها معظم الاسطول البطلمي عام /٣٠٦/ •

وعندما علم انتيجونوس بنبأ هذا النصر ، اتخذ لنفسه لقب ملك وخلع هذا اللقب على ابنه ، واعتبرا نفسيهما ملكي الامبراطورية المقدونية • وقـد حـذا حذوهما باقي خلفاء الاسكندر • واذا كان هناك خلاف بين المؤرخين حول التاريخ الذي أقدم فيه خلفاء الاسكندر على اتخاذ هذه الخطوة التي أكدت استقلال كل منهم بولايته وانحلال الامبراطورية ، فانه لا خلاف حول اتخاذ الخطوة نفسها •

٦ ـ القضاء على انيتجونوس :

ولا جدال في ان انتيجونوس بعد اتخاذه لقب ملك وازاء أطماعه التوسعية الواسعة كان لا يمكن ان يترك لسلوقس الولايات الشرقية بمواردها الغنية • ولا شك انه لم يعقد معه صلحا عام ٣٠٨ الا تحت ضغط الاحداث الخطيرة التي وقعت في الغرب وكان من الممكن ان تكشف جبهته الغربية • ولا شك ايضا في انـه لو نجح انتيجونوس في استعادة سيطرته كاملة على بحر ايجة وقضى على خصومه أو أضعفهم لاستدار بعد ذلك الى سلوقس لتصفية حسابه معه ، وهو الامر الذي ادركه سلوقس وحفزه على المبادرة الى التفاهم مع تشاندراجوبتا وعلى المسارعة الى نجدة حلفائه السابقين • ومن ناحية اخرى لم يكن في وسع سلوقس أن يأمـن على مركزه طالما بقي انتيجونوس قويا، ولا أن يترك انتيجونوس عقبة كأداء تسد عليه

طريق الاتصال ببحر ايجة ، فقد كان من شأن ذلك أن تظل دولته شرقية بحتا بل أن يعجّل ذلك بانحلالها •

واكدت الاحداث اللاحقة ان انتيجونوس كان يفكر جديا بالخروج من مأزق وجوده بين اعداء في الشرق والغرب ، ولهذا فقد أرسل عام ٣٠٤ ابنه دمتريوس في محاولة لاقصاء نفوذ كاساندروس نهائيا عن بلاد الاغريق الشمالية أو القضاء عليه ، ويبدو ان نجاح دمتريوس في تحقيق نصر على كاساندروس وطرد حامياته من البلوبونيز وبلاد اليونان الوسطى كان شؤما عليه ، فقد أدى هذا النصر الى احياء الحلف القديم بين كاساندروس ولوسيماخوس وبطلميوس وسلوقس• ذلك ان كاساندروس بعد هزيمته اتفق مع لوسيماخوس على اعداد حملة ضد انتيجونوس ، وعلى التماس المعونة من بطلميوس وسلوقس ، لان القضاء على كاساندروس كان ينذر الجميع بأشد المخاطر من انتيجونوس • وتبعا لذلك جدد الملوك في عام ٣٠٢ محالفة عام ٣١٥ ، الا انها لم ترم هذه المرة الى كبح جماح اطماع انتيجونوس فحسب بل الى القضاء عليه قضاء مبرما •

وفي بداية عام ٣٠٢ بدأ التحالف عمله ، فقد تقدم لوسيماخوس على رأس جيش تعززه قوة ارسلها حليفه كاساندروس ، واكتسح الجزء الغربي من آسية الصغرى • وعندما تحرك انتيجونوس ضده قام لوسيماخوس بالتحصن في احدى المواقع بقرب مدينة هراكليه • وأرسل يستعجل نجدة حليفية سلوقس وبطلميوس • وحين كان دمتريوس يضغط بشدة على كاساندروس في بلاد اليونان ألزمه أبوه بالعودة الى آسية •

وفي صيف عام ٣٠٢ عاد سلوقس بكل قواته من البنجاب ، ووصل في شتاء عام ٣٠٢/٣٠١ الى كبادوكيه بعد عناء شديد ، وتقدر قواته بعشرين الفا من المشاة واثني عشر الفا من الفرسان • وعدد من نبالي آسية الوسطى وحوالي خمسمائة فيل هندي بالاضافة الى ١٠٠ عربة حربية من ذوات المناجل ، وكان يتولى قيادة الفرسان ابنه الشاب انطيوخس •

وفي ربيع عام ٣٠١ ، وصل سلوقس الى الطريق العام الاوسط في آسية

الصغرى وفشل انتيجونوس في منع اتصاله بلوسيماخوس ، وكان يعاني في معسكره من صعوبات شديدة • وعند ابسوس (Ipsos) في فروجيه كان على انتيجونوس أن يواجه الجيشين الحليفين اللذين افلحا في الحصول على نصر مؤزر ادى الى هرب دمتريوس وقتل انتيجونوس •وهكذا طويت صفحة عظيم آخر من عظام رجال الاسكندر مثلما طويت من قبل صفحات كراتروس وبرديكاس وبايثون • وعند مصرع انتيجونوس كان يبلغ الحادية والثمانين من عمره •

٧ ـ الفوز بسورية ، وبداية المشكلة السورية مع البطالمة :

تعتبر معركة ابسوس من أهم أحداث الفترة التي تلت موت الاسكندر ، ذلك أنه بالقضاء عى انتيجونوس في هذه المعركة ، قضى على اكبر محاولة لاعادة توحيد الامبراطورية ، كما قضى على امبراطورية انتيجونوس وهي التي شكلت العامل الرئيسي في أحداث الخمس عشرة سنة السالفة • غير انه كان مقدرا لسلالة انتيجونوس أن تظل طويلا عاملا من أهم العوامل السياسية في العالم الهلنستي •

ورغم فرار دمتريوس الى افسوس واحتفاظه بقوته البحرية التي كانت تعتبر أقوى قوة بحرية معاصرة وبعض حامياته في عدد من الجزر والمدن الساحلية شرقي البحر المتوسط وبحر ايجة الا ان القضاء على جيش ابيه البري اتاح الفرصة للمنتصرين لاقتسام امبراطوريته•ولاشك أنكبرى الغنائمكانتمننصيب سلوقس ولوسيماخوس • وتؤكد المصادر رغم عمومية اشاراتها على ان سلوقس ربح سورية من الفرات الى البحر وفروجيه الداخلية ، وما بين النهرين ، وارمينيه وما يدعى بكبا دوكية السلوقية ، وأصبحت مملكته تمتد من اقاصي الهضبة الايرانية الى فروجيه • بينما غنم لوسيماخوس معظم المقاطعات المطلة على البحر التي كانت لانتيجونوس في آسية الصغرى في الوقت الذي أعطيت فيه كيليكية واكثر شاطىء آسية الصغرى الجنوبي الى بلايستارخوس أخ كاساندروس •

بيد أنه نشب بين بطلميوس وسلوقس خلاف حول امتلاك جوف سورية ، وكان مقدرا لهذا الخلاف أن يظل أمدا طويلا من أهم عوامل التناحر المدمر بين

دولتي البطالمة والسلوقيين • وسبب هذا الخلاف هو أنه حين كان الصراع دائرا في آسية الصغرى تحرك بطلميوس بجيشه نحو فلسطين لنجدة حليفيه ، وعندما بلغه نبأ كاذب فحواه أن لوسيماخوس قد هزم وان انتيجونوس في طريقه صوب سورية ، سارع الى اخلاء جوف سورية وانسحب نحو مصر ، فاعتبره الملوك الثلاثة خائنا للقضية التي ناضلوا من أجلها وانكروا عليه حقه في الحصول على أية مكاسب اقليمية الا انه في اثناء اشتباك حليفيه مع انتيجونوس عند ابسوس ، عاد فاحتل جوف سورية حتى نهر اليوثيروس (الكبير الشمالي) تمشيا مع اتفاقه السابق مع الحلفاء ، بيد أنه رغم استياء سلوقس من تصرف بطليموس ومن اتجاهه على رأس جيشه الى فينيقية ، للرد على ادعاء بطليموس باحقيته في امتلاك جوف سورية ، فانه وقد كان يدين لبطلميوس بفضل ما أولاه من مساعدة مكنته من استرداد بابل على نحو مامربنا عف" عن الاشتباك معه ، مكتفيا بالتصريح ما معناه بأنه « من أجل الصداقة فقط سيؤجل البت في هذه القضية ولكنه سيأخذ بعين الاعتبار فيما بعد كيف يعامل صديقا اقتنص أكثر من حقه » •

ثانيا ـ نشاط سلوقس ابسوس حتى مصرعه :

١ ـ المحالفات الجديدة :

وازاء الصراع المتوقع بين بطلميوس وسلوقس أخذ كل منهما يبحث عن حلفاء له فنرى بطلميوس يزوج احدى بناته الى اسكندر بن كاساندروس وابنة أخرى الى لوسيماخوس في حين تزوج سلوقس من فيلا (Philla) ابنة دمتريوس•

وعندما وجد دمتريوس الهارب من ابسوس الظروف غير مواتية في بلاد الاغريق ، على حين انه اكتسب في آسية حليفا نتيجة لمصاهرته سلوقس ، وجه نشاطه الى آسية مؤملا ان يبني لنفسه ثانية دولة آسيوية • وتبعا لذلك هاجم لوسيماخوس وطرده من ايونية ، ثم استولى على أكثر شاطىء آسية الصغرى الجنوبي وبعد ذلك اتجه صوب مملكة صهره الجديد حيث زف اليه ابنته واعلن الملكان تحالفهما وابلغاه الى المدن والممالك المعاصرة •

٢ ـ سلوقس ودمتريوس :

وبعد ذلك اشتبك دمتريوس مع بطلميوس في حرب استولى بنتيجتها على بعض مقاطعاته في البحر الايجي وجوف سورية ، وذلك فيما يبدو بايعاز من سلوقس الذي لم يشأ عندئذ مجاهرة بطلميوس بالعداء ، بيد أنه عندما خشي سلوقس أن تصبح الحرب عامة ، أو لعل انه عندما خشي ان يحتفظ دمتريوس بفتوحاته تدخل بين دمتريوس وبطلميوس في عقد الصلح بينهما في آخر عام ٢٩٩ .

وبعد ذلك توترت العلاقات بين سلوقس ودمتريوس ، ذلك ان الاول طلب الى الثاني أن يبيعه كيليكية ، وعندما رفض دمتريوس غضب سلوقس وطلب اليه بيع صور وصيدا بدلا عنها . ولكن دمتريوس رفض مرة اخرى بإباء شديد مستغربا جشع صهره صاحب الامبراطورية الواسعة وطمعه في مدينتين صغيرتين ، وبعد تعزيز حامياته في صيدا وصور غادر الشرق متجها من جديد نحو بلاد الاغريق حيث اجتذبته احداث هامة .

ذلك أن كاساندروس توفي في عام ٢٩٧/٢٩٦ ، وتعاظمت المنازعات الاسرية بين ابنائه وامهم لدرجة اشعلت بينهم حربا شعواء مكنت دمتريوس في نهايتها من التغلب عليهم واغتصاب العرش المقدوني عام (٢٩٤ ــ ٢٩٣) . ولكن دمتريوس لم يهنأ بثمار نصره اذ سرعان ما اتحد ضده سلوقس ولوسيماخوس وبطلميوس ، وتمكن لوسيماخوس بمساعدة بوروس ملك ابيروس من الاستيلاء على مقدونية وتقسيمها فيما بينهما عام ٢٩٨ كما ضم سلوقس كيليكية ، واستولى بطلميوس على عدد من جزر البحر الايجي .

ورغم اضطرار دمتريوس الى مغادرة مقدونية ، فقد استمر يتحكم في ممتلكات اغريقية هامة . وازاء الفشل الذي مني به ، ترك ابنه انتيجونوس جوناتاس (مؤسس المملكة الانتيجونية فيما بعد) للسهر على صوالحه في بلاد الأغريق واتجه الى الشرق . ورغم التوفيق الذي اصابه في بداية حملته ضد قوات لوسيماخوس الا انه لم يتمكن من الاستمرار في مقاومة ضغط اجاثوكلس بن لوسيما خوس مما اضطره الى الاقتناع بصواب فكرة وضع نفسه تحت رحمة حليفه وصهره سلوقس ، فاجتاز جبال طوروس الى مدينة طرسوس في كيليكية ،

وحرص أثناء تقدمه على الظهور بمظهر الصديق ، فلم يتعرض للحقول والمدن التي مر بها بأي أذى ، وكتب الى سلوقس رسالة استعطاف كان لها وقع حسن في نفس سلوقس ، فصفح عنه ، وكتب الى قواده يأمرهم بأن يرحبوا بدمتريوس ترحيبا ملكيا ، وان يطعموا قواته المتضورة جوعا .

ولكن هذا الموقف لم يستمر طويلا اذ سرعان ما ادرك سلوقس خطورة ايواء مثل هذا الرجل الخطر في جنبات الامبراطورية ، لذا فقد أمر سلوقس قواده في المرة الثانية بعدم التعاون مع دمتريوس وشكل جيشا لطرد دمتريوس من الامبراطورية . ورغم ان دمتريوس تمكن من التصدي لقوات سلوقس الا انه في النهاية اضطر الى الاستسلام عام (٢٨٥) وأمر سلوقس بنقله الى افاميه في سورية تحت حراسة مشددة ، ووفرت لههناك جميع الاسباب التيتهيىء له حياة مريحة وماجنه ، كما سمح له بمرافقة من يشاء حتى من افراد البيت المالك .

٣ ـ سلوقس ولوسيماخوس :

وعندما اسر دمتريوس (عام ٢٨٥) ولم يعد يخشى جانبه ، زال ذلك الدافع الذي كان قد حدا بلوسيماخوس الى مصادقة بوروس واقتسام مقدونية معه ، وتبعا لذلك قام لوسيماخوس بطرده من مقدونية وتساليه ، وأجبره على التراجع الى ابيروس وقد ترتب على الصراع الذي نشب بين خلفاء الاسكندر (الديادوخي) منذ عام (٣٢١) أن امبراطورية الاسكندر اصبحت الان مقسمة بين ثلاثة من هؤلاء الخلفاء وهم : سلوقس ولوسيماخوس وبطلميوس .

وكانت ممتلكات سلوقس اكثر اتساعا من ممتلكات لوسيماخوس وبطلميوس، فقد كانت تمتد من سورية السلوقية حتى حدود البنجاب ، على حين أن ممتلكات لوسيماخوس كانت تشمل مقدونية وتراقية ومعظم آسية الصغرى بما في ذلك المدن الاغريقية على الشاطىء الايوني . وأما بطلميوس فان سلطانه كان يمتد على جوف سورية وفينيقية وبعض اقاليم الشاطىء الجنوبي لاسية الصغرى بالاضافة الى مصر وقورينائه (برقه) ولكن هل كان كل من هؤلاء الملوك قانعا فعلا بما استحوذ عليه ؟

تشير الاحداث التالية الى أن بطلميوس ولوسيماخوس قد قنعا فعـــلا بما حصلا عليه ، بدليل عزوفهما عن القيام بأي عمل حربي ضد أحد من جيرانهما • وأما سلوقس فانه فيما يبدو قد استمر يحلم بتحقيق فكرة استيلائه على معظـم امبراطورية الاسكندر • ولعل ان احتفاظه بدمتريوس حيا ينهض دليلا على أنـه كان ينوي ان يتخذ منه أداة تبرر اغارته على مقدونية بحجة أن اقدامه على ذلك لم يكن الا لرد الحق الى صاحبه • ولحرمان سلوقس هذه الذريعة عرض عليـه لوسيماخوس مبلغ ألفي تالانت مقابل تخلصه من دمتريوس ، ولكـن سلوقس رفض هذا العرض بازدراء « لا لان مثل هذا العمل كان منافيا للاخلاق فقط ، وانما باعتبار أن دمتريوس واحدا من أفراد الاسرة » وكتب سلوقس الى ابنـــه (فيما بعد انطيوخس الاول) في بابل ينهي اليه رغبته في اعادة دمتريوس الى عرش مقدونية • ولكن دمتريوس وقدضاق ذرعا بحياته الحبيسة ، وأحس بمرارة الاسر ، انغمس في الشراب بشكل ملحوظ الى ان فارق الحيـاة بعد عامـين من أسره (٢٨٥ — ٢٨٣) •

واذا كان موت دمتريوس حرم سلوقس ذريعته ، فان الاقدار بدت وكأنها تهيىء له الاسباب لتحقيق اطماعه • ذلك انه من ناحية فرّ بطليموس كراونوس أكبر ابناء بطليموس الاول ملك مصر ، والتجأ أولا الى لوسيماخوس ثم الـى سلوقس لانّ أباه قرر حرمانه حقه في ولاية العرش تحت ضغط من زوجه الجديدة • ومن ناحية اخرى فان اقدام لوسيماخوس على قتل ابنه اجاثوكلس بايعاز من زوج أبيه أثـار عاصفة من الحقد والكراهية ضد لوسيماخوس ، فقد نقم عليه بلاطه الخاص ومعظم المدن الداخلة في نطـاق امبراطوريته ، والتجأ الحـزب المـوالـي لاجاثوكلس الى سلوقس يستحثه على الانتقام •

وهكذا واتت سلوقس فرصة فريدة للتخلص من منافس خطير كان عقبه كأداء في طريق تحقيق أطماعه • وكان لوسيماخوس يستشعر الخطر من ناحية سلوقس ، ولذلك فانه قبل اصطدامه مع سلوقس زوج ابنته ارسينوي الاولى الى ولي عهـد مصر (فيما بعد بطلميوس الثاني) في عام ٢٨٨/٩ • ولكن هذه المحالفة لم تجده فتيلا في ساعة الشدة ، فقد حافظ البطالمة على سمعتهم في حروب الرفقاء كقصبة مكسورة اضعف من أن يعتمد عليها •

وفي عام ٢٨٢ ، اتجه سلوقس على رأس قواته الى آسية الصغرى ، وأخذ حكامها واحدا بعد آخر يفتحون أبوابهم للغازي الجديد انتقاما لاجاثوكلس ، واستولى سلوقس على أهم المدن الرئيسية في آسية الصغرى مثل ساردیس ، ولم يحل عام ٢٨١ حتى كانت معظم آسية الصغرى وامبراطورية لوسيماخوس الآسيوية في قبضة سلوقس •

وعند كوروبديون (Kurupeidion) في لوديه ، نشبت بين الغريمين الكبيرين معركة هائلة خر فيها لوسيماخوس صريعا (ربيع عام ٢٨١) • واستولى سلوقس على كافة ممتلكات غريمه الآسيوية والاوروبية • وقد كان من شأن استيلاء سلوقس على ممتلكات لوسيماخوس بموجب حق الفتح ، ان تحقق ذلك الحلم الذي كان المحرك الاول لكافة حروب الاربعين عاما الماضية ، وهو الحلم الذي أخفق في تحقيقه وهلك في سبيله كل من برديكاس ويومنس وانتيجونوس ، ذلك ان سلوقس أصبح يسيطر على كافة امبراطورية الاسكندر ــ باستثناء مصر وممتلكاتها ــ وهو أمر لم يفلح غيره في تحقيقه • فلا عجب ان بعض المصادر بدأت تدعوه (ملك آسية) كما أن اصطلاح (المحطات الآسيوية) الذي استخدمته المصادر القديمة بدأ يتوافق واتساع الممتلكات والاراضي السلوقية بشكل عام •

ولم تكن مصر عندئذ في مأمن من غائلة ضمها الى ممتلكات سلوقس أو وضعها تحت نفوذه ، فقد كان من المحتمل أن يغزوها بعد وفاة بطلميوس الاول في تشرين الاول (نوفمبر) عام ٢٨٣ متذرعا بحجة مناصرته للحق الشرعي الذي حرم منه كراونوس وكان لاجئا في بلاطه ، الا ان الاقدار كانت تمهد لما لم يكن في الحسبان •

٤ ــ سلوقس يتطلع الى ضم مقدونية ، مصرعه :

وبعد هزيمة لوسيماخوس ومصرعه والاستيلاء على ممتلكاته في آسية الصغرى كان طبيعيا ان يتصور سلوقس أنه أصبح يسيرا عليه الفوز بعرش مقدونية ــ عرش غريمه الصريع ــ فيدعم بذلك حقه في السيطرة على امبراطورية الاسكندر، ولكن القدر أنكر عليه تحقيق هذه الامنية الغالية مثل ما أنكرها على من سبقوه •

ذلك انه بعد أن عبر الدردنيل ، انقض عليه ضيفه بطلميوس كراونوس وعاجله بضربة قاتلة في ظهره في مطلع عام (٢٨٠) وفر القاتل على حصانه الى أحد المعسكرات في مدينة لوسيماخيه القريبة . وأعلن جيش سلوقس ولاءه لقاتل الملك .

ويبدو أمرا غريبا يصعب تصديقه اعلان هذا الجيش ولاءه بهذه السرعة لقاتل الملك ، خاصة وان هذا الجيش نفسه قد خاض حروبا ومعارك عديدة تحت لواء سلوقس بالاضافة الى أن هذا الجيش قد خرج منذ بضعة شهور منتصرا في معركة كوروبديون ، الامر الذي كان من المفروض ان يدعم شعبية قائده بدون شك . واذا سلمنا أنه من الجائز أن كراونوس قد استطاع شراء بعض القادة ، فانه يصعب التسليم بأنه استطاع شراء جميعهم ، ولذلك يصعب أن تتصور عدم مناهضة هذا التحول في الولاء الا اذا كان كراونوس قد نجح في شراء أكثر قواد سلوقس نفوذا ، وكذلك في كسب تأييد قوات لوسيماخوس التي انضمت الى سلوقس بعد معركة كوروبديون .

ويحاول الاستاذ روستوفتزف تفسير هذا التحول بأن جيش لوسيماخوس الذي انضم الى جيش سلوقس كان هو الذي أعلن كراونوس ملكا . ويبدو أن ذلك كان لعدم اقدام سلوقس على منح عرش لوسيماخوس الى واحد من أولاد لوسيماخوس ولوساندرا بالسرعة التي توقعوا بها ذلك . الا انه يهون من شأن هذا التفسير أمران : احدهما هو مناداة الجيش بكراونوس وليس بأحد من أولاد أجاثوكلس . والامر الآخر هو أن هذه القوات ظلت موالية للوسيماخوس حتى مصرعه ، أي أنها لم تكن تعطف على أبناء اجاثوكلس والا لما سارت وحاربت تحت لواء لوسيماخوس في آخر معاركه .

وعلى أي حال ، فقد افتدى فيلتايروس (Philetaeros) أمير برجامه جسد الملك القتيل بمبلغ من المال ، وأحرقه وأرسل رماده الى ابنه انطيوخس في بابل ، فقام بدفنه في سلوقية بيريه على مقربة من مصب نهر العاصي حيث بنى له معبدا ذا فناء خارجي وأطلق عليه اسم نيكاتوريون (Nikatorion) .

اهم مصادر الباب السادس :

— Appianus., Syrian Wars.

— Arrianus., Anabasis of Alexander, 1; 2; 3; 4; 5.

— ————., Indica, 18.

— Athenaeus., 6; 14.

— Diodorus., 18; 19- 20; 21.

— Eusebius., Chronicorum Canonum, 1.

— Herodotus., A 3.

— Josephus., Against Apion, 1.

— ———— ., Antiquities.

— Justin. 13; 15; 17.

— Livy., 38.

— Lucian., The Goddesse of Syria, 19.

— ——— .,de la Dance, 1.

— ——— ., Octogenarians, 11.

— ——— ., Icaromenippe, 2.

— Malalas. , (ed. Bonn) 189.

— Memnon., F.H.G. 3.

— Michel., Recueil d'inscriptions Grecques.

— Orientis Graeci Inscriptiones Selectae, 5, 5; 388; 401.

— Pausanias., 1

— Plutarchus., Demetrius; Eumines; Pyrrhus.

— Polyaenus., 4.

— Polybius., 5; 18.

— Stiphani Byzantii, 1.

— Strabon., 525; 724; 742; 752; 753; 758.

مراجـع مختـاره :

ــ ابراهيم نصحي ، تاريخ مصر في عصر البطالة (القاهرة ــ ١٩٦٦) ج١

ــ مفيد رائف العابد ، عصر سلوقس الاول ، رسالة جامعية غير مطبوعة (القاهرة ــ ١٩٧٥)

ــ مفيد رائف العابد ، الجيش السوري في العصر الهلنستي ، مجلة الفكر العسكري (دمشق) الاعداد ، ٣ ــ ٤ ــ ١٩٧٥ .

— Babelon. E. Les Rois de Syrie (Paris 1890).

— Bevan. E. The House of Ptolemy (Chicago 1968).

— ——. The House of Seleucus (London 1902).

— Bouch:é Leclercq. A. Histoire des Sleucides (Paris 1913 - 4).

— Bury. J.B. History of Greece to the death of Alexander (NY. 1913),

— Cambridge Ancient History, vols 6; 7.

— Cambridge History of India, vol. 1.

— Cary. N. The History of Greek World 323-1468 B.C. (London 1951)

— Journal of Hellenic Studies, vol 60 (1940)

— Macurdy. C.H. Hellenistic Queens (Oxford 1932).

— Ramsey. W. M. The Historical Geography of Asia Minor (Amsterdam 1962).

— Rostovtzeff. M. Social and Economic History of the Hellenistic World (Cambridge 1953).

— Rutten. M. Contrats de l'Epoque Séleucide conservés au Musée du Louvre (Paris 1935).

— Tarn. W. W. Hellenistic Military and Naval Development (Cambridge 1930).

— ——. The Greeks in Bactria and India (Cambridge 1966).

— Welles. B. Alexander and the Hellenistic world (Toronto 1970).

— ——. Royal Correspondence in the Hellenistic period (Prague 1934).

الباب السابع
التاريخ السياسي للامبراطورية السلوقية

الفصل الرابع عشر
عصر القوة

أولا ـ انطيوخس الاول :

ـ الظروف المحيطه بارتقائه العرش :

ولم يكن ارتقاء انطيوخس الاول عرش أبيه بالامر السهل ، فقد كان بعيدا عن عاصمة الامبراطورية وقد ضاع جيش أبيه وتفرق بعد مقتله ، وكان عليه والحالة هذه انقاذ وحدة امبراطورية أبيه في ظروف صعبة ، لكن بعض العوامل كانت تسير في صالحه ، ذلك أن سيطرته على مقاطعات الشرق التي استمرت من (٢٩٣ ــ ٢٨١) كانت سيطرة محكمة بفعل عاملين أولهما : كونه نصف فارسي من ناحية الدم وثانيهما : تمرسه في شؤون الحكم والحرب خلال هذه المدة ، واستعداد عدد كبير من نبلاء الفرس لتأييده ، يضاف الى ذلك غنى المقاطعات الشرقية بالرجال والعتاد . هذا في الشرق ، أما في الغرب ، فقد كانت معظم المدن الاغريقية في آسية الصغرى وأوروبه الشرقية تدين لسلوقس بتحريرها من طغيان لوسيماخوس ، ولذلك لم يشك أحد في نوعية عواطفها نحو الاسرة السلوقية . ولا شك أن جريمة كراونوس قد أيقظت كل المشاعر الاخلاقية في العالم الاغريقي لصالح انطيوخس ، يضاف الى ذلك أن مطالبة كراونوس بعرش مقدونية دفعت بانتيجونوس جوناتاس (ملك مقدونية) وكذلك بوروس (ملك ابيروس) الى التحالف مع انطيوخس ضد كراونوس الذي

لم تجده في ساعة الشدة محالفة أخيه بطلميوس الثاني (فيلادلفوس) ولا التفاف جيش سلوقس حوله ، وان كانت بعض هذه العوامل قد ساعدته على اذكاء ثورة في بعض مدن آسية الصغرى وسورية ضد الملك السوري الجديد •

٢ ــ سورية وآسية الصغرى :

ويبدو أن ظروف الثورة في المدن السورية قد منعت انطيوخس ــ بعد مغادرته بابل ــ من اجتياز طوروس والاسراع في الانتقام لمقتل والده • فاتجه من فوره نحو المدن السورية الثائرة ونجح في اخماد ثورتها • الا انه لم يحقق النجاح نفسه في مساعيه للسيطرة على كافة مدن آسية الصغرى رغم انضمام بعض المدن الى جانبه وذلك نتيجة لموقف مدينة هراكليه والعصبة الشمالية ، ويبدو أنه نتيجة لهذا الفشل ونتيجة للجهود التي كان يبذلها ملكا مقدونية وابيروس ضد كراونوس قرر انطيوخس فجأة تغيير مراميه السياسية وتأجيل موضوع الانتقام لابيه ومحاولة الاسراع في ضرب العصبة الشمالية التي تعاظمت اهميتها بعد تمكنها من هزيمة بعض الفرق السلوقية مؤخرا • وهكذا فقد عبر انطيوخس جبال طوروس وكان حضوره على رأس جيشه كافيا لاعادة تماسك القوات السلوقية المرابطة في بعض الحصون القريبة من مراكز التمرد ، وكذلك لاشاعة الطمأنينة في نفوس السكان غير المستقرين في ولائهم السياسي •

وكان أمير مقاطعة بيثونيه قد مات منذ فترة وجيزة ، ودبت الخلافات بين أفراد أسرته واستطاع نيكوميدس (Nikomides) أكبر أبنائه في نهايتها من السيطرة على مقاليد الامور والتحالف مع العصبة الشمالية ضد انطيوخس الذي قرر كما أسلفنا الاشتباك في حرب ضد العصبة وحليفها ، ولكنه لم يحسب حسابا لتدخل قبائل لم يكن معروف من قبل شدتها وبأسها وهي قبائل الغال •

٣ ــ الغال :

وكانت معظم مناطق شمال بلاد الاغريق قد تعرضت الى طوفان من الرعب والخراب على أيدي هؤلاء • إذ قامت مجموعات من هذه القبائل في ربيع عام ٢٨٠ باجتياح مقدونية ، ولم يتمكن ملكها كراونوس من التصدي لهم إذ سرعان

ما أصبح رأسه محمولا على واحدة من الحراب الغالية • وبعد ان انحسر المـد الغالي في أواخر ذلك العام عاد من جديد في فاتحة عام (٢٧٩) • وكنتيجة حتمية للفراغ السياسي في المنطقة طلب اغريق بلاد اليونان عون انطيوخس الذي أرسل لهم فرقة مكونة من خمسمائة رجل لم تستطع الصمود في وجه الغال لأكثر من معركة واحدة • وبالرغم من الانتصارين اللذين حققهما الايتوليون وانتيجونوس جوناتاس على بعض هذه القبائل فانها بمجموعها بقيت أداة حربية مروعة لدرجة أنه عندما قرر الغال الاتجاه نحو آسية الصغرى قام كلا من انطيوخس والعصبة الشمالية بمحاولة استمالتهم للعمل تحت قيادته • وفي حين فشلت محاولة انطيوخس في استجلابهم نجحت العصبة الشمالية في عقد محالفة معهم تعهدوا بموجبها بالعمل تحت قيـادة الامير البيثوني نيكوميدس الذي قام بتسهيل عملية نقـل قواتهم من أوربـة الى آسـية •

وما ان وطأت أقدام الغاليين آسية حتى اتجهت تحت قيادة نيكوميدس نحو مقاطعات غير موالية للعصبة • وعندما استباح ذلك الحشد من البرابرة تلك المقاطعات أدرك الامير البيثوني أن زمام الامور قد أفلت من بين يديه ، وان تحرك الغاليين يمينا وشمالا لا يمكـن ان ينتظم تحت أي ضابط بل تحركـه خصوبة أية أرض مجاورة أو ثراء أي موقع من المواقع القريبة • ولم يعـد هناك رجل في آسيـة الصغرى آمن أو يعرف متى يظهر هؤلاء في أرض قريبة من ممتلكاته •

ويبدو من المناسب قبل أن نستغرق في حديثنا ــ أن نورد وصفا للغالي كمـا رآه اغريق آسية الصغرى وكتبت عنـه المصادر وكما صورته بعض بقايا الفـن الاغريقي • إذ يتصف الغال بأجسام ضخمة عارية أحيانا ومستورة أحيانا اخرى برداء غريب له ألوان متعددة ، ويتحلى الغال بالعقود والاساور الذهبية ويثبتون شعورهم بواسطة شحـوم الحيوانات ويرفعونها حتى تقف بشكل غريب فـوق رؤوسهم ، ويحملون في الحرب دروعا تستر معظم أجسادهم وسيوفا كبيرة تكاد تكون أطول من الرماح الاغريقية ، كما كانت رؤوس حرابهم أضخم من السيوف المعاصره ، أصواتهم جهورية وشجاعتهم مفرطة الى حد تجعلهم لا يحسون بالجروح التي تصيبهم ، ويبدو أن ذلك بسبب شدة غرامهم بشرب الخمر • وتؤكد جميـع

المصادر على ان الغال عاثوا في المناطق التي اكتسحوها فسادا لا يمكن ان يرقى اليه أي فساد وتخريب عرفته البشرية قبل ذلك التاريخ • وقد حيكت عدد من القصص عن جبروتهم وقسوتهم ولا أخلاقيتهم ، كما ألفت عدد من المراثي الفخرية عن ضحاياهم من النساء والرجال • واذا كان عدد كبير من مؤرخينا المحدثين يعتقدون بأن كثيرا من هذه الاساطير قد لفق تلفيقا ، فلاشك ان هذه الاساطير تعكس بعض الرعب الشديد الذي انتاب سكان تلك المناطق على أيدي الغال •

وعلى الرغم من أن عدد الغال الذين وطأوا آسية لم يتجاوز بحال من الاحوال عشرين ألفا نصفهم من المحاربين فان سمعة هؤلاء كانت تسبقهم دوما لتبث الرعب في كل القلوب ، ولا شك ان موت الاسكندر الباكر وحروب «الذياذوخي» وتناحر خلفائهم فيما بعد كانت من أقوى الاسباب التي دفعت الغال الى اظهار براعتهم في العبث بالقانون لدرجة استطاعوا بعدها أن يشكلوا قوة تحسب لها الدول أكثر من حساب • وقد عانت المدن الاغريقية في آسية الصغرى من خطر الغال وعجزها عن مقاومته مثلما عانت في سبيل تكريس أو انتزاع استقلالها الذاتي من الملوك • ولا شكَ أن بعض هذه المدن قد تقلبت في ولائها بين الملوك الذين تصورت فيهم المنقذين المثاليين من خطر الغال ، وبين الغال المنقذين من تجبر الملوك • ويبدو ان صورة الملوك المنقذين كانت أوضح في الايام الاولى للغزو الغالي المرعب ، وبخاصة ان الغزو الغالي لآسية لم يكن عابرا كما في بلاد اليونان بل أدى شعور هؤلاء بالملل من الترحال وغنى المناطق المحيطة بهم في آسية الصغرى الى دفعهم للاستقرار في اقليم فروجيه •

وقد لعب انطيوخس الاول دورا مشرفا في الدفاع عن الحضارة الاغريقية والتصدي لهؤلاء الغزاة لدرجة أطلقت عليه المدن الاغريقية لقب سوتر (Soter) ويعني المنقذ • وقد حقق انطيوخس عدة انتصارات جانبية على الغال كان أشهرها انتصاره الذي حققه في موقعة الفيله (٢٧٦ / ٢٧٥) واستحق بموجبه لقب كالينيكوس (Kallinikos) ويعني المنتصر ، في حين استحقت فيلته التي ساهمت في احراز النصر نصبا تذكاريا يخلد بطولاتها • ونتيجة لعدم تمكن انطيوخس من تحقيق نصر حاسم على الغال واضطراره الى التفرغ للتصدي للاطماع البطلمية في

جوف سورية ، فقد رأى من الاجدى استمالة الغال بالمال ، فاتفق معهم أن يمدهم بجزية سنوية مقابل تعهدهم بالاستقرار والابتعاد عن خلق المشاكل •

٤ ــ السياسة الخارجية :

أما في مجال السياسة الخارجية ، فبالرغم من ضبابية المعلومات عنها في تلك الفترة فانه بامكاننا على الاقل تتبع خطوطها العامة • فقد ظهر انتيجونوس جوناتاس في عام ٢٧٦ أمام العالم ملكا على مقدونية أرض الاجداد ، وهي المهمة التي كافح عبثا في سبيلها انتيجونوس الاعور • واصبح جوناتاس ممثلا الأسرة انيتباتروس عن طريق والدته « فيــلا » ، كما مثل الاسرة السلوقية عن طريق زواجه بابنة اخته « فيــلا » ابنــة سلوقس الاول مــن استراتونيكي • وبعــد ان اختفت أســرة لوسيماخوس وفشلت محاولة كراونوس في تأسيس مملكة بطلمية في بلاد اليونان ، أضحى العالم الهلنستي مقسما في ثلاث ممالك كبرى : سورية ومصر وبلاد الاغريق• وتحتم بالتالي نشوء المنافسات بين هذه الدول • وقد حتمت المنافسات ان تتفق دائما قوتان منهما ضد الثالثة ، وتشاء الظروف أو المصالح بالاحرى ان تتفق سورية غالبا مع مقدونية ضد البطالمة في مصر • والحقيقة ان اتفاق الانتيجونيين مع أقربائهم في سورية لم يكن مبعثه ضخامة الاسطول البطلمي فحسب ، بل كان مرتبطا ايضا بغنى مصر وشراهة ملوكها وتعطشهم لامتلاك مقاطعات خارج حدود مصر ، وهي السياسة التي أرسى دعائمها بطلميوس الاول باستيلائه عــلى جزر الكوكلادس وبعض مقاطعات آسية الصغرى الجنوبيــة وقبرص ، وهي التي تبعت العــرش المقدوني في فترة سابقة •

٥ ــ حرب دمشــق :

وكان أول صدام بين هذه القوى هو الصدام الذي تطلق عليه مصادرنا اسم حرب دمشق أو الحرب الكارية ، والخلاف هنا حول التسمية خلاف بين المؤرخين المحدثين إذ يؤيد بعضهم تسمية هذه الحرب بحرب دمشق لان بطلميوس الثاني استولى بنتيجتها على دمشق والساحل حتى أرواد ، في حين يميل البعض الآخر الى تسميتها بالحرب الكاريه ــ نسبة الى اقليم كاريه (Karia) على الشاطىء الجنوبي

من آسية الصغرى ـ لان بطلميوس نفسه أحـرز بموجب الحرب أيضا مكاسب اقليمية في كاريه وبخاصة مدينة ملطية •

وقد استغل بطلميوس الاوضاع السيئة التي حاقت بالامبراطورية السلوقية بعد اغتيال مؤسسها عام ٢٨٠ وغياب ولي عهده في بابل • ورغبة من الملك البطلمي في تأزيم الوضع السياسي في وجه منافسه الذي كان يتوجب عليه دفـع الخطر الغالي عن حدوده الشمالية ولمّ شعث جيش والـده الذي تفرقت كلمته ، قـام بطلميوس بتجهيز حملة على جوف سورية استهدفت تكريس النفوذ البطلمي في هذا الجزء المُغتصب من أراضي الامبراطورية السلوقية • وتتيجة لغموض سير حوادث الحرب فان مراجعنا الحديثة ترجح عدم استمرار العمليات الحربية فترة طويلة ، ويبدو ان البطالمة الذين حققوا أهدافهم باحتلال دمشق وملطيه ، وانشغالهم بحملة ضد الانباط وقناعة انطيوخس بأولوية دفع خطر الغالالمتجدد،كل هذه العوامل أقنعت الطرفين بصواب فكرة عقد الصلح في عام ٢٧٩ والمحافظة على الوضع الراهن •

٦ ـ الحرب السورية الاولى :

وتخبرنا بعض مصادرنا القديمة ان انغماس انطيوخس الاول في حربه ضـد الغال قد أغرى نظيره بطلميوس الثاني بعد ثلاث سنوات من عقد الصلح بخوض غمار حرب تعرف بالحرب السورية الاولى ، والتي تختلف المصادر والمراجع في تحديد المتسبب والبادىء بالعمليات العسكرية وكذلك في تفاصيلها • ففي حين تذكر المصادر السابقة ان البادىء كان بطلميوس وان رغبته في تكريس احتلال جوف سورية كانت سببا رئيسيا للحرب،فان بعض وجهات النظر الحديثة ترى ان عقد انطيوخس زواج ابنته اباما (Apama) علـى ماجاس (Magas) ـ أخ بطلميوس غـير الشقيق نائب الملك وحاكم اقليم قورينائيه ـ ومحالفته في ثورته ضد أخيه عند اعلان نفسه ملكا مستقلا كان السبب الرئيسي في اقدام بطلميوس على غزو جوف سورية ، في محاولة لتضييق الخناق على انطيوخس ومنعه من تقديم مساعدة حاسمة أو دفعه الى سحب تأييده للثـورة في قورينائية • وتذكر المصادر القـديمة ان انطيوخس بعد نجاحه في دحر الغال وبعد موقعة الفيله (٢٧٥/٢٧٤) بوجه خاص ، عقد هدنه مع هؤلاء وتوجه الى جوف سورية في الوقت الذي حرك قواته في آسية

الصغرى لاسترداد ما فقدته امبراطوريته في عهد أبيه وفي بداية عهده (بعد حرب دمشق) •

وتحدد بعض النقوش البابلية العام ٣٨ من التقويم السلوقي (= تشرين الاول ، اكتوبر ، ٢٧٣/٢٧٢) تاريخا لبدء العمليات الحربية • ونظرا لغموض الحرب في آسية الصغرى يعتقد بعض المؤرخين ان قوة بطلميوس البحرية قد دفعت عن ممتلكاته هناك غائلة استردادها من قبل انطيوخس ، حيث فشلت قوات الاخير في حصار مدينة ملطيه ، ويبدو أن ولاء معظم مدن آسية الصغرى ــ في تلك الآونة للبيت البطلمي نتيجة الدعاية البطلمية ووعودها بمنح حقوق الحكم الذاتي للمدن الموالية وزئبقية ولاء بقية المدن قد سببت هذا الفشل •

ويحدثنا بوليانوس ان القسم الآخر من القوات التي قادها الملك باتجاه جوف سورية قد تمكنت من استرداد دمشق بعد انزال هزيمة كبرى بالجيش البطلمي ، ويبدو ان هذه الهزيمة كانت منكرة لدرجة اشعرت بطلميوس الثاني بعدم كفايته الحربية وبحاجته الى شخصية بقربه تسد هذا النقص • ورغم قيام بطلميوس بعد زواجه من شقيقته ارسنوى ــ في محاولة لسد هذا النقص في كفاءته العسكرية كما يعتقد بذلك بعض المؤرخين ــ وانهاء ثورة أخيه ماجاس في قورينائية بتوجيه قواته نحو جوف سورية وآسية الصغرى ، فانه لم يتمكن من استرداد دمشق ولا النصف الغربي من اقليم كيليكية الذي حررته القوات السورية في فاتحة الحرب ، ولا يعرف السبب الذي أدى بالعاهلين السوري والمصري الى انهاء حالة الحرب بينهما في عام ٢٧٢ •وبذلك ينهي المؤرخون احداث الحرب السورية الاولى •

ثانيا ــ انطيوخس الثاني :

١ ــ مقدمة :

وفي عام ٢٦٢/٢٦١ توفي انطيوخس الاول وخلفه على العرش ابنه الاصغر[1]

(١) كان انطيوخس الاول قد أمر باعدام ابنه الاكبر وولي عهده ونائبه في المقاطعات الشرقية المدعو سلوقس بعدما تجرأ على ارتداء الشارات الملكية في مركز حكمه في مدينة سلوقية دجله .

انطيوخس الثاني الذي لم يكن يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره • ويبدو انطيوخس الثاني من واقع مصادرنا انه كان ملكا عابثا ومجدا في الوقت نفسه ، استطاع خلال فترة حكمه التي امتدت حتى عام ٢٤٧ استعادة معظم مقاطعات امبراطورية سلوقس الاول التي عجز والده عن استرجاعها كاملة • وتعتبر فترة حكم انطيوخس الثاني من أغمض فترات تاريخ سورية (في الفترة الهلنستية) ، وتقتصر معلوماتنا عنها على شذرات المعلومات التي أمدتنا بها كتابات المؤرخين القدماء عن حروبه وعلاقاته مع البطالمة • وكنتيجة حتمية للهدف الذي رسمه انطيوخس الثاني لدولته (وهو استعادة الاقاليم السلوقية التي اغتصبها البطالمة) ، فقد اندلع بينه وبين بطلميوس الثاني لهيب حرب تعرف عادة بالحرب السورية الثانية رغم ان منطقة غربي آسية والبحر الايجي كانت مسرحها الرئيسي وجائزتها في آن واحد •

٢ ـ الحرب السورية الثانية :

ويبدو أن انطيوخس قد أدرك ان من بين أسباب قوة البطالمة قوة اسطولهم وسيطرتهم على منافذ التجارة الشرقية في آسية الصغرى بالاضافة الى محالفتهم أقوى القوى التجارية في المنطقة وهي جزيرة رودوس • ولذلك فقد عمل جاهدا منذ فاتحة عهده على تحييد رودوس في نزاعه المقبل مستغلا مصالحها التجارية في امبراطوريته ، في الوقت الذي كرس محالفته للعائلة المالكة في مقدونية بتزويج اخته الكبرى ـ استراتونيكي (Stratonike) من دمتريوس بن انتيجونوس (جوناتاس) الذي كان يطمح لاقامة اسطول ينافس الاسطول البطلمي في بحر ايجة • وعندما لم يكن في وسع جوناتاس بموارده المحدودة امتلاك اسطول كبير ينافس اسطول البطالمة ، فانه أخذ يتحين فرصة تتعثر فيها القوة العسكرية البطلمية لكي يكيل لها الضربة الثانية ، وحانت الفرصة حينما اشتبك بطلميوس مع انطيوخس في الحرب السورية الثانية في الوقت الذي انتصر فيه الاسطول الرودوسي على قوة بحرية بطلميه •

ويقسم مؤرخونا المعاصرون الحوادث الرئيسية في هذه الحرب الى حادثتين رئيسيتين : الاولى حينما أرسل بطلميوس الثاني أحد أبنائه الذي يدعى بطلميوس أيضا على رأس قوة من المرتزقة للاستيلاء على مدينة افسوس التجارية الهامة التي

كانت تحت السيطرة السلوقية ،وقد ردّ انطيوخس على هذا العمل بتأييد محاولة أحد الطغاة والمدعو تيمارخوس (Timarchos) للاستيلاء على مقاليد الامور في مدينة (ملطية) وهي مركز تجاري هام كانت تحت السيطرة البطلمية • وبدا متوقعا في ذلك الوقت أن يحاول الحاكمان الجديدان في ملطيه وافسوس الافادة من المنافسة بين بلاطي انطاكية والاسكندرية للمحافظة على استقلالهما • ولكن ثورة بطلميوس المبكرة في افسوس على ولي نعمته في الاسكندرية وتحالفه مع تيمارخوس أدت الى نتائج لم يحسب لها الحليفان حسابا وبخاصة في مجال تقدير قوتهما ، إذ لم يكد انطيوخس الثاني يشعر بخطر سيطرة هذين المتمردين على منفذين هامين من منافذ التجارة في امبراطوريته وعلى تخومه الشمالية ، حتى قام بتجهيز حملة انقضت على ملطيه وحررتها من طغيان تيمارخوس في الوقت الذي دعم ثورة قام بها مرتزقة بطلميوس في افسوس ، حيث لم يحترم هؤلاء قدسية المعبد الذي التجأ اليه قائدهم فقتلوه مع عشيقته ودعوا انطيوخس الى دخول مدينتهم حوالي عام (٢٥٩/٢٥٨) •

أما الحادث الرئيسي الثاني في هذه الحرب ، فكان نتيجة للجهود التي بذلها انطيوخس مع حليفه انتيجونوس لمكافحة النفوذ البطلمي في آسية الصغرى وبحر ايجة • وقد أفاد انتيجونوس من نتائج اشتباك بطلميوس مع انطيوخس وانتصار رودوس على قوة بطلمية بحرية (سبق التكلم عنها) لتحقيق نصر باهر على الاسطول البطلمي قرب جزيرة كوس (Kos) وأتاح بذلك الفرصة لاستيلاء انطيوخس على معظم الساحل الغربي لآسية الصغرى وجزيرة (Samos) والتقدم أيضا باتجاه أوربة حيث دعاه سكان اقليم تراقيه لمساندتهم ضد العصبة الشمالية بزعامة بيزنطه والقوات البطلمية والغالية • واستولى انطيوخس نتيجة تقدمه على تراقيه وساموتراقيه كما حرر نتيجة تقهقر الاسطول البطلمي مدن الساحل السوري شمال صيدا من النفوذ البطلمي الذي رزحت تحته منذ عهد أبيه انطيوخس الاول •

٣ ـ من أعداء الى اقارب :

يبدو أن الفتوحات التي أحرزها انطيوخس الثاني ، والمجد الذي أسبغته عليه

المدن التي حررها ، قد أيقظت في نفسه الميل الى حياة الدعه والخمول ، وبدلا من أن يستفيد من تقاعس المملكة البطلمية وعجزها عن حماية أراضيها بتحرير جوف سورية من النفوذ البطلمي قبل عرضا من بطلميوس الثاني بالزواج من ابنة الاخير بعد وفاة أخيه ماجاس وتأزم علاقاته ببلاط قورينائيه (برقــة) ، وبيان ذلك ان ماجاس وقد أدرك استحالة امكان وقوف قورينائية ضد مصر بعد وفاته سعى الى عقد زواج ابنته الوحيده (برنيكي) على ولي عهد مصر (بطلميوس الثالث لاحقا) مؤملا ان تنهي هذه المصاهرة الخصومة بين البلاطين • ولما كانت هــذه المصاهرة تستتبع ادماج قورينائيه في مصر بعد وفاة ماجاس وبطلميوس الثاني فقد اشتدت في قورينائيه حركة معارضة قادها حزب وطني كبير يرنو الى الاستقلال بزعامة اباما زوج ماجاس وشقيقة انطيوخس الثاني • وعندما توفي ماجاس بعد الاتفاق على المصاهرة مباشرة تسلمت الملكة الام زمام السلطة وسرعان ما قامت بفصم عرى المصاهرة ، وانتقت لابنتها زوجا من البلاط المقدوني ــ المعادي للبطالمــة ــ هــو دمتريوس ــ وكان اخا غير شقيق للملك انتيجونوس ــ الذي قدم ــ بدعم من أخيه الذي رحب بكيل لطمة اخرى لبطلميوس ــ ليحكم قورينائيه بصفته زوجا لولية العهد ، ولكن اباما بقوة شكيمتها سرعان ما أغوت زوج ابنتها وأقامت معه علاقات وثيقة تحت سمع ابنتها وبصرها • وبهذا فقد وحدت المصاهرات بين كل من بلاط انطاكية ومقدونية وقورينائيه • وكان من المتوقع جدا ان يكرس عداؤها لبلاط الاسكندرية فكرة تقطيع ممتلكات مصر الخارجية ان لم تكن مصر نفسها • وخشية من ان يستغل البلاطان المقدوني والقوريني صلاتهما الجيدة بسورية فيستحثانها عــلى استعادة جوف سورية الذي كان يعتبر الدرة الثمينة في ممتلكات مصر الخارجية ، ورغبة من بطلميوس في تفتيت الصف المعادي له رأى أن يعمل على تحييد أقوى قوة معادية ، وتوصل بعد مفاوضات الى كسب جانب انطيوخس بالمصاهرة • وبيان ذلك ان انطيوخس كا نمتزوجا من ابنة عمه لاوديكي وكانت قد انجبت له ابنين وابنتين ، ويبدو انها كانت صلفة لدرجة يسرت مهمــة بطلميوس في اقناع نظيره بأفضلية ترك زوجه الاولى والزواج بأميرة فتية يكون صداقها كبيرا جدا ، شرط أن يسمى احد أولادها وليا للعرش السوري • ويبدو ان قوة بنود الاتفاق لم تسمح

للاوديكي بابداء أية مقاومة فهاجرت مع أولادها الى مدينة افسوس في آسية الصغرى في الوقت الذي احتلت فيه منافستها قلب ملك العابث •

ويبدو أن المكاسب الاقليمية وغرام برنيكي الذي استبد بأنطيوخس قد أعمياه عن تبصر الامور ، وعمل جاهدا مع حليفه الجديد على ارساء دعائم التقارب والتفاهم بين البلاطين والتي كان من أبرز مظاهرها تمركز السلطة في انطاكية واهمال منطقة آسية الصغرى (مركز نفوذ لاوديكي) بشكل لم يسبق له مثيل من قبل، كما أصبح تبادل الوفود والهدايا أمرا شائعاالدرجة انمياه النيل التيكانتلهاسمعةطيبة في مجال الخصوبة كانت تحمل باستمرار الى مقر الملكة الجديدة •

٤ ـ موت انطيوخس ونتائجه :

وكان من الطبيعي أن ترفض الملكة المستبعدة لاوديكي ما وصلت اليه من حال خاصة وانها اعتمدت في رفضها على نفوذ اخيها (اسكندر) حاكم ولاية لوديه في آسية الصغرى • ويبدو أن منافستها برنيكي اعتمادا على قوة ابيها وانجابها طفلا مؤهلا لوراثة العرش قد دفعها الى التصرف بحماقة نفّرت منها انطيوخس وتذكر فجأة زوجه الاولى ، ويذكر بعض المؤرخين ان لاوديكي قد عملت على اغراء زوجها بزيارتها ، ويبدو أنها قررت انتهاز فرصة زيارته لها في افسوس لاستعادة حظوتها والظفر منه بالاعتراف بولاية العرش لابنها الاكبر • ولا يستبعد ايضا أن يكون انطيوخس الذي بلغه نبأ وفاة بطلميوس الثاني قد قرر مصالحة لاوديكي واعادة اعتبارها عن طريق اعادة ولاية العرش لابنها الاكبر ، لانه وقد أفاق من غفوته قدر المخاطر التي ستهدد امبراطوريته من وصاية طويلة الامد إذ خلفه ابنه الطفل من برنيكي ، في حين لم يكن هناك مجال لاية وصاية اذا خلفه ابنه الاكبر من لاوديكي الذي كان يناهر عندئذ التاسعة عشرة من عمره •

وفي عام ٢٤٦ اجتاز الملك جبال طوروس في طريقه الى مدينة افسوس ، ولكنه لم ينعم بهذه العودة اذ سرعان ما توفي بعد وصوله الى افسوس بوقت قصير ونودي بابن لاوديكي ملكا باسم (سلوقس الثاني) • ولما كان مركز برنيكي قويا في انطاكية حيث كان يؤيدها بعض القادة ، هذا الى ان المدن السورية الاخرى

(اباميه ، اللاذقية ، وسلوقية بيريه) اعتبرت ابنها وريث العرش الشرعي ، فضلا عن ذلك فانها كانت على مقربة يسيرة من مصر فقد أفضى النزاع بين برنيكي ولاوديكي الى نشوب الحرب السورية الثالثة أو (حرب لاوديكي) كما أطلق عليها معاصروها ، والتي يخيّم حول مسيرتها ظلام كثيف يثير الشكوك وتضارب الآراء .

ثالثا ـ سلوقس الثاني والحرب السورية الثالثة :

١ ـ الحرب السورية الثالثة :

على الرغم من الظلام المحيط بسيرة الحرب يمكننا ان نتبين بعض ملامحها ، فقد توقفت القوة السلوقية عن أن تكون متحدة ، وانقسم انصار الملكتين الى حزبين يناصر كل منهما قضية اقتنع بعدالتها لسبب أو آخر ، ولم تقف برنيكي عند سماعها نبأ موت زوجها واعلان ابن منافستها ملكا ، بل بادرت الى الرد على مناورة لاوديكي ببيان هاجمت فيه الحق الذي ادعته لاوديكي لابنها في العرش ، واتهمت لاوديكي بدس السم لزوجها وتزييف اعترافه بسلوقس خليفة له .

واستنادا على قوة لاوديكي الراجحة في آسية الصغرى وبما تبقى لها من نفوذ داخل انطاكية ، وخشية من تدخل بطلمي متوقع لصالح برنيكي ، فقد قررت لاوديكي ان تضرب ضربتها وتستعيد سلطتها على مركز الامبراطورية في انطاكية بسرعة مطلقة . واستطاعت انفاذ بعض أعوانها الى مركز منافستها في انطاكية حيث قاموا باختطاف طفلها واخفائه ، وتوقعت أن يؤدي هذا العمل الى حرمان برنيكي من ذريعة الاستمرار في النضال من أجل ارتقاء طفلها العرش . وسرعان ما أثبتت الاحداث فشل خطتها ، فقد أيقظ هذا العمل اللا أخلاقي ضمائر الكثيرين من مؤيدي لاوديكي نفسها في انطاكية ، وتمكنت برنيكي من استغلال عواطف الناس المتأججة ضد لاوديكي ، كما فرض الجو العام على كبار موظفي البلاط الوصول الى قرار يسمح للملكة باستدعاء الجيش البطلمي واقامة دفاع لها في القصر الملكي في ضاحية دفنه مع مجموعة من الحراس الغاليين ، خشية من هجوم متوقع لقوات لاوديكي .

وفي تلك الاثناء توفي بطلميوس الثاني وارتقى ابنه بطلميوس الثالث

العرش ، وكانت القوات البطلمية في ذلك الوقت على استعداد لان تتحرك بقواها كاملة • ذلك ان المشكلة في قورينايئه حلت لصالح العرش البطلمي • فقد اكتشفت برنيكي ابنه ماجاس العلاقة بين زوجها دمتريوس العادل ووالدتها ، واستطاعت تدبير اغتياله في سرير اباما وتحت سمعها وبصرها • وسرعان ما أعادت اعلان خطبتها الى بطلميوس الثالث الذي عقدعليها قرانه بسرعة ، واستعد للتدخل بكامل قواتـه للذود عن اخته المتقوقعة في دفنه ، وقام قبل زحفه باثارة عدد مـن مدن آسية الصغرى للانتصار لها ، واستجابت بعض هذه المدن واستنفرت قواتها البريـة والبحرية استعدادا للتدخل لصالح برنيكي الى جانب القوات البطلمية •

وتتضارب الروايات حول تاريخ وصول الاسطول البطلمي لنجدة برنيكي وعلاقته بمقتلها ، وفي حين تذكر بعض الروايات ان اغتيال برنيكي تمّ قبل وصول اسطول بطلميوس الى الساحل السوري ، وتوحي لبعض المحدثين بأن بطلميوس كتم هذه الحقيقة للتمسك بذريعة تدخله في سورية ، فان بعض الدراسات الحديثة تؤكد أن برنيكي شاركت في الاحتفال بقدوم الاسطول البطلمي ، وانها قتلت عندما توغل بطلميوس في أراضي الامبراطورية السلوقية شرقا •

وتقتصر معلوماتنا عن مجريات حرب لاوديكي على ما أمدتنا بـه (بردية) معاصرة تتعلق بالحرب البحرية ، ونقش قديم ايضا يتحدث عـن الحرب البرية • وتحدثنا قصاصة البردية الممزقة التي عثر عليها أواخر القرن الماضي ، والتي هـي عبارة عن بقايا رسالة كتبها قائد الاسطول السلوقي في آسية الصغرى ، ان الاسطول البطلمي نزل أولا في كليكية السلوقية ، واستولى فيها على مبلغ (١٥٠٠) تالانت كان أحد حكام المقاطعة ينوي ارساله الى ملكته لاوديكي المقيمة في افسوس ، وان الاسطول بعد ذلك أبحر الى قبرص ، ومنها الى الساحل السوري حيث وصل الى موقع (المستعمرة الاثينية) بوسيديوم • ومن بوسيديوم تحرك الجيش المرافق للاسطول باتجاهسلوقية التي استقبلتهم باحتفال مهيب•ويبدو أنحامية انطاكية كانت تستعد لمقاومة الغزاة ، الا ان شكل وضخامة القوات البطلمية وخلّو أنطاكية من نصير للاوديكي قادر على تحريك مقاومة فعّالة اقنعت هذه الحامية بصواب فكرة الترحيب بالقوات الغازية وقائدها الملك البطلمي •

أما النقش وهو عبارة عن نصب من البازلت اقامه أحد موظفي البلاط البطلمي في موقع أدوليس (Adulis) في الحبشة على البحر الاحمر ، خلد فيه حروب بطلميوس الثالث ونقل نصه راهب كان يعيش في القرن السابع ميلادي ، فيخبرنا ان الملك البطلمي قام بعد سيطرته على مقاطعات تراقيه وشمال سورية وكيليكية وبامفوليه وايونيه والهلسبونت بعبور الفرات حتى باكتريانا في الهضبة الايرانيه ٠

ويبدو ان بطلميوس الذي دانت له معظم أصقاع الامبرطورية السلوقية لـم يستطع تكريس سيطرته على تلك الاصقاع باسم أخته برنيكي ولا القضاء عـلى مقاومة منافستها لاوديكي٠ اذ أنهبعد ان أنفذ رسلاباسم برنيكي الى حكامالولايات الشرقية يطلب اليهم الطاعة ، اضطر الى العودةسريعا الىمصربعدتفاقم أزمة داخلية فيها استلزمت حضوره شخصيا بعد أن فوض بعض قواد حامياته بادارة دفة الحكم في آسية الصغرى وما وراء الفرات لصالح أخته ٠

ورغم سقوط افسوس (مركـز الملكة لاوديكي وابنها سلوقس الثاني) في أيدي القوات البطلمية خلال الفترة الاولى من الحرب ، وانتقال المركز الملكي الى مدينة اخرى لم تحددها مصادرنا (ويمكن أن تكون سارديس) فان ذلك لم يعق سلوقس الثاني عن بذل الجهود المستميتة في سبيل الاعـداد لحملة الاسترداد الشهيرة ٠

وفي الوقت الذي عزم فيه بطلميوس الثالث على العودة الى مصر كـان سلوقس الثاني يحشد قواته عبر طوروس ٠ وقبل عبوره طوروس ورغبة في تمتين جبهته الداخلية واكتساب الحلفاء ، قام بعقد قران أختيه عـلى ميثريداتس الثاني (ملك بونتوس) وأرياراثس (ملك كابادوكيه) ، في الوقت الذي اكتسب بلباقته السياسية ولاء معظم المدن الاغريقية في آسـية الصغرى ، وأعلـن بعضا منها (وبخاصة تلك التي قاومت الغزو البطلمي وأهمها سمورنا (Smyrna = ازمير) مدنا مقدسه ومنحها « حـق اللجوء » ـــ وهو حق ايـواء اللاجئين السياسيين والمجرمين الذي كان يعتبر حقا مقدسا لا يمنح الا للمعابد الكبيرة ـــ وأرسـل الرسائل الى « الملوك والمدن والامم » يعلمهم برغبته في اعتبار هذه المدن مقدسة ولا تنتهك حرماتها ، وانه قد أعفاها من الضرائب الملكية لقاء اخلاصها للعـرش السـلوقي ٠

ولا شك ان عودة بطلميوس الى مصر قد سهلت كثيرا من مصاعب الملك الشاب لاسترداد إرثه ، ورغم ذلك فان مهمة تحرير المدن والمقاطعات من النفوذ البطلمي لم تكن مهمة سهلة وبخاصة ان بعض مدن آسية الصغرى مثل ماجنيزيه على نهر سيبولوس قد انحازت للملك البطلمي ، ولكن حماس الملك الشاب وولاء بقية المدن مكنته في الدور الاول من الحرب وفي عام (٢٤٥/٢٤٤) بالتحديد من استعادة الولايات الوسطى والشرقية وجانبا من كيليكية وكافة سورية السلوقية فيما عدا سلوقية بيريه •

ويبدو ان نجاح سلوقس هذه المرحلة افقده القدرة على تبصر الامور برؤية وحكمة ، وبدلا من فترة راحة يستجمع فيها قوته ويلتقط فيها أنفاسه ، قام بعد فترة وجيزة بالاعداد لحملة هجومية غايتها دفع خطر البطالمة الى أبعد منطقة ممكنة بمهاجمة معاقلهم ، ورغم الظلام المحيط بظروف هذه الفترة فان بعض مصادرنا تشير الى ان سلوقس قام بعد تحريره لمدينة أورثوسيه (Orthusia = عرطوس على مصب نهر البارد) بمحاولة بحرية فاشلة لاسترداد شواطىء كيليكية ، حيث تسببت العواصف بتحطيم أسطوله ، ولم يستطع سلوقس نفسه النجاة الا بصعوبة • ولم يثنه فشله عن القيام بحملة برية على جوف سورية حيث تصدى له الجيش البطلمي في مكان ما في فلسطين وانزل بجيشه هزيمة نكراء اضطرته الى الانكفاء مع بقايا جيشه باتجاه انطاكية ، وكان وضع سلوقس في تلك الفترة حرجا جدا حيث لم يعد لديه من القوات مايتمكن به من الدفاع عن عاصمته فيحال قيام بطلميوس الثالث بهجوم معاكس ، وهذا ما أكدته الحوادث عندما قام بطلميوس فعلا بمحاصرة دمشق ولم يتمكن سلوقس من انقاذها الا عندما جاء أخوه انطيوخس (هيراكس) لنجدته من آسية الصغرى •

وكانت انطاكية السورية قد استردت أهميتها السياسية في فترة دفاع سلوقس عن مملكته بعد فترة تمركزت فيها السلطة السلوقية في آسية الصغرى بين يدي لاوديكي وابنيها سلوقس أو انطيوخس الذي لم يكن يتجاوز وقتها الرابعة عشر من عمره • وفي غمرة هذه الضائقة التي تعرض لها سلوقس ، أرسل الى أخيه يطلب اليه عبور طوروس لنجدته،ويبدو أنه كان يشك في استجابة أخيه،فعرض عليه تشجيعا أن

يقتسم معه الامبراطورية وبأن يتنازل له عن آسية الصغرى • ولا يعرف في الحقيقة هل كان هذا التخلي كاملا أو خاضعا لنوع من الاكراه خاصة وان معلوماتنا تشير الى أن لاوديكي وأصدقاءها كانوا هم الحكام الحقيقيون في أقاليم آسية الصغرى ، ولا شك ان عرض سلوقس الثالث لم يكن في الحقيقة الا اعتراف بالامر الواقع • ورغم ان مصادرنا لم تذكر شيئا عن رد انطيوخس على عرض سلوقس ، إلا ان جوستين يذكر عرضا ان المجموعة الحاكمة في ساردیس ارسلت جيشا لمساعدة سلوقس وان هذا الجيش قد مكن سلوقس من فك الحصار عن دمشق كما اقنعت بطلميوس الثالث بصواب فكرة عقد هدنة مع سلوقس مدتها عشر سنوات •

٢ ــ حرب الاخوين :

وشعر سلوقس بعد عقد الهدنة بأنه لن يستطيع احترام الاتفاق الذي عقده مع أخيه تحت وطأة الحرب والذي ينص على الاعتراف بنفوذ اخيه في آسية الصغرى ، لان ذلك كان سيعزله عن بحر ايجة ، ولما لهذا العزل من مخاطر سياسية وعسكرية واقتصادية •وطفق سلوقس آنئذ يترصدويعوق محاولات أخيه لاخضاع جميع القوى في آسية الصغرى تحت سيطرته ، وعندما كشف انطيوخس محاولات سلوقس لاعاقة محاولاته أسقط الاخوان أقنعة الوفاق والاتحاد وبدأ الصراع على شكل حرب أهلية بين كتلتين متنافستين في الاسرة السلوقية الواحدة • وكانت المجموعة التي تعمل خلف انطيوخس والدته الملكة لاوديكي وحاشيتها بمشورة ودعم أخيها اسكندر حاكم مقاطعة لوديه الذي كان يخطط للحصول على منصب نائب الملك في آسية الصغرى في حال تحقيق نصر حاسم على قوات سلوقس •

ويبدو ان سلوقس لم يقف مكتوف اليدين بعد عقد الهدنة مع البطالمة ، وهذا ما يوحي به اجتيازه جبال طوروس على رأس قوة معقولة حوالي عام ٢٣٧ لاستعادة السيطرة على مقاليد الامور في آسية الصغرى ، وتمكن بهذه القوة اكراه القوات المناصرة لاخيه على التقوقع داخل ساردیس بعد معركتين منفصلتين ، مما اضطر انطيوخس الى طلب النجدة من قبائل الغال والاستعانة بهم ضد أخيه •

وكان نشاط الغال بعد هزيمتهم على يدي انطيوخس الاول فقد اقتصر على

مشاركة ملوك بونتوس (حلفاء السلوقيين) في حروبهم ضد القوات البطلمية ، ويبدو ان الغال قد انتهزوا فرصة وفاة ميثريداتس عام (٢٦٦) وضعف خليفته ليستردوا بعضامن حرية الحركة، وتعاظم خطرهم في عهد ابنه ميثريداتس (ايضا) لدرجة ان هراكليه (صديق عائلة ميثريداتس) تعرضت نفسها لغضب الغال عندما أرسلت معونة لصد خطرهم عن أصدقائها في مملكة بونتوس •

وكنتيجة حتمية للكراهية التي كان الغال يكنونها لأي ملك شرعي قوي يمكن ان يحد من حرية حركتهم المشاغبة فقد رحبوا ببوادر الحرب الاهلية بين سلوقس وانطيوخس • وقلب تدخل الغال الى جانب انطيوخس موازين القوى ، وبالقرب من أنقره الحالية دارت بين الاخوين معركة رهيبة قتل فيها من كلا القوتين عشرين ألفا كما تذكر المصادر • وتضيف المصادر نفسها تعقيبا انه لـم يكن ممكنا في أصيل المعركة العثور على أثر لسلوقس نفسه الذي تطايرت أنباء عن مقتله فحزن أخاه حزنا شديدا دفعه الى الاعتكاف في قصره واغلاق أبوابه عليه ، ثـم تلتهـا أنبـاء عن نجاة سلوقس وهربه من المعركة متنكرا وعن وجـوده في كيليكية ومحاولاته لتجميع ما تبقى من قواته ، ممادفع انطيوخس الى تقديم شكره للآلهة على نجاة أخيه وانهاء حداده واعداد جيشه لعبور طوروس وتحطيم مقاومة أخيه قبل استفحالها •

٣ ــ انطيوخس واتالوس والغال :

ويبدو أن معركة أنقرة التي حسمت على الاقل الصراع حول ملكية آسية الصغرى لصالح انطيوخس قد أدت الى نتائج لم يحسب لها انطيوخس حسابا ، فقد كان من المتوقع بعد هذه المعركة ان يستعيد الغال ثقتهم بأنفسهم وان يحاولوا بل أن ينجحوا في ممارسة الوان من الضغوط التي لـم يستطع انطيوخس دفعها ، واصبح بموجبها ألعوبة في أيديهم يسيرونه مرة باتجاه فروجيه في حملة تهديـد وابتزاز ، ويقايضهم مرة اخرى على حياته ، ويلتجأ مرة ثالثة الى مدينة صديقه هربا منهم ، ثم نجده يواجههم في معركة مفتوحة وبعدها بقليل يسير بصحبتهم غازيا •

وكنتيجة طبيعية لفشل انطيوخس في ادارة الحكم في ممتلكاته في آسـية الصغرى وعدم تمكنه من حد نفوذ حلفائه ، فقد طفقت المدن الاغريقية هناك تبحث

عن منقذ لها من محنتها . ورغم انها رانت ببصرها فترة صوب العرش البطلمي بعد ملاحظتها لسلامة ممتلكاته في آسية الصغرى مثل افسوس وبعض الموانىء في كاريه، فانها سرعان ما أدركت خطأها في ذلك بعد تأكدها من بنود الحلف السري الذي عقده انطيوخس مع العرش البطلمي ومساعدة الحاميات البطلمية لانطيوخس في بعض تعدياته عليها . ونتيجة لضعف سلوقس بعد هزيمته على أيدي الغال ، فقد اتجهت المدن الاغريقية باستغاثتها صوب امارة برجامه في شخص أميرها اتالوس .

وما يعرف عن أتالوس لا يتوافق مع عظمة الدور الذي لعبه هذا العاهل البرجامي في صدّ الخطر الغالي ، وحماية أصول الحضارة الهلينية . وتقسم معلوماتنا عنه الى بعض اشارات يوردها بعض مؤرخينا القدماء اضافة الى بعض النقوش التي خلفتها مدينة برجامه تخليدا لذكرى حروب هذا العاهل .

وتخبرنا شذرات المعلومات التي يرويها المؤرخون بأن أتالوس قد خلف عمه على العرش البرجامي في عام (٢٣١/٢٤٠) ، وانه كان اميرا نشطا وضع أمور إمارته في نصابها وحالف روما ، وانه كان أول رجل في آسية الصغرى رفض دفع الاتاوات التي فرضها الغال على أمراء وسكان ومدن آسية الصغرى ، وبذلك فقد عرّض نفسه الى خطر مهاجمة الغال ، ولكنه تمكن من دحرهم في معركة فاصلة ردتهم على أعقابهم من ساحل آسية الصغرى الغربي الى المناطق التي كانوا يشغلونها من قبل .

وعندما ننتقل من روايات المؤرخين الى النقوش التي خلفتها برجامه فاننا نجد ان اتالوس قد خاض عددا من المعارك المظفرة ضد الغال وحليفهم انطيوخس ، ورغم انه يستحيل علينا اجراء ترتيب زمني لهذه المعارك نظرا لحالة وثائقنا الا أن الوثائق تؤكد على ان اتالوس خاض عددا من المعارك ضد الغال بقيادة انطيوخس وعددا اخر ضد بعض القبائل الغالية التي لم تأمر بأوامر انطيوخس، وان هذه المعارك قد امتدت من بيثونية شرقا حتى نهر الكايكوس غربا وكانت اشهر هذه المعارك « المعركة الكبرى » أو « معركة برجامه » وقد ترتب على انتصارات اتالوس السابقة بعض النتائج التاريخية أهمها ترحيب عدد كبير من مدن ومناطق آسية الصغرى بالسيادة الجديدة البديلة للسيادة السلوقية التي وصمت في تلك الاثناء بتقاعسها عن حماية الحضارة الهلينية . ولا يعرف في الحقيقة ماذا كان موقف بلاط

انطاكية من بروز هذه القوة الجديدة ، وفيما إذا اغتبط سلوقس من ظهورهـــا وانتقامها له من انطيوخس والغال وتحقيقها توازن القوى على الحدود الشمالية ؟ كما لا يعرف فيما إذا قام بين سلوقس وأتالوس أي نوع من التعاون لدرء خطري الغال وانطيوخس .. !

على أي حال ، في الوقت الذي اشتد ضغط اتالوس على انطيوخس ، كـــان سلوقس على رأس حملة شرقية يحاول درء خطر البارثيين الذين استولوا على بعض المقاطعات السلوقية شرقي الدجله ، وعندما حاول انطيوخس انتهاز هذه الفرصة والاستيلاءعلى مقاليد الامورفي انطاكية بتأييدمن بعض اتباع عمته استراتونيكي تصدى له بعض اتباع اخيه سلوقس وانزلوا به هزيمة فادحة ، فرّ على أثرها الى زوج اخته ملك كابادوكية .

ويبدو ان حسّ المتشرد قد اشعر انطيوخس بأن ترحيب بلاط صهره كـــان يخفي وراءه اتفاقا مع اخيه سلوقس لتسليمه اليه ، فركن الى الفرار مرة اخـــرى ولكن باتجاه برجامه حيث قام في عام (٢٢٩ـــ٢٢٨) بهجوم اخير يائس أفقده ماتبقى من قواته واجبره على عبور البوسفور الى اوربه حيث وضع نفسه تحت رحمة القوات البطلمية التي كانت تحتل اقليم تراقيه (٢٢٨ ـــ ٢٢٧) .وبموجب أوامر بلاط الاسكندرية احيط انطيوخس بحراسة مشددة واقتيد الى الاسكندرية حيث فرضت عليه اقامة جبرية لم توافق مزاجه التشردي ، وتمكن بمساعدة فتاة من القصر البطلمي مراوغة حراسه والعودة الى تراقيه في اوربه . وبعد تمكنه مـــن لمّ شعث عدد من اتباعه القدامى ، اصطدم بجماعة من الغال لاقى حتفــه عـــلى أيديهم . وبموته اندثرت السيادة السلوقية المنفصلة على اسية الصغرى واصبح اتالوس سيد الممتلكات السلوقية شمالي طوروس (باستثناء الاقاليم التي استقل بها حكام محليون) وتعين على سلوقس الثاني ان يقرر فيما اذا كان سيسترد هذه الممتلكات سلما أم حربا ، أو أنه سيذعن لبقائها خارج نطاق امبراطوريتـــه . ولكن القدر أنكر عليه معرفة هذا القرار إذ توفي بعد عام واحد من مقتل أخيـــه (٢٢٧ ـــ ٢٢٦) متأثرا بجراح اصابته اثر سقوطه عن ظهر جواده .

رابعا ــ سلوقس الثالث :

وارتقى العرش بعد سلوقس الثاني ابنه الاكبر اسكندر الذي اطلق على نفسه اسم سلوقس الثالث ، وافتتح عهده بأن عهد الى أخيه انطيوخس بولاية العهد ومهمة حكم مقاطعات شرقي الامبراطورية من سلوقية دجله •

ولم تكن مهمة استرداد المقاطعات السلوقيـة المغتصبة في آسية الصغرى وجوف سورية بالاضافة الى سلوقية بيريه (على الساحل السوري) مهمة سهلة ؛ فقد غدت الدولة بعد وفاة سلوقس الثاني في حالة من الضعف والمهانة يصعب معها اجراء تحول جذري في حالتها العامة ، ومع ذلك فقد تبين ان عزيمة سلوقس الثالث كانت اقوى من كل الصعاب وانه ينوي فعلا استرداد مقاطعاته في آسية الصغرى ، وبدأ سلوقس العمل بتوجيه عدد من قادته الى مناطق متفرقة من آسية الصغرى للوقوف على مدى استعداد وجدية مقاومة اتالوس لمحاولاته • ويبدو ان عنف مقاومة اتالوس لحملات سلوقس الثالث الاستطلاعية اقنعه بصواب فكرة قيادة حملة كبرى بنفسه ، ولا يعرف عن هذه الحملة اكثر من انها خاضت عددا من المعارك الظافرة ، وان عوامل غامضة لعل واحدة منها دسائس اتالوس دفعت اثنين من ضباطه الى دس السم في طعام مليكهما واغتياله في فروجيه في صيف عام ٢٢٣ •

وبدا لفترة من الوقت وكأن الجيش سوف يشعر بالضياع بعد مقتل قائده وغياب ولي عهده في بابل ، ولكن كفاية قائد الجيش ابيجنس (Epigenes) وحزم آخايوس ابن عم الملك القتيل سرعان ما أعادتا تماسك الجيش وحقق الاثنان تراجعا ناجحا للجيش السوري عبر ممرات وكمائن الاعداء • وبعد صدور الاوامر باعدام القاتلين نادى الجيش بانطيوخس (الاخ الاصغر لسلوقس الثالث ونائبه في مقاطعات شرق الفرات) ملكا باسم انطيوخس الثالث •

الفصل الخامس عشر

عصر احيــاء الامبراطورية

أولا ــ انطيوخس الثالث والاحداث الداخلية :

١ ــ توزيع المسؤوليات والوضع العام في الدولة :

وكان انطيوخس عند المناداة به ملكا علـى العرش السوري في الثامنـة عشرة من عمره ، ولما كان اضعف من ان يتولى كافة السلطات وتحمل كل الاعباء ، فقد بادر منذ وصوله الى عاصمته الى اتخاذ احد ادهى سياسيي بلاط شقيقه ويدعى هرمياس (Hermias) وزيرا أكبر ، كما عهد الى ابن عمه أخايوس (Achaeos) بادارة امور آسية الصغرى والعمل على استرداد الولايات السلوقية التي اغتصبها الامير البرجامي اتالوس ، في حين كلف احد قادتـه ويدعى مولـون (Molon) وشقيقه المدعو اسكندر بحكم مقاطعات ماوراء الدجلة وثبت القائد العجـوز ابيجنس على قيادة الجيش .

٢ ــ ثورة مولون والظروف المحيطة بها :

ولم يكن من شأن هذا التوزع الكبير في المسؤوليات ان يبعث على الولاء للاسرة المالكة ، وبعد ان جاهر بعض ولاة المقاطعات الشرقية باستخفافهم بالسلطة الملكية قام مولون باعلان ثورته (وملكيته فيما بعد) بمساندة شقيقه اسكندر ، في الوقت الذي أبرز الوزير هرمياس شكوكه تجاه اخايوس بعد نجاح الاخير في الحد من نفوذ اتالوس في آسية الصغرى وتدعيم شعبية الاسرة السلوقيـة هناك ممثلة في شخصه .

وكان على انطيوخس ان يحدد اولوية لمجابهة خطري اخايوس ومولون فدعا

مجلسه الحربي الى الاجتماع لبحث مشكلة الثورة في الشرق وتحديد مدى الخطر الذي يمثله اخايوس في آسية الصغرى واحتمال قيام تعاون بينه وبين بلاط الاسكندرية • واحتدمت خلال الاجتماع نقاشات مستفيضة حول رأي نادى به ابيجنس قائد الجيش بوجوب التحرك نحو الشرق مؤكدا أهمية ظهور الملك على رأس قواته في تلك الاقاليم ، ورأي آخر نادى به الوزير هرمياس مفاده توجيه حملة لاخماد الثورة دون تعريض حياة الملك للمخاطر وانتهاز فرصة وفاة بطلميوس الثالث لاستعادة جوف سورية من البطالمة وبذلك يفوّت على اخايوس فرصة قيام تعاون مثمر بينه وبين بلاط الاسكندرية • وبعد لأي قرر المجلس ارسال حملة لاخماد الثورة في الشرق بقيادة ضابطين يدعى احدهما اكسنون (Xenon) والاخر ثيودوتوس (Theodotos).

ولم يكتف هرمياس بتحقيق نصر على خصومه في مجلس انطيوخس الحربي وذلك بارغامهم على الموافقة على خطته القائلة بعدم مشاركة الملك في قمع حركات العصاة وان على الملك الا يقاتل الا ملوكا • بل عمل على تضخيم خطر اخايوس في آسية الصغرى وذلك عن طريق ابراز رسالة (ملفقة كما يعتقد الكثير من المؤرخين المعاصرين) من بلاط الاسكندرية الى اخايوس يستحثه فيها على اغتصاب العرش • ورغبة في تمتين اواصر الصداقة مع بعض القوى المحلية في آسية الصغرى وتحطيم شعبية اخايوس وتطويقه انتقى هرمياس لمليكه عروسا من بلاط كبادوكية (البونتية) وهي لاوديكي ابنة ميثريداتس الثاني • وبعد عقد الزواج في مدينة سلوقية على نهر الفرات (زيوجما Zeugma) عاد انطيوخس الى انطاكية وبدأ استعداداته لاستخلاص جوف سورية من البطالمة • ويبدو ان انطيوخس المتأثر بهرمياس قد اخطأ في تقديره قوة الثائر مولون الذي مكنته سيطرته على اقليم ميديه من تجنيد قوات عسكرية ضخمة ، وتأليب عدد من ولاة المقاطعات الشرقية ضد السلطة المركزية في انطاكية ، ولهذا لم يجرؤ القائدان اللذان ارسلهما انطيوخس على خوض معركة ضد مولون بل أقاما في استحكاماتهما خارج اقليم بابل عندما اتجه مولون نحوهما ، ولكن نجاح والي بابل الموالي لانطيوخس في

مصادرة كافة القوارب النهرية العاملـة هناك منعت مولـون من اجتياز النهر والانقضاض على سلوقية دجلة عاصمة الاقليم • فاقام في شتاء ذلك العام (٢٢١) في كتيسفون (Ktesephon = طيفسون) المركز العسكـري عـلى الضفـة المقابلة للمدينـة •

وردا على الاستغاثات التي أرسلها القائدان المتقوقعان في مراكزهما الـى انطاكية وبعد اكتمال الاستعدادات لغزو جوف سورية (صيف عام ٢٢١) أرسلت انطاكية قائدا يدعى اكسنويتاس (Xenoetas) على رأس قوات جديدة باتجـاه الشرق ، ومنحتـه صلاحيات دعوة جميع ولاة الشرق الى العمل تحت قيادته • وعند مدينـة سلوقية دجلة التقى اكسنويتاس بالولاة الموالين للشرعيـة فـي المقاطعات الشرقية مع قواتهم ، وسار الجميع حتى ضفة النهر الغربية المقابلـة لمواقع الثوار • واستمر الخصمان يرقبان بعضهما خلال النهر دون ان يجرؤ احدهما على اجتيازه ، وبعد مدة ليست بالطويلة اهتدى مولون الى مكيدة للايقـاع بخصمه اكسنويتاس ، وعندما أخلى مولون معسكره وتراجع شرقا ظن اكسنويتاس ان مولون قنع من الغنيمة بالاياب واغراه هذا العمل باجتياز النهر والاستيـلاء على معسكر خصمه بل والاحتفال بذلك ، وعندما عاد مولون ليلا سهل عليـه تحقيق نصر كامل على جيش معظمه من السكارى فر معظم قادته • وبذلك اصبحت سلوقية دجله العاصمة الشرقية للامبراطورية مدينة مفتوحة ولقمة سائغة فـي ايـدي الثوار •

وفي ذلك الوقت كان انطيوخس قد اجتاز الحد الفاصل بين ممتلكـاته وجوف سورية والذي يقع في اول القسم القاحل من سهل البقاع بعد بحيرة قطينة (بالقرب من حمص) وبعد احتلاله بعلبك وعند طريق دمشق بيروت الحالي ، وجد انطيوخس نفسه امام خط دفاعي منظم — مؤلف من مستنقعات وادي مارسواس (Marsyas) أو عميق وقب الياس الحالية وحصون جرها (Gerrha) (مجـدل عنجر) عند اول تلال لبنان الشرقية وبروخي (Brochi) (عين الباروكة والباروك) — يشرف عليه ضابط يدعى ثيودوتوس (Theodotos) • ولم يكد انطيوخس يضع الخطط لاجتياز هذا الخط الدفاعي حتى وردته الانباء عن هزيمة قواده في الشرق

وسقوط سلوقية دجلة ، وعندئذ ادرك انطيوخس ضرورة ايقاف الحملة ضـــد بطلميوس والعودة الى انطاكية لتدبير امور الشرق .

وعندما دعا انطيوخس مجلسه للاجتماع أصرهرمياس علىموقفه السابق، في حين أيدّ الجميع بما فيهم انطيوخس رأي القائد ابيجنس القاضي بوجوب توجـه الملك شخصيا على رأس قواته لاخضاع الثائر . ويبدو ان هرمياس ادرك متأخرا ان احتمالات القضاء على مولون بجيش يقوده الملك شخصيا اصبحت اكبر ، ولاحت له خيبة الامل التي سيمنى بها فيما لو نجح الملك في ذلـك ، وكـذلك الشعبية التي ستتكرس لصالح ابيجنس . ولذلك فقد اخذ يتحين فرصة مناسبة للايقاع بابيجنس ، وحانت فرصة هرمياس الذهبية عندما طالب جنود الحملـة الشرقية المجتمعين في قاعدة أفاميه العسكرية (في سهل الغاب) باستحقاقاتهـم والتي لم تستطع الخزانة الملكية الوفاء بها ، وكاد أن يحصل تمرد بين الجنـود لولا تدخل هرمياس الذي عرض على الملك أن يدفع استحقاقات الجنود من مالـه الخاص مقابل عدم اصطحاب ابيجنس في الحملة ، ولم يكن امام انطيوخس خيار آخر فوافق على عرض هرمياس واقال ابيجنس تمهيدا لاعدامه بعد ادانتـه بتهمة لفقها له هرمياس مفادها ان ابيجنس كان على صلة بالثائر مولون . وفـي نهاية عام ٢٢١ بدأ الجيش السوري زحفه شرقا وعبر الفرات الى ميسوبوتامية . ونتيجة لاشتداد البرد اضطر الجيش الى قضاء مـدة ستة من اسابيع الشتـاء القاسية في مكانه . وفي بداية ربيع عام (٢٢٠) تابع الجيش تقدمه نحو الدجلة وتوقف عند مكان يدعى ليبيا (Liba) (المكان غير معروف وان كان بعض مؤرخينا يرجحون كونه مقابل نينوى) ومن هذه النقطة كان يتفرع طريقان احدهما يساير النهر والاخر داخلي عبر النهر ، وقد تباينت الاراء دخل المجلس الحـربي الملكي حول أي الطريقين يسلكه الجيش ، وقد عرض هرمياس خطته القاضيـة بوجوب تتبع الطريق المساير للنهر ومحاولة تحقيق مفاجأة على قوات مولون مـن ناحية الشرق ، في حين اعترض ساتراب بابل والمدعو زيـوكسيس (Zeuxis) على خطة هرمياس ، ورفضها شكلا وموضوعا بعد ان ابان للملك خطورتها التـي تتلخص بجذب الجزء الجنوبي من منطقة مابين النهرين بحيث يستحيل على الجيش

الحصول على اية مؤونات طازجة ، اضافة الى وعورة مسالك بعض اجزائها وخطورة قنوات الري التي تحيط بمنطقة بابل في حالة سيطرة العدو على هذه القنوات • وأكد زيوكسيس على ضرورة اجتياز دجلة من اجل توفير المؤن الغذائية ومحاولة استمالة سكان مناطق شمال شرق الدجلة الذين اثبتت الاخبار الواردة تعاطفهم مع العرش السوري ، وقد اكد زيوكسيس للملك ـ وبمنطقية عسكرية معقولة ـ ان نجاح خطته سيؤدي بالتالي الى قطع خطوط مواصلات الثائر مولون عن مركز ثورته في مقاطعة ميدية • ورغم معارضة هرمياس لخطة زيوكسيس الا ان قناعة انطيوخس بصوابها وافضليتها على خطة هرمياس لم تدع مجالا لهرمياس للاستغراق في شرح أفضلية خطته ، وسرعان ماصدرت الاوامر الملكية باجتياز النهر فأذعن هرمياس على مضض • وبعد عبور الجيش نهر الدجلة على ثلاث دفعات تقدم جنوبا الى «بارابوتامية»وهي المنطقة التيتشكلاول مناطق امتداد ثورة مولون ، وكانت بعض كتائب مولون تحاصر احدى مدن المنطقة التي رفضت تأييد مولون في ثورته وتدعى دورا (Dura) وقد تمكن الجيش الملكي من فك الحصار عن المدينة بسهولة واقام فيها لمدة ثمانية ايام • وكان مولون في تلك الفترة يحاول جاهدا تركيز دفاعه ضد سحر قيادة الملك قواته شخصيا • وتروى مصادرناالقديمة ان مولون لم يكن بامكانه الاتكال علىاخلاص سكان المقاطعات التي غزاها سابقا والتي دانت له بالطاعة مكرهة ، ولا الوثوق بالاغريق الذين يشكلون معظم قواته • وعندما اتضحت امامه خطورة اتجاه الملك لقطع خطوط مواصلاته في ميدية ، اسرع باجتياز الدجلة مؤملا ايقاف تقدم الجيش الملكي في واحد من المصائق القاحلة في منطقة قريبة متكلا في محاولته هذه على اخلاص جنوده من مرتزقة الاكراد (Kurdish) الذين كانوا يخدمون في جيشه بصفتهم رماة •

وعندما التقى الجيشان وجها لوجه تمكن مولون من هزيمة الجناح الايسر للجيش الملكي الذي كان يقوده هرمياس وزيوكسيس ، في حين لم يتمكن اخاه المدعو نيولاوس (Neolaos) من الصمود امام هجمة الجناح الايمن للجيش الذي كان يقوده الملك شخصيا ، وعندما ادرك مولون عقم اية محاولة للدفاع اقدم وعدد من أخلص أتباعه على ارتكاب عملية انتحار جماعية ، في حين فرّ أخاه

نيولاوس الى مركز الثورة في ميديه حيث قام بالاجهاز على جميع افراد اسرة مولون خشية من وقوعهم في الاسر .

وبعد قيام انطيوخس بصلب جثة مولون ــ حسب الطريقة الفارسية في معاقبة الثوار ــ اوقع عقوبات صارمة ببعض العسكريين من اتباع مولون ، وعقد مصالحة مع بقيتهم ، واوكل الى هؤلاء قيادة قوات مولون باتجاه ميديه لاعادة تنظيم الولاية تحت اشرافه ، في حين تحرك هو بقواته نحو (سلوقية دجلة). وبدأ منذ ذلك الحين يتصرف بشكل مغاير لما يرتأيه وزيره المتعنت،وفي سلوقية دجلة اصدر انطيوخس اوامره بالغاء احكام الاعدام بالجملة التي حكم بها وزيره على انصار مولون ، كما انقص الغرامة التي فرضها هرمياس على المدينة نفسها من (١٠٠٠) تالانت الى مائة وخمسين ، وكافأ عددا كبيرا من اتباعه المخلصين ، وقام باعادة تنظيم المناصب الادارية والعسكرية في ميديه وبعض الساترابيات الاخرى .

ثانيا ــ الاحداث مابين حملتي الشرق الاولى والثانية :

١ ــ حملة الشرق الاولى :

ورأى انطيوخس بعد ذلك كله ضرورة تأكيد السيطرة الملكية على الاقاليم القاصية من الامبراطورية ، وعندما أصدر أوامره بالاعداد لهذه الحملة الشرقية عبر جبال زاجروس لمهاجمة والي مقاطعة ميديه الصغرى المدعو ارتابازانس (Artabazanes) الذي لم يعلن ولاءه ، عارض هرمياس كعادته هذه الفكرة متعللا بالسبب نفسه الذي طرحه قبل الزحف من العاصمة السورية .

ولكن عندما وصلت انباء من العاصمة السورية بأن الملكة قد وضعت ذكرا تغير موقف الوزير وأسهم بجهد محمود في عملية الاعداد للحملة . ويبدو ان فكرة موت الملك في هذه الحملة قد لمعت في ذهن الوزير الداهية ودارت في خلده احلام السيطرة على مقاليد الامور بحكم ماسيسند اليه من مناصب بما فيها منصب الوصاية على الملك الطفل في تلك الحالة . ولكن الرياح جرت عكس ماتوقعه الوزير ، اذ ان حجم وماهية الحملة التي قادها انطيوخس اقنعت الوالي غير الموالي ارتابازانس بصواب فكرة اعلان ولائه للملك وقبول شروطه .

ويبدو ان النجاح والهيبة التي اكتسبها انطيوخس بعد عودته الى سلوقية دجله للمرة الثانية قد ايقظت في نفسه الميل الى الوحدانية في الحكم وعدم الاعتماد على مستشارين يشكلون خطرا على سلطته ، ولم يعد انطيوخس يحتمل وصاية هرمياس الوقحة . ولاتعرف التهمة التي وجهها انطيوخس الى هرمياس عندما أمر باعدامه عام ٢٢٠ ، وهلل الجنود فرحة لمصرع هرمياس وعادوا مع مليكهم الى عاصمته انطاكية بعد وصول أنباء تفيد باستعداد اخايوس ابن عمه ونائبه في آسية الصغرى للتمرد على السلطة الملكية .

٢ ـ اخايوس يحاول اغتصاب السلطة :

ويعلل المؤرخون تحرك اخايوس (الذي استرد في حربه ضد اتالوس البرجامي معظم مافقده العرش السوري بعد الحرب السورية الثالثة) بالنشوة التي احدثتها انتصاراته في نفسه ، وبدلا من ان يتابع تضييق الخناق على امارة برجامة المعادية تخلى بدءا من عام (٢٢٠) عن وفائه لابن عمه ، واستغل فرصة انشغال انطيوخس بحملته الشرقية ، وخرج من سارديس (في آسية الصغرى) على رأس جيش كبير لتحقيق اطماعه في العرش السوري ، وفي طريقه باتجاه انطاكية ، وفي مدينة اللاذقية (في فروجيه) اعلن نفسه ملكا امام جنوده . ويبدو ان اخايوس لم يعتبر من الاخبار التي وردت عن ثورة مولون ولم يفطن الى ان معظم جنوده من العناصر الاغريقية المقدونية بخاصة سيمتنعون كما امتنع جنود مولون عن مجابهة الملك الشرعي انطيوخس ، ولم يستطع اخايوس بعد تقدمه باتجاه طوروس ان يستعيد ثقة جنوده الذين اعلنوا سخطهم الا عندما صرح لهم انه في سبيله الى اخضاع القبائل التي اعلنت خروجها عن السلطة المركزية منذ فاتحة صدام اخايوس مع اتالوس البرجامي . وعندما انصرف اخايوس فعلا الى مهاجمة القبائل هذه في لوديه اتاح المجال امام اتالوس البرجامي لاستعادة معظم ما استرده اخايوس سابقا ، ورغم استياء انطيوخس من ابن عمه الا انه رأى من الحكمة الا يتعرض لهذا الخصم الذي كان بطلميوس مصر يحاول استمالته الى جانبه ، مقدرا أن قوة اتالوس واخلاص جنود اخايوس للعرش السوري سوف يكبحان اية محاولة للخروج على السلطة المركزية مرة اخرى .

٣ ـ الحرب السورية الرابعة :

ويخبرنا بوليبيوس عن عزم انطيوخس بعد عودته الى انطاكية على الاسراع باستخلاص جوف سورية من البطالمة مستغلا فرصة وفاة بطلميوس الثالث وتسلم ابنه العابث بطلميوس الرابع زمام الامور ، ولذلك فقد عقد مجلسا حربيا بعد عودته المظفرة من الشرق للتشاور فيما يمكن عمله ، ووافق المجلس بالاجماع على فكرة الملك وكذلك على اشارة طبيب الملك المدعو ابولوفانس (Apolliophanes) بضرورة تحرير سلوقية (على نهر العاصي) التي كانت ترزح تحت وطأة الحكم البطلمي منذ الحرب السورية الثانية (٢٤٦ ــ ٢٤٥) ، وصدرت الاوامر الى قائد الاسطول السوري بمحاصرة سلوقية بحرا ، وقام انطيوخس بحصارها برا في حين تقدمت قوة سورية عسكرية أخرى للتمهيد لغزو جوف سورية .

ويبدو أن الظروف كانت تمهد لانطيوخس مسيرته الظافرة ، اذ ساعد انصراف بطلميوس الرابع العابث عن مهام الدولة ، وانهماك وزيره في مؤامراته لدعم مركزه وتحطيم معارضيه على تحرير سلوقية (على نهر العاصي) بعد مقاومة طفيفة في عام ٢١٩ . وكان ثيودوتوس الحاكم البطلمي لمنطقة البقاع ــ الذي تمكن عام ٢٢١ من صد اولى هجمات انطيوخس قبل قيامه بالتوجه شرقا والقضاء على مولون ــ قد أحس بتنكر بلاط الاسكندرية له ولخدماته . وهذا ماتوحي لنا به الرسالة التي ارسلها ثيودوتوس الى انطيوخس يلتمس فيها الدخول في طاعته ويعرب له عن استعداده لتسليم البقاع . ولم يكذب انطيوخس خبرا إذ خف على رأس قواته واحتل بمساعدة ثيودوتوس معظم حصون البقاع ، ولم يعبأ بامتناع بعضها بل تابع تقدمه في فلسطين بعد احتلاله صور وعكا ، وكان بطلميوس قد علم بانقلاب ثيودوتوس فأصدر أمرا بعزله وتعيين القائد نيكولاوس (Nikolaos) بدلا عنه بعد تجهيزه بقوات اضافية . وعندما وصل هذا القائد الى بلدة دورا (Dora) في فلسطين ادرك ضعفه واستحالة تحقيق أي نصر في معركة حاسمة ضد انطيوخس . لذلك فقد صمد في مواقعه وساهم في ترويج شائعة مفادها أن الجيش البطلمي كان متجمعا بكامل قواته عند بلوزيون وان بامكان انطيوخس الحصول على جوف سورية عن طريق المفاوضات السلمية . ولما كان الشتاء قد اقترب بشكل يتعذر معه

الاستمرار في العمليات الحربية ، ووصول انباء تفيد بتعاظم نشاط ابن عم الملك اخايوس في آسية الصغرى ، فقد قبل انطيوخس بهدنة الاربعة شهور التي عرضها بطلميوس وعاد الى عاصمته في انتظار المفاوضات المزعومة •

وحقيقة الامر انه عندما بدأ انطيوخس زحفه لم يكن الجيش البطلمي مستعدا للقائه ، واتضح امام البلاط البطلمي مدى تصميم انطيوخس على حسم موضوع جوف سورية لصالحه رغم غموض موقف ابن عمه اخايوس في آسية الصغرى • ولذلك لم يكن أمام بلاط الاسكندرية سوى نشر الاشاعات عن مدى استعداد الجيش البطلمي وتضخيم خطر أخايوس في الشمال والتلويح بامكانية حسم الصراع عن طريق المفاوضات ، في محاولة لكسب الوقت والاسراع في تجهيز جيش جديد يقوم على تدريبه أفضل الضباط المرتزقة من الذين تستطيع النقود ابتياع خدماتهم •

وفي شتاء عام ٢١٩ ــ ٢١٨ أمّت انطاكية عدد من الوفود المصرية المفاوضة والتي كانت تبغي اطالة أمد المفاوضات ريثما يكمل الجيش البطلمي استعداداته ، وفي اثناء المفاوضات تمسك انطيوخس بحق اسرته فيحكم جوف سورية في حين شددت الوفود البطلمية على مفعول مرور الزمن وان العرش البطلمي لم ينقطع عن حكم هذا الجوف منذ اثنين وثمانين عاما ، وعندما تناهى الىسمع اخر وفد مفاوض أن الجيش البطلمي اكمل استعداداته اثار مشكلة اخايوس وان شروط الصلح يجب ان تتضمن مصلحته في آسية الصغرى • وعندها ادرك انطيوخس عبث الاستمرار في المفاوضات فقطعها واستدعى في ربيع عام ٢٨١ قواته لاستكمال تحرير جوف سورية بغزوها من البر والبحر •

وعندما ابحر الاسطول السوري جنوبا باتجاه الشواطىء المصرية انطلق انطيوخس بجيشه من سلوقية على نهر العاصي الى ماراثوس = (عمريت) ومنها الى كالاموس (Kalamos = القلمون) حيث احرقها بعد امتناع حاميتها ، ثم احتل بورتوس (Bortys البترون) وبيروت ، وعند نهر الداموروس ــ (الدامور) التقى انطيوخس باسطوله في حين كان القائد البطلمي نيكولاوس يحصن قواته عند ممر بلاتانوس (Platanos) شمالي صيدا بمساعدة قوة بحرية مؤلفة من

ثلاثين سفينة حربية وعدد كبير من سفن التموين • وتمكن انطيوخس بعد مناوشات سريعة من اكراه نيكولاوس وأسطوله على خوض معركة برية وبحرية ادت الى استيلاء انطيوخس على الممر الاستراتيجي وتراجع القوات البطلمية والاحتماء داخل أسوار صيدا •

ولم يضع الملك المنتصر وقته في محاولة حصار صيدا لمناعة اسوارها ، بل امر اسطوله بالتقدم باتجاه صور ، ويمم وجهه باتجاه فلسطين مارا بصفد ،فاستولى على فيلوتريه (Philoteria) على الضفة الغربية لبحيرة طبرية ثم على سكوثوبوليس (Skythopolis) وعلى بيسان وأتابوريون (Atabyrion) على جبل طابور • ولم يمض وقت طويل حتى ادرك حكام طبرية وكورة عجلون وجرش وغيرهم استحالة المقاومة فأعلنوا استسلامهم • وكان لاستسلام جرش – وكانت تعتبر من امنع الحصون البطلمية شرقي الاردن – اثر عظيم على حسم تردد سكان الصحراء من العرب الذين اعربوا عن تأييدهم انطيوخس فجيّش منهم حوالي عشرة الاف مقاتل بقيادة زبدى بعل (Zabdibelos) • ولما علمت السلطات البطلمية في فيلادلفيه (Philadelphia = عمان) بخروج هذه القبائل على طاعتها ارسلت بعض الكتائب لمعاقبتها ، فرد انطيوخس على هذا العمل بمهاجمة عمان نفسها وتمكن من الاستيلاء عليها بعد مقاومة يائسة • ومنها وجه انطيوخس خمسة الاف من مشاته لتأمين خضوع السامرة في حين عاد مع معظم جيشه الى بتولمايس (Ptolemais = عكا) لقضاء فصل الشتاء ، في الوقت الذي كان فيه تدريب القوات البطلمية قائم على قدم وساق •

ويبدو أن الاخبار من آسية الصغرى التي أكدت لانطيوخس سيطرته على الموقف هناك ، أتاحت له المجال لاستئناف القتال في ربيع عام ٢١٧ في محاولة لاكراه بطلميوس الرابع على الاعتراف بسيادته على جوف سورية • وعندما تحرك انطيوخس من عكا كان جيشه يتألف من اثنين وستين ألفا من المشاة وستة آلاف من الفرسان وعشرة آلاف من الاعراب ، بالاضافة الى مئة واثنين من الفيلة الهندية وهي أقوى من الفيلة الافريقية التي كان يستخدمها البطالمة • في حين كان الجيش البطلمي يتألف من خمسين ألفا من المشاة وخمسة آلاف فارس وثلاثة وسبعين فيلا أفريقيا • واذا كان الجيش السوري يمتاز بمهارته في الحروب وترفع من معنوياته

الانتصارات التي حققها آنفا ، فان الجيش البطلمي كان قد أعـد إعداداً ممتازا بعث الثقة في نفوس قواده لدرجة أنهم لم يقنعوا كما فعل من سبقهم من فراعنة وملوك مصر بالدفاع عن خط النيل الشرقي الذي فشل أمامه كثير من الغزاة بـل خاطروا بالتقدم عبر الصحراء وباطالة خطوط تموينهم لملاقاة الجيش السوري •

وفي منتصف حزيران من السنة نفسها كان انطيوخس قد تخطى رفح (Raphia) (أكبر مدن فلسطين الجنوبية) باتجاه معسكرات الجيش البطلمي على بعد تسعـة كيلو مترات جنوبي المدينة • وفي الثاني والعشرين من الشهر نفسه التقى الجيشان وكان فيلق كل منهما في القلب يحيط به من الجانبين بقية المشاة الآخرين ويحيط الفرسان بالمشاة في الجناحين•وكان بطلميوس يقود الجناح الايسر وقد اصطف أمامه أربعون فيلا ، في حين كان انطيوخس يقود الجناح الايمن لقواته وأمامه ستون من الفيلة • وتـذكر المصادر الادبية القديمة انـه عنـدما صدرت الاوامر ببـدء القتال تمكن الجناح البطلمي الايمن من هزيمة جناح انطيوخس الايسر ، في حـين لم تستطع الفيلة البطلمية من الصمود أمـام هجوم الفيلة السورية ، فولت مدبرة وداست بتراجعها عددا كبيرا من الجنود ، فاستغل انطيوخس نجـاح فيلته واطبق بفرسانه من المرتزقة الاغريق على ما تبقى من الجناح البطلمي الايسر وأجهزوا عليه ، وكان باستطاعته بكل تأكيد تحقيق نصر حاسم فيما لو تابع تطويق قلب العدو ثـم ميمنته ، إلا ان حميته بعد تحطيم الجناح البطلمي المعادي الذي كان يقوده بطلميوس شخصيا دفعته الى الابتعاد أكثر مما يجب في مطاردة الهاربين ، وترك قلب جيشه وميسرته المؤلف من اللوديين والعرب والميديين والآسيويين الآخرين دون قيـادة حكيمة ، وقد تمكن بطلميوس في أثنـاء مطاردة انطيوخس لفرسان الاول مـن استخلاص نفسه من قيادة الجناح الايسر الفار والتقدم لقيادة قلب جيشه الذي لـم يكن قد اشترك بعد في منازلة قلب جيش انطيوخس • وعندما التقى قلبا الجيشين وجناحاهما مكشوفين تميز جيش بطلميوس بوجود قائده على رأسه ، ولم يستطع قلب جيش انطيوخس ان يصمد أمام قلب الجيش المعادي • وعندما عاد انطيوخس من مطاردة الجناح البطلمي الايسر لم يتمكن أكثر من لمّ شعث جيشه والتراجع به نحو رفح بعد أن خسر عشرة آلاف من المشاة وثلاثمئة فارس واربعة آلاف أسير

في حين خسر بطلميوس ألفا وسبعمئه من المشاة وسبعمئة مـن الفرسان وجميـع فيلته • وقد أسرع انطيوخس بعد وصوله الى رفح باتجاه انطاكية خشية ان يستثمر ابن عمه اخايوس في آسية الصغرى نتائج المعركة لصالحه • وازاء مخاطر عـداء الشمال والجنوب له اضطر انطيوخس الى ايفاد أحـد اقربائه ويدعى انتيباتروس (Antipatros) لمفاوضة بطلميوس في عقد الصلح لمـدة سنة واحدة ، فوافـق بطلميوس وأوفد وزيره سوسيبيوس الى انطاكية لابرام المعاهدة التي نصت عـلى تنازل انطيوخس عـن حقوقه في سوريـة المجوفة واحتفاظه بسلوقية على نهـر العاصـي •

٤ ــ القضاء على أخايوس :

ولم يكن الفشل الذي أصابه انطيوخس في معركة رفح ليثني ملكا مثله عن خطته الرامية الى اعادة بناء امبراطورية أجداده ، بل دفعه بحماس أكبر وسرعة أكثر نحو هذا الهدف ، ولذلك فانه ما ان ضمد جراحه وأعاد تشكيل وتدريب قواته حتى بادر الى تسوية علاقاته مع اتالوس ملك برجامه والعدو الطبيعي للبلاط السوري وتحييده قدر الامكان في صراعه ضد اخايوس ، الذي تعاظم خطره بشكل مريع يهدد بقاء امبراطورية انطيوخس ، ولا يعرف الكثير عن سير حوادث الحرب بين الملك وابن عمه باستثناء ما استخلصه بعض مؤرخينا من المصادر القديمة والغامضةمن أن الحرب استمرت في الفترة ما بين ٢١٦ ــ ٢١٥ وأن انطيوخس نجح في اكراه أخايوس على الفرار ومطاردته ، وان نجدة البلاط البطلمي المؤلفة من عدد من الجنود المرتزقة لم تفلح في رفع حصار انطيوخس عن سارديس عاصمة أخايوس التـي سقطت في عـام ٢١٤ •

وقام أحـد الضباط الذين كلفوا بتدبير وسـيلة لهروب أخايوس بتسليمه لانطيوخس الذي أمر أن تنفذ في ابن عمه العادة المحلية المتبعة في معاقبة الخارجين عن القانون ، فقطعت أطرافه ورأسه التي خيطت الى جلد حمار ثم صلب جسده في مكان عام (عام ٢١٣) • وهكذا تخلص انطيوخس من متاعب ابن عمه واسترد معظم ممتلكات اسلافه في آسية الصغرى ومنح بعضها وبخاصة المناطق الساحلية الغربية الى أتالوس البرجامي تنفيذا للاتفاق الذي أجراه معه قبل القضاء على أخايوس •

٥ ـ حملة الشرق الثانية :

ويبدو أن فشل انطيوخس السابق في رفح لـم يؤد فقط الى تعاظم خطـر أخايوس بل تعداه الى تكريس قناعة بعض ولاة الامبراطورية في أقاصي الشرق بالاستخفاف بالسلطة الملكية الى حد مناداة بعضهم بالاستقلال عنها • ولا شك ان انطيوخس كان يقدر خطر ظهور مثل هذه المشاعر في أقاصي الامبراطورية الشرقية إلا أنه فضل الانتظار ريثما يدفع عن حدوده خطرا قريبا • وهذا ما يؤكده لنا اتجاه انطيوخس في العام الذي تلى القضاء على اخايوس (٢١٢) باتجاه ولاياته الشرقية في أواسط آسية عن طريق آسية الصغرى • وكان الوضع في آسية الصغرى يسير بمعظمه في صالح العرش السوري ، فقد كـان ملكا كبدوكيه البونتيه وكبدوكيه الجنوبية حليفين بموجب معاهدات صداقة ومصاهرة ، كما كان ملك بيثونيه ملزما بالتقرب نحو العرش السوري بدافع خوفه من أتالوس البرجامي• بيد أن اكسركسس (Xerxes) ملك ارمينية كان قد امتنع منذ مدة عن دفع الجزية المفروضة مؤملا الافادة من النزاع القائم بين انطيوخس مـن جهة وبطلميوس وأتالوس مـن جهة أخرى ، ولكن الهدنة مع بطلميوس والقضاء على أخايوس والمعاهدة مع أتالوس حطمت آمال اكسركسس لدرجة أنه ما ان سمع باتجاه الجيش السوري نحوه حتى فتح أبواب عاصمته ارساموساتا (Arsamosata) وأكرم وفادة انطيوخس وسلمه كافة أموال الجزية المتأخرة والتي بلغت (٣٠٠) تالانت وهدية مؤلفة من ألف رأس من الخيل وألف آخر من البغال ، فقابله انطيوخس بأن عرض عليه يد أخته انطيوخيس (Antiochis) لتوطيد أواصر الصداقـة والتعاون ، فوافق اكسركسس وعـاد انطيوخس بعد عقد القران الى انطاكية للاستعداد لحملة الشرق الكبرى •

وفي عام ٢١٠ عبر انطيوخس بجيشه الفرات ، وفي صيف عام ٢٠٩ وصـل الى ميديـه (وهـي ولايـة خاضعـة) وفيهـا ضرب نقـودا ذهبيـة باسمه تقدر قيمتها بأربعة آلاف تالانت من الذهب كانت آخر قسم مـن الكنوز الفارسية التي استولى عليها الاسكندر فيما سبق • وفي تلك الاثناء كان ارساكس (Arsakes) الثالث ملك بارثيه قد ارتقى العرش لتوه • ولـم يكن يتصور ان انطيوخس سيغامر بالاتجاه نحو ولايته بعد خروجه من ميديه (لبعد المسافة عنها) ،

وعندما تأكد من وجهة انطيوخس أخلى عاصمته هكاتومبولوس والتجأ الى جبال هوركانيه بالقرب من الزاوية الجنوبية الشرقية لبحر قزوين • وقرر انطيوخس بعد استراحة في العاصمة البارثيه المخلية اجتياز الصحراء المالحة وتعقب ارساكس رغم نصيحة عدد كبير من الوطنيين المحليين له بالعدول عن ذلك ، وبعدمشاق مذهلة في اجتياز الصحراء تمكن انطيوخس من اكراه ارساكس على طلب الصلح والتعهد بتأدية الذمم المستحقة نحو الخزانة الملكية وعقد معاهدة صداقة حوالي عام ٢٠٩/٢٠٨ •

وفي العام التالي تحرك انطيوخس باتجاه باكتريه ، وكان ملكها يوثوديموس قد سمع بأخبار انتصارات انطيوخس غير أنه لم يتعظ بعقم المقاومة معتمدا على وفرة وبراعة خيالته من الباكتريين (وكانوا أفضل فرسان العصر) وعددهم يقارب العشرة آلاف • ويبدو أن انطيوخس قد أدرك قوة سلاح خصمه وتميزه ، فاستخدم سلاح الليل لصالحه وقاد شخصيا عددا من أخلص وأكفأ خيالته في هجوم مفاجيء بدد بنتيجتها عددا كبيرا من الفرسان الباكتريين وأسر بعضهم وفرّ بعضهم الآخر نحو معسكر مليكهم في باكترا (بلخ) ، ورغم ان الملك فقد بنتيجة هذا الهجوم حصانه وعددا من أسنانه ، إلا أنه تابع طريقة بسرعه وضرب حصارا على بلخ كان شديدا لدرجة أقنعت يوثوديموس بصواب فكرة التفاهم مع انطيوخس فعرض عليه صلحا تعهد بموجبه بأمداد انطيوخس بفيلة حربية ومؤونات طازجة و الاعتراف بسيادة انطيوخس لقاء السماح له بحمل اللقب الملكي ، وقد وافق انطيوخس على هذا العرض ووعد يوثوديموس بتزويج ابنه دمتريوس من احدى بناته •

ومن باكتريه استأنف انطيوخس سيره المظفر جنوبا حتى حوض نهر السند ، وكان اسوكا (Asoka) حفيد تشاندرا جوبتا في الهند قد توفي لتوه ، ونشأت سلسلة من النزاعات الاسرية كان أقوى مرشح الخلافة فيها قائد يدعى سوفاجاسنوس (Sophagasenos) ، ولم يكن انطيوخس والحالة هذه بحاجة الا الى تأييد احد المتنافسين على العرش الهندي ليظفر بولائه ، وهذا ما فعله حين قام بتأييد سوفاجاسنوس وتثبيته ومنحه صلاحيات واسعة مقابل تزويد انطيوخس بعدد من الفيلة ومبلغ كبير من المال والاعتراف بسيادة التاج السوري ، وبعد ذلك اتجه انطيوخس غربا نحو عاصمته الشرقية سلوقية على نهر الدجلة ، فوصلها في

العام ٢٠٥ واتخذ منذ هذا التاريخ لقب الملك الاكبر اسوة بملوك الفرس القدماء وبدأت المصادر الاغريقية تدعوه «انطيوخس الاكبر» أو «انطيوخس العظيم» • ومثلما فكر الاسكندر بعد اتمام غزوه للامبراطورية الفارسية ، فقد فكر انطيوخس العظيم في ضرورة ضمان ولاء القبائل التي كانت تمارس بنجاح التجارة مع الهند وبخاصة الاجزاء الجنوبية منها • وكان الطريق البري للتجارة الهندية يقع تحت سيطرة دولة عربية تقع على الساحل الغربي للخليج العربي تدعى جرها (Gerrha) وهو على اسم عاصمتها ، وكانت هذه الدولة صغيرة من حيث الحجم وقلة عدد السكان إلا أنها كانت منظمة بشكل جيد ولها علاقات تجارية واسعة مع البتراء عاصمة الانباط ومكة والمدينة وكذلك اليمن وبابل وجنوب سورية ، لذلك فقد عقد انطيوخس العزم على مهاجمة هؤلاء ، وأبحر من الدجلة الى الخليج العربي ، ولكنه لم يكد يصل الى سواحل تولوس (Tylos = البحرين) حتى وصلته رسالة من شيوخ الجرهائيين يذكرونه فيها بعلاقاتهم الطيبة مع العرش السوري في عهد سلوقس الاول وخلفائه ويعلنون ولاءهم واستعدادهم لتقديم كل ما يطلبه منهم • وأرسلوا بالفعل كمية من الفضة وأخرى من المنتجات الهندية من التوابل فعاد انطيوخس الى سلوقية دجلة بعد قيامه بزيارة سريعة الى جزر البحرين وتقديم أهلها له هدية من اللؤلؤ •

ثالثا ــ بداية النهاية :

١ ــ الحرب السورية الخامسة :

وبعد وصول انطيوخس الى عاصمته الغربية انطاكية على نهر العاصي ، أخذ يتأهب للثأر لفشله في معركة رفح واسترداد ممتلكاته في سورية وآسية الصغرى وتراقيه في أقرب فرصة ، فقد أعاد بحملته الشرقية التي تستحق الاعجاب وحدة الامبراطورية على أساس متين وأظهر قوته أمام ولاته الآسيويين وأمام العالم أجمع ، واكتسب مكانة رفيعة لدرجة أصبح معها حديث الساعة في دولته وفي الخارج •

ويبدو أن الظروف الدولية كانت تمهد لانطيوخس تحقيق هدفه في تحرير ممتلكات أسلافه • فقد سيطر الخمول على السياسة المصرية بعد معركة رفح ، فاكتفى بطلميوس الرابع بما توصل اليه من أمجاد حربية بعد تلك المعركة وأسند الى

وزيره سوسيبيوس وأعوانه تصريف شؤون الدولة وانصرف ملك البلاد الى حياة الدعة والمجون حتى مماته عام (٢٠٣) ، وزاد الطين بله حينما آل عرشه الى ابنه بطلميوس الخامس وكان طفلا في السادسة من عمره واغتصب الوصاية عليه سوسيبيوس وعصابته ، فانحدروا بالمملكة الى حالة من الضعف والمهانة لم تصل إليها من قبل • وهكذا فقد نشطت في العالم الهلنستي ثلاث قوى هامة هي روما وسورية ومقدونية ، وبدا أنه لامفر من انهيار التوازن الدولي الذي قام في منتصف القرن الثالث • وكنتيجة حتمية لضعف مصر السياسي فقد بدأت تتقرب الى فيليب ملك مقدونية وكذلك الى روما الدولة الناشئة في غرب البحر المتوسط وبخاصة بعد انتصار الاخيرة على قرطاجة في معركة « زاما » عام (٢٠٢) • ويبدو أن مصر كانت ترغب من تقربها أن تنتصر لها مقدونية أو روما في صراعها المتوقع ضد انطيوخس ، ولكن هذا التقرب وبخاصة من روما لم يتجاوز حد العلاقات التجارية وتبادل المجاملات في حين لم يكن فيليب المقدوني على مستوى الثقة التي أولاه اياها العرش البطلمي رغم محاولة خطبة ولي العهد البطلمي إحدى كريماته ، فقد كان فيليب ملكا طموحا يحاول جاهدا التوسع على حساب ممتلكات جيرانه •• ورغم انه لم يكن على علاقات جيدة بأنطيوخس إلا أنه التقى معه في هدف اقتسام ممتلكات مصر الخارجية وبخاصة بعد احتدام الصراع بين وصي العرش البطلمي سوسيبيوس وبين بعض أعوانه وبروز وصي جديد يدعى اجاثوكلس (Agathokles) .

ويبدو أن بنود الاتفاق السري الذي عقده انطيوخس مع فيليب المقدوني لاقتسام الممتلكات المصرية لم تكن واضحة تماما ، وبات كل منهما يمني النفس بفرصة مناسبة للانقضاض على غنائم شريكه ، وفي حين لم يكن انطيوخس بحاجة الى تغليف نواياه فكشف القناع عنها ، تمسك فيليب بقناعه وحاول قدر الامكان الظهور أمام العرش البطلمي بمظهر المدافع عن ممتلكات مصر الخارجية • ويبدو أن فيليب قد لعب هذا الدور المزدوج ليتفادى الاشتباك مع انطيوخس ، وليتسنى له خلال الصراع المتوقع بين أنطيوخس والعرش البطلمي أن يغزو الاقاليم التي يرغب في ضمها اليه تحت ستار حمايتها من انطيوخس ، وبموجب أحد بنود الاتفاق السابق الذي أطلق يد فيليب في الممتلكات المصرية في بحر ايجة قرر فيليب مهاجمة هذه الممتلكات وبدأ بمهاجمة بعض المدن الاغريقية الحرة في بحر ايجة •

وفي الوقت نفسه هب انطيوخس مستغلا الاضطرابات والمنازعات بين أوصياء العرش البطلمي ينفذ ما اتفق عليه مع فيليب ، وجرد حملة في عام ٢٠١ احتل بموجبها معظم مدن جوف سورية • وفي هذا الظرف الحرج وفد على الاسكندرية وفد روماني غايته الظاهرة اعلان انتصار روما على قرطاجة ، والباطنة اظهار تأييد روما للعرش البطلمي • وأدرك انطيوخس مغزى هذه الزيارة ، فاتجه في عام ١٩٩ بجيشه شطر آسية الصغرى لمعاونة حليفه فيليب المقدوني في حربه ضد برجامه ، مما أغرى سكوباس (Skopos) (**الوصي الجديد على العرش البطلمي بعد** اجاثوكلس)بتجريد حملة تمكنت من طرد الحاميات السورية من فلسطين • وعندما سمع انطيوخس بما قام به سكوباس وقرر الرد على هذا العمل فورا وردت الى انطيوخس رسالة من روما تطلب اليه فيها مراعاة صوالح حليفها اتالوس البرجامي ، ولما لم يكن انطيوخس يثق كثيرا بحليفه فيليب اضافة الى رغبته في تحييد روما في حرب استرداد جوف سورية من البطالمة وأولوية هذه الحرب في مخططاته ، فقد سارع عام (١٩٨) الى عبور طوروس ومنها الى افاميا فبانيون (Panion) التي (التي يعتقد انها بانياس في البقاع عند منبع نهر الاردن) حيث أنزل بالجيش البطلمي هزيمة كاملة تمكن بنتيجتها من تحرير كافة جوف سورية من النفوذ البطلمي الى غير عودة • وكان انطيوخس في مركز عسكري وسياسي يسمح له بغزو مصر نفسها لكن التطورات الدولية بين روما ومقدونية لم تمكنه من ذلك •

٢ ـ الصدام مع روما :

وكانت روما قد اختلفت مع فيليب المقدوني حول السيطرة على بعض مناطق بلاد اليونان الشمالية الغربية ، وقد أدى هذا الخلاف الى احتلال روما بعض هذه المناطق وقيام فيليب بعقد معاهدة تحالف مع هانيبال عام (٢١٥) آملا في أن يساعد على انتصار هانيبال ويفوز على الاقل بطرد الرومان من شبه الجزيرة اليونانية •

ويبدو أن روما قد أحست بخطر هذا التحالف فعملت على توجيه انظار فيليب نحو الشرق وتحييده في الصراع بينها وبين قرطاجة في غربي المتوسط ، ولا شك ان فيليب قد ادرك خطر الصدام مع روما وأغراه الفراغ السياسي في شرق البحر المتوسط في تلك الآونة،ولذلك فقد عقد معروما في عام (٢٠٥) معاهدة فوينيكي

(Phoeniki) التي أتاحت له قدرا معينا من حرية العمل في الشرق تكفي لتحقيق أطماعـــه ٠

ولم تكد روما تحقق نصرا على غريمتها قرطاجة حتى تنكرت كعادتها لبنود المعاهدة التي عقدتها مـــع فيليب وطفقت تبحث عن سبب لاعـــلان الحرب عليه ، واستغلت دعوة أرسلتها رودوس وبرجامه (حليفتا روما في تلك المرحلة) لمجابهة خطر فيليب وأرسلت جيشا واسطولا حققا على فيليب نصرا ساحقا في معركـــة كونوس كيفالاي (Kynos Kephalae) في تساليه عام ١٩٧ ، وأرغمته على التوقيع على معاهدة حولته بنودها الى تابع صغير لروما في بلاد اليونان ٠ ورأى أنطيوخس الثالث في الحرب بين فيليب وروما فرصة سانحة لاسترداد ممتلكاته الوراثية في آسية الصغرى وتراقيه ، وكذلك فرصة لمساعدة فيليب وذلك عن طريق بعثـــرة الجهود السياسية والعسكرية الرومانية التي ستحاول الانتصار حتما لبعض المدن المستقلة التي يزمع انطيوخس مهاجمتها أو التعرض لها ٠ وفي حين كان سفـــراء انطيوخس يؤكدون لروما صداقة مليكهم كان انطيوخس يجدّ خلال شتاء عـــام ١٩٨/١٠٧ في اعداد حملة كبيرة ، وفي العام التالي كان قد استولى على الممتلكات البطلمية في كيليكية ولوكيه وكاريه ، وعندما كان يحاصر احدى مـــدن مقاطعـــة بامفوليه (جنوب آسية الصغرى) أدركت روما خطر هذا الزحف وخشيت مـــن قيام انطيوخس بمدّ يد المساعدة الى فيليب ٠ ونظرا لصعوبة الحرب على جبهتين مقدونية وسورية ؛ فقد أوعزت روما الى حليفتها رودوس أن توفد وفدا يطلب الى انطيوخس احترام حرية المدن الاغريقية واستقلالها ، ولما كانت رودوس تقدر ضخامة مصالحها في امبراطورية انطيوخس ، وكان انطيوخس بالتالي لا يرغب في تفتيت قواه والاشتباك مع رودوس لعلمه اليقين بأن أساطيل روما وبرجامه ستعضدها دون شك ، فقد دخل الطرفان في مفاوضات مسهبة حول أحقية أنطيوخس في امتلاك هذه المقاطعات أو عدمه ، وفي أثناء المفاوضات وصلت أنباء عن هزيمة فيليب ، ولم ترى رودوس عندئذ داعيا للوقوف في وجـــه انطيوخس ، في الوقت الذي رأى فيـــه انطيوخس ان من الحكمة ان يستبقي صداقة هذه الجزيرة (ذات النفوذ الاقتصادي الهام في شرق البحر المتوسط) ، فاتفق معها على ان يحترم حرية الممتلكات القارية

لرودوس وبرجامه ، مقابل ان تتعهد رودوس بدعمه سياسيا لاسترداد ممتلكاته ، وقبل أن يجف مداد الاتفاق كان أنطيوخس قد احتل افسوس وحاصر أزمير ولامبساكوس اللتين استنجدتا بروما . وقبل حلول شتاء عام ١٩٦ كان في أقصى شمال الساحل الغربي لآسية الصغرى واستولى على بعض ممتلكات حليفه فيليب ، وفي صيف العام نفسه عبر انطيوخس الهلسبوت واستولى على اقليم تراقيه بأكمله ، وبذلك حقق حلمه الكبير باسترداد آخر الاجزاء المفقودة من امبراطورية أجداده . بأسرع وقت ممكن . وكانت روما بعد انتصارها على فيليب قد اعلنت حرية بلاد اليونان ، وقرر مجلس الشيوخ (السناتو) الروماني وجوب التصدي لهذا الخطر بأسرع وقت ممكن . وكانت بعد انتصارها على فيليب قد أعلنت حرية بلاد الاغريق أثناء الاحتفال بالالعاب (النيمية) عام ١٩٦ ، ولذلك فقد استغلت طلب النجدة الذي أرسلته لها بعض المدن الاغريقية في آسية الصغرى ووجهت انذارا الى انطيوخس طالبة اليه « التخلي عن المقاطعات التي كانت تحت سيطرة بطلميوس وفيليب والابتعاد عن المدن الاغريقية المستقلة » .

وعندما التقى وفد روما بأنطيوخس في مدينة لوسيماخيه (في تراقيه على الساحل الغربي للبوسفور) لسماع رده على المطالب الرومانية ، أبلغ انطيوخس رئيس الوفد لوكيوس كورنليوس لنتولوس انه لا يسمح لروما بالتدخل في شؤون آسية لانه لم يسمح لنفسه بالتدخل في شؤون ايطالية ، وانه اذا كانت المدن الاغريقية في آسية تود استعادة حريتها فعليها ان تلجأ الى سخاء وعطف انطيوخس وألا تعتمد على تدخل الرومان ، وان فتوحاته في أوربة ليست الا استردادا لممتلكات أجداده ، وان خلافاته مع ملك مصر بطلميوس الخامس هي في طريق التسوية بعد عقد زواج ملك مصر على واحدة من بناته . وفي أثناء المفاوضات تناهى الى سمع المتفاوضين نبأ كاذب فحواه ان بطلميوس قد توفي أثناء الاضطرابات التي جرت في الاسكندرية بين رجال البلاط ومؤيديهم ، فقطع انطيوخس المفاوضات وأبحر باتجاه مصر معللا النفس بأن يعوض بما خسره من أوربة بالممتلكات المصرية ان لم تكن مصر ذاتها ، وفي الطريق علم انطيوخس بكذب النبأ فتحول الى سلوقية على نهر العاصي .

ولما لم يكن في نية انطيوخس الامتثال لرغبات روما فقد قرر بعد عودته الى

انطاكية تقوية نفسه وذلك عن طريق تمتين جبهته وكسب ود كافة جيرانه ، لذلك فقد قام في شتاء عام ١٩٦/١٩٥ بعقد زواج ابنه الاكبر انطيوخس على شقيقة انطيوخس الابن نفسه وتدعى لاوديكي ضمانا لوراثة العرش ، كما زوج ابنة ثانية هي كليوباترا الاولى الى بطلميوس الخامس ، وابنة ثالثة الى ملك كابا دوكيه ، وعرض ابنته الرابعة على يومنس ملك برجامه الذي رفض خشية اغضاب روما ، وعقد معاهدة تحالف مع القبائل الغالية في آسية الصغرى ، ولم يمض عام ١٩٥ حتى كان انطيوخس قد ضمن مودة معظم جيرانه وكرس احتلاله لمقاطعاته الاوربية •

٣ ـ الاتفاق مع هانيبال

وفي العام نفسه أو العام الذي يليه اهتز العالم (وقت ذاك) عند سماعه نبأ فرار القائد القرطاجي النابغ هانيبال (Hannibal) والتجائه الى مدينته الام (صور) ، وبعد أيام قليلة دعي القائد القرطاجي الى حضور احتفال كان بلاط انطاكية يزمع اقامته في ضاحية (Daphne) برعاية انطيوخس الصغير ، وكان انطيوخس الكبير وقتها في افسوس يشرف على تنظيم أمور مقاطعاته التي حررها سابقا في أوربة وآسية الصغرى) فنهض هانيبال الى افسوس ، وعندما تلاقى العظيمان وضع هانيبال تحت تصرف انطيوخس خبرته ضد التدخل الروماني • وكان من الطبيعي أن تصعق روما أكثر من غيرها عند سماعها مثل هذا النبأ (نبأ وصول هانيبال الى بلاط انطيوخس واتفاقهما على محاربة روما) فقد أدركت بثاقب نظرها ان حظ هانيبال في تحقيق نصر على جيوشها بامكانات انطيوخس الثالث أصبح أكبر بكثير ، ولذلك فانها لم تقف مكتوفة اليدين بل سارعت الى العمل فأعادت انتخاب سكيبيو الافريقي (قاهر هانيبال) قنصلا للمرة الثانية كما بدأت باخلاء المدن الاغريقية في بلاد اليونان القارية من حامياتها حتى تشعر هذه المدن بأن استقلالها أصبح حقيقة واقعة لا غبار عليها ، وبذلك فوتت على انطيوخس وهانيبال فرصة الادعاء بأنهما يزمعان تحرير المدن الاغريقية من التسلط الروماني ، كما عملت على ربط هذه المدن بها بأحلاف قوية الوشائج وبذلك ضمنت قيام هذه المدن بصد أي هجوم أو زحف متوقع لقوات انطيوخس •

وفي حين اعتقد انطيوخس ان انسحاب روما من المدن اليونانية يعني أن روما

لن تنفذ مطالبها بالقوة ، أدرك هانيبال المغزى الاستراتيجي لهذا الانسحاب وعرض على انطيوخس خطة عسكرية تقضي ارسال اسطول مؤلف من مئـة سفينة حربية تحمل عشرة آلاف مقاتل وألف من الفرسان الى قرطاجة وتدعيم هذه القوى بأنصار هانيبال ثم الاتجاه صوب ايطاليا ، في الوقت الذي يقوم فيه انطيوخس بالزحف الى بلاد اليونان وبذلك تقع روما بين فكي كماشة ويسهل بالتالي فـرض الشروط أو تدمير رومـا •

ويبدو أ نأنطيوخس الذي كان قد ناهز الخمسين من العمر وأعاد لامبراطورية أجداده أصقاعها وأمجادها ولم يكن يكره ويحقد على روما مثل حقد هانيبال عليها كان يلعب بورقة الحرب دون ان يرغب فيها • واعتقد خاطئا بأن روما ستقدر موقفه من هانيبال وستعمل على كسب صداقته بالاعتراف له باستيلائه عـلى ممتلكات أجداده في أوربة عن طريق المفاوضات التي أعد لها وفـدا علـى مستوى عال • وعندما عرض الوفد السوري وجهة نظر مليكه على رئيس لجنة الشؤون الخارجية الرومانية في روما ، رحب رئيس اللجنة بتأكيد الوفد على صداقةانطيوخس لكنهلم يعترف للعرش السوري بسيطرته على اصقاع أوربيه • وأرسل مجلس الشيوخ بدوره وفدا آخر لاتمام المفاوضات في الشرق،ضم بين أعضائه «سكيبيو الافريقي»، وكانت مهمة الوفد متعددة الجوانب ، فهي الى جانب مهمتها الاصلية وهي مفاوضة انطيوخس ، كانت مكلفة بتكريس حلف برجامه مع روما اضافة الى مهمة محاولة الاتصال بهانيبال والطلب اليه الوقوف على الحياد مقابل تعهد روما باحترام حريته وضمانحياته ،وزرع بذور الشك في نفس انطيوخس من جراء اتصال أعضاء الوفد بهانيبال •

وبعد زيارة قصيرة قا مبها الوفد الى مملكة برجامه ضمن بموجبها دعم هذه المملكة قام الوفد الى افاميه ـ في آسية الصغرى ـ ومنها الى افسوس حيث وصلها في صيف عام ١٩٣ ـ وبدأت المفاوضات بين الوفد الروماني والوفد السوري برئاسة مينيون (Minion) كبير الوزراء ، وفي حـين تمسك السوريون بأحقية عرشهم في امتلاك تراقيه (الاوربية) ودحضوا مزاعم الرومان بكونهم حماة الحضارة الهلينية في آسية حينما ذكّروا الوفد المفاوض ان المدن الاغريقية في جنوب ايطالية وصقلية ترزح تحت السيطرة الرومانية المباشرة • ردّ الوفد الروماني بأن الحقوق التي

يدعيها ملك سورية للاستيلاء على شـرق أوربة ليست إلا مزاعم ، وبعدما تطور النقاش الى مشادة كلامية توقفت المفاوضات وعاد الوفد الروماني الى روما وبـدأ الطرفان يتوقعان الحرب دون ان يعلنها أحدهما على الآخر • وعندما دعا انطيوخس مجلسه الحربي الى الاجتماع ، تبارى وزراؤه في اظهار حماستهم للحرب . وفي نهاية الاجتماع وافق الملك على خطة عسكرية مشابهة لخطة هانيبال السابقة تقضي أن يبحر الجيش السوري باتجاه اليونان ثم البدء بالعمليات الحربية بعد الاتصال بفيليب ملك مقدونية في الشمال واتحاد الدويلات الايولية في الوسط واسبرطه في الجنوب ، في الوقت الذي يبحر هانيبال بقسم من الجيش الى قرطاجة للعمل على تجنيد انصاره في محاولة لتوزيع اهتمامات الجيش الروماني واضعافه • ويبدو أن ثقة انطيوخس بكثرة حلفائه لم تكن في محلها ، ولم تكن محالفاته السابقة مع الملك البطلمي والملك الكبدوكي والدويلات الايتولية أكثر من محالفات تكثر فيها الاسماء وتقل فيها القوى ، فقد أبقت مصر على سمعتها في حروب خلفاء الاسكندر وكانت أضعف من أن يعتمد على دعمها وبخاصة في عهد ملك يافع كبطلميوس الخامس ، وهي كما سنرى لم تقف على الحياد في صراع انطيوخس ضد روما بل انحازت الى جانب الرومان ، كما لم تكن مملكةكبادوكية واتحاد الدويلات الايتولية لتساوي في حجمها السياسي والعسكري أكثر من مدينة كبيرة •

ويبدو أن أنطيوخس لم يرغب بالحرب ولكن الحرب هي التي سعت اليه ، فما ان وصل الى انطاكية في آخر عام ١٩٣ حتى تسلم دعوة من الايتولين يعهدون اليه فيها مهمة قيادة الاحرار من الاغريق ضد السيطرة الرومانية • وحينما صدرت الاوامر الى القوات السورية بالاستعداد بـرا وبحرا ، كانت دسائـس حاشية أنطيوخس ضد وجود هانيبال قد بلغت ذروتها ، وانقسمت آراء الحاشية بين رأي أغلبية تؤيد استبعاد هانيبال وأقلية تؤيد فكرة الاعتماد عليه في المعركة المتوقعة ضد روما ، وقد انعكست الخلافات في الآراء المتضاربة والخطط المختلفة على حركـة التأهب والاستعدادات فزادتها بطأً وتدنياً ، وزاد الطين بلة عندما أرسل الايتوليون رسائل الى انطيوخس يستحثونه فيها على الاسراع ويقدمون البراهين المتعددة على كره جميع الاغريق للرومان وانتظار الجميع قدوم الملك السوري للانضواء تحت

لوائه وسحق الجمهورية الرومانية ، ويؤكدون على أن ذهاب هانيبال بقسم من الجيش السوري الى افريقية ليس الا ضربا من بعثرة القوى ، وان هانيبال لا يبغي من وراء ذهابه الى افريقية الا مجدا شخصيا ، ويبدو ان هذه الرسائل قد آتت أكلها في نفس انطيوخس فصدرت الاوامر بصرف النظر عن حملة افريقية والتأهب للزحف باتجاه بلاد اليونان •

٤ ــ غزو اوربـا :

وعندما وصلت اشارة من الايتوليين بأنهم أمّنوا رأس جسر في بلاد اليونان لنزول القوات السورية ، اجتاز انطيوخس بجيش بلغ تعداده عشرة آلاف مقاتل وخمسمائة فارس وستة أفيال وثلاث مئة سفينة متنوعة برفقة هانيبال بحر ايجة الى البر الاوربي ، وعندما أعـرب الايتوليون عن خيبة أملهم من ضآلة قـوات انطيوخس ، طمأنهم أنطيوخس بأن هذه القوات ليست الا طلائع الجيش السوري الذي سيصل بكامله بعد مدة وجيزة ، وهكذا فقد خدع الايتوليون انطيوخس بقولهم ان جميع الاغريق سيتهافتون الى المساعدة ضد روما ، فخدعهم انطيوخس بايهامهم ان جيوشه ستوالي قدومها وهو يعلل نفسه بدعم الاغريق الذين يتوقون للخلاص من روما •

وقد أغرى النجاح الذي حققه أنطيوخس في السيطرة على بعض الدويلات الاغريقية في بلاد اليونان الوسطى واكتساب ولاء البعض الآخر ، بعدم الامتثال لنصيحة أخرى قدمها له هانيبال وهي محاولة استمالة فيليب عدو رومـا وملك مقدونية ، بل أدت بعض أعمال انطيوخس العسكرية وبخاصة محالفته لبعض أعداء فيليب الى الاضرار بمصالح الملك المقدوني الذي لم يتوان عن الاتصال بالرومان والاتفاق معهم ضد حليفه القديم انطيوخس ، وهكذا لم يخسر انطيوخس حليفا قويا بل خسر ولاء كثير من القـوى في اليونان الشمالي التي كانت تدين بالولاء لفيليب •

وعندما وصلت طلائع الجيش الروماني الذي قدّر عدده بـ /٢٠/ ألف مـن المشاة وألفين من الفرسان و /١٥/ فيلا الى بلاد اليونان ، أدرك أنطيوخس خطورة

التصدي لمثل هذه القوة في معركة مفتوحة فأرسل في طلب الامدادات من سورية وانسحب بقواته الى ممرات ثرموبولاي وتحصن فيها • وخشية من قيام الرومان بحركة التفاف سريعة عند ميسرته المفتوحة ، أوكل انطيوخس مهمة الدفاع عن ممر اسوبوس (Asopos) وهو ممر استراتيجي حصين آخر ، وغيره من الطرق الجبلية في غربي ثرموبولاي الى حلفائه الايتوليين • وفي ربيع عام ١٩٠ بدأ الرومان هجومهم بمحاولة اختراق الخطوط السورية الامامية عند ثرموبولاي ، ولكنهم فشلوا مما اضطرهم الى انفاذ عدد من الكتائب الانتحارية باتجاه ممر اسوبوس ، ويبدو ان غفلة الايتوليون قد مكنت هذه الكتائب من النفاذ الى أماكن تجمع الجيش السوري في الجبال وفتح ثغرة ساعدت بقية كتائب الجيش الروماني من الانقضاض بغتة على الجيش السوري وتحطيم معظم فيالقه بعد مقاومة يائسة ، ولم ينج انطيوخس وعدد قليل من جنوده إلا بشق الانفس • وعندما وصلت فلول انطيوخس الى افسوس في آسية الصغرى أخذ يعمل على تجنيد جيش جديد •

٥ ـ روما تغزو آسية :

وفي ذلك الوقت أرسلت روما الى ميدان القتال عبر مقدونية وتراقيه جيشا جديدا بقيادة لوكيوس كورنيليوس سكيبيو وباشراف شقيقه سكيبيو الافريقي ، ورأى الاخير خطورة طريق البحر فقرر السير الى آسية الصغرى فسورية عن طريق البر ، وعندما بلغ مضيق البوسفور أمر الاسطول الروماني المجتمع في بحر ايجة محاولة دعم جيشه وتمكينه من عبور البوسفور ، وكان امير البحر السوري في ذلك الوقت المدعو بولوكسينيداس (Polyxinidas) قد أحرز لتوه نصرا على أسطول رودوس حليف الاسطول الروماني بالقرب من افيسوس ، كما كان هانيبال يعد أسطولا جديدا في صور وصيدا لدعم امكانات الاسطول السوري • ويبدو ان هذا النصر وذلك الاعداد كان شؤما على الجيش السوري ، إذ ما كاد هايبيال يصل بأسطوله الذي بلغ تعداده ٤٧ سفينة الى افسوس حتى هبت عليه عواصف حطمت جزءا كبيرا منه ولم يتمكن هانيبال عندئذ من دفع غائلة هزيمة اسطول رودوس لما تبقى لديه من سفن • ورغم النجدة التي قدمها الاميرال السوري بولوكسينيداس وتمكن القائدين السوريين من دفع خطر هزيمة كبرى الا ان الامدادات الكبرى التي

وصلت الى الاسطول الروماني في شهر أيلول من العام نفسه قلبت موازين القوى لصالح الرومان الذين سادوا بحر ايجة سيادة تامة بعد معركة ضارية دعيت معركة مونوسوس (Myonnesos) وتمكنت الجيوش الرومانية البرية مـن العبور الى آسية الصغرى ثم السيطرة على معظم شواطئها الغربية ◦ ويبدو ان الصدمتين اللتين مني بهمـا انطيوخس في البحر وفي البر والوضع العـام الذي آلت اليه حالته العسكرية أكرهته على ارسال وفد الى سكيبيو يطلب منه شروط رومـا لعقد الصلح ، وعندما أبلغ الوفد انطيوخس مطالب سكيبيو التي تضمنت جلاء السوريين عن آسية الصغرى الى ما وراء جبال طوروس ، أصدر انطيوخس أوامره بالاستعداد للحرب مرة أخرى ، وجمع جيشا يقدر عدده بخمس وسبعين ألفا يتصف معظمهم بخبرة متواضعة وتدريب أقل ◦ وفي كانون الثاني من عام ١٨٩ وبالقرب من مدينة ماجنيزيه على نهر سيبولوم (Sipylum) التقـى الجيشان وجهـا لوجه ، وكان انطيوخس قد اعتمد عـلى شجاعة فرسانه ومقدرتهم في القتال ، فقادهم شخصيا وجعلهم في الميمنة ◦ وما إن بدأت المعركة حتى انقض بفرسانه على ميسرة الرومان فحطمها وشتت شملها ، ويبدو ان حميته في مطاردة فلول الهاربين مكنت يومنس ملك برجامه وحليف روما من القيام بهجوم معاكس ناجح على ميسـرة الجيش السوري ومن ثم قلبه ◦ وعندماعاد انطيوخس من المطاردةلم يتمكن اكثرمن لم" شعث قلب جيشه وميسرته ، والقبول بعقد معاهدة صلح دعيت معاهدة افاميه (فيفروجيه) تعهد في أحد بنودها باخلاء جميع مدن أوربة وآسية الصغرى حتى جبال طوروس من حامياته ، كما وافق على دفع غرامة حربية تقدر بـ ١٥ ألف تالانت = حوالي ٣٦ مليون ليرة سورية يدفع خمسها آجلا والباقي في غضون اثنتي عشرة سنة ، وعلى تسليم جميع فيلته وسفنه الحربية اضافـة الى هانيبال وعشرين رهينة مـن جملتهم ابنه انطيوخس ◦

وبعد معركة ماجنيزيه التي لم يشارك فيها هانيبال لم يكن القائد القرطاجي بحاجة الى الانتظار ليعلم ان تسليمه الى روما هو أحد شروط الصلح ، فركـب سفينته من خليج بامفوليه (جنوب آسية الصغرى) وانطلق مبتعدا عـن مسرح الاحداث ، وبعد وصوله متخفيا الى كريت تلقى دعوة من بروسياس ملك بيثونيه

للعمل كمستشار له في الشؤون العسكرية والسياسية ، وعندما علمت روما بعد فترة بوجود هانيبال في بلاط الملك البيثوني وطلبت تسليمه بالحاح ، آثر البطل القرطاجي تجرع السم عام ١٨٣ وحرمان الرومان من لذة السير به في مواكب نصرهم .

٦ ـ نهاية انطيوخس العظيم :

وفي الوقت الذي كانت فيه روما تجلو بجنودها عن آسية الصغرى وتدعو حليفتيها مملكة برجامه وجزيرة رودوس الى اقتسام ممتلكات انطيوخس هناك ، كان انطيوخس ينفذ شروط المعاهدة . ويبدو أن ضخامة الغرامة التي فرضتها روما وبهاظة تكاليف ادارة مملكة مهزومة دفعت انطيوخس الى الاقدام على محاولة نهب أحد الكنوز المودعة في احد معابد مقاطعة فارس ، فكلفته تلك المحاولة حياته ومات في ظروف غامضة عام ١٨٧ وتبوأ العرش ابنه الاصغر سلوقس تحت اسم (سلوقس الرابع) .

الفصل السادس عشر

عصر المنازعات الاسرية

أولا ـ سلوقس الرابع :

ولم يكن سلوقس يماثل والده انطيوخس في شيء ، فبدأ حكمه بالابتعاد عن الاعتناء بأمور الجيش وصرف جلّ اهتمامه نحو جمع المال اللازم لدفع الغرامة الى روما ، ويبدو انه كان ضعيف الشخصية مما أطمع فيه وزيره المدعو هليودوروس (Heliodoros) فأقدم على اغتياله في عام ١٧٥ وأعلن ابنه الثاني الطفل المدعو انطيوخس ملكا على سورية ، اذ كان ابنه البكر وولي عهده المدعو دمتريوس رهينة في روما في ذلك الوقت .

ثانيا ـ انطيوخس الرابع :

١ ـ اغتصاب العرش :

وكان انطيوخس الابن الاكبر لانطيوخس الثالث وشقيق الملك القتيل رهينة في روما ايضا بموجب أحد بنود معاهدة افاميه ، ولما سمع باغتيال اخيه وتنصيب ابن أخيه الطفل ملكا انطلق بتشجيع من روما الى آسية الصغرى مطالبا بدم أخيه وعرشه أيضا ، وتمكن بمساعدة قوة قدمتها له مملكة برجامه (حليفة روما) من طرد الوزير هليودوروس والحكم بصفته شريكا لابن أخيه في العرش .

وكان انطيوخس (الرابع) ملكا ذكيا مقتدرا ونشيطا ، دمقراطي الطابع تحلو له مجالسة الادباء والفلاسفة ، واعتنق من المذاهب الفلسفية المعاصرة الرواقية ثم انصرف عنها الى الابيقورية بتأثير منا لفيلسوف الابيقوري فيلونيدس

(فيلسوف اللاذقية في سورية) ويبدو أن تأثره بالفلسفتين السابقتين قد دفعه الى ابداء حماس منقطع النظير في نشر مظاهر الحضارة الاغريقية بين رعايا امبراطوريته مما ادى الى قيام عدة حركات داخلية معارضة ومؤيدة كان من الممكن أن تؤدي صراعاتها الى تهديد وحدة سورية وتحد من قوتها لولا حزم انطيوخس الرابع ومهارته في معالجة هذه الامور .

إذ في أثناء فترة ارتقاء انطيوخس الرابع العرش توفي بطلميوس الخامس وترك وراءه ولدين وبنتا كان أكبرهم بطلميوس السادس الذي كان في السابعة من عمره ، فتولت الوصاية عليه أمه كليوباترا الاولى ابنة انطيوخس الثالث وشقيقة الرابع ، وبفضلها بقيت علاقات مصر مع سورية ودية خلال مدة وصايتها التي لم تعمر طويلا إذ توفيت كليوباترا في عام ١٧٦ ، وتسلم الوصاية بعدها مربي الملك « يولايوس » الخصي « ولنايوس » السوري ، اللذين أيدا منذ تسلمهما السلطة الحزب المؤيد للحرب مع سورية لاستخلاص جوف سورية الغني في محاولة لانعاش مالية البلاد .

وفي عام ١٧٠ احتفل بلاط الاسكندرية ببلوغ بطلميوس السادس الرابعة عشرة من عمره (وهو سن الرشد السياسي في العرق الاغريقي) ، وأوفد انطيوخس أحد قادته المدعو ابولونيوس لتمثيله في حفل التتويج . وعندما عاد ابولونيوس من مصر أكد لمليكه أن الوصيين يولايوس ولنايوس يعدان العدة لاستعادة السيطرة البطلمية على جوف سورية ، وكشفت بعض الحوادث من قيام حزب يهودي في فلسطين ينادي بالتعاطف مع مصر نكاية بملوك سورية ما أعده الوصيان من مداخلات تمهيدية لحملتهما على جوف سورية .

٢ ـ الحرب السورية السادسة :

ولم ينتظر انطيوخس في عاصمته سماع أخبار تقدم الجيش البطلمي باتجاه جوف سورية بل سارع الى ايفاد أحد قادته الى روما لشرح الموقف وتحميل بلاط الاسكندرية تبعة الحرب ، وزحف هو بجيشه باتجاه مصر ، وقبل وصوله الى بلوزيون الحصن البطلمي المنيع على الحدود المصرية في سيناء التقى انطيوخس بالجيش البطلمي وأنزل فيه هزيمة فادحة فتحت نتائجها أمامه أبواب مصر ، وبعد

استيلائه على بلوزيون تقدم باتجاه العاصمة المصرية القديمة ممفيس (Memphis).
وهكذا نجح انطيوخس فيما فشل فيه عددممن سبقهمن قادة العصر الهلنستي السابقين بما فيهم والده انطيوخس الثالث ، فمنذ الاسكندر الاكبر أي منذ مدة تزيد على قرن ونصف لم يفلح أي قائد في غزو مصر من ناحية سورية •

آ ــ حصار الاسكندرية : وعندما وصلت الى الاسكندرية أخبار الهزيمة ، بادر بطلميوس السادس الى الفرار منها بايحاء من بعض قادته ، وقبل ان يفلح بالابتعاد عن الشواطىء المصرية ، ألقت بعض سفن الاسطول السوري (التي كانت تحاصر الاسكندرية بعد هزيمتها الاسطول البطلمي) القبض على الملك الفار وسلمته الى انطيوخس • وردا على فرار بطلميوس السادس قرر الاسكندريون المقاومة ونادوا بأخيه الاصغر (وكان يافعا في الخامسة عشرة من عمره) ملكا • وإزاء ذلك وجد انطيوخس ذريعة تبرر تدخله في مصر فزحف على العاصمة زاعماً انه يؤيد حقوق الملك الشرعي •

وتصادف أثناء حصار انطيوخس للاسكندرية وجود عدد من السفراء والبعثات الدينية من المدن الاغريقية في العاصمة البطلمية ، واتفقت الآراء على ضرورة مشاركة كل أولئك السفراء في مفاوضة انطيوخس في عقد الصلح • وفي أول لقاء مع السفراء أعلن انطيوخس تمسكه بجوف سورية ، ونفى أن يكون والده انطيوخس الثالث قد منح ابنته كليوباترا الاولى سورية المجوفة كدوطة لها عند زواجها من بطلميوس الخامس،كما أصرّ على أن يكون عرش مصر لأكبرالبطلميوسان سنا • ولا يعرف في الحقيقة سبب وجيه يبرر الانسحاب الفجائي الذي قام به انطيوخس قبل ان يقطف ثمار حملته الناجحة على مصر ، وان كانت بعض مصادرنا تذكر ان بعض الاضطرابات التي قامت بها بعض الطوائف اليهودية المشايعة للبطالمة في فلسطين كانت من أهم أسباب ذلك الانسحاب ، كما تضيف دراسة محدثة أخرى الى الاسباب السابقة رغبة انطيوخس في القيام بحملة شرقية مشابهة لحملة والده من قبل •

ب ــ انطيوخس يغزو مصر ثانية : ويبدو ان انطيوخس كان يعلق آمالاً على نزاع متوقع بين بطلميوس السادس وأخيه الاصغر يبرر تدخله مرة اخرى في

مصر ، ولكنه ما كاد يبرح أرض مصر حتى اتفق البطلميوسان واختهما كليوباترا الثانية على ان يتربع الثلاثة على عرش مصـــر ، ويبدو ان انطيوخس الذي أدرك متأخرا بأن اتفاق الاخوة الثلاثة سيحرمه من قطف ثمار حملته الاولى قد قـــرر الاسراع بالقيام بحملة ثانية يجني فيها ثمارا فاته قطفها في السابق ، ولذلك فقــد قام في ربيع عام ١٦٨ بالزحف على مصر في الوقت الذي أرسل أسطوله للاستيلاء على قبرص • ونظرا لعدم استطاعة بلاط الاسكندرية التصدي لجيش انطيوخس ، فقد أوفد البطلميوسان واختهما سفارة الى خالهم وهو في طريقه الى الاسكندرية يعربون بواسطتها عن شعورهم الطيب واستفسارهم عما يطلبه لقاء خدماته بدلا من فرض ذلك بالقوة ، ورد انطيوخس بأنه لـــن يسحب جيشه وأسطوله الا بعــد الاعتراف له بجزيرة قبرص والاقليم المجاور لفرع النيل الشرقي وحددمهلةللاستجابة الى طلباته• ولما لم يكن في وسع بلاط الاسكندرية الموافقة على مثل هذه المطالب،فقد أرسل استغاثة الى روما في الوقت الذي تحرك فيه انطيوخس باتجاه ممفيس ومنها الى الاسكندرية وضرب عليها الحصار •

جـ ـــ انطيوخس ينسحب من مصر : وردا على استغاثة الاسكندرية قـــرر السناتو الروماني ايفاد بعثـــة برئاسة بوبيليوس لايناس (Po Laenas) لابـــلاغ انطيوخس مطالب السناتو القاضية بالانسحاب من مصر ، وفي ضاحية اليوسيس (القريبة من الاسكندرية) حدثت المقابلة المشهورة بين انطيوخس ولايناس ، وعندما حيا انطيوخس السفير الروماني ، لم يرد السفير التحية بل سلم الملك رسالة السناتو وطلب اليه أن يقرأها ، وعندما قرأ أنطيوخس الرسالة أعلن بأنه يطلب مهلة للتشاور مع حاشيته (حسب قاعدة البلاط السوري في العصر الهلنستي) فلم يكن مـــن السفير الروماني الا ان خطّ بعصاة كانت في يده دائرة حول الملك وطلب اليه أن يرد على الرسالة قبل أن يخطو خارج تلك الدائرة،فاستاء انطيوخس من هذا المسلك الغريب وتردد لحظة ثم أعلن أنه يوافق على ماجاء في الرسالة، وعندئذ حيا السفير وأعضاء الوفد الملك تحية ودية ، وبدأ انطيوخس باصدار أوامره للانسحاب مـــن قبرص ومصـــر •

٣ ـ احتفالات دفنـه :

وبالرغم من تلك الصدمة المعنوية التي ألحقتها روما بأنطيوخس ، فقد كـان وضعه من النواحي السياسية والعسكرية والاقتصادية قويا لدرجة قرر معها الرد على الاحتفال الكبير الذي أقامته روما عام ١٦٧ في مدينة أمفيبوليس اليونانيـة احتفالا بقهر مقدونية ودعت اليه من المدن الاغريقية ، باقامة احتفال في ضاحية دفنه (بالقرب من انطاكية) يضاهي احتفال الرومان عظمة وفخامة • وتزودنا مصادرنا القديمة بتفصيلات عن المهرجانات الرائعة التي استهلت باستعراض عسكري شارك فيه عشرات الآلاف من الجنود من قوميات مختلفة وقد تدرعوا بالدروع الجميلة مـن الذهب والفضة ، وركب بعضهم أجمل الخيول المطهمة والمزينة ، ومن خلف هؤلاء مشت فرق الخيالة من سكوثيه والافيال الهندية والمصارعون ، ثم تلت هؤلاء مواكب الرجال المدنيين الذين يحملون تيجانا ذهبية ، والفا من الثيران التي أعدت للتضحية وثلاثمئة بعثة دبلوماسية من المدن الاغريقية ، ثم عرض لأنياب الافيال ، وتماثيل لكافة الآلهة وانصاف الآلهة مذهبة أو مطلية ، وآنية رائعة ، ونساء متزينات يرششن العطور من زجاجات ذهبية أو محمولات بواسطة محفات لها أرجل مذهبة • وقد تضمنت الاحتفالات التي استمرت شهرا اقامة الالعاب الرياضية ومشاهد المصارعين المحترفين وعراك الحيوانات المتوحشة ، كما خصصت بعض الاوقات لكي يجري الخمر في مصدر الماء الرئيسي في مدينة انطاكية •

وتضيف المصادر أيضا ان انطيوخس كان قد شارك في تنظيم دعاية الاحتفالات، فكان الجميع يرونه تارة يرحب بالضيوف ، وأخرى يصدر أوامره التنظيمية ، وثالثة يلقي النكات ، وأخرى يشارك بالرقصات العامة • ويبدو أن أنطيوخس كان يبغي ادهاش الوفد الروماني برئاسة تيبريوس سمبرونيوس كراكخوس ، الذي عومل بأمر من الملك معاملة ملكية ، فوضع القصر الملكي تحت تصرف الوفد وأحاطهم برعاية لم يكن يحظ بها إلا الملوك •

٤ ـ انطيوخس واليهود :

ويبدو أن أنطيوخس كان يدرك أن الاعتماد على الاحتفالات السابقة أي على

الدعاية فقط لا يكفي لاثبات قوة وغنى ووحدة المملكة ، ورأى أن خير وسيلة لتأكيد هذه القوة هي محاولة صبغ الطوائف والشعوب التي تتضمنتها هذه المملكة بالصبغة الاغريقية ، علّها تفلح في ربط وصهر هذا الموزاييك في رابطة تتمكن في أوقات الشدة من مواجهة الخطر البارثي من الشرق والروماني من الغرب • وبدأ سلسلة من الاجراءات استهدفت هذه الغاية ، وكان من الطبيعي أن ينقسم أفراد كل طائفة أو قبيلة أو شعب من شعوب المملكة الى مؤيد ومعارض بحكم هلامية أو رسوخ الاعراف والتقاليد والديانات ، أو بحكم المصالح • ويبدو أن انطيوخس قد نجح في تذليل هذه العقبات بالنسبة لمعظم طوائف المملكة ولكنه لم يحقق النجاح نفسه فيما يتعلق باليهود • وشكل نزاع اليهود فيما بينهم ومع انطيوخس الرابع من جهة أخرى مَعْلَماً من أبرز معالم فترة حكم هذا الملك •

وبيان ذلك انه بعد عودة انطيوخس من مصر ، اعتقد انه يمكن بقليل من الضغط العسكري اكراه اليهود المتعصبين على التخلي عن نواميسهم عن طريق القضاء على نفوذهم الديني والسياسي ، ولاسيما ان هؤلاء كانوا يمالئون اسرة البطالمة بحكم المصالح المتبادلة • وبدأ العمل فأرسل في عام ١٦٧ أحد قادته المدعو ابولونيوس (Apollonios) وحمّله مجموعة من الاوامر الملكية وطلب اليه تطبيقها بقسوة وصلت الى حد السماح له باعدام المخالفين بنودها • فقام هذا القائد بالغاء اقامة الطقوس الدينية اليهودية واستبدل بالاله يهوه (Yahwa) الاله زيوس الاولومبي في معبده باورشليم • وأقام مذبحا على النمط الاغريقي فوق المذبح المقدس في فناء ذلك المعبد ، كما حول معبد يهوه على جبل جرزيم (Jerzim = الطور (وكان معبد للطائفة السامرية) الى معبد للاله زيوس اكسنيوس (Z. Xenios) — زيوس حامي الغرباء) وحرم الختان واقتناء الاسفار المقدسة وأوجب أكل لحم الخنزير •

وفي اواخر عام ١٦٦ كان اليهود قد انقسموا بموجب الاوامر الجديدة الى قسمين : قسم قبل مرغما ام مقتنعا بالانصراف عن شريعة آبائه واقام في اورشليم أو هرب الى المدن الاغريقية ، وقسم آخر اقل عددا رفض وهرب خارج اورشليم الى الجبال ممنيا النفس بتكوين حركة معارضة تجبر الملك على الغاء اوامره ، وكان

افراد القسم يحتاجون في ذلك الوقت الى زعيم يقود حركتهم المعارضة • وبموجب الاوامر الصارمة وعندما حاول رسل الملك اكراه ماتاتيه (Mattathioh) وهو كبير اسرة هاسمونا يوس (Hasmonoeos) المحافظة على تنفيذ اوامر الملك ورفض ، تيسر لهذا القسم من اليهود المحافظين الفارين الى الجبال زعيم يقود ثورتهم ضد انطيوخس الرابع ، وكان ماتاتيه طاعنا في السن فمات بعد قليل من اعلان ثورته وتسلم قيادة هذه الثورة احد ابنائه ويدعى يهوذا (Judas) ويلقب بالمكابي (Makkabaeos) وتعني المطرقة ،وتمكن خلال الفترة الوجيزة اكتساب ولاء كافة المناطق التي تدين باليهودية خارج اورشليم •

ويبدو ان انطيوخس لم يدرك خطورة هذه الثورة ، فقام في عام ١٦٦ — ١٦٥ بقيادة حملته الشرقية التي كان يعد العدة لها للتصدي للخطر البارثي ، وأوكل تصريف شؤون الدولة الى ابنه الطفل انطيوخس (الذي سنعرفه فيما بعد باسم انطيوخس الخامس) وعهد بالاشراف عليه الى احد قادته المدعو لوسياس(Lysias) وعندما تمكن يهوذا من الانتصار على الحاميات التي ارسلها والي سورية المجوفة لقمع الثورة ، ارسل لوسياس — جيشا بقيادة نيكانور (Nikanor) وجورجياس (Gorgias) ، ويبدو انه كان واثقا من انتصارهما لدرجة دعا عددا من تجار الرقيق لمصاحبتهما وشراء الاسرى اليهود ، وعند موقع إماوس (Emmaos) في وادي عجلون فاجأ المكابي جيش نيكانور وجورجياس وهزمه هزيمة اضطرت لوسياس نفسه الى القيام بزيارة في عام ٦٥ الى فلسطين للاطلاع على الوضع ، وعندما وصلت طلائع جيش لوسياس الى بيت صور (Beth Sur) وصلت انباء عن مرض انطيوخس الرابع في جاباي (Gabae = اصفهان) ، مما اضطر لوسيماس الى العودة الى انطاكية وانتظار ماستسفر عنه الاحداث • ويبدو ان انطيوخس الذي وصلته انباء تعاظم الثورة اثناء مرضه قد قرر اخيرا ان يستجاب الى طلب الثائرين ، فأمر لوسياس بوقف اضطهاد المحافظين والسماح لهم بممارسة شرائعهم والعيش في اورشليم جنبا الى جنب مع المتهلنين واعادة هيكل المدينة الى (يهوه) • وبناء على ذلك عاد المكابيون الى اورشليم واعادوا تكريس الهيكل ليهوه في احتفالات دامت لمدة ثمانية ايام ابتدأت في الخامس والعشرين من شهر كانون الاول عام ١٦٤،

ولايزال اليهود حتى يومنا هذا يحتفلون بهذا العيد في التاريخ نفسه تحت اسم عيد (حانوكا) الانوار .

ثالثا ـ انطيوخس الخامس :

وفي بداية عام ١٦٣ توفي انطيوخس الرابع في اصفهان ، وكان قد اوصى ان يتولى الوصاية على ابنه الطفل انطيوخس احد قادته المدعو فيليب (Philip) ولما كان لوسياس لايزال الوكيل في العاصمة والوصي الفعلي على الملك الطفل ، فقد توقع المكابيون نزاعا بين الاثنين وضغطوا على المتهلنين لاجبارهم على العودة الى شريعة آبائهم ، فاستجار هؤلاء بلوسياس الذي انجدهم بجيش (قاده بنفسه واصطحب معه الملك الطفل) تمكن من هزيمة المكابيين عند بيت زكريا بالقرب من بيت صور وقتل العازار شقيق المكابي . وعندما وصلت انباء تفيد بأن الوصي فيليب يزحف بجيش الى العاصمة اكتفى لوسياس بما توصل اليه من نتائج ، وبعد ان هدم قلاع المكابيين وابقى حامية سورية في قلعة اورشليم وأصدر عفوا عن المكابين وعين بدلا عن الكاهن الاعظم منلاوس (Mneelaos) رجلا آخر من المتهلنين يدعى الياكيم (Alkimes) عاد الى انطاكية عن طريق عكا والساحل السوري .

وفي شمال سورية تمكن لوسياس بقواته العائدة من الجنوب من هزيمة الوصي فيليب الذي فر الى مصر ملتجأ واختفى ذكره من التاريخ ، ويبدو ان لوسياس بعد عودته منتصرا الى انطاكية قد شك في نوايا انطيوخيس (Antiochis) اخت انطيوخس الرابع وارملة ملك كابا دوكيه ، التي ثبت تعاطفها مع الوصي فيليب فأمر بقتلها وابنتها . وعندما وصلت بعثة رومانية برئاسة جنايوس اوكتافيوس (G. Oktavius) ـ للتحقيق فيما تناهى الى علم روما عن مخالفة الحكومة السورية لبنود معاهدة افامية ـ الى اللاذقية انقض شخص من الجماعات المتعصبة لاغريقيتها على رئيس البعثة وقتله وهرب باقي اعضاء اللجنة . ويبدو ان التكريم الذي اسبغه لوسياس على جثمان المبعوث المقتول والسفراء الذين حاولوا تبرئة لوسياس من تبعة الحادث لم يوفقوا في استبعاد فكرة ميل مجلس الشيوخ الى التخلص من لوسياس .

رابعا ـ دمتريوس الاول :

وكانت روما لاتزال تحتفظ بدمتريوس الابن الاكبر لسلوقس الرابع وكان يأمل ان يعود في يوم من الايام الى عرشه الذي حرمه منه عمه انطيوخس الرابع ، وعندما وصلت الانباء في عـام ١٦٤ عن مـوت انطيوخس تحركت في نفـس دمتريوس الامال وقام بعرض مشكلته على مجلس الشيوخ الروماني • ويبـدو ان المجلس لم يقتنع بتأكيدات دمتريوس حول صداقته المزعومة ، ورأى حسبما يذكر المؤرخ بوليبيوس ان ملك طفل على العرش السوري وبلاط متفسخ يحكمه وصي مثل لوسياس ، لهو أفضل من ملك شاب طموح حتى ولو كان صديقا • ورغم ان مؤرخنا قد نصح الامير الشاب بعرض قضيته مرة اخرى فان معارضة المجلس لم تثن الامير عن عزمه ، وتجرأ على الهرب رغم انف مجلس الشيـوخ على سفينة قرطاجية الى طرابلس ، وفيها ارتدى دمتريوس التاج الملكي واعلن عـن وصوله في خريف عام ١٦٢ • ويبدو أن بعضا ممن ارسلهم دمتريوس لتمهيـد عودته اعلاميا قد نجحوا في ذلك ، فما ان انتشرت اخبار وصولـه حتى هتف المدنيون في جميع المدن الكبرى له كما قبض الجيش في انطاكية على ابناء انطيوخس الرابع ولوسياس ، وعندما وصل دمتريوس الى انطاكية أمر باعدامهم ، وهكذا تمكن دمتريوس استرداد ارثه في عرش ابيه بعد ثلاثة عشر عاما •

ولكن روما التي ساءها تصرف دمتريوس لم تقف مكتوفة اليدين من عمله اذ انها ما ان سمعت باعلان تيمارخوس (Timarchos) (حاكم ميديه السلوقي) استقلالـه وكان صديقا شخصيا لانطيوخس الرابع حتى اعترفت به ملكا عـلى ميديه واوحت لبعض جيرانه مثـل ارتاكسياس (Artaxias) ملـك ارمينيـه بالاعتراف به • وعندما استغل المكابيون وضع دمتريوس أوفدوا الى رومـا وفدا يشرح ظروفهم ، وقعت روما معهم معاهدة ووعدتهم بالمعونة في حال تعرضهم لهجوم • وما ان علم دمتريوس بهذا الامر وبتجرؤا المكابيين على خلع الكاهن الاكبر المتهلن المدعو « الياكيم » ، حتى جرّد حملة بقيادة باكخيدس (Bakchides) تمكنت في ربيع عام ١٦٠ من تحقيق نصر حاسم على يهوذا المكابي واعادة الياكيم الى منصبه • ونتيجة فشل باكخيدس في مطاردة المكابيين عند مساقط نهر الاردن فـي

البحر الميت قرر التفاهم معهم ، وسمح ليوناثان (Jonathan) المكابي زعيم المكابيين بعد مقتل اخيه يهوذا بالاقامة في فلسطين بعد ان ربط معظم مناطقها بعدد كبير من الحصون العسكرية . ولم تفلح هذه الحصون في دفع النفوذ المكابي ، إذ تمكن يوناثان بعد موت الكاهن المتهلن وعودة باكخيدس الى ملكه من مدّ نفوذه تدريجيا حتى اصبحت امارة (جودايا = بلاد اليهوديه) امارة مستقلة استقلالا فعليا تحت امرته بوصفه الكاهن الاكبر . وكان تيمارخوس كما اسلفنا قد حالف عند تمرده ملك أرمينيه ، وبعدما تمكن من السيطرة على اهم المناطق الشرقية (فارس غرب ايران) وحاول مدّ مناطق نفوذه شرقا بغزو سورية تصدى له دمتريوس وتمكن من قتله عام ١٦٠ بموجب مساعدة قدمتها له مدينة سلوقيةعلىنهر الدجلةالتي اطلقتعلىدمتريوسلقبه الذي اشتهربه(سوتر = المنقذ).

ويبدو ان روما التي اعترفت بدمتريوس ملكا حوالي عام ١٦١ لم تمنح هذا الملك الشاب ثقتها ، وعلى حد قول المؤرخ بوليبيوس ان روما لن تكن تثق بأي ملك سوري مالم يكن نكره . لذلك ما ان عاد دمتريوس الى انطاكية حتى جدّ في البحث عن حليف فعلي يشد به ازره ، فأوفد في العام نفسه من يعيد العلاقات الطيبة بينه وبين قريبه (ملك كبدوكيه وحفيد انطيوخس الثالث من ناحية امه) ويعرض عليه يد اخته زوجا . ويبدو ان الملك الكبدوكي لم يشأ اغضاب روما فرفض العرض السوري ، مما حدا بدمتريوس الى تأييد شقيق الملك في مطالبته بعرش كبدوكيه ، وفعلا نجح جيش سوري في تنصيب الملك الدعي على عرش كبدوكيه .

ولسوء حظ دمتريوس ، سرعان ما اثبت حليفه الجديد انه ينتمي الى اسوأ انواع الحكام في التاريخ ، ورغم الدعم الذي قدمه دمتريوس لحليفه الا انه لم يفلح في اطالة امد حكمه طويلا اذ ادى تدخل اخيه بمساعدة برجامه الى انهاء حكمه بسرعة . وبعد هذا الفشل الذي مني به دمتريوس في آسية الصغرى قرر العمل على ضم جزيرة قبرص بالخديعة ورغم تمكنه من اغواء حاكمها بمبلغ كبير وبألقاب رفيعة في البلاط السلوقي ، فان بطلميوس السادس اكتشف المؤامرة وأبطل اتمام اجراءاتها .وبذلك خسر دمتريوس ليس فقط قبرص بل

قريبا جديدا انضم الى قائمة الاعداء • وكانت الاوساط الانطاكيـة تعيب على دمتريوس خشونته في محاولته اصلاح فساد الادارة في انطاكية وعزلته في قصره خارج انطاكية وانغماسه في الشراب بشكل ملحوظ ، وبذلك فقد تضافرت كل الاسباب خارج البلاد وداخلها للنيل من دمتريوس والاحاطة به •

خامسا ــ اسكندر بالاس :

واستغلت روما كعادتها ظروف دمتريوس وأوحت الى أتالوس ملك برجامه للقيام بمهمة الاطاحة به ، فاتتقى أتالوس غلاما كـان شديد الشبه بأنطيوخس الرابع وادعى ان هذا الفتى هو ابن انطيوخس الرابـع وأسماه اسكندر ولقّبـه (بالاس) ، وكلف أحد دهاة العصر ويدعى هراكليدس (Heraklides) من ملطيه (وهو شقيق تيمارخوس حاكم ميديه الذي قضى عليه دمتريوس) بمهمة مرافقة بالاس الى روما لعرض ظلامته أمام مجلس الشيوخ والمطالبة بالاعتراف به ملكا على سورية • ولم يكن السناتو بحاجة الى سماع شـرح مستفيض عن أحقية هـذا المدعي ، فأصدر في ختام الزيارة (شتاء عام ١٥٣/١٥٢) قرارا اعترف لبالاس بحقه في عرش (والده) • وعندما وصل هراكليدس وبالاس الـى آسية اتخذا افسوس مركزا لقيادتهما حملة غزو سورية متمتعين بتأييد روما وبرجامه ومصـر وكبدوكيه • وعندما نزل بالاس بجنوده المرتزقة في عكا أحسّ دمتريوس بالعزلة الدولية التي جناها على نفسه ، فبدأ البحث عن دعم أية طائفة يرجى منها أي أمل ، فكتب الى يوناثان زعيم اليهود المحافظين يطلب اليه تأييده مقابل تنازلات واعفاءات وامتيازات هائلة ، وعندما سمع بالاس بهذا كتب هو أيضا الى يوناثان يسترضيه ويقيمه كاهنا أعظم ويمنحه الكثير من الالقاب الفخرية • وكان من الطبيعي أن يؤيد اليهود المحافظون الملك الدعي ، فهم الى جانب عدائهم المعروف لأي ملـك سوري شرعي بحكم علاقاتهم الجيدة بالاسرة البطلمية ، لا يمكن ان يتخذوا موقفا معارضا لروما ، ورغم التأييد الكاسح الذي تمتع به بالاس والقوات البطلمية التي دعمته عسكريا فقد تمكن دمتريوس من تحقيق عدد من الانتصارات ، لكنه فشل عام ١٥٠ وسقط صريعا في آخر معاركه مثبتا للعالم أجمع جدارته بالانتماء الى ملوك سورية المحاربين من سلالة سلوقس •

وما ان استوى اسكندر على عرشه حتى دعى أنصاره وأركان الدولة البطلمية الى مدينة عكا لحضور حفل زفافه على كيلوباترا (ثيـا) ابنة حليفه بطلميوس السادس فيلومتور (١٥٠/١٤٩) • وفي الحفـل ظهر يوناثان المكابي بالـرداء القرمزي (وكان رداء أصدقاء الملك من المرتبة الاولى) ، فكان هذا الظهور بمثابة انتصار باهر لليهود المحافظين • وهكذا حقق ملوك برجامه وكبدوكيه ومصر حلمهم الكبير باقامة صنيعة لهم على العرش السوري مؤيدين بذلك من روما • وقد عبر بالاس عن تبعيته للاسكندرية ليس فقط بزواجه من أميرة بطلمية بل أيضا باعتماده صورة النسر البطلمي والمعيار الفينيقي في سك نقوده بدلا عن الشعارات السلوقية والمعيار الاتيكي المتبع عادة في النقود السلوقية •

ولم يحتج بالاس الى وقت طويل لاظهار عدم جدارته بالعرش الذي آل اليه ، إذ سرعان ما وقع تحت سيطرة عشيقاته وأصفيائه ، وأقام في عكا متخليا عن ادارة شؤون الدولة الى كبير وزرائه المدعو أمونيوس (Ammonios) الذي قام بارتكاب سلسلة من الجرائم للتخلص من منافسي مليكه من أفراد أسرة دمتريوس الاول ومعارضي سياسة التقارب مع مصر • ورغم العلميه التي رغب بالاس في اضفائهـا على بلاطه عن طريق تقريب الفلاسفة الابيقوريين والرواقيين على حد سواء ، فان مباذل القصر دفعت بالسوريين الى الافصاح عن كرههم لمليكهم الجديد ووزيره الدموي والرغبة في تولي ملك جديد •

سادسا ـ دمتريوس الثاني :

وكان أكبر أبناء دمتريوس الاول ويدعى دمتريوس ايضا يعيش في آسـية الصغرى ، وقد بلغ في عام ١٤٨/١٤٧ سن النضج في العرف الاغريقي ، وعندما علم بأنباء المجازر التي نفذها أمونيوس في حق أفراد اسرته ، قام بالاعداد لحملة كلف فيها لاسثنس (Lasthanes) الكريتي بقيادة قواته المرتزقة لاستعادة حقـه المسلوب في عرش آبائه • وعندما نزل دمتريوس في (كيليكية) شمال سورية ، هجر بالاس مباهجه في عكا واتجه شمالا للدفاع عن انطاكية ضد الملك الشرعي بعد ان كلّف يوناثان المكابي بالتصدي لابولونيوس حاكم جوف سورية الذي كان قد أعلن تأييده لدمتريوس الثاني نيابة عن المدن الفلسطينية المتهلنة • وفي معركة

ازوتوس (Azotos = أشدود) ، حقق يوناثان نصرا باهرا على قوات ابولونيوس ، وعندما علم بالاس بما اصابه يوناثان من النجاح أرسل اليه (دبوسا) ذهبيا يمنح عادة للمقربين من الملك ومنحه رتبة « قريب الملك » وكانت أرفع مراتب الدولة قاطبة ، وأقطعه مدينة عكير (Ekron) ومقاطعتها ملكا شخصيا له .

ويبدو ان هذه المشاكل والفوضى التي عانت منها سورية قد صادفت هوى في نفس بطلميوس السادس ، فخف في عام ١٤٧ الى سورية على رأس جيش واسطول مؤملا على الغالب أن يتنازل له صهره بالاس عن جوف سورية مقابل الانتصار له . وفي فلسطين رحبت معظم المدن بزيارة بطلميوس بل اعتبرت بعضها الترحيب بالزيارة بمثابة درع يحميها من تعديات المكابيين وبخاصة أشدود التي قام أهلها باطلاع بطلميوس على الآثار الطازجة للمجازر التي ارتكبها اليهود في حق هذه المدينة . ويبدو أن الملك المصري لم يرغب في استنفار عداء اليهود وبخاصة انهم كانوا حتى ذلك التاريخ يحاربون في الاتجاه نفسه ، ولذلك فقد أجل اتخاذ قرار مناسب وتابع سيره شمالا الى يافا حيث التقى بيوناثان الذي رافقه حتى نهر اليوثروس (نهر الكبير الشمالي) وهو الذي كان يشكل حدود سورية المجوفة . وعندما تناهت الاخبار الى بالاس أزعجه استقبال المدن السورية بطلميوس ، ولم يستطب فكرة التعاون معه بل اعتقد ان بطلميوس قد ينتهز الفرصة ويستولي على كافة سورية ، ولذا فقد أقدم ووزيره أمونيوس على تدبير مؤامرة فشلت في اغتيال الملك المصري عندما كان لا يزال في عكا . ويبدو أن بطلميوس كان طيبا لدرجة استبعد معها اشتراك صهره في هذه المحاولة ، وعزاها الى وزيره امونيوس وطلب الى بالاس تسليمه اليه . وعندما رفض بالاس اعتبر بطلميوس هذا الرفض دليلا على انغماس بالاس في المؤامرة أيضا ، وأرسل الى دمتريوس الثاني يعرض عليه محالفته ويد ابنته كليوباترا زوج بالاس (التي كانت قد انضمت الى حاشية أبيها في عكا) مقابل التنازل عن جوف سورية . وكان من الطبيعي أن يرحب دمتريوس أو بالاحرى من كانوا يحركون قضيته بعرض بطلميوس دون تردد . وعندما تطورت الاحداث على هذا النحو وانحاز معظم أعوان بالاس الى جانب الاكثرية ، عهد بالاس بابنه من كليوباترا (انطيوخس) الى أحد شيوخ العرب ،

وفـر بنفسه الى التلال الكيليكية مؤملا تجنيد جيش أو مجموعة من العصابات تعيد اليه عرشه • وفي انطاكية لم يتمكن أمونيوس من الفرار رغم تنكره بزي امرأة فألقى الانطاكيون القبض عليه وأعدموه •

وعندما عرض الانطاكيون العرش على بطلميوس رغبة في التخلص من المنازعات الاسرية أولا ، وبحجة كونه سلوقيا من ناحية أمه (ابنة انطيوخس الثالث) رفـض بطلميوس خشية اغضاب روما ، وحثّ الاهالي على قبول دمتريوس الثاني ملكا ، وهكذا دخل دمتريوس عاصمته وعقد قرانه على كليوباترا الثانية • وكان يزمـع الاعلان عن تنازله عن جوف سورية لصالح البطالمة لولا أن الاحداث كفته شـر ذلك • فقد تمكن بالاس في حوالي ١٤٥ من اعداد قوة ظنّ أنها كافية لاسترجاع عرشه ، وعلى ضفاف نهر أوينوباراس (Oenoparas) (عفرين على الغالب) هزم بالاس شر هزيمة في حين أصيب بطلميوس بجرح خطير • وفي حـين كان الاطباء يبذلون جهودهم لانقاذ بطلميوس كان بالاس يتجه بصحبته خمسمئة من أتباعه الى مضارب أحد شيوخ العرب للالتجاء عنده أو محاولة تأليبه ضد دمتريوس • ويبدو أن بعض اتباعه احسوا بعبث المقاومة فأرسلوا الى دمتريوس عرضا بالعفو عنهم مقابل اغتيال بالاس فوافق دمتريوس • وتـم اغتيال بالاس وأرسل رأسه الـى بطلميوس وهو على فراش الموت ، وبعد ان متّع الملك الجريح نظره بمشاهدة رأس صهره توفي بعد ثلاثة أيام في فاتحة صيف عام ١٤٥ •

وكـانت النتـائج المبـاشرة لمـوت بطلميوس أولا : قيـام لاستنس الكريتي مستشار دمتريـوس وقـائـد حملتـه بارغـام القـوات البطلميـة التي أصبحت دون سيد أو قيـادة على الانضمام الـى جيش سيده أو العـودة الى مصر كيفما اتفق والبطش بالمعارضين من كبار قادة هذا الجيش • ثانيا : ان دمتريوس اعتبر وعده بالنزول عن جوف سورية كأنه لم يكن ، وبخاصة انـه لم تعد تحت أمرة البطالمة قوات كافية للمطالبة بالجوف أو غيره • ثالثا : أن موت بطلميوس ترك أرملتـه واختـه كليوباترا وولي عهـده الطفـل أضعف مـن التصدي لاطماع أخيه بطلميوس ملك قورينائه وعميل روما ، مما أدى الى نتائج ضعضعت كيان دولة البطالمة ومهدت السبيل لانحلالها •

وعندما زال شبح بالاس وغابت السيطرة البطلمية وراء البحر ارتقى عرش سورية غلام أطلق على نفسه لقب ثيوس نيكاتور فيلادلفوس (المؤله المنتصر المحب لأخيه) ، ويبدو أن الملك الجديد لم يكن الوحيد الذي تحلل من ارتباطاته ووعوده السياسية حسبما مر معنا آنفا ، فقد تحلل لاستنس الكريتي من أية التزامات أدبية تجاه ملك متوج ، واعتبر جنوده الامبراطورية السلوقية غنيمة حرب ، وحيث ان اهتماماتهم انحصرت في أفضل الطرق لتكديس الاموال وتأمين الرفاهية فقد ابتعدوا في مجمل تصرفاتهم عن الاهتمام بمصلحة الارض والشعب وكانت حكومتهم أشبه بحكومة قراصنة •

وفي فلسطين كان الاستقلال الذاتي للطائفة اليهودية بزعامة يوناثان المكابي تاما منذ عهد بالاس ، ولم يكن لينقص منه إلا وجود حامية سورية صغيرة في قلعة مدينة أورشليم • وقد استغل يوناثان النزاع بين دمتريوس وبالاس وضرب حصارا على حامية القلعة في محاولة للتخلص من آخر سمات السيطرة السورية ، ورغم الانتصار الكبير الذي حققه دمتريوس على بالاس حليف يوناثان فانه لم يقدم على الانتصار لحاميته المحاصرة ، وكان جلّ ما فعله هو أن أبدى امتعاضه من عملية الحصار • ولما كان يوناثان يعلم علم اليقين هوية الحكم وإعراضه عن المصالح العليا للدولة فقد تابع عملية الحصار بدون خجل حتى في الوقت الذي كان فيه دمتريوس الثاني يزور عكا ، بل انه نجح في استمالة الملك بالهدايا والمبالغ الكبيرة من المال على شكل جزية • فعفا عنه الملك ومنحه لقب (صديق أول) ، وهكذا وجد يوناثان الفرصة سانحة فاستولى على عدد من المراكز الادارية في شمالي فلسطين •

أما في انطاكية فقد تابع لاستنس زعيم المرتزقة الكريتيين مخططه لنهب البلاد متجاوزا الملك اليافع الذي لم يكن له من الحول والقوة الا ما يكفي لممارسة شهواته ورغباته • وبعد أن نفذ لاستنس سلسلة من المجازر في حق كل اشياع اسكندر بالاس أمر بتسريح العناصر السورية من الجيش • وفي مجال تشديد قبضته على العناصر الناقمة لم يفرق بين الناقم والبريء والكبير والصغير والغريب والمقيم ، ولذا لم يكن من المستغرب ان يضمر الانطاكيون قبل غيرهم السوء

لهذا الحكم وان ينتظر الجميع الفرصة للايقاع بدمتريوس ووزيره ، ثم أن تعلو أصوات التذمر وأن تنقلب فيما بعد الى ثورة داخلية •

وليس من أهدافنا سرد تفاصيل هـذه الثورة الداخلية التـي يسهل تناول أحداثها في العديد من المراجع بالنسبة للراغبين في الاستزادة ، كما يسهل توقع بشاعة احداثها من المقدمة السابقة ، ولكن حسبنا أن نورد مجملا لها من خلال ما أوردته المصادر القديمة ، وبيان ذلك ان جماهـير العاصمة التي ساءها حالها تجمهرت أمام باب القصر الملكي مطالبة بالتغيير ، فما كان من المرتزقة الا أن أطلقوا رماحهم ونبالهم على المتظاهرين ، فارتد هؤلاء الى مبنى مجاور فتعقبهم الجنود وأضرموا في المبنى النار التي امتدت الى غابة مجاورة وأصبح قسم كبير مـن انطاكية شعلة من لهب • وعندما تعاظمت أخطار نقمة ما بعد الحريق وتأكد الجميع ألا أمل في الاصلاح وان الحال ستسير من سيء الى أسوأ بـدأ البعض في البحث عن وسائل لوقاية أنفسهم وأسرهم وممتلكاتهم من الاخطار في حين وحّد عمق المصيبة كلمة البعض الآخر وبدأوا عمليات المقاومة المنظمة ، ونظرا للنجاح الذي أصابه هؤلاء فقد بعث دمتريوس الى يوناثان المكابي يطلب نجدته • فانتقى الاخير عددا من أشرس رجاله وبعث بهم الى انطاكية ، وتخبرنا المصادر اليهودية نفسها ان هؤلاء عادوا الى القدس عند انتهاء الثورة محملين بالغنائم بعد ان قاموا أو ساهموا بذبح مالا يقل عن مائة ألف من سكان انطاكية • وبهذه المجازر والاضطهادات خيّل الى دمتريوس ووزيره انهما قد دعما مركزهما في انطاكية ، لكنه لعل الاصح انهما أضافا الى قلوب الناس كراهية ضدهما وحقدا عليهما وكذلك فزعا منهما • ولذلك لم يكن من المستغرب ان يقوم المقتدرون في انطاكية بمغادرة مدينتهم الام الى مدن أخرى في انتظار الفرج •

سابعا ـ انطيوخس السادس :

وفي عام ١٤٣ ترجم أحد القادة العسكريين ويدعى ديودوتوس حقد الانطاكيين وكرههم باعلانه انطيوخس بن اسكندر بالاس وكان رهينة عند أحد شيوخ العرب ملكـا باسـم انطيوخس السادس في مدينـة أفاميـة السوريـة • وفـي أول صـدام بـين المتنافسين هزم دمتريـوس وفـر الـى سلوقيـة على مصب

العاصي في حين دخل انطيوخس السادس انطاكية منتصرا ، واستوزر ديودوتوس وأطلق عليه لقب تروفون (Tryphon) ويبدو انه لا دمتريوس ولا انطيوخس السادس كانا على استعداد لحسم الموقف لصالحهما فاعترف كل منهما (ضمنا) بنفوذ الآخر • وفي حين دانت سورية الداخلية للملك الجديد بقيت سورية الساحلية وما وراء الفرات تحت حكم دمتريوس •

ورغم ان اليهود كانوا من أشد المتحمسين لنصره دمتريوس الا انهم سرعان ما انقلبوا عليه وأيدوا خصمه ردا على عدم سحب حامياته من قلعة أورشليم • ومكافأة لموقف اليهود أمر تروفون باسم انطيوخس السادس منح يوناثان رتبة (قريب الملك) وعين أخيه حاكما على كل سورية المجوّفة باستثناء فينيقية التي كان يحكمها دمتريوس • وكان انطيوخس يعتقد انه بهذا سيضمن سيطرة اسمية على الاقل على كافة الاقاليم التي تخضع ليوناثان • ولكن الكاهن الاعظم لم يكن أهلا للثقة التي أولاه اياها ملك انطاكية ، وبدأ يتوسع لحسابه في فلسطين والساحل السوري لدرجة رأى معها ضرورة الاتصال بروما وبعض الدويلات الاغريقية لاستخلاص اعترافها بتوسعاته الجديدة واستقلاله الفعلي •

وكان من الطبيعي أن لا تحظى مثل هذه التصرفات بتأييد انطاكية ، وأمام عجز بلاطها عن التصدي العسكري ليوناثان قام تروفون بقيادة مجموعة من قواته باتجاه سكيثوبوليس (بيسان) وفيها استقبل تروفون يوناثان استقبالا حافلا وطلب اليه اعادة الجيش الذي يرافقه الى أورشليم وان يذهب معه الى عكا للتباحث في بعض الامور على الطبيعة ، وحينما أصبح الجميع داخل أسوار المدينة فتك جنود تروفون برجال يوناثان وأسروا قائدهم • وعندما علم اليهود بذلك انتخبوا سمعان الاخ الاصغر ليوناثان كاهنا أعظم وبدأوا بتحصين مواقعهم وبخاصة في أورشليم ويافا • ورغم أن تروفون رغب أول الامر بالتفاوض وطلب من اليهود فدية كاهنهم بمبلغ مئة تالانت فانه لا يعرف لماذا أقدم بعد اجتيازه نهر الاردن على اعدام يوناثان والاتجاه شمالا • ولم يفلح سمعان أكثر من الحصول على عظام أخيه لدفنه في العاصمة المكابية مودين (Modin) .

وفي عام ١٤٣/١٤٢ أشيع في انطاكية ان انطيوخس مرض مرضا شديدا يتطلب

اجراء عملية جراحية ، ثم أعلنت وفاته اثر العملية الجراحية دون أن يشك أحد في أن تروفون وراء هذا الاغتيال الصريح • وبعد فترة وجيزة أعلن تروفون نفسه ملكا واعتمد تقويما وشعارا جديدين للمملكة بدل التقويم والشعار السلوقي القديمين • وكان الحصول على تأييد روما لسلالة جديدة على العرش السوري أمرا في غاية الاهمية بالنسبة لتروفون ، وبناء على ذلك فقد أرسل الى مجلس شيوخ روما هدية مؤلفة من ١٠٫٠٠٠ قطعة ذهبية • ولا يعرف سبب مقنع لرفض المجلس قبول الهدية باسم العاهل الجديد وتكريسها باسم الملك القتيل انطيوخس • وكانت النتيجة الحتمية لاغتصاب تروفون العرش السوري ان يتصرف اليهود باستقلالية أكبر وان يؤيدوا مرة أخرى دمتريوس الثاني في سلوقية على مصب نهر العاصي • وكان الاخير في توق الى مثل هذا التأييد فأرسل الى زعيمهم سمعان كتابا يعفي فيه اليهود من كافة أنواع الضرائب السابقة والمستحقة ويخلي لهم الحصون وبذلك أتم دمتريوس الثاني استقلال اليهود الذين كرسوا يوم ٢٣ أيار (مايو) عام ١٤١ عيدا وطنيا واحتفلوا بالمناسبة احتفال المنتصرين وبدأوا تقويما يهوديا جديدا حمل العبارة التالية « في العام ٠٠٠٠ من تولي سمعان منصب كاهن أكبر وقائد وحاكم اليهود » •

ولم يكن اليهود وحدهم العنصر الوحيد الذي كان يرغب في اقامة دولة قومية مستقلة فقد تعاظم خطر البارثيين في الشرق • وفي صيف عام ١٤١ دخل ملكهم ميثريداتس (Mithridates) الاول اقليم بابل واستولى على سلوقية دجلة العاصمة الشرقية للدولة السلوقية وبدأ يعامل اغريق المناطق الشرقية معاملة قاسية • ولما كانت المناطق الشرقية تدور في ملكية بلاط سلوقية على مصب نهر العاصي وملكها دمتريوس الثاني وكان وقتها قد بلغ العشرين من عمره ، فقد جهز حملة وانطلق شرقا في محاولة لاكراه البارثيين على التراجع وتجنيد أكبر قدر ممكن من الجنود لتوحيد المملكة مرة أخرى • ورغم النجاح الذي حققه دمتريوس في المرحلة الاولى من الحرب فانه لم يتمكن من متابعته وأدت حيلة دبرها ميثريداتس بمهارة الى أسر دمتريوس وتفرق جيشه • ولكن ميثريداتس أكرم أسيره وزوجه من ابنته واحتفظ به لاستخدامه وقت الحاجة • وبذلك انفرد تروفون في حكم المملكة السورية ولكن الى حين •

ثامنا ـ انطيوخس السابع :

وكان أنطيوخس أصغر أبناء دمتريوس الاول وشقيق دمتريوس الثاني يقيم حتى ذلك الحين في مدينة سيده (Side) في مقاطعة بامفوليه في آسية الصغرى ، وكانت المدينة قد اشتهرت بكونها مأوى وملجأ وسوقا لعدد كبير من قراصنة المنطقة ، كما اشتهر سكان اقليمها المجاور وبخاصة الاقوام الجبلية باستعدادهم الدائم للانضمام الى أية مغامرة تكفل لهم قتالا وغنائم في النهاية • ومن الطبيعي ان ظروفا كهذه يمكن في أي عصر أن تهيىء فرصا مناسبة لمغامرات عسكرية وبخاصة في حال كون المغامر مغامرا بطبعه وينحدر من صلب السلاله الملكية السورية مثل انطيوخس الآنف الذكر •

وكان الامير الشاب ذي العشرين ربيعا في جزيرة رودوس عندما وصلته أنباء أسر شقيقه ، فسارع الى اعداد جيش وأسطول معظم أفراده من المرتزقة وأرسل عددا من اتباعه الى المدن السورية يعلنون مرامه طالبين تأييد مرشحهم الجديد للملك • وكانت (كليوباترا) زوج دمتريوس الثاني لا تزال تقيم في سلوقية على مصب العاصي في ذلك الوقت ، ولما كان أي أمل للحزب المؤيد للشرعية ضد المغتصب تروفون يبدو ضئيلا دون قيادة ، فقد تكاتفت معظم العوامل لتؤدي الى ان تدعو كليوباترا انطيوخس اليها في سلوقية وتعرض عليه الزواج بها •

وبعد اتمام مراسم الزواج وضع انطيوخس على رأسه الشعار الملكي (الديماديما) • وما ان عمت الاخبار الجديدة حتى تهافت مؤيدو الشرعية الى سلوقية يعرضون خدماتهم حتى من بين أنصار تروفون ، الذي أدرك صعوبة موقفه فغادر انطاكية الى الجنوب وتحصن في بلدة دورا (Dora) على الشاطىء الفلسطيني مؤملا كسب ود اليهود مرة أخرى أو تأييد العرش البطلمي • وعندما حاصره انطيوخس هرب بحرا الى عكا ومنها الى أورثوسيه (Orthosia) (= عرطوس على مصب نهر البارد) ثم مسقط رأسه أفامية حيث قبض عليه انطيوخس وأكرهه على الانتحار •

وكان من الطبيعي أن يفكر انطيوخس بعد توحيد العرش السوري عام ١٣٧ بالحاق المقاطعات المتمردة بالمملكة مبتدءا بالاقرب • لذا فقد أرسل واحدا من

أصدقائه الى سمعان كبير كهنة اليهود يطلب اليه دفع الجزية عن بعض الاقاليم التي دانت لليهود خارج اقليمهم الرئيسي مثل يافا وجازارا ، وكذلك تعويضا قدره (١٠٠٠) تالانت عن الاضرار التي ألحقها سمعان واليهود ببعض رعايا انطيوخس في انطاكية وفلسطين وغيرها من المناطق ، وعندما حاول سمعان أولا تبرير سرقات اليهود بأنهم استعادوا ما كان أعداؤهم سرقوه منهم ، وبعد ذلك مساومة مندوب الملك حول المبلغ ، كلف انطيوخس حاكم الشاطىء الفلسطيني بالتصدي لهم ، ولكن يوحنا ويهوذا ابنا سمعان تمكنا من هزيمته في موقعة سهل مودين فعاد الى انطاكية .

ويبدو أن ظروف الحكم لم تمكن انطيوخس من الرد على هزيمة قائده الا بعد ثلاث سنوات ، ففي ربيع أو صيف ١٣٤ قاد انطيوخس حملة باتجاه فلسطين ، وفي أثناء ذلك تمكن احد أقارب سمعان ويدعى بطلميوس من اغتياله خلال حفلة (شراب) ، ولكنه لم يهنأ طويلا بما حققه إذ تمكن يوحنا بن سمعان وكان وقتها في جازارا من العودة سريعا وتنصيب نفسه كاهنا أعظم .

وهكذا في السنة الاولى من حكم يوحنا (الذي أطلق على نفسه لقب هركانوس) تعرضت اورشليم لحصار انطيوخس السابع ، ورغم مقاومتها مدة عام كامل (١٣٣ — ١٣٢) فقد استسلمت في النهاية ، ولكنها لم تدفع ثمن مقاومتها ، إذ لم يستمع انطيوخس لنصيحة قواده الذين طلبوا اليه ابادة اليهود بل اعتدل في مطالبه ففرض غرامة حربية وجزية على المدن والاقاليم التي يحكمها اليهود وتقع خارج تخومهم مثل جازارا ويافا . وبعد أن أمر بدك أسوار المدينة المقدسة عاد الى انطاكية عام (١٣٢) مصطحبا معه أحد أخوة الكاهن الاعظم رهينة .

وهكذا ظهر أنطيوخس أمام الرأي العام الداخلي والخارجي بمظهر الملك المقتدر والحازم والساهر على شؤون مملكته . وبعد ان حقق انتصاريه على تروفون والمكابيين بدأ يفكر في استعادة سلطة العرش السوري على الولايات الشرقية . وكان أخوه دمتريوس الثاني أسيرا مكرما في بلاط الملك البارثي ميثريداتس — كما مر معنا آنفا — ويبدو أن دمتريوس رغم زواجه بأميرة بارثية ومحاولته الظهور بمظهر الامراء البارثيين بتقليده اياهم في ملبسه واطالة لحيته ،

(وكانت عادة غير مستساغة عند الاغريق) ، فانه لم يكن يكتم تبرمه من أسره وهرب عددا من المرات من البلاط البارثي وبخاصة في عهـد فرآتس (Phraates) الثاني خليفة ميثريداتس • وحقق انطيوخس وحدة سورية الطبيعية بجيش جنده من أبنائها بلغ عدده حوالي ثمانين ألفا بما فيهم عـدد من اليهود بقيادة الكاهن الاعظم نفســه •

وبعد عبوره الفرات اشتبك انطيوخس مع القوات البارثية وهزمها في ثلاث معارك كانت أشهرها معركة نهر لوكوس (Lycos = الزاب الكبير) ، وفيها تغلب انطيوخس على أحـد أشهر قادة البارثيين وأجبره عـلى الانسحاب باتجاه بارثيه ، وما ان حل شتاء عـام ١٣٠ وأوقف انطيوخس أعماله الحربية حتى كانت معظم ايران القريبة تحت السيطرة السورية مرة اخرى • وبدأ انطيوخس يعتمد كغزاة الشرق ممن سبقوه لقب (الملك الاعظم) •

ولكن توقف الاعمال الحربية في فصل الشتاء لم يحل مشاكل القتال ، وعندما برزت مشاكل تموين الجيوش واطعامها قسّم انطيوخس قواته الى أربع فرق ووزعها على عدد من المدن والقرى لتسهيل عملية التموين • ويبدو ان اساءة بعض الضباط الى الاهالي الوطنيين قد عممت النقمة على الضباط السوريين ، ففتر حماس أولئك في تأييد انطيوخس وبذلك فقد الاخير ركنا معنويا هاما جدا من أسباب نجاح حملته• ورغم ذلك فقد اعتبر فرآتس نفسه أضعف من أن يقف في وجه الغازي الجديد • لذلك فقد عرض على انطيوخس في ربيع عام ١٢٩ الدخول في مفاوضات لانهاء الحرب • ولكن انطيوخس الذي كان لايزال يعيش نشوة النصر ويرغب جادا في استعادة كافة ممتلكات العرش السوري رفض الدخول في المفاوضات ، وطلـب الى الملك البارثي تنفيذ ثلاثة شروط لانهاء حالـة الحرب أولها اقتصار السيادة البارثية على اقليم بارثيه وثانيها دفع جزية سنوية وثالثها تسليم دمتريوس الثاني • فرفض فرآتس الشروط وتابع الحرب مبتدءا اياها باطلاق سراح دمتريوس الثاني للمطالبة بالعرش السوري ، واختتمها بتدبير مكيدة كبرى تمكن بواسطتها مـن الايقاع بأنطيوخس منفردا والقضاء عليه •

تاسعا ــ عودة دمتريوس الثاني :

ولم يكن فرآتس يتوقع النجاح الذي حققه بمكيدته وهذا ما دفعه الى ارسال فرقة من الخيالة لاعادة دمتريوس الثاني اليه مرة اخرى بعد اطلاق سراحه ، ولكنه فشل في هذا مما دفعه الى التفكير بغزو سورية لكن تمرد بعض القبائل الشرقية اضطره الى العدول عن هذه الفكرة أو تأجيلها حتى الانتهاء من المشاكل الداخلية •

ويبدو أن الاوساط السورية لم ترحب بعودة دمتريوس الى انطاكية نظرا لعدم رضاها عن مسلكه في ملكيته السابقة وتقليده البارثيين في مسلكه وطريقة حياته ، وهذا ما عكسه قلة ولاء جيشه له عندما قرر غزو مصر ، وبيان ذلك انه ما ان استقر دمتريوس في انطاكية حتى وفدت عليه والدة زوجه السابقة (كليوباترا) ملكة مصر بعد أن طردها اخوها بطلميوس (الثامن) وبدأت في حث دمتريوس على اعادتها الى عرشها • ولم يفلح دمتريوس في الوصول بجيشه الى أبعد من مشارف سيناء اذ نجحت دسائس بطلميوس الثامن في تحريض الانطاكيين والافاميين على الثورة،مما أدى الى تمنع أفراد الجيش عن متابعة مسيره الى مصر،وهكذا عاد دمتريوس بخفي حنين لاعادة الامن الى نصابه في مملكته وبخاصة بعد بروز منافس جديد في شخص زوجه كليوباترا التي أخلت سلوقية بيريه عاصمتها السابقة وامتنعت في عكا •

عاشرا ــ اسكندر زابيناس :

وكالعادة فقد صادفت هذه الفوضى هوى في نفس ملوك مصر • ورغب بطلميوس الثامن في دفع خطر دمتريوس وكليوباترا عن طريق اقامة منافس لدمتريوس • وكان شابا ابن احد تجار مصر لكنه زعم انه ابن اسكندر بالاس واتخذ فعلا اسم اسكندر ثم أضاف الانطاكيون الى اسمه لقب زابيناس (Zabinas) ويعني بالآرامية (المشترى) • ورغم المساعدة المصرية وتأييد الانطاكيين لزابيناس فانه استغرق ثلاثة أعوام للفوز بالعرش ، فقد كان نشاط دمتريوس خارقا للعادة لكنه انتهى بهزيمته على أبواب دمشق وفراره الى عكا التي أوصدت دونه أبوابها بايعاز من زوجه كليوباترا ، وعندما حاول في عام ١٢٦/١٢٥ الفرار ايضا من صور

التي طردته أيضا لقى حتفه ، وخلا الجو وقتئذ لزابيناس ولكنه كان يتوقع المتاعب من جانب كليوباترا في عكا •

حادي عشر ــ انطيوخس الثامن :

وتذكر المصادر القديمة انه ما ان استوى زابيناس على عرشه وزال خطر دمتريوس حتى تنكر بطلميوس الثامن لربيبه وتحالف مع أخته كليو باترا (في عكا) التي كانت قد أشركت أحد أولادها من دمتريوس في الحكم معها ، وكان يدعى انطيوخس ولقبه الشعبي جروبوس (Grypos) ويعني « ذي الانف الاقنى » • ولتأكيد أواصر التحالف مع أخته قام بطلميوس بتزويج احدى بناته وتدعى تروفاينا (Tryphaena) من « جروبوس » كما أرسل عددا من فرقه العسكرية لتأييد الملك الشرعي • وفي أول صدام بين الفريقين عام ١٢٣/١٢٢ هزم زابيناس وارتد الى انطاكية وفيها قبض عليه الانطاكيون وسلموه الى انطيوخس الثامن الذي أمر بقتله • وبعد مقتل زابيناس اختلف انطيوخس جروبوس مع أمه التي أرادت فرض مزيد من الوصاية عليه وأراد هو التحرر من ذلك ، وتذكر المصادر القديمة أن كليوباترا طلبت من ابنها شرب كأس من الشراب « المسموم » بعد عودته من حفلة صيد ، ولكنه أبى الا أن يشرب بعدها • وبهذا تخلص جروبوس من وصاية أمه في عام ١٢١/١٢٠ •

ثاني عشر ــ انطيوخس التاسع :

ولكن انطيوخس الثامن جروبوس لم يهنأ طويلا بصفاء الجو له ، إذ تعرض في عام ١١٦ الى تدخل أخيه انطيوخس (التاسع فيما بعد) ، وكان هذا الانطيوخس ابنا لانطيوخس السابع من كليوباترا ، وكانت أمه قد أرسلته الى مدينة كوزيكوس (Kyzikos) في آسية الصغرى للدراسة • ولما سمع بمقتل والدته تاقت نفسه الى السلطة ، واستغل نبأ اشاعه بين الناس بأن اخوه يخطط لقتله كما قتل أمه وأعلن الحرب على أخيه مستغلا الذكرى العطرة التي خلفها والده بين الانطاكيين ، ولقب نفسه بعد نجاحه في اقتناص السلطة بلقب المحب لوالده « فيلوباتور » في حين أطلق عليه السوريون لقب الكوزيكي على اسم المدينة التي قدم منها • وانقسم

السوريون بين معظم مؤيد له وبعض مناهض ، وبدأ نزاع أسري مرير زاد في حدة تعقيده تدخل المنازعات البطلمية في بعض تفاصيله ، وبيان ذلك ان بطلميوس الثامن توفي في عام ١١٧ وأكرهت أرملته كيلوباترا الثالثة على ان يشاركها في الحكم ابنها الاكبر بطلميوس التاسع الذي كانت تكن له كراهية عميقة ، في حين كانت تميل الى ابنها الاصغر بطلميوس اسكندر وكان يشغل منصب حاكم جزيرة قبرص • ويبدو ان بطلميوس التاسع لم يكن في فاتحة حكمه في وضع يسمح له بمقاومة رغبات والدته حتى انه وافقها على طلاق زوجه وشقيقته في الوقت نفسه المدعوة كليوباترا الرابعة والزواج من شقيقته الاخرى كليو باترا الخامسة سليني (Selene = القمر) •

ولم تكن كليوباترا الرابعة لتذعن على مضض لما قررته والدتها ونفذه زوجها، بل سارعت بعد اقصائها الى مغادرة مصر باتجاه سورية على رأس عدد كبير من اتباعها وعرض يدها على انطيوخس التاسع (الكوزيكي) • ولما كان انطيوخس الثامن (جروبوس) الهارب من وجه أخيه الى آسية الصغرى متزوجا تروفاينا الاخت الكبرى لكليوباترا الرابعة (كما عرفنا سابقا) فقد أصبحت الحرب بين الاخوين حربا بين الاختين أيضا • وتذكر المصادر القديمة ان (جروبوس) الذي كان يعد العدة لقتال أخيه في آسية الصغرى ، نجح في اعداد جيش تمكن بواسطته من دخول العاصمة انطاكية بعد هزيمة أخيه (الكوزيكي) الذي فر تاركا زوجه كليوباترا التي التجأت الى معبد أبولون في ضاحية دفنه • ورغم قدسية الموقع أمرت تروفاينا بسحب أختها خارج حرم المعبد لقتلها ، وتذكر بعض المصادر قيام الجنود المكلفين بهذه المهمة بقطع يدي كليوباترا الرابعة المتعلقة بصورة جدارية للربة ارتميس في المعبد نفسه • ولكن الملكة القاتلة لم تهنأ بانتقامها طويلا اذ قام الكوزيكي بالانتقام لزوجه من كليوباترا عندما وقعت في يده في العام التالي (١١١) وكانت في انتظار زوجها (جروبوس) الذي ذهب الى آسية الصغرى مرة اخرى لتجنيد عدد آخر من الجنود المرتزقة •

الفصل السابع عشر

انهيـــار المملكـــة

أولا ـ الحكم الثنائي وانقسام سورية :

وعندما عاد جروبوس من آسية الصغرى لم يتمكن أكثر من استعادة سيطرته على سورية الشمالية في حين تمكن الكوزيكي من ترسيخ قوته في سورية الجنوبية والساحل السوري • وكمعظم الاحيان أفضت الاحـداث في سورية الى انفجار الصراع الكامن في أسرة البطالمة • وعندما كـان الكوزيكي يحاول جاهدا صـد محاولات أخيه لاخراجه من جوف سورية وعاصمته دمشق كان اليهود بزعامة كاهنهم الاكبر هوركانوس يحاصرون احدى ممتلكات الكوزيكي في فلسطين ، وعندما فشل الكوزيكي في رفع حصارهم نشد مساعدة بطلميوس التاسع عـام (١٠٨) ، فأرسل اليه جيشا من (٦٠٠٠) رجل لم يفلح حتى في تأخير سقوط مدينة سماريه التي دمرت بعد نهبها وذبح كل أهاليها • ولم تكتم روما فرحتها من تزايـد النفوذ اليهودي في جنوب سورية بل ان مجلس شيوخها أصدر مرسوما اعترف باليهود أصدقاء لروما •

وكنتيجة حتمية لتدهور الحالة السياسية ،في كل من سورية ومصر واعتماد اليهود على دعم روما (ولو نظريا) فقد تمكن هؤلاء في عهد هوركانوس من مـد سلطانهم على كافة الاقليم الفلسطيني جنوبي الكرمل فيما عـدا المنطقة الساحلية والجنوبية • ورغم ان خليفة هركانوس وابنه المدعو اريستوبولوس **(Aristobulos)** لم يحكم أكثر من عام واحد (١٠٤ ـ ١٠٣) فانه تمكن خلال هذا العام من ارغام سكان الجليل بحد السيف على اعتناق اليهودية •

ونظرا لاستمرار العداء بين المملكتين السوريتين الشمالية والجنوبية بين جروبوس والكوزيكي فقد تدهورت الحالة الامنية في فلسطين لدرجة باتت معها المدن الاغريقية فيها تستنجد بالبطالمة ضد اليهود ، وهذا ما حدث عندما حاصر يانايوس (Jannaios) خليفة اريستوبولوس ـ وأول من اتخذ اللقب الملكي في دولة اليهود الجديدة ـ عكا فاستنجدت عام ١٠٤ ببطلميوس التاسع (الذي كان قد طرد من مصر واشركت والدته معها في الحكم أخيه بطلميوس العاشر) فأنجدهاوأوقع باليهود في معركة اسوفون هزيمة هي أقرب الى المذبحة منها الى أي نوع من أنواع الهزائم . وكنتيجة حتمية لتقارب المصالح فقد تفاهمت كليوباترا الثالثة (التي خشيت ان يقوم هذا الابن بالاتفاق مع انطيوخس الكوزيكي بالاعداد لغزو مصر) مع أنطيوخس جروبوس ضد أخيه ، كما تحالفت مع اليهود وتعهدت لهم بدعمهم ضد ابنها بطلميوس التاسع الذي أثبت مخاوف والدته بالتوجه الى مصر في الوقت الذي كانت جيوشها تدخل فلسطين لمساعدة اليهود ضد الكوزيكي . ولكن كليوباترا فوتت عليه هذه الفرصة وعادت الى مصر ، مما اضطر التاسع الى العودة الى قبرص عام ١٠٢ بعد مغامرة مثيرة لم يستفد منها الا اليهود ، الذين أطلقت لهم حليفتهم كليوباترا حرية العمل في فلسطين فاستولوا على كل المدن التي امتنعت عليهم سابقا وأعملوا فيها المذابح . وعندما عاد ملك اليهود يانايوس الى القدس عام (٩٦) كان الشاطيء الفلسطيني قد أصبح قاعا صفصفا .

ولم يكن اليهود فقط هم الذين أفادوا من الصراع بين سورية ومصر من جهة وبين الملوك في كل من البلدين من جهةأخرى ، بل أصبح الانباط قوة يحسب لها حساب في عهد الملك عيروتيموس (Erotimos) الذي اكتسح بأولاده السبعمائة كل المناطق المتاخمة للصحراء على حدود سورية ومصر . وفي الشمال أدت الاحداث الداخلية الى بروز سلالة حاكمة جديدة في اقليم كوما جيني (شمال شرق سورية) من أصل فارسي ادعت وراثة حقوق الاسرة السلوقية بدعوى انحدار ملوكها منذ بداية القرن الاول ق.م من لاوديكي ابنة انطيوخس جروبوس واعتماد ملوكها للتسمية الملكية « انطيوخس » كتسمية ملكية محلية .

وبدا لفترة من الزمن وكأن الامور ستستتب على هذا النحو مملكتين سوريتين في الشمال والجنوب يقطع أوصالهما عداء سافر وأعداء من كل جانب ،

ولكن الظروف كانت تمهد لوحدة سورية مرة اخرى وحدة أضعف مما كانت عليه أيام انقسامها ، فقد استغل الوزير الاكبر في بلاط انطيوخس جروبوس المدعــو هراكليون (Heraklion) من حلب هزال السلطة وطمع بها وأقدم على اغتيال ولي أمره في عام ٩٦ وفرت كليوباترا (سيليني) الى انطيوخس الكوزيكي • ونظــرا لعدم تمكن هراكليون من الصمود في وجه الاشاعات التي سادت في انطاكية مؤيدة حقوق أحد أبناء الملك القتيل وكذلك أطماع انطيوخس الكوزيكي من دمشق ، فقد فر الى مسقط رأسه حلب وأسس مملكة مستقلة ضمت الى جانب حلب كلا من بامبيكي (منبج) وهراقليه • ولم يهنأ الكوزيكي طويلا باستيلائه على انطاكية بعد مقتل أخيه وهرب قاتله اذ تعرض في العام التالي (٩٥) الى هزيمة قاسية على يدي أحد أولاد جروبوس دفع حياته نتيجة لها •

ثانيا ــ سلوقس السادس والانطيوخسان العاشر والحادي عشر :

وكان لانطيوخس جروبوس عند مقتله خمسة أولاد ذكور ، وهم سلوقــس وانطيوخس وفيليب ودمتريوس وانطيوخس • وكان سلوقس قد حكم في انطاكية بعد مقل عمه ، ولكنه ما كاد يستوي عى العــرش حتى ادعى انطيوخس ابــن الكوزيكي (العاشرفيما بعد) أحقيته في العرش من جزيرة أرواد ، وأيده عدد من أشياع ابيه وتمكن بعد معركة فاصلة من الاستيلاء على انطاكية ، واطلق على نفسه لقب انطيوخس (التقي المحب لوالده) وتزوج زوج والده كليوباترا الخامسة (سيليني) • في حين فــر سلوقس السادس الى كيليكيه في آسية الصغرى وأنشأ مملكة عاصمتها المؤقتة موبسوهستيه (Mopsu-Hestia) •

ثالثا ــ الحكم الثلاثي (انطيوخس العاشر وفيليب ودمتريوس الثالث) :

ونظرا لقسوة سلوقس السادس واطلاق يد جنوده في معاملة أهل المنطقة فقد قام هؤلاء باعداد وتنفيذ هجوم على قصر ملكهم وقتله ، ولكنهم لم ينجحوا في النيل من اخويه (انطيوخس وفيليب) اللذين قاما مع بعض عصابات المنطقة باحتلال المدينة واستباحتها وتنصيب نفسيهما ملكين شريكين (انطيوخس الحادي عشــر وفيليب) ويبدو ان الملكين قد أخطآ في حساب قوتهما لدرجة دفعتهما الى القيام

بالاعداد لحملة استرجاع انطاكية وهناك أنزل انطيوخس العاشر بهما هزيمة أدت الى غرق انطيوخس الحادي عشر وهرب فيليب الى كيليكية مرة أخرى لتأسيس مملكــة .

وفي تلك الاثناء عام (٩٥) كان اصغر هؤلاء الاخــوة المدعو دمتريوس (الثالث) يعد العدة لاقتناص نصيبه من تركة أجداده ، وطلب من الملك بطلميوس الثامن (حاكم قبرص في الفترة ١٠٨ ــ ٨٨) تأييده وامداده بقوات تمكن بواسطتها من استخلاص سورية الجنوبية واتخاذ دمشق عاصمة له مطلقا عليها اسمه ، ويبدو أن نجاحه في مهمته كان غير متوقــع لدرجة ان الــدمشقيين اطلقوا عليــه لقب يوكاريوس (Eu-Karios = المحظوظ) . وبذلك انقسمت سورية في تلــك الفترة (٩٥ ــ ٩٣) الى ثلاث ممالك .

ولا يعلم بالضبط ماذا جرى لانطيوخس العاشر ملك انطاكية ، باستثنــاء ما تتكهنه من واقع مصادرنا وهوا ن ضغط الاخوين فيليب في الشمال ودمتريوس في الجنوب قد اكرهه على استحسان فكرة قيادة عصابات في شمــال سوريــة أو كيليكية ، ومغادرة عاصمة ملكه انطاكية التي استولى عليها ملك دمشق دمتريوس بين عامي (٨٨ ــ ٨٧) . وكان دمتريوس الثالث آخر الملوك السلوقيين الذين تدخلوا في شؤون اليهود ولكن بطلب منهم هذه المرة ، فقد اتفقت الاراء عــلى ضرورة التخلص من الملك يانايوس الذي أحاط نفسه كمعظم ملوك العصر بثلة من الجنود المرتزقة الاجانب ، وطلب الجميع معونة دمشق في هــذا المجال ، ولم يكــذب دمتريوس خبرا ، اذ سرعان ما قاد جيشا اتجه به نحو شكيم ، وفيها انضم الــى جيشه جيش من اليهود الناقمين . وتمكن الجيشان من اكراه يانايوس على الفرار باتجاه التلال . ويبدو ان الفكرة التي راودت معظم اليهود بتفضيل السيطــرة السلوقية على حكم ملك من اسرة هاسموتايوس قد تعدلت بعد هرب الملك، وفضّل حتى دمتريوس الثالث عدم التورط في حرب تشترك فيها احزاب اليهود المتعددة . لذا فقد انسحب باتجاه الشمال مؤثرا محاولة توحيد سورية بزعامته . ورغم ان العلاقات بين دمتريوس واخيه فيليب كانت طيبة قبل هروب يانايوس الا انــه لايعرف السبب المباشر الذي دفع دمتريوس الى مهاجمة فيليب وكان وقتهــا في زيارة لصديقه استراتون (Straton) أمير حلب التي حاصرها دمتريــوس فاستنجد المحاصرون بالشيخ العربي المدعو عزيز (Aziz) ، وهو أحد شيوخ العرب

الضاربين في شمال سورية ، وميثريداتس حاكم مابين النهرين البارثي • وتمكن الاثنان من فك حصار دمتريوس واصطحابه اسيرا الى البلاط البارثي وفيه مات معززا مكرما •

وفي الوقت الذي عاد فيه فيليب لحكم انطاكية بعد أسر أخيه ، أدلى انطيوخس (الثاني عشر) الابن الخامس لانطيوخس جروبوس بدلوه في هذا الصراع فاستولى حوالي عام ٨٦ على دمشق ملك أخيه دمتريوس •

ونظرا للاطماع التي كشف عنها الملك الجديد ، فقد بدأ أخيه فيليب من انطاكية يتحين الفرص للايقاع به ، وقد حانت الفرصة عندما خرج انطيوخس (الثاني عشر) لقتال الانباط فانقض أخوه على العاصمة دمشق ، وأغرى المشرف على قلعتها بفتح الابواب ففتحها له ، ولكنه سرعان ما انقلب على سيده الجديد الذي اهانه في احدى المناسبات ، واستغل خروج فيليب خارج أسوار المدينة لمشاهدة سباق الخيل في الهيبودوروم (Hippodorum) فأغلق ابواب المدينة وامتنع فيها معلنا عودة ولائه الى انطيوخس (الثاني عشر) مما ادى الى تراجع فيليب نحو انطاكية وعودة انطيوخس الى قتال الانباط بعد توقف ، وكان قد خطرت له فكرة ضرورة ضرب عمق القوة النبطية من اقصى الجنوب بعدما يئس من قتالهم في الشمال وانسحابهم كل مرة باتجاه الجنوب • ورغم محاولة اليهودي يانايوس منع تقدم انطيوخس عبر الساحل الفلسطيني ، فقد وصل الى موقع مؤته حيث انزل به الانباط هزيمة ادت الى مقتله عام ٨٤ بعد ان كان قاب قوسين أو أدنى من النصر التام •

رابعا ــ التدخل الخارجي :

وكان من الطبيعي ان تؤدي هذه الفوضى وهذا التخبط في السياسة الى انهيار السلطة المركزية وتعاظم الاخطار الداخلية والخارجية ، فالى جانب تزايد عدد المدن التي أخذت تساوم على ولائها مقابل الحصول على استقلال اسمي وفعلي مثل صور وصيدا وطرابلس وسلوقية وعسقلان ، وازدياد شوكة الانباط بعد اليهود ، انفصلت ولاية كوماجيني عن الدولة مكونة مملكة مستقلة ، واصبح الشاطيء

الكيليكي مأوى للقراصنة • ولم يؤد تقاعس السلطة المركزية في آسية الصغرى الى بروز مملكتي بونتوس وأرمينية فقط ، إذ ما أن حل عام ٨٤ حتى أصبحت معظم آسية الصغرى وتراقية وجزء من مقدونية وبلاد اليونان تحت سيطرة ميثريداتس ملك بونتوس ، ورغم أن الحملة الرومانية بقيادة سولا (Sulla) قد نجحت في الحد من نفوذه بموجب سلم عام ٨٤ ، الا ان السلم نفسه ترك ميثريداتس في وضع يمكنه من شن الحرب من جديد • وفي أرمينية تمكن الملك تيجرانس (Tigranes) في حوالي عام ٨٣ بعد توطيد أركان حكمه في الداخل وتوحيد صفوف الارمن من توسيع حدود مملكته شرقا على حساب البارثيين والاستيلاء على كافة مابين النهرين •وفي أواخر العام نفسه وجه تيجرانس جيشا باتجاه سورية تمكن من الاستيلاء على عاصمتها انطاكية ومعظم سورية الشمالية وكيليكية دون مقاومة من أحد ملوك سورية آنذاك ، حيث يستغرب تجاوز المصادر القديمة أي ذكر لهؤلاء الملوك في تلك الفترة على حين تذكر المصادر نفسها أن روما اعترفت في عام ٧٥ بحق أولاد انطيوخس العاشر في العرش السوري ومنحتهم لجوءا في روما طوال عامين •

وبشكل عام كانت الاوضاع في سورية تمهد السبيل لاحتواء روما هذه المنطقة المتحضرة من العالم المعروف وقتئذ ، فقد أدركت معظم المدن الهلينية والمهلنة فيها والتي كانت تمثل مراكز الثقل السياسي والاقتصادي والاجتماعي ان الوضع العام لا يسمح لها بعد انعدام الامل في ملك صالح من أسرة سلوقس الاول الا باختيار من اثنين : إما ان تنتظر مصيرا يعيدها الى بوتقة الشرق مرة أخرى واما ان تساعد على قدوم الرومان •ولم تتردد كثيرا لتفضل على حد قول البعض جهنم الرومان على جنة البارثيين والارمن والانباط •وفي عام ٧٣ قامت حملة رومانية بقيادة لوكيوس لوكولوس (L. Lucullus) بوضع حد لانتصارات ميثريداتس في آسية الصغرى الذي انكفأ بعد معركة كوزيكوس (على شاطىء بحر مرمرة) باتجاه أرمينية فلحق به لوكولوس الى أرمينية ، وعندما علم تيجرانس بهذا الغزو وكان وقتها (عام ٦٩) مشغولا في فرض سيطرته على الساحل السوري ونجح في الاستيلاء على عكا (حصن كليو باترا سليني) انسحب من سورية باتجاه الشمال •

خامسا ـ انطيوخس الثالث عشر آخر السلوقيين :

وما كادت الجيوش الارمنية تخلي سورية حتى أطل مرشح روما (أحد أبناء انطيوخس العاشر) انطيوخس الثالث عشر ، فرحب بـه الانطاكيون وأطلقوا عليه لقب الآسيوي (Asiatikos) للدلالة على اقامته فترة من حياته في آسية الصغرى • وكمعظم أسلافه بدأ انطيوخس الثالث عشر حكمه باعلان الحرب وكانت هذه المرة على (عزيز) • ويبدو انه لم يوفق في حملته على عزيز مما أدى الى نشوب اضطرابات في انطاكية تنادي بسقوطه ، ورغم انه وفق في ضرب الثورة عند عودته الى العاصمة عام ٦٥ فان بعض الناقمين الذين فروا من وجهه الى كيليكية حرضوا أحد أبناء فيليب السلوقي وكان يدعى فيليب أيضا على المطالبة بالعرش • وكان من الطبيعي أن يبحث انطيوخس عن حليف يشد به أزره بعدما أعلن عزيز تأييده للمرشح الجديد ، وقد وجد انطيوخس هذا الحليف في شخص سامسيجراموس (Sampsigeramos = شمسي جرم) أمير حمص وأرثوسا (Arethusa = الرستن) وعندما وصل شمسي جرم الى انطاكية ، دعا انطيوخس الى التباحث معه في شؤون الحرب ، وكان شمسي جرم قد اتفق مع عزيز على أن يتخلص كل منهما من مرشحه وان يقتسما الغنائم بينهما ، وفي حين لبى انطيوخس دعوة حليفه شمسي جرم الذي القى القبض عليه واحتفظ به أسيرا ، أفلت فيليب من قبضة عزيز ووصل الى انطاكية •

وفي عام ٦٤ وصل القائد الروماني بومبي بعد انتهائه من حرب ميثريداتس منتصرا الى سورية ليحل مشاكلها باسم روما ، وتلقى في انطاكية نداءا من انطيوخس الثالث عشر يرجوه فيه أن يعيده الى العرش • ولكن بومبي الذي كان يعرف ما تنوي روما القيام بـه لحل مشكلة سورية ومنازعات ملوكها والاخطار التي تتهددها من الشرق والشمال ، رفض طلب انطيوخس وجاء في رده عليه « ان الرجل الذي لم يستطع حماية سورية ضد تيجرانس واليهود ليس بالرجل المناسب لحكمها » • ورغم ان معظم المؤرخين يشكون في رواية يوسيبيوس التي تذكر ان الانطاكيين دفعوا مبلغا كبيرا من المال الى بومبي مقابل عدم موافقته على عودة انطيوخس ، إلا أن الرواية تعكس على الاقل سخط الانطاكيين بخاصة

والسوريين عامة على ملوكهم كما تعبر عن شعور عمّ الاوساط السورية بأن قبول حماية روما خير من الاستمرار في الفوضى . وهكذا دخلت سورية دائرة الحكم الروماني في عام ٦٤ ، وقام شمسي جرم باغتيال انطيوخس الثالث عشر . وعندما دعا بلاط الاسكندرية في عام ٥٦ آخر السلوقيين فيليب الثاني لشغل العرش البطلمي الشاغر بعد هرب بطلميوس الثاني عشر الى روما،رفض حاكم سورية الروماني السماح له بالذهاب،وانقطعت آخر أخبار السلوقيين من التاريخ كما اندثرت أهمية سورية السياسية في التاريخ القديم .

أهم مصادر الباب السابع :

— العهد القديم — (نبوءة دانيال) (سفر المكابيين الاول والثاني)

— Appianus, Syrian Wars.

— Athenaeus., 2 - 13.

— Diodorus., 5.

— Diogenes Laeritus., 4

— Eusibius., 1.

— Josephus., Against Apion, 1

— ————, Antiquities .

— Justin., 24, 26, 27, 28, 41

— Livy., 30, 33, 38.

— Lucian., Pro Lapsu inter Salut, 9

— ————., Macrolii, 13

— ————., Zeuxis, 8

— Memnon., F.H.G., 3

— Michel., Recueil d'inscriptions Greque (Paris 1900)

— Pausanias., 1, 10

— Polyaenus., 4, 5, 8

— Polybius., 3,4 , 5, 7, 8, 9, 10, 11, 13, 18.

— Pliny. 7, 8

— Plutarchus., Moralia, De fraterno amore, 18

— Smith., Babylonian Historical Texts relating to the Capture and downfall of Babylon, Ch 2.

— Strabon., 766, 776, 778.

— Valerius Maximus., 9.

مراجع مختاره :

— Babelon. E. Les Rois de Syrie (Paris 1890).

— Bevan. E. The House of Ptolemy (Chicago 1968)

— ———. The House of Seleucus (London 1902)

— Cambridge Ancient History. Vols 6 - 7.

— Cambridge History of India. Vol. 1.

— Cary. M. The History of the Greek World 323 - 146 B.C. (London 1951)

— Dussaud. R. Topographie Historique de la Syrie antique et Medeivale (Paris 1927).

— Jouguet. P. Macedonian Imperializm and The Hellenisation of the East (London 1928).

— Tarn. W. W. Antigonus Gonatas (Oxford 1913)

— ——— Hellenistic Military and Naval Development (Cambridge 1930).

الباب الثامن

مظاهر
التاريخ الحضاري للامبراطورية السلوقية

الفصل الثامن عشر

(وسائل تحقيق اهداف السياسة الخارجية)

أولا ـ القوة العسكرية :

آ ـ العناصر الرئيسية في هذه القوة : اتسمت جيوش الدول الهلنستية من حيث الطابع والتكوين بالسمة الدولية ، ذلك أن هذه الجيوش كانت لا تعتمد في تكوينها على أفراد قومية واحدة بعينها فحسب بل كانت تتألف من جنود ينتمون الى قوميات متعددة . ولم تخالف جيوش السلوقيين هذا المفهوم العام للجيوش الهلنستية بل فاقتها من حيث تضمنها بعض العناصر التي لم يحوها أي جيش هلنستي آخر وذلك بحكم امتداد السيطرة السلوقية على عدة شعوب مختلفة .

وعلى الرغم من أن نسبة الجنود الذين كانوا ينتمون الى كل عنصر من هذه العناصر قد تفاوتت من فترة الى أخرى خلال الحكم السلوقي للمنطقة ، وامتداده أو انكماشه فان العناصر الرئيسية التي تهمنا والتي احتوتها الجيوش السلوقية قد تضمنت عناصر رئيسية ثلاثة كانت بحسب أهميتها كالتالي :

١ ـ المقدوني
٢ ـ الاغريقي
٣ ـ الفارسي

ويبدو أن الاعتماد أساسا على العنصر المقدوني كان أمرا طبيعيا أملاه اعتباران أساسيان : أحدهما هو أن هذا العنصر كان من جنس البيت المالك ، وشكّل بدون شك الدائرة الضيقة المباشرة التي يطمئن الملك السلوقي اليها ويأمن جانبها ، وهي الدائرة التي تكونت منها فرق الحرس الملكي وشكلت النواة الاساسية للفرق النظامية في جيش سلوقس واقرب خلفائه قبل ان تضطر ظروف خلفائهم الى استكمالها من عناصر أخرى •

والاعتبار الآخر ، وهو الاهم من الناحية النظرية هو أن المحاربين المقدونيين كانوا يمثلون بالنسبة للملك السلوقي كيانا سياسيا لا يمكن تصور قيام حكمه بدونه • وباعتبار ان نظام مقدونية السياسي كان يقوم على أساس أن الجيش المقدوني هو القاعدة السياسية الشعبية التي تضفي الشرعية على سلطات الملك ، فقد بذل السلوقيون جهودهم للحفاظ على من انضوى تحت لوائهم من المقدونيين ، كما شجعوا آخرين على القدوم بموجب امتيازات منحوها لقدامى المقدونيين في جيوشهم وأهمها ، الاقطاعات العسكرية •

وكان العنصر الثاني الذي اعتمد عليه سلوقس وخلفاؤه هو العنصر الاغريقي الذي عرف احتراف الجندية والارتزاق منها منذ زمن بعيد نتيجة لانعدام موارد الرزق وتفشي الفقر والعوز في بلاده • وقد اعتمد الاسكندر في حملاته على خدمات هؤلاء المرتزقة بالصورة نفسها التي اعتمد عليهم دارا وأسلافه من قبل • وكان من الطبيعي ان تتبلور القدرات القتالية لهؤلاء في أعين قواد الاسكندر وأن يقدروا قيمتهم العسكرية أثناء مشاركتهم لهم في معارك الاسكندر الكبرى •

وعندما أسندت ولايات الامبراطورية الى هؤلاء القواد أفادوا جميعا من خدمات المرتزقة وسارع هؤلاء إلى تقديم خدماتهم لسادتهم نظرا لحاجة كل من الطرفين للآخر ، فالمرتزقة يبحثون عن فرص مادية للعيش ، والحكام يوفرون هذه الفرص لحاجتهم الماسة الى الخدمات المعروضة •

ويتبين من مصادرنا أنه من بين كل الشعوب الشرقية التي سيطر عليها السلوقيون لم يخدم في جيش السلوقيين إلا الفرس وبعض البابليين • ومع ذلك فان هؤلاء لم يستخدموا بالكثرة نفسها التي استخدمهم بها الاسكندر • ولعل

اقتصار السلوقيين في الاعتماد على الفرس في جيوشهم يرجع قبل كل شيء الى رغبتهم في ألا يكون الطابع العام لجيوشهم طابعا شرقيا ، وفي الاعتماد أساسا على المقدونيين والاغريق الذين أثبتت حملات الاسكندر تفوقهم على الفرس ، ولكنه تفاديا لجرح شعورهم وكسبا لودهم لم يغفلوا اشراكهم في قواتهم .

ب ــ المشــاة : كان الجيش السلوقي مثله مثل بقية الجيوش المقدونية يتألف من تشكيل رئيسي هو الفيلق أو (الفالانكس) ، بالاضافة الى تشكيل آخر بقي ساريا منذ أيام فيليب ألا وهو فرق الرفاق المشاة التي استعمل اسمها بكثرة وأطلق فيما بعد على فرقة حملة الرماح السوريين المقدونيين .

وقد سلح رجال الفيلق برماح ضخمة طولها حوالي سبعة أمتار وكان رجال الفيلق يحملون الى جانب رماحهم سيوفــا ، ويعتمرون خوذا ويرتدون أغطيــة لسيقانهم ويحملون دروعا حديدية على سواعدهم حتى يتمكنوا من حمل الرمح الطويل . وينتظمون في الفيلق صفوفا عددها ستة عشر صفا، وكانت الصفوف الخمسة الاولى تقف في حالة الهجوم حاملة رماحها الطويلة في المقدمة ودروعها المتلاصقة تكوّن جبهة حديدية تكاد أن تكون متماسكة .

ونحن لا نعرف عدد رجال الفيلق في جيش سلوقس ، ولكنه من الجائز انــه كان يبلغ حوالي ثلث عدد رجال الجيش كله ، وذلك في ضوء معلوماتنا عن جيوش السلوقيين خلفائه . ذلك أنه كان يتراوح في العدد حوالي (٢٠) ألف رجل مــن جيش قوامه (٦٠) ألفا في معركة رفح عام (٢١٧) . واستعراض دفنه عام (١٦٦) كما بلغ تعداد الفيلق في معركة ماجنيزيه عام (١٨٩) بين (١٦ ــ ١٧) الف رجل من أصل جيش مجموعه (٦٢) ألفا .

وكانت فرق المشاة الرفقاء فرقا نظامية خفيفة العدة تسمى « حملة الدروع » فقد كان رجالها يحملون الــدروع المقدونية ، وكانت دروعا معدنية مستديرة ، ويؤلفون جزءا هاما في جيش سلوقس الاول . وقد لعب هؤلاء المشاة دورا كبيرا في حصار سارديس زمن انطيوخس الثالث ، وكانوا يلازمون الملك شخصيا .

وقد اعتمد السلوقيون مثلما اعتمد الفرس فيما مضى والاسكندر وخلفاؤه بصورة عامة على نموذج آخر من المشاة الخفيفي العدة ، وكانوا من المرتزقة ويعرفون أحيانا باسم أسلحتهم التي اشتهروا بها وابتيعت خدماتهم من أجلها ، وأحيانا باسم جنسياتهم أو بالاسمين معا • واذا لم يكن في الاصل لجنسية الفرقة قيمة مطلقة فانه منذ عهد بعيد اكتسبت الجنسية شهرة سلاحها الخاص ، وأصبح اسمها اصطلاحا حربيا فنيا يدل على ذلك السلاح •

وقد تميزت بعض نماذج المشاة المرتزقة الخفيفي العدة بحملها دروعا غير معدنية ، كما شكل الكريتيون نوعا متميزا آخر من حملة هذه الدروع ، وكونوا عنصرا هاما في الجيش السلوقي نتيجة براعتهم في استخدام أقواسهم ونشابهم وبخاصة في حرب الجبال ، ولم يكن أي جيش من جيوش العصر يخلو من فرقة من المرتزقة الكريتيين ، وتبعا لذلك كانوا يحاربون مع كلا الجانبين المتقاتلين • ولعل أقرب الفرق التي شابهت الكريتيين في قيمتها القتالية فرق الكاريين والكيليكيين بالاضافة الى التراقيين الذين اشتهروا بدروعهم الكبيرة وسيوفهم المستقيمة ذات الحدين ، والغال بدروعهم المستطيله وسيوفهم الطويلة الى حد غير عادي •

جـ ـ الفرسان : وحسب التقاليد المقدونية ، كان الفرسان يحتلون مرتبة أعلى شأنا من المشاة ، وقد استمروا يؤلفون في الجيش السلوقي فرقا مختلفة متباينة في المركز • ولا سبيل الى الشك في أن كتائب الرفقاء المؤلفة من الفرسان النبلاء ، وكتائب الخيالة الملكيين كانت تحتل مكانة أسمى من باقي فرق الفرسان أو الاجيما (Agema) ، فقد كانت هذه الكتائب وتلك توصف بأنها « صفوة الفرسان » • وبما ان فرقة الخيالة الملكيين كانت تحيط بالملك أثناء المعركة ، فانه من المحتمل أنها كانت صفوة الصفوة أي صفوة كتائب الفرسان الرفقاء •

ولا شك ان فرقة الفرسان المدرعة مع خيولها ، وهي الفرقة المسلحة على

النموذج الفارسي ، قد خدمت في جيوش السلوقيين ولكنها على ما يبدو من ندرة الاشارات اليها لم يكن لها من الاهمية مثلما كان لها في الجيش الفارسي •

د ـ الفيلـة : ومنذ انتهاء سلوقس من صراعه مع تشاندرا جوبتا كانت توجد دائما فرقة من الفيلة في جيوش الملوك السلوقيين الاوائل ، وكانت تشكل عاملا هاما من عوامل قوة الجيش السلوقي • وقد ساعد أولئك الملوك على تزويد جيوشهم بهذا السلاح الشبيه بسلاح الدبابات ، انهم من بين كافة الملوك الهلنستيين كانوا يستطيعون تأمين احتياجاتهم باستمرار بفيلة هندية • وينهض دليلا على الاهمية التي كان الملوك السلوقيين يعلقونها على الفيلة ، انها رسمت على عدد كبير من نقودهم وبشكل خاص نقود سلوقس الاول • ولعل اللقب الساخر لقب « صاحب الفيلة » (Elephantarchis) وهو الذي أطلقه دمتريوس على سلوقس الاول يدل دلالـة واضحة على مدى الاهمية التي كان سلوقس يعلقها على تواجد مثل هذه الفرقة في حوزته من هذه الحيوانات • وعندما حاول البطالمة مجاراة السلوقيين في هـذا الصدد ، استعانوا بالفيلة الافريقية ، وبرغم أنها كانت أدنى مستوى مـن الفيلة الهندية ، فان البطالمـة استمروا يستخدمونها في جيوشهم حتى عهـد بطلميوس السادس • وقد أدت الفيلة خدمات جليلة في المعارك ، فهي الى جانب تهديدهـا للفرسان والمشاة وهدم تحصينات العدو ، كانت تشارك بحمل أبراج خشبية يمتطيها أربعة محاربين من النبالة أو الرماحين على الغالب ، بالاضافة الى سائقها الماهوت (Mahout) ويعتقد ان سّواسها كانوا يضعون أمامها قبل الحرب مباشرة مزيجا من عصارة الفواكه مشابهة للون الدماء الحقيقية حتى لا تخشاها أثناء المعركة • ولم يستمر استخدام السلوقيين للفيلة كثيرا بعد معركة ماجينزيه (١٨٩) وذلك لان نصوص معاهـدة أباميـة حرمت عليهم أن تضم جيوشهم فرقا مـن الفيلـة • ولـم نعـد نسمع اطلاقـا عن أيـة فيلـة في الجيش السلوقي بعـد تروفـون (Tryphon) مغتصب العرش السلوقي الذي قتله انطيوخس السابع (سيدتس) في عـام ١٣٨ •

هـ ـ فرق أخرى : وبعد معركـة ماجنيزيه عاد السلوقيون الـى الاعتماد بصورة أكبر على « العربات المنجلية » التي لم تبرهن على فعاليتها كثيرا ، وهـي

التي استعملها الملوك الفرس من قبل واعتمد عليها كثيرا سلوقس الاول نيكاتور •

وعلى الرغم من أنه ليس لدينا دليل قاطع على استمرار وجود فرقة « الصبية الملكيين » في الجيوش السلوقية وهي التي اعتمد عليها الاسكندر في حروبه ،وكانت تعتبر « مشتلا للحكام وقادة الجيوش » فان الاستاذ بيكرمان يفترض وجود مثل هذه الفرقة الملكية في خدمة الملك والبلاط بصورة رئيسية •

و ــ الجيش في المعارك : ولم يكن ترتيب الجيوش السلوقية في حالة المعركة يختلف كثيرا عن النماذج السائدة في الجيوش المعاصرة ، ولعل وصف معركة ابسوس أو « معركة الملوك » يعطينا تفصيلا لهذا الترتيب ، إذ شكل الفيلق قلب الجيش كما ألّف المشاة الخفيفوا العدة ، وبخاصة حملة الرماح ، مع فرق الفرسان جناحين لهذا التشكيل • وكان الفيلق يبدو وفقا لوصف ابيانوس كحائط قوي بينما تبدو الفيلة كأنها أبراج لهذا الحائط ، والكل لا يتحرك الا بناء على الاوامر التي كان الملك يصدرها من المؤخرة ، حيث كان يظل على اتصال مستمر بخطوطه الامامية والخلفية وذلك تطبيقا للمبادىء الاستراتيجية التي ابتدعها الاسكندر ، وكان من أهم أسسها الحفاظ بحرص على سلامة خطوط المواصلات بين القاعدة وميدان المعركة •

ز ــ الاسطول : ولا جدال في أن أول ما يتبادر الى الذهن هو أن الاحتفاظ بأسطول قوي كان أمرا حيويا بالنسبة لامبراطورية مترامية الاطراف طويلة السواحل كالامبراطورية السلوقية • بيد أن مصادرنا الادبية ونقوش تلك الفترة تخلو من أي ذكر لأسطول سلوقي يتناسب مع حجم الامبراطورية • ويجب ألا يدعو ذلك الى أثارة العجب والدهشة للاسباب التالية :

ذلك أن سيطرة سلوقس السياسية منذ تعيينه واليا على بابل (٣٢١) ومنذ استعادة هذه الولاية في عام ٣١٢ حتى معركة ابسوس في عام ٣٠١ كانت سيطرة قارية بحتاً ، ولم تتعد ممتلكاته البحرية قسما صغيرا من شواطىء الخليج العربي الذي انعدمت فيه النشاطات البحرية العسكرية لملوك أو أمراء العصر • وكذلك كانت المعارك الضارية التي خاضها طوال هذه المدة معارك برية • وتبعا لذلك

انصرف هم سلوقس أساسا الى بناء جيش قوي ، بيد أنه لما كان سلوقس شديد الاهتمام بالتجارة الشرقية ، وكان أحد طرق هذه التجارة يمر بالخليج العربي فاننا لا نستبعد أنه كان لسلوقس وخلفائه على الاقل أسطول صغير في هـذا الخليج لتأمين التجارة في هذه المنطقة .

وبعد هزيمة انتيجونوس في ابسوس ، آلت الى سلوقس معظـم ممتلكاته القارية وقسم صغير من الشاطىء السوري ، في الوقت الذي بقي اسطول انتجونوس يدين بالطاعة لابنه دمتريوس ، ومن الجائز أنه وقد امتدت دولته عندئذ الى شاطىء البحر المتوسط فقد شرع في بناء أسطول ليكون ندا لدمتريوس وبطلميوس . ولما كان بناء أسطول كبير يستغرق وقتا فانه فيما يبدو ازاء الصراع المرتقب بينه وبين بطلميوس تحالف مع دمتريوس ليسد النقص في قواته البحرية بأسطول دمتريوس . ولعل أن سلوقس كان يأمل أن يؤول اليه هذا الاسطول بطريق أو آخر ، ولكن تشاء الظروف انه بعد هزيمة دمتريوس وأسره ، نجح بطلميوس في اغراء قائـد بحرية دمتريوس بالانضمام اليه عام ٢٨٥ .

ولا شك في أنه ازاء ذلك وازاء اتساع ممتلكات سلوقس البحرية باستيلائه على معظم شاطىء آسية الصغرى الغربي نتيجة انتصاره على لوسيماخوس ، قـد أصبح من المتعين على سلوقس أن يكون له أسطول يضاهي أساطيل تلك الفترة إذا أراد الاحتفاظ بممتلكاته البحرية وتحقيق أطماعه التوسعية ، الا أن اغتياله المفاجىء بعد أشهر قليلة من كوروبديون حال دون تحقيق هذه الفكرة .

ويبدو أن معظم خلفائه لم يستشعروا الحاجة الى أسطول قوي نظرا لانعدام نشاطاتهم البحرية واتكالهم على القوة البحرية لبعض المدن الفينيقية ، وكذلك تقوقع الاساطيل الكبرى في العالم الهلنستي . وباستثناء ما تذكره المصادر القديمة من أن هانيبال جنّد أسطولا فينيقيا لصالح انطيوخس الثالث قبل معركة ماجينزيه التي خاضها الاخير ضد الرومان ، وكذلك الاسطول الذي رافق انطيوخس الرابع في حملته على مصر (والذي يرجح معظم المؤرخين المعاصرين اعتماده على العناصر الفينيقية) نكاد لا نسمع خبرا عن أسطول سوري رسمي .

٢ ــ الوسائل الدبلوماسية (الاعانات والمصاهرات) :

ولا ريب في أن القوة العسكرية هي أولى الوسائل لتنفيذ السياسة الخارجية لأية دولة من دول العالم قديمها وحديثها • بيد أنه مهما يبلغ شأن القوة العسكرية التي لدى أي دولة ، فان هذه الوسيلة لا تستخدم دائما لتحقيق الاهداف السياسية، وذلك من ناحية بسبب التكاليف الباهظة التي يقتضيها استخدام هذه الوسيلة وعدم توافرها احيانا ، ومن ناحية أخرى بسبب ما يترتب على الالتجاء دائما الى القوة من الاتسام بالعدوان •

ولا شك أن ادراك ذلك كله قد أوجب على معظم حكومات العالم القديم والحديث أيضا الاعتماد على أساليب أخرى أقل تكاليف مادية ومعنوية وان لم تقل فعالية عن القوة الغشوم • واحدى هذه الوسائل هي تقديم المساعدات والاعانات الخارجية لبعض الدول الصغيرة التي تتمتع بامتيازات استراتيجية أو صفات قدسية ، رغبة في تحقيق بعض التسهيلات السياسية أو الاقتصادية أو العسكرية ، أو تقربا من طائفة أو ديانة معينة حتى ولو كانت هذه الدويلة أو هذه المدينة تدخل ضمن نطاق الامبراطورية سياسيا •

ولهذا قام انطيوخس الاول عام ٣٠٠/٢٩٩ بانشاء رواق خاص بالخدمات التجارية في مدينة ملطية بتكليف من أبيه • كما قام سلوقس نفسه باهداء معبد ابولون في المدينة نفسها كمية كبيرة من الهدايا • ويحدثنا بوليبيوس ان انطيوخس الرابع كان كريما في هباته الى المدن والمعابد دون ان يفصل في امدادنا بمعلومات اضافية • كما تخبرنا مصادرنا أن أنطيوخس الثالث قدم الى حلفائه الايتوليين مساعدات بحرية اضافة الى توزيع الكثير من الدراهم على السياسيين الاغريق تقربا منهم قبل حملته على بلاد اليونان • وتعتبر الهدايا السياسية التي دأب بعض الملوك السلوقيين المتأخرين على ارسالها الى أعضاء مجلس الشيوخ الروماني من أفضل الوسائل الدبلوماسية لتحقيق أهداف سياسية معينة •

ولا شك أن أهم الوسائل الدبلوماسية لتحقيق الاهداف السياسية الخارجية لدول العالم القديم بشكل خاص ، كانت المصاهرات السياسية ، وقد عرفنا ان سلوقس أقدم على زيجتين له ضمن بواسطة الاولى ولاء المناطق الفارسية ثما

ضمن عن طريق الثانية الاعتماد على قوة صهره وخاصة قوته البحرية ، هذا الى أن اتفاق المصاهرة بموجب المعاهدة التي عقدها مع تشاندراجوبتا كفل له حسن الجوار وتأمين حدوده الشرقية وتدفق البضائع الهندية مثلما ضمن حليفا قويا يشد أزره عسكريا في ساعة الشدة،فكانت تلك المعاهدة بحق أكبر نصر سياسي أنجزه سلوقس في حياته وحقق بواسطته هدوءا سياسيا وعسكريا للمناطق الشرقية استمر ساريا على مدى فترات طويلة من حكم أحفاده .

ويبدو أن الظروف السياسية التي مرت بالدولة السلوقية لم تسمح لخلفاء سلوقس بالاخلاص للقاعدة التي استنها مؤسس سلالتهم أو بالاحرى لم تضطرهم اليها الا في حالات قليلة ، وباستثناء زواج انطيوخس الثاني من برنيكي ابنة بطلميوس الثاني لانهاء حالة الحرب الباردة بين مصر وسورية وزواج انطيوخس الثالث من لاوديكي ابنة ملك بونتوس قبل حرب الاول من روما وزواج انطيوخس السابع من كليوباترا ابنة بطلميوس السابع لدعم أحقيته في وراثة العرش السلوقي . وإذا استثنينا حالات زواج بعض الاميرات السوريات ببعض ملوك أو اولياء عهود الامارات المعاصرة المتواضعة في أهميتها ، وبخاصة في عصري سلوقس الثاني وانطيوخس الثالث ، فاننا لانجد في مصادرنا حالة مصاهرة هامة أخرى غير الحالات الثلاث السابقة .

الفصل التاسع عشر

(نظـم الحكـم)

أولا ــ السلطة المركزيـة :

١ ــ سلطـة الملـك :

تخلو المصادر القديمة من الحديث تفصيلا واجمالا عن السلطات التي كان السلوقيون يمارسونها ، بيد أنه لمـا كان سلوقس قد اكتسب كل ممتلكاته بحـد السيف وكان حق الفتح يكسب الفاتح حقوقا مطلقة على الاقاليم التي فتحها ، بل ان فشل برديكاس (عام ٣٢١) في اخضاع بطلميوس للسلطة المركزيةفي الامبراطورية أكسب بطلميوس حق اعتبار مصر غنيمة حرب ، فلا شـك في أن سلوقس شأنه في ذلك شأن بطلميوس قد اعتبر نفسه صاحب البلاد التي فتحها وسيد رعيته المطلق الذي تتركز بين يديه كافة السلطات وذلك بحق الفتح فضلا عن حق الارث عـن الاسكندر •

بيد انه ازاء الفارق الهائل بين طبيعة الاحوال في كل من الدولتين البطلميـة والسلوقية ، يصعب أن تتصور ان سلطات سلوقس أو أي ملك سلوقي بلغت مبلغ السلطات التي تمتع بها أي ملك من ملوك البطالمة في مصر • ذلك ان الدولة البطلمية كانت تستند على قاعدة عريضة ذات مقومات وحدوية عريقة ، وان رعايا البطالمة كانوا يتألفون من عنصرين رئيسيين هما المصريون والاغريق ، وأما الدولة السلوقية فانها حتى عام ٣٠١ كانت لها قاعدة واحدة هي منطقة بابل وعاصمتها سلوقية على نهر دجلة ، ثم منذ عام ٣٠١ أصبحت لها قاعدة ثانية هي شمال سورية وعاصمتها سلوقية بيريه ثم انطاكية ، ثم منذ عام ٢٨١ أصبحت لها قاعدة ثالثة وهي ايونيـة وعاصمتها سارديس • وتبعا لذلك تعددت عناصر السكان وتضمنت الـى جانب

الاغريق والمقدونيين ، سوريين وفرسا وبابليين وأعراب ويهود وغير ذلك من الاقوام والطوائف •وتبعالذلك كله اتسمت الدولة بالاتساع الى جانب تعدد الاجناس مماكان يتعذر معه سيطرة الملك الحاكم على النحو الدي كان يتيسر لملك يحكم دولة مثل مصر • وازاء اتساع رقعة الامبراطورية السلوقية،حذا ملوكها حذو الاسكندر في اتباع الطريقة الفارسية في الادارة وهي التي كان قوامها تقسيم الامبراطورية الى عدد من الوحـدات الادارية تماثلت أحيانا واختلفت أحيانا أخرى نظـم حكمها المحلية ، وكذلك مـدى خضوعها للسلطة المركزية عـلى نحو ما سنرى تفصيلا فيما بعـد •

وهكذا نرى ان طبيعة الظـروف والاوضاع اقتضت منذ تأسيس الدولـة السلوقية في بابل في عام ٣١٢ ، ان يكون على رأس السلطة المركزية ملك يتمتع بسلطات واسعة تماثل سلطات أسلافه ملوك الاخمينيين ، وان يكون نظام الحكم في الامبراطورية على غرار النظام الفارسي •

فلا غرو اذا أن الطابع العام لنظام الحكم السلوقي كان طابعا اوتوقراطيا ولا أن هذا النظام شأنه شأن النظام الفارسي كان يقوم على المبدأ القائل بأن « رغبة الملك فوق القانون » ، ومع ذلك فانه ازاء تعدد الوحدات والاجناس التي تألفت منهـا الامبراطورية ، وإزاء بعد الشقة بين كثير من هذه الوحدات ومقر السلطة المركزية ، فانه كان طبيعيا ألا يتمتع الملك الحاكم بسلطته المطلقة على كل أنحاء الامبراطورية ، بل ألا تكون سيطرته على بعض أجزائها أكثر من سيطرة اسمية ، وان تعاني الدولة السلوقية مثلما عانت الامبراطورية الفارسية من عوامل الافتقار الى الترابط •

ورغم وجود بعض ممثلين للارستقراطية المقدونية القديمة في البلاط السلوقي، وبخاصة في بلاط سلوقس الاول ضمن طبقة النبلاء التي شكّلت حاشية الملك ، إلا أن هؤلاء النبلاء القلائل كانوا يفتقرون الى الركيزتين الاساسيتين اللتين كانـوا يستمدون منهما قوتهم في الماضي وهما : ارتباطهـم التاريخي بأراضيهم ، وولاء

الجيوش الصغيرة التي كانت ترفد جيوش الملك المقدوني قديما • ولهذا فان وجود ممثلين للنبلاء القدامى في بلاط سلوقس أو أحفاده من بعده لم يكن يشكل أي خطر على نفوذ الملك ، سيما وأنهم لم يؤلفوا الا جزءا يسيرا مـن طبقة النبلاء الجديدة التي تكوّن معظمها من أشخاص رفعهم الملك الى هذه المرتبة ، وأغـدق عليهم امتيازات خاصة فأصبحوا يدينون بالولاء الى الملك شخصيا •

ووفقا للتقاليد المقدونية كانت « جمعيـة الجيش » في الاصل هـي مصدر السلطات بوصفها الشعب المقدوني منتظما في صفوف فرقه العسكرية • بيد أنـه على مـر الزمن أصبحت مهمة الجيش السياسية مقصورة على مبايعة الملك الجديد عند ارتقائه العرش ، ومن الناحية الشكلية فقط •

ورغم ذلك لا تمدنا المصادر القديمة إلا بثلاثة أمثلة لاتباع مثل هذا التقليد بعد عهد سلوقس الاول • وأحد هذه الامثلة هو استدعاء الجيش انطيوخس الثالث من بابل بعد مقتل أخيه سلوقس الثالث (٢٢٦ ــ ٢٢٣) لتسلم زمام الامور في البلاد • والمثل الثاني هو قيام حرس الطفل انطيوخس (الخامس) بالمناداة بـه ملكا في عام ١٦٣ بعد موت أبيه • والمثل الثالث هو استجداء ديودوتوس تروفون تأييـد الجيش والشعب عند محاولته اغتصاب العرش من دمتريوس الثاني عام (١٤٥ ــ ١٤٢) •

ويتضح مما عرضناه أنه رغم اعتماد النظام السياسي عـلى الاوتوقراطية الفارسية فانه لم يغفل بعض مظاهر الملكية المقدونية الشعبية ولو من حيث الشكل • كذلك لم يغفل النظام نفسه الاعراف والتقاليد الهللينية السياسية في الحكم رغـم معارضتها الشديدة للملكية المطلقة كما سنرى بعد قليل •

٢ ــ ألقـاب الملـك :

ويبدو أن الفكرة التي راودت بطالمة مصر لاثبات دوام الملكية في أسرتهم برغم انتقالها من فرد الى آخر ، وذلك بأن يحمل كل وريث للعرش اسم (بطلميوس) ، لم تراود الملوك السلوقيين • ذلك أنهم وبخاصة أوائلهم درجوا الى حد مـا على تسمية أولياء عهودهم بأسماء آبائهم ، ولكن المنازعات الاسرية بين فروع ورثـة

العهود حالت دون استمرار العمل بهذه القاعدة ، وان كان يلاحظ أن جميعهم لم يشذوا عن استخدام اسم (سلوقس) واسم (انطيوخس) باستثناء دمتريوس الاول والثاني •

وقد ساير الملوك السلوقيون النهج السائد بين ملوك العصر بحمل ألقاب كانت تضاف الى أسمائهم وينم كل منها على صفة بعينها • ورغم عدم معرفتنا منشأ كل هذه الالقاب فانه مما لا شك فيه ان بروز هذه الالقاب ، قد ارتبط بحوادث معينة حقيقية كانت أو مختلقه لاسباغ صفة خاصة على صاحب اللقب • ويمكن تقسيم هذه الالقاب الى ثلاث فئات : (الهية) مثل ثيوس وديونوسيوس ، و (وصفية) مثل نيكاتور وسوتروكالينيكوس ، و (أسرية) مثل فيلوباتور ويوباتور •

وكان بعض الملوك السلوقيين يشابهون البطالمة من حيث أن رعاياهم أو منافسيهم أطلقوا عليهم ألقابا ساخرة تجسيدا أو تضخيما لاحدى صفاتهم فنعرف مثلا انه عندما أصبح دمتريوس ملكا أطلق على سلوقس اللقب الهازىء (مربي الفيلة) ، كما أُطلِقَ على انطيوخس الرابع لقب (الرأس الفارغ) وعلى انطيوخس الثامن لقب (ذي الانف الاقنى) •

٣ ــ رجال البلاط وألقابهم الفخرية :

وكان من سمات النظام الملكي في التاريخ القديم وحتى الحديث الى حد ما ، وجود حاشية ملكية يحمل أفرادها ألقابا فخرية متباينة في المرتبة • وبالمثل كان للملك السلوقي حاشية أوجد نواتها سلوقس الاول منذ ان أصبح واليا على بابل واصطفى لنفسه عددا ممن توسم فيهم القدرة على مساعدته في ادارة شؤون الدولة، وعلى مر الزمن كوّن هؤلاء الاصفياء بلاطا ينقسم الى طبقات يميز كل منها عن الاخرى لقبها الفخري •

وعلى غرار ما كانت عليه الحال في البلاطين المقدوني والبطلمي ، كان أقدم هذه الالقاب الفخرية هو لقب (الاصدقاء) ثم تعددت الالقاب وأصبحت مرتبة

ترتيبا تنازليا على نحو يماثل ما كانت عليه عند البطالمة : (أقارب الملك) و (نظراء الاقارب) و (الاصدقاء الاول) و (الاصدقاء) •

ولعل أكبر شرف نالته طبقة أقارب الملك بالاضافة الى امتيازاتها الاخرى التي غمضت علينا ، كان مخاطبة الملك لافرادها بأحد اللقبين (أب) أو (أخ) بحسب سن كل واحد منهم بالنسبة للملك على الارجح ، وبخاصة حين يكتب رسالة الى أحدهم • في حين يصعب علينا أن نتبين طبيعة العلاقة بين الملك وبقية طبقات الحاشية •

ويبدو أن حملة الالقاب الفخرية كانوا يميزون بألوان أثوابهم وشاراتهم • ولا يعرف عن هذه الثياب والشارات أكثر مما تذكره مصادرنا من أن (الاصدقاء) كانوا يرتدون اللون القرمزي أسوة بالنبلاء الفرس ، ويحملون أحيانا لقبا مشتقا من لون الثوب • ومن المرجح أن باقي حملة الالقاب كانوا يرتدون اللون نفسه مع فارق في زينة الرداء تمييزا لكل طبقة عن الاخرى • ونظرا لاعتبار الثياب هدية شخصية من الملك ، لم يكن يسمح لأحد من غير أصحاب الالقاب بارتداء مثل هذه الثياب •

ولما كانت طبقة النبلاء في الدولة السلوقية طبقة اصطنعها الملوك كما أسلفنا ، فان الاندماج في هذه الطبقة لم يكن مقصورا على فئة بعينها من رعايا الدولة ، بل كان يمكن لأي انسان أن يرتقي في هذه الطبقات حسب مشيئة الملك حتى ولو كان من غير رعايا الدولة • ويرى بعض كبار مؤرخينا ــ بناء على ما سبق ــ ان أصدقاء الملك أو كبار نبلاء البلاط كانوا يؤلفون ــ على الاقل ــ في الفترة الهلنستية الباكرة مجلسا استشاريا يشاورهم الملك في شؤون الدولة ، ويختار منهم كبار موظفيه في حالة السلم وكبار قواده في حالة الحرب •

٤ ــ مساعدو الملك :

وكان من بين كبار رجال البلاط السلوقي موظف لقبه (هوايبي تون براجماتون) ويعني « القائم على شؤون المملكة » ، مما يدل على أنه كان بمثابة كبير الوزراء أو الوزير الاكبر ، ويتربع على قمة التنظيم الاداري ، ويليه في الاهمية

موظف لقبه (ايبستولوجرا فوس) ويعني « القائم على شـؤون المراسلات » ، ويعتقد بعض المؤرخين أن مهمة هذا الموظف كانت بالاضافة الى تسيير أمور الدولة الخارجية والمقاطعات البعيدة ، الاشراف على شؤون الدولة القضائية • وتخبرنا المصادر بوجود مناصب في عهود متفرقة مثل منصب (ارخياتروس) ويعنـي « طبيب الملك » ، ومنصب (ديويكيتس) ويعني «وزير الخزانة» •وتشاء الصدف أن نجد في مصادرنا ذكرا لمنصب « رئيس حجاب الملكة » وألا نجد ذكرا لمنصب رئيس حجاب الملك •

٥ ـ المراسـم :

واذا كان الملك السلوقي قد تبنى الفكرة الاتوقراطية الفارسية وماثل بلاطه البلاط الفارسي ، فان البلاط الاول كان أكثر تحررا من الثانـي في بعض مراسمه ولا سيما فيما يخص بتبجيل الملك • ذلك انه ليس لدينا أي دليل يثبت أن أحدا من الملوك السلوقيين قد أمر رعاياه بالسجود له عند المثول أمامه على نحو ما فعل الاسكندر •

ورغم اننا لا نعرف الكثير ، عن أصول وقواعـد مقابلة الملك في البـلاط السلوقي ، فان بعض اشارات مصادرنا تثبت أن الملك كان يحيى بلقبه الملكي ومع اضافة اسمه اليـه أحيانا ، وعند الانصراف من حضرة الملك كـان يحيى بعبارة (هوجياين) وتعني « تمتع بصحتك جيدا » • ويبدو أنه طبقا لمكانة الزائر كـان الملك اما يكتفي بمصافحته باليد واما يسمح له كذلك بتقبيله على غرار ما فعل الاسكندر من قبل •

واذا كان الملك قد حرر رعاياه فانه لم يكن في وسعه رفع الكلفة بينه وبين سائـر رعايـاه والاختـلاط بهـم دون أن يثـير استيـاء الشعـب وتنديده • ويـذكر المؤرخان ديودوروس وبوليبيوس أن الشعب خلـع على انطيـوخس الرابع لقب (الرأس المجنون) أو (الدماغ الفارغ) بسبب محاولاته الظهور بمظهر الملك العصري وارتياد الحمامات العامة والتجول في شوارع المدينة•كماندد المؤرخ بوسيدونيوس الابامي بأنطيوخس التاسع لانه كان يجرؤ على مغادرة قصره للصيد دون علم البلاط ودون اصطحاب أحد معه مكتفيا برفقة اثنين أو ثلاثة من الارقاء •

ويخبرنا بوليبيوس بأن انطيوخس الثالث كان يدعي المرض تبريرا لخروجه على القواعد الواجب الالتزام بها •

وقد علمنا بطريق الصدفة بعض الشيء عن رسميات الحداد وكيف أن الملك كان يرتدي السواد ، وكيف أن القصر كان يغلق لعدة أيام توقف فيها المقابلات والاستقبالات • وعلى الرغم من أن مدة الحداد غيرمعروفةفانهمن المرجح انها كانت تستمر تسعة أيام وفقا للعادة الاغريقية •

٦ ــ القصر :

وكان الملك يقيم بالطبع في قصر يطلق عليه (أولي) أو (توباسيليون) ولا شك أنه امتلك قصورا غير القصر الموجود في العاصمة السورية ، مثل قصر ساردیس في آسية الصغرى وقصر سلوقية دجلة وقصر سوسا ، وفي غيرها من العواصم الرئيسية ويبدو أن جميع أمكنة الاقامة الملكية حتى الخيمة الخاصة ، التي كان يقيم فيها الملك أثناء الحرب ، كان يطلق عليها على السواء بلاط الملك •

ولم يخل القصر السلوقي من بعض الظواهر الفارسية التي تمثلت في جيش من الحجاب والطهاة والارقاء والخصيان ، وقد غلبت على القصر روائح البخور والصبر والقرفة • ورغم أن طرق ادارة القصر كانت شرقية واضحة ، فان الطابع العام كان اغريقيا ، ويتضح ذلك بجلاء مما تذكره المصادر عن طرز الاعمدة والابواب وزخرفة الجدران وأشكال المصابيح والاكواب وألبسة الرجال والنساء •

٧ ــ اللباس :

كان رمز الملكية السلوقية الديادیما (Diadima) وهي عبارة عن شريط أزرق اللون تنتشر فيه نقط بيضاء ، والدياديما في الاصل لباس رأس الملوك الفرس اتخذه الاسكندر بعد نصره على دارا رمزا للسلطة الملكية واقتفى أثره في ذلك كل خلفائه ومن بينهم سلوقس وسلالته •

وكان الزي الرسمي لملوك العصر الهلنستي من سلوقيين وبطالمة يتألف من

قبعة واسعة ذات حافة عريضة ، ومن سترة قصيرة تعلوها عباءة كانت تزين بدبوس عند أسفل الرقبة أو على الاكتاف تنسدل الى ما بعد الركبة ، ومن نعل سميك يربط على الساق بأشرطة تصل الى أسفل حافة العباءة •

٨ ــ الشعار :

وكان شعار بيت سلوقس هو المرساة ، وقد ظهرت بكثرة على نقود الاسرة وبررت وجودها روايات عديدة ، وعلى الرغم من أن معظم الظواهر تشير الى أن صورة هذه المرساة كانت رمزا خاصا بأسرة سلوقس من قبل أن يؤسس مملكته فان أصلها لا يزال غامضا • ومن البدهي أنه لا يمكن عقلا قبول الروايات التي تزعم أن كل فرد من أفراد الاسرة السلوقية كان يولد وعلى فخذه علامة مرساة ، وان كنا لا نستبعد أنهم كانوا يوشمون بتلك العلامة في وقت ما بعد مولدهم •

٩ ــ اللغة الرسمية :

كانت الاغريقية لغة البلاط السلوقي ، واللغة الرسمية للدولة بشكل عام • ولم يقدم سلوقس وخلفاؤه على استخدام أية لغة أخرى في شؤون الدولة الى جانب الاغريقية مثلما استخدم البطالمة اللغة المصرية القديمة في اللوائح والقوانين والقرارات وبخاصة ما كان منها متعلقا بشؤون الضرائب • ويعزى التزام السلوقيين اللغة الاغريقية دون غيرها الى تعدد اللغات وتنوعها في امبراطوريتهم •

ولا تحدثنا مصادرنا عن قدرة أي ملك سلوقي على التكلم بأية لغة غير الاغريقية ، ولعل أن ذلك كان شأن سائر الملوك الهلنستيين باستثناء كليوباترا السابعة التي وفقا لما يذكره بلوتارخوس كان في وسعها التحدث بعدة لغات • ومع ذلك فانه لا يبعد أن الاسرة المالكة السلوقية كانت تستخدم اللغة المقدونية في أحاديثها الخاصة داخل نطاقها الضيق ، وكانت هذه اللغة شديدة القرب من الاغريقية •

ثانيا ــ السلطة المحلية والتنظيمات الادارية :

سبق أن ذكرنا أن سلوقس حذا حذو الاسكندر في اتباع الطريقة الفارسية في

الادارة ، وهي التي كان قوامها تقسـيم الامبراطورية الى عـدد من الوحدات الادارية •

واذا كانت مصادرنا الادبية تؤكد على أن الامبراطورية السلوقية قد انقسمت أساسا الى عدد من الولايات ، وأن الولايات كانت أكبر الوحدات الادارية وأوسعها نطاقا ، فانها لم تكن الوحدات الادارية الوحيدة ، بل أنه كثيرا ما كانت توجد في منطقة الولايـة وحدة" واحدة" أو أكثر مختلفـة النوع مثل الوحدات الكهنوتية والمدن الاغريقية والامارات والممالك • وباستثناء بعض الوحدات الكهنوتية كانت الوحدات الاخرى بما في ذلك بعض الوحدات الكهنوتيه الاخرى لا ترتبط اداريا بالولايات ، وانما بالسلطة المركزية •

وفي ضوء ذلك يمكن القول بأن الامبراطورية السلوقية كانت تتألف من عدة أنواع متباينة من الوحدات الادارية وهـي :

١ ـ الولايـات
٢ ـ المدن الاغريقيـة
٣ ـ المستعمرات العسكرية
٤ ـ الامارات والممالك
٥ ـ الوحدات الكهنوتية •

ولما كانت لوحدات كل نوع من هذه الانواع ، بل أحيانا لكل وحدة أوضاعها الخاصة من حيث الشكل والجوهر وبعدها أو قربها وأهميتها أو عدمه وظروف الاندماج في الامبراطورية ، فانه ترتب على ذلك كله وجـود صيغ ادارية مختلفة للتعامل مع كل نوع من هذه الوحدات ، بل أحيانا مع كل وحدة تقريبا من وحدات الامبراطورية•ورغمغموض أصولهذه الصيغوجوانبها التفصيلية،فانناسنحاولبيان بعض هذه الصيغ والجوانب تبعا لمـا يتوافر لدينا من معلومات وبخاصة في مجال التبعية الداخلية •

١ ـ الولايات (الساترابيات) :

كان نظام الادارة الفارسية يقضي بأن يكون لكل ولاية حاكم ، يقوم هـو

ومساعدوه على تصريف شؤونها وفقا لأوامر السلطة المركزية وقد أدخل الفرس على هذا النظام الذي ورثوه بكامله عن الاشوريين تطويرا بسيطا هو اعطاء مزيد من الاستقلال لحاكم الولاية ، أي الوالي أو الساتراب (Satrap) • وقد استبقى الاسكندر هذه التنظيمات بعد أن أقام ولاة جددا انتقى معظمهم من بين قادته وأقلهم من الفرس ، وانتزع منهم السلطات المالية التي كان الولاة الفرس يتمتعون بها فيما مضى • وقد تابع السلوقيون الاعتماد على التنظيمات السابقة التي جزئت البلاد بموجبها الى ولايات كبيرة يديرها وال أو قائد •

وكان الولاة (الستاربة) أو (Strategoi) يعتبرون قمة التنظيم الاداري ويتلقون أوامرهم من الملك مباشرة • ثم يحولونه بدورهم الى السلطات الادنى لتنفيذ مضامينه • ونظرا لاتساع رقعة بعض هذه الولايات وخاصة في منطقة شرق الدجلة ، ورغبة في أحكام الدولة رقابتها على هذه الاقسام الادارية التي اتسعت في الماضي اتساعا كبيرا ، فقد قسمت هذه الولايات الى ولايات أصغر ، كما قسمت كل واحدة من ولايات الامبراطورية بعد ذلك الى ثلاثة أو أربعة أقسام ادارية دعي كل منها إبارخيه (Eparchia) يحكم كلا منها ضابط برتبة ابارخوس (Eparchos) كان مسؤولا أمام حاكم الولاية ، كما قسمت الايبارخية كذلك الى عدد من الهورباخيات (Hyparchia) يحكم كلا منها ضابط يدعى هوبارخوس (Hypharchos) • ومما يجدر بالذكر أن ابارخيات كل ولاية كانت تعتبر ريفها أو اقليمها ، وكان لكل ولاية سلوقية عاصمتها الخاصة ، وكانت بعض عواصم الولايات الهامة تعتبر عاصمة مركزية لعدد معين من ولايات المنطقة مثل ساردیس التي أصبحت عاصمة لولايات آسية الصغرى ، وكذلك مركزا للسجلات الحكومية الملكية • وقد جعل سلوقس عاصمته الاولى أي مدينة (سلوقية على نهر دجلة) عاصمة لولايات امبراطوريته شرقي الفرات عندما أوفد ولي عهده انطيوخس لادارتها تحت اشرافه ، وأما الولايات السورية فان عاصمتها كانت أول الامر سلوقية بيريه ثم خلفتها انطاكية •

ولعل التطور الوحيد الذي أدخله سلوقس وأقرب خلفائه على النظام الفارسي السابق كان شكليا محضا ، وذلك بأغرقة اسماء هذه التسميات وادخال امـا النهاية (ia) على معظم الاسماء مثل باكتريه (Baktria) وميديه (Media) ، وأما النهاية (ene) على قلة من الاسماء مثـل بارايتاكيني (Paraitakene) وخـاريني (Charene) في أقاصي بارثيه وبالقرب من حدود الهند ، وأما النهاية (ane) علـى بعض الاسماء مثل صغدياني (Sogdiane) وسوسياني (Sysiane) .

٢ ــ المدن الاغريقيـة :

ولا شك أن أبرز وأهم نوع من الوحدات الادارية السلوقية التابعـة للسلطة المركزية كانت المدن الاغريقية ، وهي التي ساعد على ابراز اهميتها ذلـك الحماس الفائق الذي بذله السلوقيون وبخاصة سلوقس الاول لانشاء المزيـد منها في ارجاء امبراطوريتهم ، بدافع احكام رقابتهم على اصقاع الامبراطوريةونشر الحضارة الاغريقية في ربوعها • وقد حدا ذلك بجميع مؤرخي العصر الهلنستي الى التأكيد على ان الاسرة السلوقية قد تفوقت على جميع معاصريها من ملوك ذلك العصر بتلك الظاهرة الحضارية التي لعبت دورا كبيرا في نشر واستمرار الحضارة الاغريقية في آسية الغربية بوجه عام حتى اوائل الفترة الاموية الاسلامية • وكانت تلي تلك المدن الاغريقية في الاهمية المستوطنات العسكرية التي تفنن سلوقس في اقامتها جنبا الى جنب المدن اسوة بقائده الاسكندر •

وأهم المدن التي انشأها السلوقيون في امبراطوريتهم لا تتعدى الخمس مدن وهي : سلوقية دجله ، سلوقية بيريه ، انطاكيـة ، لاوداكيه وأباميه ، فـي حين ان دورايوروبوس تعتبر أهم مستعمراتهم على الاطلاق •

آ ــ انشاء سلوقية دجلة : بعد عودة سلوقس من مصر ونجاحـه في دعـم سيطرته على الهضبة الايرانية ووادي الفرات ، بادر بين عامي (٣٢١ ــ ٣١٠) الى انشاء عاصمته الاولى ــ اسوة بانتيجونوس ولوسيماخوس ــ واختـار لها احد المواقع الهامة بالقرب من عاصمة الاسكندر الشرقية بابل •

ولم يكن هذا الموقع على ذات نهر دجلـة الذي يختلف مجراه القـديـم

عن مجراه الحديث ، حيث توجد الان اطلال المدينة ، بل كان على بحيرة طبيعية كونها النهر القديم ، وبحكم عمق مياه هذه البحيرة تهيأت للمدينة الجديدة موانيء تستطيع استقبال السفن الصاعدة والهابطة لنهر دجلة ، مما اكسب المدينة أهمية تجارية واستراتيجية ممتازة .

ولعل من أهم اسباب بناء سلوقية دجلة ، أن سلوقس بوصفه ملكا مقدونيا متحضرا بالحضارة الاغريقية ، ويدرك تمام الادراك حاجته الملحة الى الاغريق والمقدونيين لاقامة صرح دولته كان لابد من أن تكون له عاصمة اغريقية تضفي على ملكه طابعا اغريقيا ، وتهيء البيئة المناسبة لحياة العناصر الاغريقية والمقدونية التي استقدمها ، وتساعد هذه العناصر على الحفاظ على مقوماتها . وازاء هذه الاعتبارات لم يكن في وسع سلوقس ان يتخذ من مدينة شرقية عريقة مثل بابل عاصمة لملكه ولا مستقرا للعناصر الاجنبية التي عنى باستقدامها .

وتذكر المصادر القديمة بعد استبعاد الاساطير التي حيكت حول نشأة المدينة انه بعد تخطيط معالم المدينة قام سلوقس بتحصينها لمسافة كبيرة ، وهجّر اليها تجار مدينة بابل الرئيسيين بنقل سوقها الى المنشأة الجديدة ، وبموجب العناية الفائقة التي بذلها سلوقس تطورت المدينة لتصبح فيما بعد أكبر من مدينة بابل ، التي تنازلت صاغرة عن زعامتها السياسية والتجارية الى بديلتها الحديثة .

ورغم الجهود التي بذلها سلوقس للحفاظ على طابع المدينة الاغريقي الذي أراده لها ، فانه لم يستطع صدّ غائلة الامتصاص الشرقي ، لوقوع المدينة في وسط شرقي بحت ، بعيد عن أي نوع من انواع الردف البشري الاغريقي . ورغم مبادرة سلوقس بعد سيطرته مباشرة على سورية وآسية الصغرى الى اتخاذ عاصمة اخرى هي سلوقية بيريه ثم انطاكية ، فان هذا لم يعقه عن استمرار توجيه الاهتمام الى عاصمته الاولى التي تعاظمت اهميتها كمركز تجاري ، واعتبرها حتى اثناء حياته عاصمة ثانية لامبراطوريته ، وارسل اليها ولي عهده كنائب له على مقاطعات شرقي الفرات .

وفي ضوء معلوماتنا الراهنة لايمكن تكوين فكرة عن معالم المدينة وتخطيطها

ونظمها في العصر السلوقي وان كنا لانستبعد انها كانت تشبه المدن السلوقيـة التي سيأتي وصفها فيما بعد .

ب ـ سلوقية بيريه : تقع سلوقيـة شمالي مصب نهر العاصي وغربـي انطاكية عند سفح جبل كاسيوس (موسى داغ حاليا) المطل على خليج السويدية على الساحل السوري ، ويذكر بلينيوس ومالالاس أنه عندما اراد سلوقس انشاء المدينة صعد في عام ٣٠٠ وقبل شهر من انشاء انطاكية تقريبا الى احد الجبـال القريبة المقدسة من الاله زيوس وقدم له قربانا راجيا اياه ان يرشده الى المكـان المناسب لتأسيس اول مدينة تحمل اسمه في تلك المنطقة . واجابة عن ذلك ، ظهر نسر وهو طائر زيوس ، وانقض على لحم القربان وحمله الـى موقـع سلوقيـة مشيرا بذلك الى الموقع الذي يجب أن تبنى فيه المدينة . وعندئذ قام سلـوقس بتأدية طقوس تأسيس المدينة واطلق عليها اسمه . ولتمييزها عن باقي سمياتها أضاف الاقدمون الى اسمها احيانا لقب (على نهر العاصي) وأحيانا أخرى لقب (بيريه) تيمنا باسم ميناء اثينا البحري (بيرايوس) أو اسم قرية مقدونية قديمة .

ويذكر الاستاذان جونز وداوني أن سلوقس عمّر مدينته الجديدة اولا بسكان المستعمرة الاثينية القريبة بوسيديون (Posidiun) = (مينا صابوني حاليا) . وتدل شواهد المستعمرة وآثارها على أن سكان بوسيديون قد نقلوا قسرا الـى سلوقية . ويذكر ديودوروس أن الدفعة الثانية من سكان المدينة كانت مـن سكان انتيجونية (مؤسسة انتيجونوس) التي امر سلوقس بهدمها عند انشـاء سلوقية وانطاكيـة .

ويقدر بعض المؤرخين تعداد سكانها في اوائـل القرن الثالث قبل الميـلاد بحوالي ستة آلاف نسمة ، وعلى غرار ماحدث في بقية مدن سلوقس قسمـت المدينة الى حيين ، سكن أكبرهما الاغريق وانتظموا في قبائل ، في حين أن الاهالي المحليين سكنوا الحي القديم (Palaipolis) .

وتدل أطلال المدينة على امرين : احدهما : أن مساكنها اقيمت على منحدرات جبلية على شكل أرصفة تنحدر نحو البحر ، وانه كان يحد المدينـة شمالا واد وعر ضيق وتشقها شوارع وأزقة لها سلالم حجرية . والامر الآخر هو أن هذه

المدينة كانت المدينة السلوقية الوحيدة التي لم تخطط وفقا للنظام الشبكي ، وذلك فيما يبدو لعدم ملاءمة طبيعة موقع هذه المدينة لتطبيق مثل هذا النظام • وتشير أعمال الحفر والتنقيب التي قامت بها بعثة جامعة برنستون الامريكية ان هذه المدينة كانت محصنة ضد أخطار الفيضان والغزوات بخنادق وانفاق رائعة التنظيم •

وباستثناء مايذكره ابيانوس عن معبديكاتوريون الذي اقامه انطيوخس الاول لدفن والده ، فلعل أهم ماكشفت عنه أعمال الحفر والتنقيب من بقايا المباني العامة كانت أساسات معبد يعتقد انه انشيء في صدر العصر السلوقي ، وذلك على اساس أن البعثة عثرت بين جدران هذه الاساسات على تمثال صغير يمثل (ايزيس في شكل افروديت) وأن سلوقس الثاني هو الذي ادخل المذاهب الدينية المصرية الى المدينة • بيد أن هذا الرأي مثار جدل كبير لان ايزيس لم تظهر على النقود السلوقية لاول مرة الا في عهدانطيوخس الرابع حوالي ١٦٨ • وتظن بعثة جامعة برنستون أنه انشيء في المدينة مسرح عند نهاية المنحدر الجبلي ، لكنها لم تستطع دعم هذا الرأي بالبرهان نظرا لقيام كثير من بيوت قرية (تشوليك) على ذلك الموقع •

وتلقي وثيقة متأخرة من عهد سلوقس الرابع (١٢٨ — ١٧٥) بعض الضوء على الاوضاع الدستورية للمدينة في العصر السلوقي • ذلك أن هذه الوثيقة التي هي عبارة عن رسالة من الملك الى المدينة وممثلة (Epistates) فيها وحكامها المنتخبين (Archontes) تتضمن طلبا أو اقتراحا من الملك لمنح (امفيليوخوس) أحد اصدقاء الملك — حقوق المواطنه في المدينة ، واقامة تمثال له في احدى ساحاتها العامة •

وتجري ديباجة الرسالة على النحو التالي : (الى ثيوفيلوس والحكام ومدينة سلوقية بيريه من الملك سلوقس تحية) •

وايراد ذكر ممثل الملك في المدينة أو بعبارة اخرى حاكمها الملكي قبل حكامها المنتخبين والمدينة ينهض دليلا على أهمية مركز الحاكم الملكي وقيامه بدور ممثل السلطة الملكية الذي يتولى تنفيذ اوامرها ورغباتها • وقد سارعت المدينة الى تنفيذ رغبة الملك فأقامت التمثال ، ونقشت عليه العبارة التالية (ان مجلس المدينة يرحب باقتراح الملك ، ويوافق على منح المواطنه لصديقه) • وهذه

العبارة تعنينا من حيث مسارعة المدينة الى تنفيذ الرغبة الملكية ، وكذلك من حيث دلالتها على وجود مجلس للمدينة • مما يدفعنا الى الاستنتاج بأن عدم اقدام مصادرنا على التعرض لذكر مجالس بعض المدن السلوقية الحديثة وحكامها المحليين وانظمتها الدستورية لا ينفي وجود مثل هذه المؤسسات في هذه المدن التي سيرد ذكر بعضها من عصر سلوقس ، خاصة وأن سلوقس نفسه كان يحرص كل الحرص على ان يوفر لمهاجري امبراطوريته كل ظروف الحياة الخلقية بالعناصر الاغريقية التي كانت تأبى ان تعيش بدونها •

ولما كانت سلوقية لم تشتهر الا بوصفها مدفنا للاسرة السلوقية وبخاصة سلوقس الاول ، فان ذلك دعا بعض الباحثين الى القول بأن سلوقية لم تمارس النشاط التجاري الذي كان متوقعا لها حين تأسيسها • وهذا الرأي يبدو معقولا وقد يؤيده ان سلوقس او ابنه نقل العاصمة منها الى انطاكية •

ج ــ انطاكية : وتقع انطاكية في الشمال الغربي بسورية عند الطرف الجنوبي لسهل العمق ويحدها شرقا جبل سيلبيوس (Silpios) وغربا نهر العاصي • وقد انشأها سلوقس عام (٣٠٠) ، واطلق عليها اسمها تخليدا لوالده انطيوخس • وليست انطاكية الا واحدة من ست عشرة مدينة حملت هذا الاسم وكان يقرن باسم كل منها اسم الموقع القريب منها • وتميز انطاكية العاصمة السلوقية الثانية بعدة القاب منها (انطاكية على العاصي) أو (انطاكية قرب دفنه) وان كانت قد اشتهرت باللقب الثاني أكثر من غيره •

وقد تواترت اساطير كثيرة عن أهمية المدينة وموقعها وجمالها ، وذهب المؤرخ ليبانوس ــ الذي اشتهر بحبه الشديد لمسقط رأسه انطاكية ــ الى حد الزعم بأن الاسكندر كان صاحب فكرة انشاء مدينة في هذا الموقع • بيد اننا نفتقر في مصادرنا الاخرى أي سند لهذا الزعم بما يوحي بأنه ليس الا وليد خيال صاحبه ليضفي على مسقط رأسه من الجلال مازهيت به المدن التي أسسها الفاتح الكبير •

وكانت انطاكية تتألف من حيين منفصلين احدهما للنزلاء الاغريق والاخر للاهالي الوطنيين يبلغ اولهما ضعف الثاني مساحة ولكل منهما سوره الخاص •

وتـدل المعالم الاثريـة للمدينة على انها خططت وفقا للنظام الشبكي وعلـى ان اتجاهاتها حددت بدقة بالغة بحيث تفيد الى أقصى حد من الشمس في الشتاء ومن الظلال والنسيم العليل الذي يهب من البحر صيفا .

ونفتقر الى معلومات عن المباني العامة التي أقيمت عند انشاء المدينة ذلك انه باستثناء ما يذكره المؤرخ مالالاس عن معبد زيوس بوتياتوس الذي أقامه سلوقس لا نعرف شيئا عن أية معابد أخرى أو حمامات عامة وما لا غنى عنه من المنشآت الاداريـة . واذا كان لا يوجد أي ذكر لمسرح فانه يصعب أن تتصور عدم انشاء واحد منذ بواكير عهد المدينة . ولا نعرف كذلك متى شيدت القناة المرتفعة لجلب المياه من دفنه ، أو اذا كان سلوقس قد بنى في انطاكية ستاديوم غير ذلك الذي كان يوجد فيها عام (١٩٥) . ومن شأن التشابه القائم بين المدن الهلنستية أن يوحي بأن يكون سلوقس قد شيد قلعة على قمة جبل سيلبيوس المجاور للمدينة .

وتشير القرائن الى أن سكان انطاكية كانوا يتألفون من عدة عناصر يأتـي في مقدمتها المقدونيون الذين تقاعدوا بعد الخدمة في جيش سلوقس ، وكان يوجد أيضا بعض أبناء كريت وقبرص وارجوس وهراكليه . ولا بد من ان الاثينيين الذين أجبروا على الهجرة من انتيجونية الى انطاكية كانوا يؤلفون عنصرا هاما مـن مواطني المدينة الجديدة. وقد انتظم هؤلاء جميعا ــ كما في سلوقية بيريـه ــ في قبائل وأحياء بلغت في القرن الرابع الميلادي ثماني عشر قبيلة . وكان يوجد كذلك عدد من اليهود وبعض العبيد . وأخيرا كان هناك العنصر الوطني السوري وكانوا يقيمون في حيّهم الذي خصص لهم على نحو ما مر بنـا .

ومصادرنا من الفترة السلوقية الباكرة ، تضن علينا بما يمكننا مـن اثبات تفاصيل النظم السياسية لانطاكية في فترة انشاءها بيد ان قناعة بعض باحثينا بتماثل النظم السياسية في المدن السلوقية الحديثة حفزتهم عـلى ترجيح أنهم في فترة متأخرة من تاريخ المدينة (ومن المحتمل بدءا من النصف الثاني من القرن الثالث ان لم يكن قبل ذلك) كانت انطاكية تتمتع بما كانت تتمتع به أيـة مدينة اغريقية حرة من النظم السياسية ، فكان لها مجلس للمدينة ودار لهذا المجلس (Bouleuterion) وبعض المظاهر السياسية الاخرى للمدن الاغريقية الحرة ، كما ذكرنا آنفا .

د ـ لاوداكيه : تقع لاوداكية (اللاذقية) على الشاطىء الشمالي الشرقي للبحر المتوسط الى الجنوب من سلوقية بيريه وشمالي نهر الكبير الشمالي (اليوثيروس) ، الذي كان يعتبر الحد الفاصل لسورية المجوفة أو سورية البطلمية حتى عام (١٩٨) •

وقد اتفق المؤرخون على أن سلوقس انشأ هذه المدينة تكريما لوالدته لاوديكي • وهذه المدينةهي احدى خمس مدن أطلق عليها هذا الاسم الا ان المصادر القديمة لا تقرن اسمها بأي لقب مثلما تفعل في حالات شقيقاتها •

ويعتقد بأن لاوداكية قد بنيت على موقع قرية فينيقية قديمة تدعى رامانثا (Ramantha) وكان لها ميناء جيد ، وكانت حسنة البناء جميلة الموقع تقوم على سفوح عدد من الجبال التي تغطيها الكروم التي سمحت بتصدير الخمور بكثرة الى أرجاء العالم القديم وبخاصة الاسكندرية •

ولا يعرف الا القليل جدا عن لاوداكية (بناؤها ومنظماتها وكيفية ادارة دفة الحكم فيها) في العصر الهلنستي بكامله وذلك نتيجة أولا : لعدم اجراء أية حفائر منتظمة في المدينة نظرا لاستمرار المدينة عامرة حتى وقتنا هذا ، ثانيا : ولا ندري لماذا لم يتعرض لذكر تاريخها في الفترة الهلنستية الكتاب القدماء أو كتاب العصر الوسيط ، اللهم ما عدا ذكر اسمها عرضا مع بقية المنشآت السلوقية الحديثة • ولربما كان ذلك عائدا الى قلة الدور السياسي الذي قامت به في تلك الفترة بالقياس على الدور الذي لعبته في الفترة الرومانية ، وأيضا سوء حظها بعدم انجابها لمؤرخ شهير مثل ليبانوس الانطاكي أو بوسيدونيوس الابامي ، اللهم الا إذا استثنينا قيامها بنشاط تجاري ملموس كوريثة لمدينة أوغاريت الواقعة الى الشمال منها •

ولم تسفر الحفائر الجزئية التي قام بها عام (١٩٣٧م) في أطراف المدينة المؤرخ والجغرافي والآثاري جان سوفاجيه ، الا عن ابراز معالم مسرح روماني يعتقد بأن له أصولا هلنستية ، ورسم خارطة للمدينة كما تصورها هذا العالم في فترة انشائها ، كما أبانت الحفائر تماثل وحدات المباني والمقاسات في كل من اللاذقيةواخواتهاهذا التماثل الذييؤدي الى تعزيز فكرة التماثل العام في الاشكال والتنظيمات والانشاء في وقت متقارب •

وازاء الغموض شبه الكامل حول تاريخ المدينة في الفترة السلوقية ، فمن الرجم بالغيب أي حديث عن أجناس سكانها وأوضاعها السياسية والاجتماعية وان كنا نتوقع مماثلتها في معظم هذا لشقيقاتها من المدن السلوقية الحديثة،وكلنا أمل في أن تمدنا حفائر قادمة بمزيد من المعلومات عن تاريخ المدينة في هذه الفترة .

هـ ــ ابامية : تقع ابامية على بعد واحد وخمسين كيلو مترا شمال غربي حماه ويمر بالقرب منها والى الغرب نهر العاصي على بعد حوالي ثلاثة كيلو مترات ، وتعرف خرائبها التي دمرت بفعل الزلازل والغزوات باسم « قلعة المضيق » .

ويذكر بعض المؤرخين أن موقع المدينة كانت تشغله من قبل بلدة أو قرية محلية قديمة تدعى فارناك (Pharnak) او (Varnak) وانالاسكندراواتيجونوس أقام على موقع البلدة العتيقة مستعمرة عسكرية لقدماء المحاربين المقدونيين دعيت بلا (Pella) على اسم العاصمة المقدونية . وفي وقت غير معروف أنشأ سلوقس مدينة هناك دعاها ابامية تخليدا لزوجه اباما .

وهذه المدينة احدى ثلاث مدن تحمل هذا الاسم ، وقد عرفت هذه المدينة في العصر الهلنستي بأنها كانت حصنا منيعا وترسانة للجيش السلوقي ، ويذكر استرابون انه كان لسلوقس فيها ثلاثمائة جواد كريم وثلاثون ألف فرس وخمسمائة فيل هندي . ويبدو ان السبب الرئيسي لجعل هذه المدينة مركزا لاقامة هذه الحيوانات هو وجود كثير من السهول والمراعي بالقرب من المدينة مما كان ييسر إطعام ذلك الحشد الكبير من الحيوانات . وإزاء اقامة مخازن الاسلحة وساحات التدريب العسكري في هذه المدينة فقد تمتعت ابامية في العصرين السلوقي والروماني بقدر من الاهمية لا تفوقه إلا أهمية انطاكية .

ولعله مما يؤسف حقا أن معظم اعمال التنقيب التي أجرتها البعثات الاثرية في موقع المدينة لم تسفر الا عن القليل جدا مما يمكن نسبته الى العصر الهلنستي ، ذلك ان غالبية المخلفات الاثرية التي كشفت عنها هاتان البعثتان ترجع الى العصر الروماني . وأهم هذه المخلفات هي مسرح حجري روماني يعتقد بأنه قد بني على مسرح اغريقي أصغر منه ، وبعض الساحات العامة والشوارع ذات الاروقة الرومانية الطراز ، بيد انه لما كان عسيرا اجراء تعديل جذري في أشكال هذه الساحات

والشوارع فلا بد من أنها تعود أصلا الى العصر الهلنستي • ولعل أهم الكشوف التي أثارت دهشة البعثة البلجيكية الاولى التي قادها الاستاذ مايانس (Maianse) (١٩٣٠ ــ ١٩٣٥) كانت تلك الدقة المتناهية التي اتسمت بها شبكة توزيع المياه في المدينة • ويبدو أن حظ بعثة الأستاذة بالتي (Balty) (١٩٦٥ ــ ١٩٦٨) لم تكن أفضل من سابقتها في مجال الكشف عن مخلفات هلنستية ، إذ أنها لم توفق الا الى الكشف عن بعض أركان معبد الاله زيوس بلوس (Zeos-Belos) الذي تعتقد الاستاذة بالتي بأن عبادته تعود الى العصر الهلنستي •

٣ ــ المستعمرات العسكرية :

إذا كان الاسكندر قد اعتمد في أثناء حملاته العسكرية على المستعمرات العسكرية وانشأ عددا منها في عدد من المناطق أشهرها في باكتريه وميديه ، فانه بعد موته كانت الحاجة الى انشاء المستعمرات العسكرية أكثر الحاحا • ذلك ان سلوقس وخلفاءه استشعروا هذه الحاجة مدفوعين بعاملين هامين واحدهما هو أن موارد دولتهم لم تكن تسمح لهم بالاستمرار على الدوام باستئجار المرتزقة ، ولا سيما ان أسواق هؤلاء المرتزقة كانت لا تقع داخل دائرة نفوذهم ، مما كان يستتبع الاعتماد على حسن نوايا العاهل المسيطر على بلاد الاغريق ومقدونية لضمان استمرار تزويدهم بعناصر اغريقية ومقدونية محاربة • وبطبيعة الحال كانت هذه النوايا تتأثر بتقلبات الظروف السياسية ، ومن الجلي أن الاوضاع كانت مختلفة عن ذلك في أيام الاسكندر ، والعامل الآخر هو أن السبب الرئيسي الذي اقام الاسكندر أولى مستعمراته ظل قائما ، وهو ضرورة اخماد القبائل المتمردة ، وفضلا عن ذلك فانه جدّ سببان آخران وهما تأمين الحدود ، وحماية طرق التجارة • ولهذا فقد تابع سلوقس وأقرب خلفائه بناء العديد من المستعمرات على امتداد تخومهم ولعل أهمها أو ما أمكننا العلم به من خلال مصادرنا كانت تلك المستعمرات التي أنشئت لصد غارات قبائل الغال والمشاكسة منذ عهد سلوقس الاول في آسية الصغرى •

ولا شك ان الفائدة من المستعمرة العسكرية ــ بحكم تعدد جوانب هذه الفائدة ومدى فعالية أثرها ــ كانت أكبر من فوائد انشاء المدن ، مما حدا ببعض

الباحثين الى التأكيد على ان الاساس في عملية الاستيطان السلوقية كانت المستعمرة العسكرية وليست المدينة ٠ وذلك أنه فضلا عن قيام المستعمرات العسكرية بالدفاع عن حدود الامبراطورية وحماية القوافل التجارية ، كان من شأن توطين جنود هذه الامبراطورية في عدد من المستعمرات تيسير عملية استدعائهم وقت الحاجة ، واتخاذ هذه المستعمرات مراكز لتجميع الوحدات العسكرية وتوجيهها دون ابطاء نحو مكمن الخطر ، والاستغناء عن ضرورة ابقاء القوات كلها تحت السلاح ، مما كان يوفر على الدولة النفقات الباهظة التي يتطلبها ذلك ، ويقيها من المخاطر التي تنجم عادة عن تجمع قوات كبيرة بلا واجبات تشغلها في وقت السلم ، هذا الى أن أرباب الاقطاعات العسكرية كانوا يقومون باستثمار اقطاعات مستعمراتهم ، ونشر مايراد نشره سواء من الاساليب الزراعية الجديدة أم المزروعات الجديدة ، فيسهمون بذلك اسهاما مباشرا في انعاش الحياة الاقتصادية وغير ذلك من الفوائد الآنية والمتوقعة ٠

ولعل أشهر مستعمرات الامبراطورية السلوقية على الاطلاق كانت مستعمرة دورايوروبوس التي تقع شمال شرقي الصحراء السورية أو بادية الشام ، على الشاطىء الايسر لنهر الفرات وقد هجرت دورا منذ عهد بعيد ، ولم يبق منها حاليا الا أطلال تلفها الرمال يطلق عليها حاليا اسم (الصالحية على نهر الفرات) ٠ ولايعرف الكثير عن دورايوروبوس من قبل العصر الهلنستي باستثناء ما يذكره بعض الباحثين من أنه كان يقوم على موقعها قرية محلية قديمة تدعى دورا أو دورو (Duru)

ويعتقد أنه قد بدىء بانشاء هذه المستعمرة ــ التي تطورت الى مدينة ككثير من مثيلاتها في عهد غير معروف ــ حوالي عام (٣٠٠) ق٠م وكان نيكانور (Nikanor) حاكم منطقة شرق سورية قد قام ببنائها بتكليف من سلوقس الاول ، وقد أطلق عليها اسم يوروبوس تخليدا لذكرى مسقط رأس سلوقس ، وكذلك الغالبية العظمى من أوائل مستوطنيها من رفاق سلوقس في السلاح الذين انزلهم سلوقس فيها وعهد اليهم بأمر حمايتها وحماية طرق القوافل ، ثم أضيفت اليهم أعداد من الاغريق والمقدونيين المهاجرين الذين أغراهم على القدوم ، فيما يبدو ، توزيع الاقطاعات العسكرية والامتيازات التي منحها الملوك للمستوطنين ٠

وقد أجريت في المدينة حفائر منتظمة لمدة اثني عشر عاما (١٩٢٨ ــ ١٩٣٧)

قامت بها بعثة جامعة ييل (Yale) ، وبعثه من الاكاديمية الفرنسية للنقوش والآداب • وقد شارك الاستاذ روستوفتزف في جانب من هذه الحفائر ،التي كانت نتائجها مخيبة للآمال ــ كما يحلو للاستاذ جريفيث وصفها ــ وذلك لان معظم المكتشفات كانت تعود للفترتين البارثيه والرومانية دون الهلنستيه • وعلى أية حال ، فقد أبانت الحفائر ان المدينة أو المستعمرة قد تأسست حسب المخطط الشبكي المعروف ، وقد كشف النقاب عن عدد من المعابد الاغريقية مثل معابد زيوس وابولون وارتميس ، ومعابد شرقية مثل معبد ادونيس ومعابد شرقية اغريقية مختلطة مثل معبد « ارتميس ــ نانايا » ، وكنيس يهودي وكنيسة مسيحية •

ورغم الغموض الذي يكتنف معلوماتنا عن تنظيمات هذه المستعمرة فان المعلومات التي استقاها الباحثون من معالمها الاثرية تعتبر نموذجية ازاء الغموض شبه الكامل الذي يحيط حتى بمواقع المستعمرات الاخرى التي أنشأها سلوقس وأقر بخلفائه •

ومن المرجح أن معظم سكان هذه المستعمرة ــ في الفترة السلوقية الباكرة على الاقل كانوا من العسكريين الذين شكلوا عند قدومهم نواة للسكان ثم أضيفت اليهم أعداد متزايدة من مهاجري الاغريق والمقدونيين ، الذين أغراهم على القدوم فيما يبدو ، توزيع الاقطاعات (Kleroi) والتسهيلات الكبرى التي قدمها الملوك لقاء تعهد المنتفعين بهذه الامتيازات بالخدمة في الجيش كلما دعت الحاجة •

٤ ــ الممالك والامارات :

وأما بالنسبة للوحدات التي كان يحكمها ملوك أو أمراء أو زعماء محليون مثل فيلتايروس في برجامه في عهد سلوقس ، وزعماء القبائل الجبلية في بيسيديه ، فانها منحت استقلالا ذاتيا كاملا ، أي كان ملوك هذه الوحدات وأمراؤها وزعماؤها يجمعون بين أيديهم السلطتين المدنية والعسكرية في آن واحد ، لقاء امداد الملك بالمال والجيش عند الحاجة • وهذا الوضع الفريد الذي تمتعت به هذه الوحدات ، ورفعها فوق مستوى المدن الاغريقية يوحي بأن هذه الوحدات كانت لا تعترف بأية سلطة أخرى في الامبراطورية إلا سلطة الملك السلوقي ، وان هذا الملك هو الذي كان يباشر بنفسه علاقات الامبراطورية بهذه الوحدات •

٥ ــ الوحدات الكهنوتية :

ولعل الوحدات الكهنوتية ــ وغالبا ما كان كل منها يدعى اثنوس (Ethnos) من بين سائر وحدات الامبراطورية كانت تماثل وضع المدينة الاغريقية في تبعية بعضها للسلطة المركزية والبعض الآخر للسلطة المحلية • ويكتنف الغموض تفاصيل التبعية المفترضة لبعض الوحدات الكهنوتية وهي التي رجحتها من جانبنا محاولة أوائل الملوك السلوقيين الحد من الهيمنة الاجتماعية والاقتصادية لهذه الوحدات ، بالاستيلاء على قسم كبير من أراضيها من الفائض عن حاجتها • بيد أن ما تورده مصادرنا عن قيام بعضها بتقديم قروض للدولة وقت الحاجة أو محالفة الملك بعض هذه الوحدات ــ كما مر معنا آنفا ــ وترجيحنا لخشية الملوك السلوقيين من استعداء هذه الوحدات التي استمرت تتمتع بقدسية تاريخية عميقة،ينهض دليلا على أن السلوقيين لم يعاملوا هذه الوحدات الكهنوتية معاملة متساوية ، إذ في حين اعتبرت بعض هذه الوحدات اداريا بمثابة قرى تابعة للولايات الواقعة ضمن نطاقها ، وتؤدي ضرائب نقدية ونوعية على الارجح ، استثنى بعضها الآخر من بعض الالتزامات المفروضة على غيرها بموجب امتيازات خاصة منحت لها من الملك •

ورغم الاوضاع الفريدة للمجتمع اليهودي فانه استكمالا للحديث عن الوحدات الكهنوتية سنعرض بايجاز اوضاع المجتمع اليهودي سيما وان هذه الاوضاع تبدو من خلال كتابات أبنائه أكثر وضوحا من أي مجتمع آخر تبع الامبراطورية السلوقية ، ولعل هذا العرض يساعد على استكمال الصورة عن الوحدات الكهنوتية الاخرى التي انفردت باحتوائها امبراطورية سلوقس دون غيرها من الممالك الهلنستية •

كانت القدس (أورشليم) المركز الرئيسي لوحدة اليهود الكهنوتية ، وكانت تبدو نظريا كأي مدينة (بوليس) اغريقية على حد ما يزعم المؤرخ اليهودي يوسف ، ولكنها في الواقع اختلفت عن المدينة الاغريقية ، ذلك أنه في كل مدينة اغريقية كانت توجد هيئة من المواطنين تتسع أو تضيق طبقا لطابع دستورها ، وكان المواطنون هؤلاء يمارسون حقوقا كاملة في تصريف شؤون المدينة عن طريق اختيار الحكام وتشكيل المحاكم ، وتبعا لذلك كان لكل بوليس اغريقية تصنيف ثلاثي

يتألف من الاجهزة الشعبية التشريعية والتنفيذية والقضائية • وأما في المجتمع اليهودي فانه كانت توجد أوضاع مختلفة تمام الاختلاف بحيث يصعب القول بأنها تنم عن ممارسة اوضاع هذا المجتمع حقوقا تماثل حقوق مواطني المدن الاغريقية ، وهذا ما توحي به احدى رسائل الاسبرطيين الى أورشليم •

وتجري ديباجة الرسالة على النحو التالي : من الاراخنة[1] ومن المدينة الى سمعان الكاهن الاعظم والى الشيوخ والكهان ، والى سائر شعب اليهود اخوتنا تحية (سلام) •

ويبدو مما سبق ، أن الكاهن الاكبر كان على رأس جهاز يتألف من رؤساء الأسر الكبرى والرهبان ، وأن هذا الجهاز كان يتكون وفقا لبعض القواعد المجهولة لدينا • ولكنه من الجلي أنه لم يكن للشعب رأي في تكوين هذا الجهاز الذي توحي القرائن بأنه كان جهازا ارستقراطيا لم ينتخب أي عضو من أعضائه بالانتخاب المباشر وغير المباشر ، ويبدو أيضا ان الملوك السلوقيين استغلوا التنافس المعهود بين الأسر الكبرى على تولي المراكز القيادية المحلية ، وقاموا بتأييد بعض الأسر للفوز بالسيطرة على مقاليد الامور المحلية ، وبطبيعة الحال لم يمنح السلوقيون تأييدهم الا للأسر التي أبدت استعدادا للسير في ركابهم وضمان بقاء الوحدة الكهنوتية تحت السيطرة السلوقية • وتتجلى هذه السياسة القائمة على تبادل المنفعة في الخلاف الذي استحكم في احدى الفترات بين أنصار السلوقيين من دعاة « التهلن »[2] بزعامة عائلتي طوبيا وأونياس ، وأنصار المحافظين بزعامة المكابيين ، وفي الخلاف الذي اشتد حتى بين دعاة التهلن أنفسهم • وقد كان من أبرز مظاهر عطف ملوك انطاكية على العائلات المختارة لخدمة صوالحهم منحها بعض الامتيازات والاعفاءات من الضرائب •

---

(١) يجدر بالذكر الاشارة الى ان منصب الارخون لم يكن موجودا في اسبرطة • قارن مع ما سبق في الحديث عن اسبرطة •

(٢) التهلن (Hellnization) أو الاغرقة هي سياسة فرض مظاهر الحضارة الاغريقية على الشعوب غير الاغريقية وكان انطيوخس الرابع أول ملك يمارس مثل هذه السياسة على الطائفة اليهودية في أورشليم ، انظر ماسبق عن انطيوخس الرابع •

وكان كبير الكهنة أو رئيس الطائفة مسؤولا عن تنظيم جباية الاموال الاميريه تحت رقابة المندوب الملكي للحكومة المركزية ، الذي لم تكن الهيئة الكهنوتية لتقدر على نقض قراراته ، وان كان يحق لها اقامة الدعوى عليه أو استئناف أحكامه أمـام الملك . واذا جاز أن نعمم ما توصلنا اليه مـن معلومات سابقة عـلى الوحدات الكهنوتية ، فان لنا ان نحكم أن السلوقيين قـد عرفوا كيف يمنحون الاستقلال الذاتي للوحدات الكهنوتية مع عدم التفريط في إحكام رقابتهم عليها .

٦ ـ التقويـم :

ولعل أهم الانجازات الادارية والتنظيمية التي خلفها السلوقيون على الاطلاق، كان عملا استهل به سلوقس الاول عهده الملكي ، وهذا العمل الجليل كان تبنيـه تقويما رسميا جديدا ، يعتمد على الاسلوب البابلي للتقويم مع استخدامه أسمـاء الاشهر المقدونية بدلا من الكلدانية .

وقد اختار سلوقس بعد عودته الى بابل (وفي وقت غير معروف) تاريخ عودته في شهر تشرين الاول (اكتوبر) عام ٣١٢ لبدء العمل في التقويم الجديد ، وكان هذا التاريخ يقابل أول شهور التقويم المقدوني ، وهو شهـر ديوس (Dios) . واذا كان السوريون ومقدونيو آسية الغربية قد اتبعوا ذلك في تقويمهم ، فان بابل اعتبرت شهر نيسان (ابريل عام ٣١١) وكان يقابل أول شهور التقويم البابلي ، بداية للتقويم الجديد . وقد استمر العمل بالتقويم السلوقي في معظـم الاصقاع الآسيوية حتى القرن الثالث الميلادي .

ثالثا ـ الادارة الماليـة :

يتعذر علينا أن نتبين معالم النظم المالية للدولة السلوقية بالصورة الواضحة التي تيسرها وفرة المصادر لمؤرخي مصر البطلمية . ويجوز أن يقال ان التاريـخ السلوقي كان حافلا بالنشاط العسكري والفتوحات ، فلم تكن لدى معظمهم فرص كافية للعناية بالنواحي التنظيمية ، وهذا صحيح الى حد كبير . الا انه لا يمكننا ان نتصور ان السلوقيين بعد خوض حروبهم المتعددة قد أخلدوا الى السكينة ، ولـم يقدموا على وضع أسس جديدة للادارة المالية في امبراطوريتهم ، أو على الاقل

تطوير الاسس القديمة لهذه الادارة في الاقاليم الرئيسية الثلاثة (بابل وسورية وآسية الصغرى) التي آلت اليهم ، وكان لكل اقليم منها مقومات اقتصادية مختلفة •

واذا كان من المؤسف أننا لا نستطيع تبيان خطوات كل واحد منهم لان نقص معلوماتنا عن التنظيمات المالية الفارسية أو بالاحرى انعدامها تزيد الامر غموضا ، فاننا على الاقل نستطيع أن تتبين عموميات النظام ونبدأ بالبحث في عمال المالية •

١ ــ عمال المالية :

كانت الادارة المالية السلوقية تدعى « توباسيليكون » (To Basilikon) مثلما كانت عند البطالمة • وأما بيت المال أو الخزانة العامة فقد احتفظت بالاسم جازوفولاكيون (Gazophylakion) الذي عرفت به في العصر الفارسي ، ومعناه (الخزانة الملكية) • ويبدو أن فروع الخزانة العامة السلوقية كانت لا توجد عادة الا في قلاع أو حصون معينة • وهذا ما تنبئنا به وثيقة من عهد سلوقس الثاني كالينيكوس (٢٤٧ ــ ٢٢٦) عندما وضع عام (٢٤٦) ألفا وخمسمئة تالانت في أحد فروع الخزانة العامة في قلعة مدينة سولي (Soli) في كيليكية • كما تخبرنا وثيقة أخرى انه عندما باع انطيوخس الثاني جانبا من ممتلكاته الى مطلقته لاوديكي حدد فرع الخزانة العامة الذي يجب وضع المدفوعات فيه (والذي يفترض أن يكون في أحد الحصون) • ويخبرنا بلينيوس بأن حصيلة الجزية المفروضة على منطقة كاملة ــ في عهد غير مؤكد ــ وضعت في حصن مدينة كافرنا (Kaphrena) على نهر الفرات •

٢ ــ الموارد المنتظمة :

ولا شك في ان امبراطورية انضوى تحت لوائها جانب كبير من اغنى اصقاع العالم المتحضر في العصر الهلنستي ، قد حصلت على دخل يتناسب مع غنى تلك الاصقاع • وموارد الامبراطورية السلوقية ، شأنها شأن موارد أي دولة من دول العالم القديم ، كانت تنقسم الى قسمين رئيسيين : احدهما هو الموارد المنتظمة ، وكانت تندرج تحتها عائدات الامبراطورية من الاراضي الملكية والممتلكات

العامه (مناجم وغابات) بالاضافة الى موارد الجزية من الضرائب المتنوعة • والاخر هو الموارد الاستثنائية وكانت تتألف من اسلاب الحروب والغرامات والمصادرات •

آ ـ أرض الملك :

كانت اراضي الدولة الفارسية تتألف من : ارض الملك : وارض المدينة ، وارض المعابد ، وبموجب حق الفتح والغلبة ، اعتبر السلوقيون نظريا جميع اراضي الامبراطورية ملكا لهم بما في ذلك أرض المدينة وأرض المعابد • ولما لم يكن ميسورا سواء من الناحية العملية أم من ناحية الفطنة السياسية احتفاظ هؤلاء الملوك بأراضي الامبراطورية جميعا والقيام باستثمارها مباشرة فانهم منحوا جانبا كبيرا من هذه الاراضي الى غيرهم •

واذا كان السلوقيون قد حرصوا على تقليم اظافر بعض الوحدات الكهنونية وبعض المدن بعدم السماح لها بأن تستبقي من اراضيها الا ما يكفي لسد حاجتها ، فان اولئك الملوك كانوا اكثر سخاء مع البعض الاخر من هذه الوحدات والمدن ، فسمحوا لها بالاحتفاظ بأراضيها لانها رحبت بهم حكاما جددا أو على الاقل لم تقاومهم في فترة تأسيس الامبراطورية ، وكذلك درج السلوقيون على منح بعض اراضي الامبراطورية على شكل هبات للمقطعين العسكريين في بعض مراكز الحدود وفي المستعمرات الجديدة التي انشأوها ، لقاء تعهد المنتفعين بالخدمة في الجيش كلما دعت الحاجة ، وفضلا عن ذلك فان السلوقيين كانوا يمنحون هبات على شكل ضياع كبيرة لافراد الاسرة المالكة والنبلاء والقادة العسكريين من المقدونيين والاغريق وكذلك الفرس ، اذ يرجح انهم منحوا اقطاعات كبيرة في اقصى الشرق ضمانا لولاء اعداد كبيرة من نبلاء الفرس وسراتها • وهكذا فقد اقتصر شكل الملكية الزراعية على نوعين رئيسيين كما اسلفنا ، أرض الملك التي ظلت اسما وفعلا ملكا له ، والارض التي منحها الملك للوحدات الكهنونية والمدن وارباب الاقطاعات العسكرية واصحاب الحظوة لديه من المقربين •

واذا كنا نعرف انه في مصر البطلمية كانت « ارض الملك » تدر على الخزانة العامة نوعين من الدخل هما ايجار الارض والضرائب المفروضة عليها ، مما كان

لايترك لمزارع الملك الا أقل من نصف المحصول ، فان مصادرنا لاتمدنا عن دخل الملك السلوقي من الارض الملكية اكثر من ان هذا الدخل كان عبارة عـــن عشر المحصول •وفي رأي بعض الباحثين ان هذه النسبة الضئيلة من المحصول كـــانت ضريبة وفي رأي البعض الاخر كانت ايجارا ، والرأي الثاني يبدو لنا أقرب الـــى القبول لانه من غير المعقول الا يدفع مزارعـــو الملك ايجارا عـــن الارض التي يستثمرونها • ولعله يفسر انخفاض هذا الايجار ان المزارعين كانوا يسهمون في أداء الجزية علاوة عما كان يؤدونه من ضريبة السخرة والضرائب الاخرى التي سيأتي ذكرها بصدد الحديث عن الضرائب •

والمعلومات المتوافرة عن غابات لبنان في العصر السلوقي المتأخر تشير الـــى ما يشابه احتكار الدولة السلوقية استغلال الغابات • واذا كنا نرجح ان غابـــات سورية الشمالية ومابين النهرين وآسية الصغرى ومناجمها كانت في وضع مماثل ، فاننا لانعرف كيف كانت الدولة تمارس احتكارها في استغـــلال هـــذه الغابات والمناجـــم •

ب ــ الجزيـــة :

ولعل اهم الضرائب السلوقية على الاطلاق كانت تدعى الفوروس (Phoros) أي الجزية المفروضة على الوحدات السياسية في الامبراطورية ، وكانت هـــذه الوحدات تؤديها للملك بانتظام منذ عهد دارا الاول حتى الفتح الروماني • ويبدو أن مقدار الجزية كان يتفاوت تبعا لتفاوت اوضاع وظروف مختلف وحـــــدات الامبراطورية ، وليست لدينا الا ارقام تخص اورشليم بعد استردادها مـــــن البطالمة ، وقد بلغت جزية اورشليم في عهد انطيوخس الثالث ثلاثمئة تالانت • وكان من شأن المنافسة بين المرشحين على تولي وظيفة الحبر الاكبر ان ارتفع مقـــدار الجزية الى ما يوازي ثلاثمئه وستين بل ثلاثمئه وتسعين تالانت في عهد انطيوخس الرابـــــع

وقد اتبعت في فرض الجزية قاعدتان اساسيتان احداهما هي : أن الجزيـــة كانت لاتفرض على كل فرد بعينه وانما على المجتمع بأسره الذي تتكون منـــه كل

وحدة من الوحدات السياسية في الامبراطورية ، والقاعدة الاخرى هي ان الجزية المفروضة على كل وحدة سياسية كانت توزع على العناصر الفرعية التي تتكون منها هذه الوحدة بحيث يؤدي كل عنصر من هذه العناصر نصيبا محددا من مقدار الجزية المفروضة على هذه الوحدة • وكان المقدار يظل ثابتا لا يتغير لمدة غير محددة من الزمن سواء أكانت السنون رخية أم عجافا •

وتحدثنا مصادرنا القديمة بأن بعض وحدات الامبراطورية السلوقية كانت تدفع جانبا من جزيتها نقدا والجانب الاخر عينا ، على غرار ماجرت عليه العادة في عهد الفرس • ومثل ذلك مايحدثنا به بوليبيوس من أن أحد الامراء الفرس دفع جزيته الى انطيوخس الثالث ثلاثمئة تالانت من الفضة والف رأس من الخيل ، وألف دابة اخرى • وفي ضوء ما أوردناه من امثلة يتبين منها انه في بعض الحالات كانت الجزية كلها تدفع نقدا ، وفي البعض الاخر كانت كلها فيما يحتمل تدفع عينا ، وفي البعض الثالث كان جانب من الجزية يدفع نقدا والجانب الاخر عينا ، ومن المرجح ان مقدار ونوعية الجزية المفروضة علىكل وحدة بعينها يتوقف على مقدار ونوعية ثروتها ، وأن نوع الجزية العينية ذاتها كان يتوقف على شهرة الوحدة بنوع معين من أنواع الثروة يخدم صوالح الامبراطورية •

ويبدو ان الجزية لم تكن مجرد ضريبة فحسب ، بل كانت بالاحرى أشبه ماتكون بمساهمة حربية ، أو حسب تعبير شيشرون «ثمرة النصر وعقوبة الحرب» • ولا شك أنها كانت قبل كل شيء دلالة ملموسة على الخضوع للملك ، ولذلك فانه لم تعف منها أية وحدة من الوحدات الامبراطورية اغريقية كانت أم غير اغريقية الا نتيجة امتياز خاص كان الملك يختص به بعض الوحدات بعينها ، على نحو ما سيأتي ذكره •

جـ ــ الضرائب :

واذا كانت الجزية ــ كما أسلفنا ــ أهم الضرائب السلوقية ، فان مجموع الضرائب المختلفة الاخرى لم تكن لتقل عنها أهمية من حيث الكم نظرا لتنوعها وكثرتها • وازاء قلة معلوماتنا التي لاتسمح لنا بالخوض في تفاصيل هذه

الضرائب ، فاننا سنحاول من خلال عرضنا لما استطاع المؤرخون جمعه من عموميات القاء بعض الاضواء التي تتناسب مع قلة هذه المعلومات ، ولعل اهم هذه الضرائب أو بالاحرى ما أمكننا العلم به ، كانت الضرائب السنوية التي تابع السلوقيون العمل على جبايتها اسوة باسلافهم الفرس • ورغم انه لايمكننا ان تتبين بداية محددة لفرض كل ضريبة على حده من معظم الضرائب في العصر السلوقي ، ولا فيما اذا كانت ضرائب محلية أم ضرائب عامة ، الا أن أهم هذه الضرائب كانت ضرائب « القطعان » و « الاشخاص » وضريبة « الملح » وضريبة « التاج » • والى جانب هذه الضرائب السنويةكانت تجبى علىبعض المواد الاستهلاكية رسوم يمكن اعتبارها في عداد ضرائب « الاسواق » وضرائب « مزاولة الحرف » ، ولعل أهمها كانت رسوم تجارة الجملة على الارجح التي لانعرفها الا من خلال الامتياز الذي خص به سلوقس الثالث الرودوسيين الذين اعتزموا ممارسة التجارة في مملكته • وقد حفظ لنا هذا الامتياز ضمن احد بنود معاهدة افامية عام (١٨٨)وبمقتضى هذا البند اصبح أهل رودوس معفيين من الرسوم أو الضرائب العامة في الامبراطورية •

وتستخدم مصادرنا اربعة اصطلاحات في الحديث عن الرسوم الجمركية وأولها رسم الاستيراد (Eisagogis) وثانيها رسم المرفأ (Limin) وثالثها رسم أنباب (Limenes) ورابعهارسم الانتقالالمائيفينهر الفرات (Ploion Euphratou) . ويرجح بعض باحثينا بأن الرسم الاول كان يفرض على التجارة الداخلة الى الامبراطورية ، وانه كان يجبى في بابل منذ الفترة الفارسية زمن الاسكندر عن جميع السلع التجارية الداخلة الى المدينة بما يوازي العشر من قيمتها • ويبدو أن الرسم الثاني والثالث كانا متماثلين ، بدليل اشتقاق اسميهما من جذر واحد ، ومن الجائز ان الرسم الثاني كان يجبى على التجارة الداخلة الى المدن البحرية والنهرية ، والرسم الثالث كان يجبى على التجارة الداخلة الى المدن البرية • واما الرسم الرابع فاننا لانعرف فيما اذا كان يفرض على السفن التي تستخدم نهر الفرات أم على الاشخاص الذين ينتقلون على صفحة ماء هذا النهر ، أم على البضائع المنقولة عليه أم على هؤلاء جميعا •

٣ ـ الموارد الاستثنائيـة :

ولا شك انه كان لدى الملك السلوقي وسائل عديدة غير منتظمة للحصول على المال ، ولعل أهم هذه الوسائل كانت غنائم الحروب ، وقد كانت اكبرهـا وأعظمها غنيمة سلوقس الاول من قصور العاصمة الفارسية اكباتانا وهي التـي وفرت حتى لانطيوخس الثالث الذهب والفضة ما مكنه من ضرب نقود تعـادل أربعة الاف تالانت • وتلي ذلك في الاهمية الغنائم التي غنمها الملوك السلوقيون من حروبهم مع أغنى أعدائهم البطالمة ومن غزواتهم لبلاد اليهودية وغيرها من المقاطعات الشرقية • وفضلا عن ذلك كانت هناك الاملاك التي تصادر والغرامات التـي تفرض عقابا لبعض المدن على تصرفات معينة ، أو عقابـا لبعض الاشخاص أو الطوائف عند الادانة بتهمة الخيانة •

وليس لدينا من البيانات ما يسعفنا ولو بتقدير جزافي لمجموع حصيلـــة السلوقيين من مختلف مواردهم ، الا انه يمكننا ان نتصور مقدار دخل الملـك السلوقي عندما نعرف انه بمناسبة الزلزال الشهير الذي دمر ممتلكات الرودوسيين عام (٢٢٤) قدم لهم سلوقس الثالث (٢٢٦ ــ ٢٢٣) معونة يحدثنا بوليبيوس بأنها كانت عشر سفن بمعداتها كاملة ، ومائتي الف مكيال من القمح ، وحوالي خمسة آلاف متر من جذوع الاشجار والتي كانت تستخدم للبناء وألف وزنـة من الوبر والصمغ •

٤ ـ النفقـات :

ان ما وصل الينا من وثائق تتعلق بالفترة السلوقية لاتذكر النفقات السلوقية العامة الا بصور عرضية ، مثل الهبات التي كانت تمنح للمعابد وايضا للمـدن والمستعمرات المؤسسة حديثا والمدن والمقاطعات المنكوبة • وأما وجوه الانفاق الاكثر أهمية مثل تكاليف القوات المسلحة وانشاء المدن والمستعمرات ونفقات البلاط الملكي ، فانها مازالت مجهولة لدينا • ومما لاشك فيه أن معظم نفقـات الامبراطورية كانت تنصب بصورة رئيسية على بندين رئيسيين هما : الجيش وبناء المدن والمستعمرات • وتتصل بالبند الاخير تلك الهبات التي كانت تمنح

للمدن والمعابد ، وكان السلوقيون لا يفرقون في منحها بين المدن والمعابد الشرقية أو الاغريقية •

ولا شك أن تكاليف حروب السلوقيين كانت أكثر عبئا على اقتصاد الامبراطورية من تكاليف كافة الالتزامات الاخرى • واذا كانت سنة (١٩٠) فقط قد كلفت انطيوخس الثالث مبلغ (٨٠٠٠) تالانت في حربه ضد روما ؛ فان لنا أن نتصور المبالغ التي كان السلوقيون ينفقونها في تاريخهم الذي تعاقبت فيه الحروب بشكل شبه متصل •

رابعا ــ النظام القضائي :

١ ــ القانون :

ولعل النظام القضائي ، يعتبر اكثر موضوعات التاريخ السلوقي غموضا • ومرد ذلك الى افتقارنا افتقارا تاما الى مثل تلك الوثائق البردية ، التي أمدت مؤرخي مصر البطلمية بكثير من التفاصيل • هذا الى أن المصادر الادبية لاتشير الا لماما الى التطورات التي يمكن ان تكون قد اضيفت الى القوانين بعد سنّها •

بيد أنه في ضوء مامر بنا عن النظم الادارية والسياسية والمالية في الامبراطورية السلوقية ، وعن احوال المدن والطوائف والشعوب وغيرها من وحدات هذه الامبراطورية • وفي ضوء الحقيقة المسلم بها ، حقيقة الارتباط الوثيق بين عادات الناس وتقاليدهم وأعرافهم من ناحية ، والقوانين التي تنظم علاقاتهم من ناحية أخرى ، قد لا نعدو الحقيقة إذا رجحنا ان السلوقيين قد سمحوا للقوانين المحلية بالاستمرار نافذة المفعول دون أن يدخلوا عليها ــ اذا كان قد أدخل على الاطلاق ــ الا قدرا طفيفا من التعديلات التي اقتضتها الاوضاع الجديدة • وأما عن المدن والمستعمرات العسكرية التي أنشئت حديثا ، فانه من المرجح أن يكون السلوقيين سنّوا لكل منها من القوانين ما يلائم بيئتها وعناصر السكان فيها •

وليس معنى أن غالبية السكان في المدن والمستعمرات الحديثة كانوا من الاغريق والمقدونيين ، ان قوانين كل مدينة ومستعمرة كانت متماثلة أو أن كل

قوانين هذه المدن والمستعمرات كانت قوانين اغريقية • ذلك اننا لا نستبعد أن مواطني هذه المنشآت السلوقية كانوا يتألفون من خليط مماثل للخليط الذي تألف منه مواطنو المدن والجاليات الاغريقية في مصر البطلمية ، وتبعا لذلك لانستبعد أن يكون قد ظهر في قوانين المنشآت السلوقية مثلما ظهر في قوانين المنشآت البطلمية أثر واضح للمدن الايونية والدورية والايولية التي وفد منها المهاجرون الاغريق •

ولما كانت توجد في المدن السلوقية جاليات (Politeumata) قومية غير اغريقية وأخصها الجاليات اليهودية ، وكانت القرائن توحي بأن السلوقيين قد سمحوا لكل مجتمع بقوانينه التقليدية ، فانه من المرجح أن تكون الجاليات اليهودية في المدن السلوقية قد حصلت على حق محاكمة أعضائها حسب شرائعها الدينية شأنها في ذلك شأن الجالية اليهودية في الاسكندرية •

٢ ــ الهيئات القضائية :

وإزاء افتقارنا الى اشارات تخص دساتير المدن السلوقية الحديثة ، وحتى المدن الاغريقية القديمة ، فانه يصعب علينا ان نتبين الى أي مدى كانت المجالس الدستورية في المدن حرة في تشريعاتها ، والى أي مدى كانت المدن المستقلة استقلالا ذاتيا تتمتع باستقلالها القضائي ، وان كان الاستقلال الذاتي يستتبع دائما الاستقلال القضائي ، أي أن يكون لكل مدينة هيئاتها القضائية فضلا عن حق تمتعها بممارسة عرف التحكيم المألوف في العصر الهلنستي بوجه خاص ، وبمقتضى هذا العرف كانت المدينة تدعو مدينة صديقه لترسل هيئة قضائية للفصل في قضايا مدنية واحيانا قضايا جنائية خاصة ببعض مواطني المدينة الداعية • وكان القضاة الزائرون يحاولون أول الامر تسوية النزاع وديا ، واذا استعصى ذلك كانوا يصدرون حكما قضائيا • وتمتع المدن السلوقية بحق ممارسة هذا العرف دون تدخل الملك يوحي باستقلال هذه المدن القضائي •

أما بالنسبة للهيئات القضائية العادية التي كانت تؤلف من مواطني كل مدينة ، وتفصل عادة في كل ما ينشأ بينهم من نزاع ــ فيما عدا الحالات التي يلجأ فيها الى التحكيم ــ فاننا لا نعرف عنها شيئا ، كما أننا لا نعرف اذا كان يحق

استئناف أحكامها أمام الملك بوصفه الرئيس الاعلى لكل أجهزة الامبراطورية والمصدر الاول للقانون ، أو أمام سكرتير الملك (Epistolographos) الذي يعتقد بعض باحثينا بأنه كان يشرف على الهيئات القضائية بتكليف من الملك •

وأما القضاة الملكيون (Chrematistai) الذين كان الملك يعينهم ويؤلف منهم هيئات قضائية ، فانه قياسا على أمثالهم في مصر البطلمية نرجح انهم كانوا يؤلفون هيئات قضائية متنقلة للفصل في قضايا الجاليات والمستعمرات الاغريقية المنتشرة في أرجاء الامبراطورية السلوقية ، وان كل هيئة من هذه الهيئات كانت تختص بقضايا منطقة بعينها ، وتعقد جلساتها في المدن الكبرى وعواصم الولايات الداخلية في نطاق منطقتها •

٣ ــ وسائل تنفيذ القانون :

ويبدو أن تنفيذ الاحكام القضائية كان يعهد به في المدن وعواصم الولايات الى رجال الشرطة (Phylakitai) وأما في الجهات النائية فانه كان يعهد بذلك الى فرق الجيش المرابطة هناك حيث كان موكولا اليها أيضا تطبيق النظام وحماية الامن ، فضلا عن المساعدة على جباية الضرائب في مناطقها ، فشابهت بعملها هذا رجال الدرك أو (الجندرمة Gendarmes) في التاريخ المعاصر •

الفصل العشرون

الحياة الاقتصادية والاجتماعية

١ ـ الحيـاة الاقتصاديـة

إزاء اتساع الامبراطورية السلوقية وتعدد أصقاعها مع تباين مقوماتها ، وإزاء قلة المعلومات التي نستمدها من مصادرنا عن الحياة الاقتصادية في الامبراطورية سواء إبان عهد سلوقس وخلفائه أم إبان العهد الفارسي ، يتعذر علينا اعطاء صورة كاملة لهذه الحياة بل انه ليتعذر علينا تصويـر ملامحها الرئيسية دون الاستعانة ببعض ما وضح من الاوضاع الاقتصادية قبل الفترة السلوقية وبعدها .

أولا ـ الزراعـة :

تقدمت الزراعة بوجه عام تقدما كبيرا في العصر الهلنستي . ذلك انه نتيجة لفتوحات الاسكندر الاكبر وما أعقب ذلك من قيام عدة دول على انقاض امبراطورية الاسكندر ومن استقرار أعداد كبيرة من الاغريق في هذه الدول ، ازداد الناس علماً بأنواع جديدة من النبات والعشب والاساليب الزراعية . وتتجاوب أصداء هـذه المعارف في مؤلفات « ثيوفراتوس » واضع أساس علم النبات .

ولمـا كان الاتجاه العام في العصر الهلنستي هو العناية الشديدة بالزراعـة بدليل ما تشهد به المصادر القديمة من فرط عناية البطالمة الاوائل وملوك برجامه على سبيل المثال لا الحصر ، فانه لا جدال في اهتمام السلوقيين أيضا بالزراعـة ، سيما وأنهم كانوا في حاجة ملحة الى الاموال اللازمة لبناء قواتهم ، وانشاء المـدن والمستعمرات الجديدة ، وان الزراعة كانت من أهم مواردهم . وينهض دليلا على

ذلك ما أحدثوه مـن انقلاب جذري في شكل الملكية الزراعية في كافـة أنحاء الامبراطورية ، عندما استولوا بحق الفتح والغلبة ليس فقطعلى أرض الملك الاكبر فحسب ، بل ضموا اليها ما استولوا عليه من ملكيات زراعية واسعة كانت تابعـة إما للمدن التي قاومتهم ، وإما لوحدات كهنوتية غنية ، مثل دولة حمص التي كانت تمتلك ثروة زراعية كبيرة فضلا عن المناجم والغابات .

١ ــ الارض والفلاح :

وعلى الرغم من المعلومات العامة التي نستمدها من مصادرنا عن استيلاء الملك السلوقي على هذه الاراضي وعن قيامه بمنح مساحات كبيرة منها لأفراد الاسـرة المالكة ولذوي الحظوة لديه من المقدونيين والاغريق وكذلك من الفرس ، ولبعض المدن الاغريقية وللمقطعين العسكريين في المستوطنات التي أكثر السلوقيون مـن انشائها ، فان مصادرنا لا تنبئنا إلا بأقل القليل عن التغيرات التي طرأت على وضـع فلاحي الاراضي وطرق استغلالها في الامبراطورية السلوقية بعد انتقال ملكيـة الاراضي ، الى سادة جدد من مناطق مختلفة .

وتتبين من أحد النقوش ان ضيعة منسيما خوس (Mnesimachos) [١] كانت تحرث بمحاريث تجرها ثيران يقودها فلاحون وطنيون (Laoi) ممن يقطنون القرى المحيطة بقلعة هذا الاقطاعي (Baris) . وتشير القرائن الى أن المحراث كان يستخدم كذلك في الحدائق والكروم الصغيرة .

ولا يأخذنا العجب من أن الاغريق لم يدخلوا الحديد في الادوات الزراعيـة مثل ما فعلوا في مصر ، ذلك أن مكتشفات رأس شمره (أوغاريت) أثبتت بما لا يدع مجالا للشك أن معظم المناطق الآسيوية قد عرفت استخدام الحديد في الزراعة منذ أوائل القرن الرابع عشر ق.م .

---

(١) احدى أهم الضياع الكبيرة التي امتلكها اقطاعيون في منطقـة آسـية الصغرى ، وتتركز أهميتها في المعلومات الفريدة التي وصلتنا عنها عـن طريق النقش الذي عثر عليه وأطلق عليه هذا الاسم على اسم صاحب الضيعـة .

وان دل هذا كله عن شيء فهو يدل على ان الاغريق لم يستحدثوا شيئا في الادوات الزراعية ، فقد ظل الفلاحون يستخدمون أدواتهم الزراعية التقليدية ، مثلما ظلوا (في بعض أراضي الامبراطورية) يتبعون الدورة الزراعية القائمة على نظام ترك الارض مراحاً مرة في كل عامين بدلاً من مرة كل ثلاثة أعوام وفقا لنظام الدورة الزراعية المتبعة في مصر البطلمية .

ولعل أن أهم ما استحدثه الاغريق زراعيا في الامبراطورية السلوقية كان أقلمة أنواع جديدة من المزروعات غير المعروفة في اقليم أو آخر من أقاليم الامبراطورية ، وادخال أصناف جديدة من الانواع التي كان بعض أصنافها معروفا ، على نحو ما سنتبين فيما بعد ، مع العناية بوجه خاص بنشر غرس الكروم وأشجار الزيتون . وإزاء دراية الاغريق الواسعة بفن فلاحة البساتين بوجه عام وبفن غرس الكروم وأشجار الزيتون بوجه خاص ، انفرد هؤلاء السادة بهذا المجال حيثما أنشئت مدن ومستعمرات جديدة ، تاركين للأهالي الوطنيين استخدام مهاراتهم المتوارثة في انتاج الحاصلات الزراعية التقليدية .

وليس من العسير تفسير خلو مصادرنا من أية اشارة الى قيام السلوقيين باستصلاح مزيد من الاراضي الزراعية على نحو ما فعل البطالمة . ذلك أنه إزاء اتساع الامبراطورية السلوقية ووفرة أراضيها الزراعية لم يستشعر عواهلها مثل تلك الحاجة التي استشعرها البطالمة الى زيادة رقعة الاراضي الزراعية . ويبدو أن الاهتمام بنشر غرس الكروم وأشجار الزيتون وغيرها لم يتطلب أكثر من تحويل أراضي صالحة للزراعة إلى حدائق إلا في بعض المناطق التي اقتضت مشروعات خاصة لتنظيم السقاية والصرف فيها . ومثل ذلك أن الاستاذ روستوفتزف استخلص من بعض نتائج أعمال الحفر في دواريوروبوس أن الكروم والنخيل وفلاحة البساتين كانت ناجحة في هذه المنطقة . وحيث أن أراضي هذه المنطقة صحراوية قاحلة ، وترتفع ارتفاعا ملحوظاً عن مستوى نهر الفرات مما كان يتعذر معه سقايتها دون تدابير محكمة ، فلا بد من أن يكون نجاح الزراعات السالفة الذكر قد اقتضى بذل مجهودات جبارة لتهيئة الاسباب التي تكفل تنظيم الري والصرف في أراضي تلك المنطقة . ولعله ليس من الاسراف القول بأن الاهتمام بمشروعات

الري والصرف لم يكن مقصورا على دورا دون غيرها ، وبأن خبرة الاغريق الهندسية قد استخدمت في هذه المشروعات على غرار ما استخدمت في مشروعات مماثلة في مصـر البطلمية •

٢ ــ أهم الزراعات :

ولا شك في أن القمح كان أهم حاصلات الامبراطورية على الاطلاق • وتشير القرائن الى أن زراعة القمح ظلت مزدهرة منـذ الفترة الفارسية ، والـى زيادة المحصول زيادة ملحوظة في الفترة السلوقية الباكرة • ولعله ينهض دليلا على ذلك ما ورد في مصادرنا من اشارات الى انخفاض سعر القمح في سوق بابل في عـام (٢٧٣/٤) عنه في الفترة الفارسية المتأخرة • ولعل أن زيادة محصول القمح هذه الزيادة الكبيرة التي أفضت الى هبوط سعره برغم زيادة الطلب عليه تنيجة لاستقرار أعداد كبيرة من النزلاء الاجانب في أصقاع الامبراطورية ترجع الى أنه بعد انتقال ملكية الارض أو حيازتها الى الملك السلوقي وكثيرين من المقدونيين والاغريق ، وجّه أرباب الارض الجدد عنايتهم الى تهيئة كافة الاسباب التي تكفل استغلال الارض استغلالا مكثفا دقيقاً •

ولم يقتصر انتاج القمح على منطقة بعينها ، بل شاركت في ذلك معظم المناطق الخصيبة في الامبراطورية • وإذا كانت آسية الصغرى ، وبخاصة بيثونية وبرجامه من أشهر مراكز انتاج القمح ، فان ميديه وسورية كانتا تنتجان أجود أنواعه • ولا أدل على ذلك من أن البطالمة وكانوا أكبر تجار القمح في عصرهم ، عنوا بادخال زراعة القمح السوري والفارسي في مصر لتحسين صنف قمحها •

وإذا كانت مصادرنا لا تنبئنا عن أهمية الأرز الغذائية ومدى انتشار زراعته في العصر الهلنستي بشكل عام ، فانه مما لا شك فيـه أن الأرز كان معروفا في ذلك العصر إذ تؤكـد المصادر شهرة بابـل وسوسيانا وباكتريه بزراعته منذ عهـد الاسكندر •

ويحدثنا استرابون بأن المقدونيين هم أول الذين أدخلوا غرس الكروم الـى سوسيانا وبابل • وإذا كان هذا جائزا فانه لمـا كان غرس الكروم معروفا جيدا في

آسية الصغرى وسورية ، يبدو لنا غريبا ان ينتظر غرس الكروم قدوم المقدونيين ليشق طريقه الى الاقطار المجاورة • ولعل الاقرب الى الحقيقة والادنى الى القبول دونّ تردد أن يكون المقدونيون والاغريق ــ بناء على محبتهم الفائقة للنبيذ ، وعلى تعدد أنواعه عندهم ــ هم الذين عملوا على نشر غرس الكروم وادخال أنـواع جديدة منها في المنطقة الواقعة شرقي الفرات حتى أواسط الهند ، مثلما عملوا على أقلمة بعض أنواع من المزروعات الاوربية في مستوطناتهم الجديدة •

ولا شك أن زراعة الزيتون كانت من أعرق وأهم الزراعات في الاقاليم الغربية للامبراطورية السلوقية ، وهي التي تضمنت آسية الصغرى وسورية بمفهومها الواسع • ومع ذلك فان القرائن تشير الى أن هذه الزراعة لقيت عناية كبيرة في عهد السلوقيين وإلى أن زيت الزيتون الذي كان يستخرج في آسية الصغرى وسوريه اعتبر من أجود أصناف الزيت قاطبة • ولا أدل على ذلك من أن المكوس الجمركية الباهظة التي فرضها البطالمة على دخول هذا الزيت لم تحل دون استيراده الى مصر •

ولا شك أيضا ، أن امبراطورية سلوقس التي ماثلت قـارة بحجمها وتنوع مقومات أراضيها ومناخها بالتالي ، قد تضمنت ثروة من الاشجار الزراعية يصعب علينا حصرها • ولعـل أهمها كانت أشجار الفستق وهـي التي يفترض الاستاذ روستوفتزف أن الفرس هم الذين نقلوا غرساتها الى شمال سورية مـن المناطق الايرانية • وكانت تنمو كذلك بكثرة أشجار التين والرمان في أقاليم متعددة مـن آسية الصغرى • ولعل صمت مصادرنا عن أي ذكر لأشجار التفاح والكمثرى والجوز وانتشارها في أرجاء الامبراطورية السلوقية لا يدل حتماً على افتقار الامبراطورية الى هذه الانواع ، ذلك أن بعض الوثائق البردية تشير الى غرس مثل هذه الاشجار في مصر البطلمية في منف وفيلادلفيه ، وأنـه ليصعب أن نتصور نمو مثل هـذه الاشجار في مصر دون منطقتي سورية وآسية الصغرى ، سيّما وأن نجاح زراعـة مثل هذه الاشجار ، بل نموها يتطلب مناخاً خاصا يتوافر في سورية وآسية الصغرى أكثر منـه في مصر •

ورغم صمت مصادرنا عن ذكر أهمية أشجار النخيل وغرسها في الامبراطورية السلوقية ، فمن غير المعقول أن نفترض أن انتاج البديل الطبيعي للسكر في عصرنا

الحاضر ، وهو عسل النحل في العصور القديمة كان كافياً ، وتبعا لذلك لا بد من أن العناية بغرس أشجار النخيل بها قد تناسبت مع الاهمية المعقودة على الحاجة الماسة إلى ثمرها في ذلك الوقت ، خاصة وأن مناخ بعض أراضي الامبراطورية (وبخاصة منطقة شرق الفرات) كان يساعد على غرس النخيل ، اضافة الى احتمال تصدير هذا النوع من الثمار الى بعض مناطــق الامبراطورية التي تفتقر إلى مثل هــذا النوع مــن التمــر •

وإذا لم يكن بمقدورنا بيان أنــواع الاشجار الثمينة التي كانت تستخدم أخشابها في بناء السفن وصنع الاثاث ، وأغراض البناء بصورة عامة في امبراطورية سلوقس نظرا لحالة وثائقنا ، فان مما لا شك فيه أن امبراطورية سلوقس قــد احتوت على قسم عظيم من ثروة الاخشاب الثمينة في العالم الهلنستي ، وذلك نتيجة لوجود غابات هائلة في المناطق الجبلية في كل من آسية الصغرى وشمال سورية ومنطقة ما بين النهرين • ويبدو أنه لم تبذل محاولات لأقلمة مزروعات اغريقية فحسب كما أسلفنا ، بل أيضا بأقلمة بعض المزروعات والاشجار الشرقية ذلك ان بلينيوس يحدثنا بأن سلوقس الاول حاول اقامة بعض انواع النباتات الهندية والعربية التي يبدو أنها كانت إما عطرية وكان الطلب عليها شديدا لسد حاجة الاثرياء والمعابد ، وإما طبيــة مثل نبــات (سنبل الطيب Nardum) ونبات (اموموم [1] Amomum) وبأن سلــوقس عني بزراعــة هذه الانــواع في امبراطوريته ، لجعلها في متناول المستهلكين وخفض أسعارها فيما يبدو •

ويتحدث بلينيوس أيضا عن محاولات لزراعة القرفة واللبان(المستكة)وبعض أنواع النبات والاشجار التي كانت تنمو في سيلان ، مما يؤكد الرغبة الشديدة في استنبات المزروعات الهامة ، وكان الاقبال عليها شديدا داخل الامبراطورية وخارجها في عــالم البحر المتوسط •

---

(١) نبات عطري من وحيدات الفلقة استخدم في الامور الطبية ، يشبه في تكوينه حب (الهال) المعروف •

ثانيا ـ الصناعـة :

١ ـ تمهيـد

وليست لدينا عن الصناعة في آسية في العصر الفارسي إلا بعض المعلومات العامة التي استطاع كبار باحثينا استنباطها من بعض الرقوق والألواح القديمـة ، ولعل أهم هذه الصناعات كانت صناعة الزجاج والحرير والاصباغ في فينيقيـة بمفهومها الواسع (أي الساحل السوري بمجموعه) ، وصناعة السفن في فينيقية والخليج العربي ، وصناعة التعدين واستغلال المناجم في عيلام أو بعض مناطق آسية الصغرى ، وصناعة العجلات الحربيـة وأدوات القتـال في المراكـز الرئيسيـة بالامبراطورية ، وأخيرا صناعة النسيج والاحذية والاثاث والاواني والحلي في كـل مكان من الامبراطورية تقريبـا •

وعلى الرغم من كل ما يمكن أن يقال : من أن التوزيع غير العادل للثروة بـين معظم المقدونيين والاغريق وبين معظم الاهالي الوطنيين ، أو بين السكان الاثرياء في المدن ، (من كبار اقطاعيين وكبار الموظفين والتجار) الذين لم يشكلوا في دولـة سلوقس إلا نسبة ضئيلة من تعداد السكان العام ، وبين الغالبية العظمى من سكان الامبراطورية (وأقصد طبقة الفلاحين وبقية أفراد الطبقات الدنيا) ، وان هـذه الغالبية لم يكن باستطاعتها حيازة أية سلعة خارج نطاق الحاجات الضرورية جـدا والتي يغلب على الاعتقاد بأنها كانت من صناعة افرادها اليدوية ، مثل حياكة الملابس وصناعة الاواني والنبيذ ، جريا على العرف السائد في مثل هذه الظروف في كـل أنحاء العالم القديم ، واقتصار مشترواتهم على بعض الادوات الزراعية والاواني المعدنية التي لم يتقنوا صنعها • وكل ما يمكن ان يقال عن ان الصناعة كانت تعقد لتموين حاجات عدد غير كبير من المقتدرين • وانها ـ أي الصناعة ـ لم تتطور إلا التطور التاريخي المحتوم لمسايرة متطلبات العصر وزيادة عدد السكان • فاننـا لا نستطيع أن ننكر ان استقرار عدد كبير من المقدونيين والاغريق ، كان كثيرون منهم ميسوري الحال ولهم احتياجات يجب توفيرها ، قد أدى الى اهتمام معين بذله السلوقيون لتأمين هذه الاحتياجات ، اللهم إلا إذا افترضنا أن هؤلاء قد عنوا بتوفير هذه الاحتياجات عن طريق الاستيراد وانهم قد اقنعوا هؤلاء السكان (المقدونيين

والاغريق) بقصر عنايتهم على الشؤون الزراعية • وهذا أمـر يصعب تصوره لان السلوقيين إزاء حاجتهم الى موارد كثـيرة لبناء قوات تماثل قـوات منافسيهم ، وبخاصة البطالمة لا بد وان يكون قد ألزمهم بالعمل على النهوض بالصناعة لتحقيق الاكتفاء الذاتي وتصدير الفائض • ويعزز هذا الافتراض أمران : واحدهما هو أنه كان من بين النزلاء الاجانب في الامبراطورية كثيرون من الحرفيين • والامر الآخر هو أنه إذا كانت معظم بل كل المخلفات الاثرية يرجح تاريخها الى العصر الروماني فانه من المرجح جدا ان هذه الصناعات لم تنشأ فجأة عندئذ ، ولا ترجع الى تاريخ سابق ، سيما اذا كان لها نظائر في العصر الفارسي •

وفي ضوء هذه الاعتبارات يبدو أن اهتمام السلوقيين بالصناعة لم يقل عـن اهتمامهم بالزراعة سيما انه كان من شأن ازدهـار الزراعـة ازدهار الصناعـة وبخاصة الصناعات المتصلة بشؤون الزراعة وغيرها •

٢ ــ أهم الصناعات :

مما لا شك فيه أن الحروب شبه المتصلة في الفترة الهلنستية قد أدت الى تطور ملحوظ ونشاط كبير في الصناعات التي كانت تستلزمها فنون القتال ، كالسفن ومختلف أنواع الاسلحة ولوازم الحرب • ومن الجائز أن هذه الصناعات بالذات قد تميزت عن باقي صناعات العصر بأنها استخدمت آخر ما توصلت اليه التقنيه المعاصرة لها في سبيل الحصول على أسلحة أجدى وأفتك من الاسلحة الاقدم ، وبخاصة في فنون الحصار • ولا شك أن نشاط مثل هذه الصناعات قد استتبع نشاطا مماثلا في صناعة التعدين التي لا نعلم عن مراكزها شيئا كثيرا •

وقد كانت صناعة النبيذ من أهم الصناعات القديمة المنتشرة في مدن آسية الصغرى وجزر بحر ايجه مثل كوزيكوس (Kyzikos) . وخيوس وثاسوس ودِيلوس وكوس ورودوس • وقد تبع انتشار غرس الكروم في أرجاء الامبراطورية السلوقية قيـام مراكز جديدة لصنع النبيذ كانت أهمها في سورية وبابل وفارس • بيد أن أجود أنواع النبيذ في الامبراطورية السلوقية قاطبة كانت مـن انتاج لاوداكيه منشأة سلوقس الجديدة على الساحل السوري • ويبدو أن نبيذ لاوداكيه كان مطلوبا أكثر

من غيره للاستهلاك في الاسكندرية • كما يبدو أن نوعية العنب وطريقة استخراج النبيذ منه كانا سبب إقبال أهم عواصم العالم المتحضر آنذاك على نبيذ لاوداكيه •

وقد ترتب على انتشار غـرس أشجار الزيتون في الامبراطورية السلوقيـة محصول وفير من الزيتون اشتهر بجودة صنفه ، وكان طبيعيا ان يتمخض عن ذلك قيام صناعة نشيطة في انتاج الزيت من صنف جيد صادف رواجا ملحوظا في أكبـر أسواق العالم الهلنستي وهي الاسكندرية •

وكان طبيعيا أن يفضي ازدهار صناعتي النبيذ والزيت الى ازدهار صناعـة ثالثة وهي صناعة الآنية الفخارية اللازمة لتعبئتها ، وتبدو جلية ظاهرة تقليد نماذج الفخار الاتيكي ــ وهو الذي كان يطلى باللون الاسود ، وتدعى نماذجه الاولى بالكؤوس الميجارية (Megarian Bawls) في كل مدن الامبراطوريـة ، وبخاصة مدن آسية الصغرى وسورية ، في حين ان بلاد ما بين النهرين تابعت انتاج فخارها وفقا للنماذج الصينية المعروفة وقتئذ •

وفي خلا لالعصر الهلنستي استمرت المدن الفينيقية في انتاج اصناف ممتازة من المصنوعات الزجاجية ، مثـل الكؤوس والاطباق والحلي الزجاجية ، غـير ان منشآت سلوقس الجديدة استطاعت أن تخطف من هذه المـدن بعض بريق شهرتها في هذا المجال ، فآلت الصدارة في صناعة الزجاج وخاصة المطعم منـه بالذهب من صيدا وصور الى بعض هذه المنشآت الجديدة وأخصها انطاكية •

أما عن صناعة النسيج في الامبراطورية السلوقية فاننا إذا كنـا نفتقر الى معلومات مباشرة عن مدى انتشارها وتطورها في العصر الهلنستي فان نشاطها في الفترتين الفارسية والرومانية وحاجة المعاصرين الـى استخدام الملابس الكتانية والصوفية على حد سواء تدفعنا الى ترجيح استمرار المراكز الصناعية القديمة في انتاج المنسوجات إلى جانب المراكز التي نشأت في المنشآت الجديدة •

ويبدو أن أوراق الكتابة التي كانت تصنع في الفترة السلوقية الباكرة سواء في سورية من بعض نبات البردى أم في بابل من نبات البردى وغيره ، كانت لا تستطيع الوفاء بحاجة السوق المحلية إما لرداءة الصنف وإما لقلته • وكنتيجة حتمية للاقبال

المتزايد على شراء الورق المصري الممتاز ، ولارتفاع ثمنه اضطر الملوك السلوقيون وكذلك الاتاليون فيما بعد الى تشجيع صناعة الرقوق (Parchements) اي الجلود في بعض حواضرهم ، كما وضعوا قيودا على استيراد ورق البردى المصري •

ثالثا ـ التجـارة :

إزاء حاجة كل مراكز العالم المتحضر في حوض البحر المتوسط الى منتجات الشرق الاقصى بصفة عامة والهند بصفة خاصة ، اكتسبت التجارة الشرقية منذ أمد بعيد أهمية كبيرة • وإزاء ازدياد الثروة لدى دول البحر المتوسط ، وما صاحب ذلك من ازدياد الاقبال على سلع الترف خـلال العصر الهلنستي ، ازدادت أهميـة التجارة الشرقيـة •

وقد أسهم في انتعاش التجارة ذلك التحول الهام من الاقتصاد العيني الـى الاقتصاد النقدي ، وهو التحول الذي أدى اليه فتح الاسكندر للشرق والاستيلاء على كنوز الفـرس بما في ذلـك أكداس نقودهم الذهبية والفضية ، وقـد عمل السلوقيون على تنشيط هذا التحول ، ولعبت المدن السلوقيةفيغرب سورية ومنطقة بابل دورا كبيرا في تطويره ، وان كان يبدو هذا التحول قد مضى في الامبراطورية السلوقية بخطى أبطأ من التي قطعها في مصر ، وان الاقتصاد العيني ظل سائدا في كثير من المناطق الريفية •

١ ـ النقـود :

ولعـل مـن المناسب ان نستهـل بحثنـا عـن النقـود السلـوقيـة بالاعتراف بأنه إزاء قلة المعلومات عن النقود السلوقية بشكل عام ، وكذلك قصور الدراسات الخاصة بدور سك النقود السلوقية ، فاننا نحس احساسا صادقا بـأن النتائج التي توصلنا اليها ليست كاملة وبأنها لا يمكن ان تكون فصل الخطاب في هذا الموضوع •

وأهم ملاحظة نود ابداءها قبل بدء الكلام عن النقـود السلوقيـة هي ان حق سك النقود كان من أخص سمات السيادة ، ولا يمارسه من حيث المبـدأ إلا الملك بوصفه السيد الاعلى لجميع رعاياه • ومع ذلك فان الملك كان يمنح هـذا الحق لبعض المدن والمجتمعات ، غير ان هذه المدن والمجتمعات كانت تلتزم بأن تضع

على نقودها اسم العاهل المتربع عـلى عرش الامبراطورية دلالة عـلى الاعتراف بسيادته • ولا أدل على أهمية الاسم الذي تحمله العملة من أن أنطيوخس الاول أمر باعدام ابنه عندما سك نقودا فضية باسمه في الوقت الذي لم يكن فيه سوى نائبـا لأبيه في الولايات الداخلية بآسية ، ومن ان ديودوتوس (Diodotos) والي باكتريه وبعد ذلك ملكها عندما اقتطع باكتريه من الامبراطورية السلوقية في عهد انطيوخس الثاني وتربع على عرشها ، أصدر عملة باسمه ورسمه الخاص •

وعلى غرار معظم خلفاء الاسكندر ، سك السلوقيـون من معـادن الكنوز الفارسية نقودا ذهبية باسم الاسكنـدر ، وعنـدما اتخذ الجيـل الاول مـن خلفـاء الاسكنـدر ألقـاب الملـوك عـام ٣٠٦/٣٠٥ وأخـذوا يسكـون التي تحمل اسم الاسكندر الاكبر • واستمرت هذه الظاهرة الى جانب نقود الملوك الخاصة سارية حتى فترة متأخرة من تاريخ هذه الامبراطورية •

ومما يستوقف النظر في النقود السلوقية ، كثرة تصوير القرون سواء على جبين الملك أم على خوذته أم على رأس الحصان أم على رؤوس الفيلة ، وهذه الظاهرة تستحق الشرح نظرا لانتشارها وخاصة في عصر سلوقس الاول ، مما حـدا ببعض الباحثين الى اطلاق صفة (عصر القرن) على عهده •

ومن الجائز ان هذه الظاهرة ترجع الى ان القرون كانت تعتبر رمزا للقوة المادية في المجتمعات الشرقية القديمة ، وبخاصة الاسيوية منها • ولا ادل علـى ذلك من ان كثيرا من الكتب الدينية ترمز بالقرون الى قوة عضلات شخص مـا أو الى شدة بأس احدى الامم او الى ملك غاز واسع الملك ، ومن ان اعمـال فن النحت الاشوري تصور الملوك والجنود المقاتلين بل والابطال الاسطوريين اللذين يرمزون الى القوة العاتية ، وعلى رأسهم تيجان تبرز منها قرون ثيران • ولا تخلو من القرون تصاوير الالهة المصرية والفينيقية ومثل ذلك الاله (خنوم) المصري والالاهه (عشتاروت) الفينيقية•وفي اللغة المجازية عند بعض الشرقيين يقال احيانا عن اشعة الشمس (قرون الشمس) للدلالة على حدتها ونفاذها بقـوة • ولعل نبوءات النبي دانيال (Danial) ورموزه التي يستعملها تشرح لنـا

هذه الاهمية وذلك حين يرمز الى الدولة الفارسية بالكبش ذى القرنين ، ويرمز الى الاسكندر المقدوني بالتيس ذى القرن الواحد ، كما يرمز الـى انقسام مملكته فيما بعد بأنه نبتت في رأس هذا التيس أربعة قرون ٠

ويبدو ان الاسكندر الاكبر كان أول شخصية من البشر صورها الفـن الاغريقي بقرون ٠ واستعراض أعمال الفن الاغريقي سواء أكانت منحوتـه أم مصورة تقطع بأنه لم يكن لقرون الكباش أو التيوس أو الثيران مكان في تصوير أعظم الالهة الاغريقية واكثرها عددا ، فنحن لانجدها الا في تصاوير آلهة ثانويـة مثل بان (Pan) أو مخلوقات عجيبة مثل الساتور (Satyr) كل ذلك يوحي بأنه لم تكن للقرون عند الاغريق مثلما لها من مغزى ووزن عند الشرقيين ٠

ولا شك في أن الفيلة حظيت بتقدير كبير لدى الملوك السلوقيين ، لانهـا كانت تمثل قوة بالغة الاهمية في الجيش السلوقي ، وخاصة جيش سلوقس الاول ، ولعل تقدير سلوقس لقيمة الدور الذي قامت به هذه الاداة الحربية في أعظـم انتصار أحرزه وهو انتصاره على انتيجونوس ودمتريوس في موقعة ابسوس كان السبب في تصوير الفيلة على الكثير من نقود هذا العاهل ، مثلما فعـل انطيوخس الثالث فيما بعد عندما اعاد تصوير الفيلة ــ بعد اختفائها طويلا ــ على بعض نقوده تخليدا لحملته الشرقية الكبرى ٠

٢ ــ طرق التجارة الشرقية :

يخيم الغموض على اوضاع الطرق التي كانت التجارة الشرقية تسلكهـا الى الغرب سواء في عهد الفرس أم في الفترة السلوقية الباكرة ، ومع ذلك فـان بعض مصادرنا على قلتها تساعدنا على القاء بعض الاضواء واستخلاص المعلومات التـاليـة :

فمن المرجح أن الطرق الرئيسية للتجارة الشرقية في عهد الفرس وفي بواكير العصر الهلنستي كانت ثلاثة : اولها طرق الشمال وثانيها طريق الوسط وثالثهـا طريق الجنوب ، وتقتصر معلوماتنا عن الطرق الشمالي على انه كان يمر بمدينتي كابول وباكترا (بلخ) حتى مصاب نهر جيحون (Oxos) ثم يعبر بحر قزويـن

ويسير محاذيا لنهري قورش وفاسيس (Phasis) الى البحر الاسود ،ويبدو ان قلة معلومات مؤرخينا عن هذا الطريق حدت ببعضهم الى الاعتقاد بأن هذا الطريق كان قليل الاهمية في العصر الهلنستي •

ويبدو أن الطريق الاوسط لم يكن طريقا واحدا بل عدة طرق ، كان احدها مائيا تشقه السفن من الهند الى الخليج العربي ، ثم تنطلق من هناك صوب بابل • وثانيها وأقلها أهمية كان طريقا بريا يخرج من الهند ويمر بمدينتي برسبوليس وسوسا قاصدا بابل • وثالثها وأكثرها أهمية كان بريا ايضا ويتجه الى بابل عبر تاكسيلا وباكترا واكباتانا وغيرها • ويبدو ان البضائع المتجمعة في بابل كانت تجتاز أراضي الجزيرة متجهة شمالا الى نصيبين (Nisibis) حيث ترفدها بضائع التجارة الارمنية وتنتقل جميعها الى الرها (Edessa) حيث تتجه صوب دمشق وصور عبر خالكيس وحمص •

أما الطريق التجاري الجنوبي فكان طريقا بحريا فيما بين الهند والموانىء الواقعة في جنوب بلاد العرب ، مثل أدانا وجزيرة سقطرى • وكانت المراكب الهندية تفرغ حمولتها لدى الاعراب ، الذين كانوا يحرصون أشد الحرص على هذه التجارة الى حد أنهم كانوا لا يسمحون للمراكب الهندية بدخول مضيق باب المندب • وكانت هذه السلع وكذلك سلع بلاد العرب تسلك الى الشمال طريقين لم يكن احدهما مستعملا بكثرة قبل العصر الهلنستي وهو الطريق البحري في محاذاة الشاطىء الافريقي أو شاطىء بلاد العرب حتى اقصى الشمال في البحر الاحمر • أما الطريق الاخر وكان اكثر أهمية من الاول فهو الطريق البري القديم الذي كان يعرف باسم « طريق البخور » ويمر بسبأ ومعين ويثرب والعلا أو ددان (Dedan) وايله أو العقبة والبتراء (وكان يأتي اليها طريق آخر من جرها على الساحل الغربي للخليج الفارسي ودمشق وصور)•ومنذعهد الفرس كان الانباط بفضل مهارتهم التجارية وموقع عاصمتهم البتراء ، يتحكمون في تجارة طريق الجنوب • ومنذ بداية العصر الهلنستي كان البطالمة الاوائل بحكم سيطرتهم على جوف سورية وأغلب شاطىء فينيقية يسيطرون على أهم منافذ طريقي الوسط والجنوب لوقوع هذه المنافذ في نطاق ممتلكاتهم • وكان ذلك من اسباب

الصراع بين البطالمة والسلوقيين سيما وأن طريق الوسط كان يجتاز الامبراطورية السلوقية وتقع أهم منافذه وكذلك أهم منافذ طريق الجنوب في المنطقة التي اعتبرها السلوقيون حقا لهم منذ موقعة ابسوس •

٣ ـ مظاهر اهتمام السلوقيين بالتجارة الخارجية :

آ ـ دعم العلاقات مع الهند :

ولما كانت الهند المصدر الرئيسي للتجارة الشرقية ، وكانت مملكة تشاندراجوبتا المخرج الرئيسي لهذه التجارة ، فان سلوقس وخلفاءه عنوا بانشاء علاقات دبلوماسية قوية مع هذه المملكة • ذلك ان سلوقس ، بعد ان عقد معاهدة الصداقة مع تشاندرا جوبتا أنفذ الى بلاط هذا الملك في باتاليبوترا (Pataliputra) على نهر الغانج سفيره مجاسشنس (Megasthenes) • ويرجع الى هذا السفير الفضل في حصول الاغريق على معلومات صحيحة عن الهند • وقد ارسل سلوقس كذلك دايماخوس (Daimachos) سفيرا الى بلاط اميتروخاتس (Amitrochates) خليفة تشاندرا جوبتا •

ب ـ انشاء مدن جديدة وشق طرق جديدة :

وكان ابرز ما قام به سلوقس في مجال التجارة الشرقية قبل ان يخوض معركة ابسوس التي تمخض عنها امتداد دولته غربي الفرات حتى شواطىء البحر ، هو إنشاء مدينة سلوقية دجلة ليجني أكبر قدر ممكن من ثمار تجارة طريق الوسط وتجارة ارمينية فتدهورت مكانة بابل التجارية وغدت مركزا دينيا وعلميا فقط •

وبعد ابسوس ، واتساع امبراطورية سلوقس غربا ، يبدو أن هذا العاهل أدرك أمرين ، وأحدهما هو ان طريق الشمال قليل الاهمية فضلا عن انه ينتهي في امبراطورية حليفه وغريمه لوسيماخوس • والامر الاخر هو ان بطلميوس بسيطرته على جوف سورية واغلب شاطىء فينيقية كان يتحكم في أهم منافذ طريقي الجنوب والوسط • ومعنى هذا انه بالرغم من أن أهم طرق التجارة الشرقية وهو طريق الوسط ، كان كله او معظمه يخترق الامبراطورية السلوقية وتمر به فيما تمر

منتجات جانب كبير من امبراطوريتهم ، فان عاهل هذه الامبراطورية كان محروما ليس فقط من المشاركة في جني ثمار مرور التجارة الشرقية الى عالم بحر ايجه بل ايضا من أيسر السبل لتصدير منتجات امبراطوريته الى ذلك العالم • وتصحيحا لهذا الوضع ، اتخذ سلوقس عدة خطوات • وكانت احدى هذه الخطوات هي العناية باصلاح الطرق التي تشقها قوافل التجارة وبتيسير وتأمين استخدامها ، وذلك بانشاء عدد من المدن والمراكز العسكرية على امتدادها لنشر الامن وحماية القوافل التجارية •

ولاجتذاب جانب من التجارة التي كانت تتجه غربا الى الطريق التقليدي المألوف وتنتهي عند صور انشأ سلوقس طريقين جديدين يخرجان من مدينتين على الفرات هما (زيوجما ودورايوروبوس) ويتجهان الى انطاكية وسلوقية بيريه • وفي رأي بعض المؤرخين ان سلوقس اختار عامدا الموقعين اللذين انشئت عليهما المدينتان الاخيرتان لتحقيق اهداف سياسته التجارية • بيد انه اذا كان سلوقس قد افلح على هذا النحو في اجتذاب جانب كبير من تجارة الطريق التقليدي المألوف ، فان القرائن توحي بأنه لم يكن من شأن جهود سلوقس القضاء كلية على اهمية الطريق القديم •

وبعد كوروبديون واستيلاء سلوقس على معظم آسية الصغرى ، يبدو أن سلوقس عمل على تنشيط الطريق الرئيسي للتجارة والمواصلات الذي كان منذ قديم الازل يشق شمال سورية ويمضي الى سارديس وعدد من مدن الساحل الايوني كانت أهمها افسوس وملطيه ، ولهذا فقد أخذت تتدفق عليها باطراد ماكان يصل الى انطاكية من التجارة الشرقية ، وكذلك فيما ترجح من منتجات الامبراطورية الفائض عن الحاجة ، مما حدا ببطلميوس الثاني الى الانقضاض على افسوس وملطيه ، لتسيطر دولة البطالمة على هذين المنفذين الجديدين مثلما كانت تسيطر على أهم المنافذ التقليدية للتجارة الشرقية • ولما كان طبيعيا الا يسلّم السلوقيون بأن تضيع أهم منافذ التجارة الشرقية ، فانهم عملوا جاهدين على طرد البطالمة من ايونية وجوف سورية ، ولكنه لم يكن مقدارا لهم ان يحققوا ذلك قبل العقد الاول من القرن الثاني •

ومما يجدر بالملاحظة أمران : واحدهما هو أن طريق الشمال الذي اختصت فيه تجارة اواسط آسية وحرير الصين كان طريقا وعرا طويلا محفوفا بالمخاطر ويمر جانب كبير منه بالاصقاع الشمالية في الولايات الشرقية بالامبراطورية • والامر الاخر هو ان سلوقس فيما نرجح ، او انطيوخس الاول فيما يرجحه بعض الباحثين أنفذ دموداموس (Demodamos) الملطي على رأس حملة عسكرية الى منطقة نهر سيحون (Iaxartes) ، كما انفذ باتروكلس (Patrokles) على رأس بعثة كشفية الى بحر قزوين • ويبدو ان الهدف من وراء تلك الحملة وتلك البعثة كان تدبير الاساليب التي تهيء الاسباب لتنشيط تجارة طريق الشمال ، وما كان يستتبعه ذلك من السيطرة على تجارة الحرير ، فضلا عن زيادة الدخل من المكوس والرسوم الجمركية • بيد اننا سنرى بعد قليل لماذا لم يتمخض عن هذا النشاط السلوقي في هذا الصدد اية نتائج ايجابية •

ولا تسعفنا مصادرنا للحديث عن أهمية الطرق البحرية المتممة للطرق البرية التي تحدثنا عنها آنفا ، والتي ساهمت في نقل البضائع الهندية الى مستودعاتها في منطقة بابل ، وكان اهمها الطريق البحري الذي لازم شواطىء الخليج العربي ، وكان مهما على الاقل في الفترة السلوقية المتأخرة • ويدل على هذه الاهمية كثرة الموانىء التي اقامها الملوك السلوقيون على شواطىء هذا الخليج واهمها انطاكية برسيس او بوشير (Bushir) ، وسلوقية على اروثرا يناساى (Erythraenasae) وانطاكية خاراكس •

واذا كان البطالمة قد نجحوا في حرمان السلوقيين جنى جانب كبير من ثمار خروج التجارة الشرقية الى الغرب ، فانه لم يكن في وسع البطالمة حرمان السلوقيين من الافادة من كل تجارة امبراطوريتهم الى الغرب • ذلك ان المدن الاغريقية في آسية الصغرى كانت تزاول منذ أمد بعيد تجارة رائجة مع عالم بحر ايجه من ناحية والاقاليم الداخلية في آسية الصغرى من ناحية اخرى • ولا سبيل الى الشك في ان يكون سلوقس قد عمل على تنشيط هذه التجارة ليفي بحاجات دولته ، وكذلك ليحصل على موارد كبيرة من العوائد والمكوس الجمركية المختلفة التي مر بنا ذكرها •

جـ ـ ارهاب الجرهائيين :

مر بنا ان تجارة طريق الوسط كانت تأتي من الهند اما برا أو بحرا • وجريا على العرف الشائع قديما كانت السفن تسير عادة مساحلة ، وتبعا لذلك فـــان الجزء الاول من هذا الطريق البحري ـ أي من الهند حتى الخليج العربي ـ كـــان تحت السيطرة السلوقية لامتداده بالقرب من الشاطىء الجنوبي للامبراطوريـــة السلوقية ، وأما الجزء الثاني ، وكان يمضي محاذيا للشاطىء الغربي للخليـــج العربي ، فانه كان يقع تحت سيطرة دولة عربية تقع على الساحل الغربي للخليـــج العربي باتجاه جزر البحرين وتسمى جرهـــا (Gerrha) وهو على اسم عاصمتها • وكانت هذه الدولة صغيرة من حيث الحجم وقلة عدد السكان الا انها كـــانت منظمة تنظيما جيدا ، ولها علاقات تجارية واسعة مع البتراء عاصمة الانباط ، ومع جنوب الجزيرة العربية والهند ، وكذلك مع بابل وجنوب سورية • واذا كـــان البطالمة قد أدركوا أهمية نشاط الجرهائيين التجاري وعملوا على الافادة منـــه ، فانه لا يأخذنا العجب من ان يكون سلوقس قد عمل بدوره على الافادة قدر الطاقة من النشاط التجاري الذي كان يمارسه هؤلاء الوسطاء الاعراب •

وتدل نتائج اعمال الحفر الحديثة في منطقتهم على وجود صلات تجاريـــة بينهم وبين الدولة السلوقية في عهد سلوقس الاول ، ذلك ان عددا من قطع العملة التي صكها الملك عثر عليها في جزيرة فليكس [1] (Felix) وكانت احدى العميلات التجاريـــة للجرهائيين •

ومن المؤسف اننا لانستمد من استرابون وبليني وديودوروس وبوليبيوس عن جرها معلومات اكثر مما اوردناه عن علاقاتها التجارية الواسعة • ولكنـــه من المرجح انه بسبب شدة قرب الجرهائيين من بابل كانوا بالنسبة للسلوقيـــين كالانباط بالنسبة للبطالمة • ومما له دلالته ان جرها قد وصلت الى اوج مجدهـــا في عهد السلوقيين الاوائل ، وان تدهورها لم يبدأ الا منذ اواخر القرن الثـــاني عندما استولى البارثيون على بابل وسيطروا على طريق الوسط ، وأخذت تجارته تتحول الى طريق الجنوب •

---

(١) يرد أيضا اسم الجزيرة في المصادر (فيلاكا) (فايلاكا) (ايكاروس) •

ولما كانت التجارة الشرقية من عوامل التنافس بين البطالمة والسلوقيين ، وكانت للجرهائيين علاقات وطيدة مع البطالمة ، وبلاد العرب الجنوبيين ، فانه لكي يضمن السلوقيون حصولهم على نصيب موفور من تجارة الهند القادمة بحرا ، ومن تجارة جنوب الجزيرة العربية القادمة برا ، احتفظوا منذ عهد سلوقس الاول باسطول صغير في الخليج العربي لارهاب الجرهائيين • وعندما لم يكفل ذلك وحده ارهاب الجرهائيين ارهابا كافيا ليختصوا السلوقيين بالجانب الاكبر من البضائع العربية والهندية • بعث اليهم انطيوخس الثالث في عام ٢٠٥ برسالة تهديدية وشرع في الاعداد لحملة عسكرية • ويبدو أن هذين العملين كانا كافيين لتحقيق هدف السلوقيين على حساب الانباط والبطالمة ، فقد اعلن الجرهائيون موافقتهم على تزويد الملك بكل ماتحتاجه امبراطوريته في رسالة مطولة تعرضوا فيها الى علاقاتهم بالدولة السلوقية قبل انطيوخس الثالث •

واذا كان لاشك في ان سلوقس الاول وأوائل خلفائه كانوا يحصلون عن طريق الجرهائيين على نصيب من البضائع الهندية القادمة بحرا فضلا عن نصيب من بضائع جنوب الجزيرة العربية ، فانه يصعب تحديد نصيب السلوقيين من ذلك كله ، بيد ان ما سلفت الاشارة اليه يوحي بأنه على الاقل حتى عهد انطيوخس الثالث لم يكن ذلك النصيب بالقدر الذي كان السلوقيون يتمنونه •

د ـ حركة الاستكشاف :

وقد أعطى البحث عن الثروة وعن طرق جديدة للتجارة في العصر الهلنستي دفعا قويا لحركة الاستكشاف من خلف الحدود التي وصل اليها الاسكندر • ويبدو ان سلوقس الذي اكتسب معلومات وثيقة من وراء مرافقته لحملات الاسكندر ، قد بنى عليها خططا لاستكشافات جديدة في الشرق • وطبقها بعد وفاة الاسكندر ، وهو الذي كان من بين مشروعاته البحث عن طريق آخر بين الهند وآسية الصغرى يكون اكثر يسرا وأقل مشقة من الطرق المضنية عبر الهضبة الايرانية • ويبدو ان الامل في ايجاد طريق كهذا قد انبثق من زعم بأن نهري سيحون وجيحون يشكلان مع نهر تانايس (Tanais) ونهر الدون مجرى مائيا متصلا بين تركستان والبحر الاسود • هذا الى انه كانت هناك فكرة شائعة بأن بحر قزوين

ليس الا خليجا ناتئا من محيط ، وهي الفكرة نفسها التي تبناها الاسكندر مرة ونبذها ارسطو • ونحن نرجح ان سلوقس هو الذي كلف اثنين من ضباطـــه هما : دموداموس وباتروكلس بتحري حقيقة ذلك الزعم واستكشاف بحر قزوين • وقد ادت هاتان الرحلتان الى الكشف عن بعض الانهار والاراضي والبحـــار الجديدة بالنسبة للمقدونيين ــ والتي لانعلم ماهي لان مصادرنا لاتصفها لنـا ــ واطلاق اسمى سلوقس وانطيوخس عليها • وكانت تقاريرهما هامة لدرجة انها اعطيت الى بومبى في عام ٦٥ عندما عنى اذ ذاك بالتحري عن طول الطريق مـــن بحر قزوين الى الهند ، ويبدو أن هذه التقارير قد شجعت سلوقس على ان يفكر في شق قناة بين البحر الاسود وبحر قزوين ، ولكن موته المفاجىء وضيـــاع آسية الصغرى من أيدي خلفائه ، حالا دون تطبيق هذا المشروع الذي كـــان يهدف الى انعاش طريق التجارة الشمالي على نحو ما أسلفنا •

واذا كانت بعثتا دموداموس وباتروكلس تدلان على ان سلوقس قد نفّـذ أحد مخططات الاسكندر الاستكشافية ، فانه لايعرف لماذا امتنع وخلفاؤه عن تنفيذ مشروع ارتياد الجزيرة العربية ، وهو المشروع الذي مات الاسكندر اثناء التهيئة له • ومن الجائز ان يكون هؤلاء قد عزفوا عن القيام بهذا المشروع لعدة عوامل ، واحدها هو اعتقادهم بأن البطالمة سيجنون من هذا المشروع بحكم قرب مصر من بلاد العرب فوائد تعادل ان لم تفق الفوائد التي سيجنيها هم أنفسهم ، وثانيهـا هو عدم انصياع الجرهائيين لهم بشكل مستمر ، وثالثها هو احتمال اصطدامهم بالسبأيين والمعنيين وغيرهم في حرب صحراء لاتجدي فيها فتيلا قوة الجيوش النظاميـــة •

٤ ــ التجارة الداخلية :

ومع تسليمنا بالجهد الفائق الذي بذله السلوقيون الاوائل لانتشار تداول النقود وأهمية ذلك في رواج التجارة ، فانه يجب الاعتراف بأنه لما كان مـــن المسلم به ان التحول من نظام المقايضة الى نظام التعامل بالنقود قد مضى بخطى متمهلة بطيئة في الامبراطورية السلوقية ، فلا بد من ان خطواته كانت أكثر تمهلا

وبطئا في عهد سلوقس بحكم حداثة اكثر سكان الامبراطورية بالنقود • بيد أنه وسط هذه الكثرة المكونة من الاهالي الوطنيين كانت توجد اقليات كبيرة ممن يألفون استخدام النقود ، وهذه الاقليات هي مواطنو المدن والمستعمرات الحديثة فضلا عن مواطني المدن الاغريقية القديمة • وحين كانت تلك الكثرة رقيقة الحال قليلة الطلبات ، كانت تلك الاقليات بوجه عام أوفر حالا وكذلك أكثر مطالبا •

وفي كنف هذه الظروف يصعب القول بأنه كانت هناك تجارة داخلية نشيطة فيما عدا بين المراكز القديمة والحديثة لاستيطان المقدونيين والاغريق • ويجب ألا يغرب عن البال ان الزراعة كانت القوام الاول للحياة الاقتصادية في المستعمرات ، أو أنه كان لكل مدينة اغريقية اقليمها الزراعي الذي كان جزءا لايتجزأ منها ويمدها باحتياجاتها • واذا كنا نعرف ان الاقليم الزراعي لمدينة الاسكندرية كان يعجز عن الوفاء باحتياجات تلك الاعداد الهائلة التي تسكن تلك العاصمة الكبيرة فاننا لانعرف ان أية مدينة اخرى في العالم الاغريقي بأسره كانت تداني الاسكندرية ولو من قرب من حيث عدد السكان • ولا شك في أنه يكون من باب المجازفة غير المقبولة علميا الزعم بأنه لم تكن هناك اية صلات تجارية بين مراكز الاستيطان الاغريقي وباقي مراكز العمران في الامبراطورية السلوقية •

٥ ـ نظام التجارة :

وفيما عدا ما سلف ذكره في سياق الحديث عن الضرائب والرسوم ، والمكوس الجمركية ليست لدينا اية معلومات عن كيفية تنظيم التجارة السلوقية الخارجية منها والداخلية ، وازاء افتقارنا الى هذه المعلومات لا يسعنا الا ان نطرح ما يساورنا من تساؤلات في هذا الصدد دون ان يكون في وسعنا الاجابة عنها ونحن في مأمن من الزلل والاتهام بالاغراق في الحدس والتخمين • وهذه التساؤلات وفيرة العدد وحسبنا منها مايأتي : من الذي كان يقوم بتصدير الفائض من منتجات الامبراطورية السلوقية ؟ ومن الذي كان يتولى استيراد المواد اللازمة لسد احتياجات هذه الامبراطورية ؟ ومن الذي كان يبيع المنتجات المحلية

والواردات الخارجية ؟ أكان على الاتجار في كل السلع أو في بعضها قيود أو ضبوط معينة حماية للانتاج المحلي أو مراعاة لصوالح الملك على غرار ما كان في مصر البطلمية ؟ أم أن التجارة على اختلاف انواعها تركت حرة لمن يستطيع ممارستها بعد أداء ضريبة مزاولة المهنة وغيرها من الضرائب التي تتصل بالتجارة ونقلها وعرضها في الاسواق ؟ وكيف كان السلوقيون يتصرفون في تلك الكميات الكبيرة من القمح التي كانوا يحصلون عليها من « أرض الملك » ومن الضرائب ؟ أكانوا يخضعون بعض تلك الكميات للبيع في الاسواق المحلية لسد حاجات رعاياهم ، والبعض الآخر للتصدير ، أم الارجح انهم كانوا يفضلون تصدير كل قمحة ليحصلوا على أرباح مجزية تساعدهم على سد نفقاتهم الطائلة ؟ واذا صح الاحتمال الاخير ، أكانوا يسمحون لغيرهم بمنافستهم في هذا المجال ؟ واذا لم تكن هناك قيود اطلاقا على تصدير القمح ، فكيف كان الملك يضمن سد حاجة الامبراطورية الى القمح ؟ أكان يحذو حذو البطالمة فيفرض على فئات بعينها من أرباب الاراضي ان تبيعه كل عام مقادير معينة من القمح ليسد بها حاجة المناطق التي تفتقر الى القمح ؟ وهل عمد السلوقيون مثلما عمد بعض البطالمة الى تحديد أسعار بعض السلع الرئيسية في الاسواق المحلية حماية للمستهلكين من جشع التجار ؟ •

٢ — الحياة الاجتماعية

مقومات أية دولة قسمان رئيسيان : أحدهما هو مقوماتها المادية ، والآخر هو مقوماتها البشرية • وبعد أن تناولنا الحديث عن مقومات الامبراطورية السلوقية المادية في صدر هذا الفصل بقي علينا أن نتناول المقومات البشرية لهذه الامبراطورية بقدر ما تسعفنا بـه مصادرنا •

أولا — عناصر السكان :

تعتبر الامبراطورية السلوقية أكبر امبراطورية في العصر الهلنستي ، تضم بين أرجائها عددا كبيرا من الولايات قسمت الى ثلاثة أقسام رئيسية هي آسية الصغرى ، سورية ، وولايات شرق الفرات • ونتيجة لاتساع الامبراطورية فقد

ضمت بـين ظهرانيها اعدادا غفيرة مـن السكان الذيـن تنوعت أجناسهم وعاداتهم وتقاليدهم وتباين حظهم من متاع الدنيا ، مما انعكس في تنوع نظمهم ، وتفاوت مستوى معيشتهم من الحياة الرغـدة اللينة الى حياة البؤس والفاقـة ، وتباين حضارتهم بين البدائية وأعلى درجة من التقدم • فشكلوا فيما بينهم تحت السيطرة المقدونية خليطا عجيبا من المجتمعات والوحدات السياسية التي لا يربطها ببعض إلا رابطة الخضوع لحاكم كان أجنبيا في كل شيء هو وأعوانه الرئيسيون عن الغالبية العظمى من الرعايا وكان لهذا التباين أكبر الاثر في دك صرح الدولة السلوقية رغم كافة محاولات أعظم عواهلها للحفاظ عليها •

وقد بذل بعض الباحثين محاولات جديـة للتوصل الى تعداد عـام لسكان الامبراطورية السلوقية ، ولكن هذه المحاولات لم تتمخض عن أرقام محددة • وأما مسألة تنوع القوميات في الامبراطورية ، فان الشك لم يرق اليها ، وكانت تتألف من ست عناصر رئيسية هي : ١ ــ الاغريق والمقدونيون ٢ ــ السوريون ، ٣ ــ البابليون ، ٤ ــ الفرس (سكان الهضبة الايرانية بصورة عامة) ، ٥ ــ الاهالي الوطنيون في آسية الصغرى ، ٦ ــ اليهود •

١ ــ الاغريق والمقدونيون :

يذكر الاستاذ (سيجريه) ، أن تعداد السكان الاغريق والمقدونيين في مصر بناء على دراساته لاعداد الجنود في موقعة رفح (٢١٧) بلغ حوالي مئة وخمسين ألفا من الذكور الراشدين • وفي رأي هذا الباحث أن « الاغريق » في سورية وآسية الصغرى بلغوا ضعف هذا العدد •

وقد فنّد الاستاذ الدكتور ابراهيم نصحي هذه الارقام (فيما يخص مصـر البطلمية) باعتبار أنها أقل من الواقع • وتبعا لذلك لا بد من أن عدد المقدونيين والاغريق في سورية وآسية الصغرى كان يزيد كثيرا على تقدير سيجريه ولا سيما أنه كانت توجد في آسية الصغرى مدن اغريقية كثيرة عامرة بالسكان الاغريق منذ أمد بعيد سبق مجيء الاسكندر بعدة قرون • وكنتيجة حتمية لحاجة السلوقيين الى الاغريق والمقدونيين لدعم مركزهم وتنفيذ سياستهم بالخدمة في الجيش وفي مختلف

أجهزة الحكم وبالعمل على النهوض بمرافق البلاد الاقتصادية وبنشر الحضارة الاغريقية في ربوع الامبراطورية، اتبع السلوقيون كافة الوسائل المشجعة لحثّهم على الهجرة الى الامبراطورية السلوقية والاستيطان فيها ، وكانت أهم الوسائل توفير البيئة الملائمة لحياة هؤلاء المهاجرين بانشاء المدن والمستعمرات وتهيئة أسباب الحياة الرغدة باغداق الامتيازات عليهم • وعلى غرار ما حدث في دولة البطالمة استمتع المهاجرون بأكبر الضياع واستأثروا بمعظم المناصب العليا في الجيش وفي أداة الحكم •

ومعلوماتنا الضئيلة عن الاحوال الاجتماعية لهذه العناصر لا تتيح لنا أكثر من تقسيمهم بحكم ظروف عملهم الى فئتين : احداهما عسكرية ، والاخرى مدنية ، ويبدو أن الجانب الاكبر من الفئة الاولى توطنوا في المستعمرات العسكرية وأن معظمهم كانوا من المقدونيين وأقلهم من الاغريق • وأما أفراد الفئة الاخرى فانهم استوطنوا في المدن القديمة والحديثة وكان معظمهم من الاغريق وأقلهم من المقدونيين •

ولما كان السلوقيون يحرصون على نشر الحضارة الاغريقية في الامبراطورية بقدر ما كانوا حريصين على اجتذاب الاغريق للاستيطان فيها ، فانه لا سبيل الى الشك في أنهم قد حرصوا كذلك على أن يوفروا في المدن والمستعمرات الاسباب التي تهيىء للمقدونيين والاغريق ممارسة الحياة التي يألفونها ، وذلك ضمانا من ناحية لاستقرارهم ، ومن ناحية اخرى لتحقيق سياسة الهلينة ولما كانت القرائن تشير الى أن الاغريق احتفظوا في المدن القديمة والحديثة ، وكذلك في المستعمرات بنظمهم وعاداتهم وتقاليدهم اغريقية خالصة ، فاننا لا نعدو الحقيقة إذا تصورنا أن أولئك المستوطنين كانوا يمارسون في وطنهم الجديد ألوانا من الحياة تماثل ما ألفوه في وطنهم الاصلي •

ووفقا للعرف الاغريقي كانت المرأة الاغريقية تعتبر قاصرا في نظر القانون شأنها شأن المرأة الرومانية في نظر القانون الروماني • ولا أدل على استمساك الاغريق والمقدونيين بهذا العرف من أنه حين ساوى البطالمة بين المرأة المصرية والمرأة الاغريقية، لم يرفعوا الثانية الى مستوى الاولى من حيث جعلها حرة لا تتزوج إلا بمحض ارادتها ودون وصاية من أحد في التصرف في نفسها وفيما تملك ، وانما أنزلوا المرأة المصرية

الى مستوى الاغريقية بأن أدخلوا على القانون المصري تعديلا حظّر علـى المرأة المصرية الزواج دون اذن وصي والتعاقد مع طرف ثالث دون إذن زوجها •

ووفقا للاعراف والقوانين الاغريقية كان لا يجوز أن يكون للزوج أكثر من زوج واحدة في وقت واحد ، وإن كان يجوز له طلاق زوجه في يسر وسهولة • وكان قانون أثينـا يعتبر زواج الاخ من أخته الشقيقة رجسا فاحشا ، لكنه كان يبيح زواج الاخوة إذا لم يكونوا من أم واحدة •

وليس ثمة ما يدعو الى الظن بأن الاغريق لـم يستمسكوا في الامبراطورية السلوقية بكل هذه الاعراف والقوانين الاغريقية الخاصة بمركز المرأة في نظر القانون ، وكذلك الخاصة بالزواج والطلاق • وقد يؤيد ما ذهبنا إليه أمران : واحدهما هو أنه لم يكن لأي ملك سلوقي أكثر من زوج واحدة في وقت واحد ، والامر الآخر هو أنه برغم كافة وجوه التكريم التي كانت الملكات السلوقيات تحظى بها مثل اقامة التماثيل لهن ، وقرن أسمائهن مع أسماء بعولهن في نقوش الاهداء فانه يندر جدا أن نجد صورهن عـلى النقود السلوقية ، وقلما نلمس أثرهـن في توجيه سياسـة الامبراطوريـة •

وتشير القرائن والشواهد الاثرية الى استيطان الاغريق والمقدونيين في المدن الوطنية بما في ذلك القاصية منها ، ولكن على شكل جاليات تقل أو تكثر حسب أهمية هذه المدينة سياسيا واقتصاديا • ولعل أن بابل ، وبخاصة في الفترة السلوقية الباكرة حين كانت لا تزال متمتعة بأهميتها التجارية تعتبر أبرز مثل لاستقرار جالية اغريقيـة كبيرة في مدينة وطنية •

وقد كان طبيعيا أن المدن الاغريقية ، وقد أنشئت في بيئات كانت تغشاها العناصر الوطنية منذ القدم ، ألا تخلو هذه المدن عادة من عناصر وطنية مثل السوريين في المدن الاغريقية السورية ، والبابليون والفرس في المـدن الاغريقية التي أنشئت شـرقي الفرات • وفضلا عن ذلك لم تخل بعض هذه المدن من عناصر أخرى مثل اليهود • ويبدو أن هؤلاء السكان غير الاغريق كانوا ينتظمون في جاليات (Politeumata) قومية كان الغرض منها تحديد الوضع السياسي لأفراد هذه الجاليات الذين كانوا عادة لا يتمتعون بحقوق المواطنة في المدينة الاغريقية التي يعيشون فيها •

وكنتيجة حتمية لاستيطان كثير من المهاجرين الاغريق في المدن الوطنية واستقرار كثيرين من الوطنيين في المدن الاغريقية ، كان طبيعيا أن يؤدي هذا الجوار في المعيشة إلى بعض الاختلاط والتزاوج • ومن المرجح أن السلوقيين بصورة عامة ، (نتيجة لانحدارهم من اباما زوج جدهم الاعلى سلوقس الاول الذي ضرب مثلا لبني جلدته بزواجه من شرقية واحتفاظه بهذه الزوج) حرصوا على الحفاظ على علاقات ودية مع الطبقات العليا — على الاقل — من الوطنيين في امبراطوريتهم كما رحبوا بظاهرة الزواج بين بني جلدتهم وأثرياء الشرقيين كما حدث في دورا يوروبوس في فترة متأخرة من الحكم السلوقي •

وباستثناء بعض الالواح التي كشف عنها في أوروك وتعود الى القرن الاول وتشير بما فيها من أسماء اغريقية وبابلية ، الى حدوث امتزاج أو تزاوج بين الاغريق والسكان الوطنيين ، فانه ليس في مصادرنا ما يثبت انتشار ظاهرة التزاوج في فترة باكرة من العصر السلوقي ، ونحن نرجح أن مصادرنا تصور حقيقة الحال في هذه المسألة ، وبخاصة بعد اعترافنا بتأثير النزاعات القومية في هذا المجال •

٢ — الاهالي الوطنيون :

وكان الاهالي الوطنيون من السوريين والبابليين وسكان الهضبة الايرانية وآسية الصغرى يشكلون غالبية السكان في امبراطورية سلوقس ، ولما كانت مصادرنا لا تمدنا إلا بمعلومات طفيفة عن الاوضاع الاجتماعية لكل عنصر من هذه العناصر في العصرين الفارسي والهلنستي فانه يتعذر علينا ان نعرض أكثر من تصورنا لمثل هذه الاوضاع في الفترة السلوقية ، وهو تصور لا يمكن أن يعدو كونه تصورا عاما بحكم معلوماتنا الراهنة • ولنر الآن إلى أي مدى حالفنا التوفيق أو استعصى علينا •

إذا ألقينا نظرة فاحصة على هذه العناصر ، فانه تطالعنا على الفور فوارق حادة من حيث العدد والمستوى الحضاري والظروف التاريخية والبيئة الطبيعية ، ولاجدال في أن الفرس كانوا أكثر هذه العناصر عددا وأرفعها حضارة ، يضاف الى ذلك أنهم حتى قدوم الاسكندر كانوا أصحاب السيادة على ما أصبح قسم كبير منه

الامبراطورية السلوقية • وكان البابليون والفينيقيون كذلك أصحاب حضارة عريقة • ونتيجة لتباين البيئات الطبيعية والظروف التاريخية لم تختلف الاوضاع الاجتماعية من عنصر الى آخر فحسب بل اختلفت أيضا في نطاق العنصر الواحد ، ذلك أنه إذا كان يمكن القول بوجه عام ان العنصر الوطني في الهضبة الايرانية كان أساسا مجتمعا اقطاعيا ، والعنصر البابلي من مجتمعات مختلفة بعضها اقطاعي وبعض آخر كهنوتي وبعض ثالث قبلي وبعض رابع تجاري ، وكذلك كان العنصر الوطني في سورية يضم مجتمعات تجارية وكهنوتية وقبلية •

ولا جدال في أن المجتمعات التجارية عادة أكثر انفتاحا من غيرها ، بمعنى أنهـا أكثر تقبلا للافكار والعادات الاجنبية • وخير شاهد على ذلك أنه قبل الفتح المقدوني بقرون عديدة لم يتوان الفينيقيون في النقل عن أصحاب الحضارات الشرقية القريبة منهم • بيد أن المجتمعات التجارية الوطنية في الامبراطورية السلوقية لم تشكل إلا أقليات صغيرة بالنسبة الى باقي العناصر الوطنية ، بل إن الفينيقيين لـم يكونوا إلا جزءا من العنصر السوري الوطني ، وإذا جاز التسليم بأن تكون المجتمعات التجارية في الامبراطورية قد تأثرت ببعض أساليب الحياة الاغريقية فانه لا يجوز عدلا التسليم بأن هذه المجتمعات قد تخلت ــ ولو بعد زمن طويل ــ عن كل أساليب الحياة المتأصلة بين ظهرانيها منذ قديم الازل •

وأما المجتمعات الاقطاعية والكهنوتية والقبلية فانها عادة شديدة الحفاظ على عاداتها وتقاليدها • ويجب أن يضاف الى ذلك عامل الاعتزاز بالماضي وعامل الاضرار ــ وحسبنا المعنوية منها ــ المترتبة عـلى السيادة السلوقية وعامل الكثرة العددية لسكان الهضبة الايرانية • وفي ضوء هذه الامتيازات جميعا قد لا نعدو الحقيقة إذا تصورنا أن الغالبية العظمى من العناصر الوطنية في الامبراطورية السلوقية ، وبخاصة تلك الغالبية التي كانت تعيش في مدنها وقراها وكفورها الوطنية الخالية من السكان الاجانب ، قد استمرت فترة طويلة تحيا حياتها المألوفة محافظة على عاداتها وتقاليدها الموروثة • بيد ان هذا لا ينفي اقدام بعض عناصرها على اقتباس بعض مظاهر الحياة الاغريقيـة •

وأما العناصر الوطنية التي كانت تعيش في المدن الاغريقية أو في المدن الوطنية

التي استقرت فيها جاليات اغريقية فانه لا يبعد أن تكون ظـروف الحياة الاغريقية وانماطها وتقاليدها قد أثرت على بعض أفراد أولئك العناصر ، الذين كان تعلم اللغة الاغريقية يتيح لهم فرص بتولي الوظائف الحكومية • ولا شك ان تعلم اللغة الاغريقية كان بداية لاصطباغ مثل هؤلاء الوطنيين بالصبغة الاغريقية ، وربما ساعد على ازدياد هـذه الصبغة عاملان واحدهما هو الاختلاط بينهم وبـين الاغريق في الاسـواق والساحات العامة وغيرها • والعامل الآخر هو الاطلاع على مؤلفات أدباء الاغريق وفلاسفتهم مثل هومروس وسوفوكليس وافلاطون •

وحديثنا في هذا المقام عن العناصر الوطنية يتيح لنا الاستطراد الى الحديث في ايجاز عن العناصر اليهودية في الامبراطورية السلوقية • ولمـا كانت حقوق المواطنة في أية مدينة اغريقية تستتبع حتما عبادة آلهتها الوثنية ، وكان يهود العصر الهلنستي يتمسكون بدياناتهم ، فانه لا يمكن قبول ما يحدثنا به المؤرخ اليهودي يوسف من أن سلوقس منح الجالية اليهودية في انطاكية حقوق المواطنة ومن أن يهود سلوقية دجلة وبابل كانوا يتمتعون بمعظم حقوق المواطنة • وهذا يذكرنا بمزاعم هـذا المؤرخ الباطلة عن تمتع يهود الاسكندرية بحقوق المواطنة هناك • وإذا كنا نرفض مزاعم يوسف فاننا لا نستبعد أن يكون سلوقس قد فعل مع يهود امبراطوريته ما فعلـه البطالمة مع يهـود الاسكندرية ، أي أن يكون قد منح هذا الحـق الى الجاليات اليهودية في بعض مدنه بدافع الرغبة في كسب ودّ يهود سوريـة المجوفة الخاضعين للبطالمـة أمـلا في زعزعـة مكانـة البطالمة في هذا الاقليـم المتنـازع عليـه • ومـن الجدير بالـذكر ان اشارات يوسف السابقـة هي ــ حسب علمنـا ــ الاشارات الوحيدة التي تخص الجاليات في عصر سلوقس أو عهود خلفائه •

ثانيا ــ طبقات السكان :

١ ــ طبقات الاغريـق :

كان أهم التغييرات التي طرأت على الاوضاع الاجتماعية في الامبراطورية هـو ذلك التفوق الظاهر والطبيعي للعرق الاغريقي المقدوني ، وكان الملك وأفراد أسرته

يمثلون قمة هذا التفوق ، ويسمون فوق سائر الطبقات التي انقسم اليها الاغريق والمقدونيون •

ويمكن القول بأن الطبقة العليا كانت فئتين : إحداهما حكومية والاخرى غير حكومية • وكانت الفئة الاولى تتألف من كبار مساعدي الملك أي كبار موظفي الدولة وموظفي القصر من المدنيين والعسكريين ، ولم يكن عدد أفراد هذه الطبقة وفيرا • وقياسا على ما نعرفه عن عدد أفراد مثل هذه الطبقة في مصر البطلمية يمكن القول بأنه كان لكل فرد من هذه الطبقة بيت أو بالاحرى قصر يتضمن عددا من التابعين والخدم • وكان معظم أفراد هذه الطبقة أوسع الناس نفوذا أو أكثرهم ثراء بفضل ما أسنده اليهم صاحب العرش من مناصب وما أفاءه عليهم من خيرات،فنحن نعرف مثلا ان كلا من « ارستوديسيدس » أحد الرجال المقربين الى انطيوخس الاول « وأثينايوس » أحد قادته البحريين منح آلافاً من الوحدات الزراعية في أخصب الاراضي بالقرب من بعض مدن آسية الصغرى البحرية •كمانعرف ان « هرمياس » الوزير الاكبر في حكومة انطيوخس الثالث كان غنياً الى حد أنه أعطى الجنود مرتباتهم عندما عجز الملك عن دفعها •وأن «ديونوسيوس» سكرتير انطيوخس الرابع أرسل الى أعياد (دفنه) ألفاً من رقيقه يحمل كل واحد منهم طبقا من الذهب يساوي ألف دراخما أو أكثر •

وأما الفئة غير الحكومية من هذه الطبقة فكانت تتألف من كبار التجار في المدن التجارية الكبرى مثل بابل وسلوقية ودجلة ، وبعض مدن القوافل السورية مثل دورا يوروبوس ، وفي آسية الصغرى مثل طرسوس ، الذين كان بعضهم على الاقل من أصل اغريقي أو مقدوني • ومن الجائز ان هذه الطبقة كانت تضم كذلك أقطاب الصناعة •

وكانت الطبقة الوسطى تتألف من أربع فئات ثلاث منها حكومية والرابعة غير ذلك • وكان أهم هذه الفئات جميعا هي فئة صغار ضباط الجيش الذين تمركزوا في عواصم الامبراطورية وبخاصة في انطاكية وابامية ، أو في المستعمرات العسكرية القريبة أو البعيدة عن المدن الكبرى مثل معسكر طيسفون (Ktesephon) قرب سلوقية دجلة ، أو في دورا يوروبوس • وكان هؤلاء يتلقون الى جانب وارداب

اقطاعاتهم رواتب منتظمة ، ويعيشون وخاصة في حالة السلم عيشة رتيبة في ثكنات أو منازل خاصة داخل المدن ولا شك أن بعضهم أو بالاحرى غالبيتهم قد استغلوا بعض امتيازاتهم الوظيفية داخل المدن التي استقروا بها أو إلى جانبها لتحسين أوضاعهم المادية ثم الاجتماعية . وكانت الفئة الثانية تتألف من كبار صغار الموظفين (الاداريين والجباة) الذين انتشروا في أرجاء الامبراطورية وكذلك من أولئك الذين كونوا كوادر البيروقراطية السلوقية في المدن الاغريقية وبخاصة الحديثة منها . وكانت الفئة الثالثة تتألف من المستوطنين العسكريين من مقدونيين واغريق الذين أصبحوا بفضل اقطاعاتهم التي منحوها في عداد الطبقة الوسطى . وأما الفئة الرابعة أي الفئة غير الحكومية كانت تتألف من أولئك الرجال الاحرار الذين وفدوا من مقدونية ومن مدن شتى في بلاد الاغريق على مدن الامبراطورية السلوقية القديمة والحديثة ، وشكلوا في مراكز التجمع البشرية هذه نواة للبورجوازية الصغيرة ، وهم الفلاسفة والعلماء والمدرسون والاطباء والمحامون والفنانون ومتوسطو الحال من الصناع ومن التجار . فقد جاء أولئك جميعا يبحثون عن فرص جديدة للحياة في العالم الجديد ، ولكنهم لم يكتسبوا أية امتيازات عن سابقيهم فيما عدا كون بعضهم اغريقا أو مقدونيين .

ومن المرجح أن الطبقة الدنيا لم تقتصر في احتوائها على الاهالي الوطنيين الذين أدت بهم ظروف السيطرة المقدونية الى استئثار هذه الطبقة بهم ، بل تضمنت هذه الطبقة بعض الاغريق والمقدونيين الذين عملوا جنبا الى جنب مع الفلاحين في مزارع كبار المقطعين أو في دور الصناعة في المدن . وان كنا نستبعد احتواء الطبقة الدنيا على نسبة كبيرة منهم وبخاصة خلال الفترة الاولى من الحكم المقدوني على الاقل .

٢ ــ طبقات الاهالي الوطنيين :

في ضوء ما أوردناه عن تباين سمات ما في كل عنصر من مجتمع أو مجتمعات كانت الطبقة العليا تتوقف على نوع مجتمع أو مجتمعات أي عنصر من العناصر الوطنية في الامبراطورية السلوقية . ذلك ان الطبقة العليا كانت تتألف من كبار أرباب الاراضي في المجتمع الاقطاعي ، ومن كبار الكهنة في المجتمع الكهنوتي ومن أوسع التجار ثراء في المجتمع التجاري ، ومن رؤساء العشائر في المجتمع القبلي .

ومن الجلي أننا لا نقصد بالطبقة العليا الوطنية في أي مجتمع وطني إلا تلك الطبقة المؤلفة من أعظم الوطنيين شأنا في مجتمعها ، دون أن يكون قصدنا هو أن هذه الطبقة كانت تضارع أو تداني في أهميتها تلك الطبقة العليا المؤلفة من سادة الامبراطورية ، أي الاغريق والمقدونيين ، اللهم إلا إذا استثنينا أبرز عناصر البقية الباقية من نبلاء الفرس وهم الذين نرجح أن يكون سلوقس قد اصطفاهم وخلع عليهم ألقاب التشريف كسباً لودهم وضمانا لطاعتهم من أجل تأمين احتفاظه بسيطرته على أقاليمهم •

ومما يجدر التنويه به أيضا هو أنه إذا كان وصف المجتمع بأنه اقطاعي أو كهنوتي أو تجاري أو قبلي ينم عن الطابع العام الذي خلعته عليه أبرز سمة لأوضاعه الاجتماعية ، فان هذا الوصف لايستتبع أنه في المجتمع الاقطاعي حيث كانت ملكية الارض المصدر الرئيسي للثروة ، لم تمارس فيه الصناعة والتجارة أو أنه في المجتمع الكهنوتي حيث كانت الكهانة بمراتبها المختلفة مصدر ما يقابل هذه المراتب من مكانة وموارد لم تمارس فيه الزراعة والصناعة والتجارة ، أو أنه في المجتمع التجاري حيث كانت التجارة أعظم مصدر للدخل لم تمارس فيه الزراعة والصناعة •

وفي تقديرنا انه كانت في الطبقة العليا الوطنية في كل مجتمع طبقة صغيرة تتألف من متوسطي الدخل الذين كانوا يتكسبون رزقهم من ممارسة الزراعة أو الصناعة أو التجارة أو العمل الحكومي ، وأغلب الظن أن أفراد هذه الطبقة الوسطى استمروا يعيشون على نحو ما كان يعيش آباؤهم وأجدادهم • ويبدو أنه من بين كل أفراد هذه الطبقة لم يتأثر بالحضارة الاغريقية إلا ثلاث فئات تتفاوت في العدد تبعا لتفاوت نوع مجتمعها : أولا : أولئك التجار الذين كانوا كثيري التعامل والاختلاط مع الاغريق مما اقتضاهم تعلم الاغريقية وربما أدى الى اقتباسهم بعض المظاهر الاغريقية• وثانيا : أولئك الذين تطلعوا الى الانخراط في سلك الوظائف الحكومية فتعلموا الاغريقية كونها اللغة الرسمية للدولة والشرط الرئيسي لتولي الوظائف الحكومية • وثالثا : أولئك الذين رغبوا في أن ينهلوا من موارد الثقافة الاغريقية • واذا كنا نرجح أن هذه الفئة كانت قليلة العدد فاننا نرجح كذلك أنها كانت أكثر من غيرها حظا من الثقافة الاغريقية •

وتأتي في المؤخرة الطبقة الكادحة ، وكانت كما هي الحال في كل زمان ومكان أكثر الطبقات عددا وأقلها حظا من متاع الدنيا . وبحكم أن الامبراطورية السلوقة شأنها شأن الامبراطورية الفارسية كانت قبل كل شيء بلادا زراعية ، وان المجتمع الفارسي كان مجتمعا اقطاعيا وأكثر المجتمعات الوطنية جميعا من حيث العدد ، فان الاهالي الوطنيين (Laoi) المشتغلين بالزراعة كانوا يشكلون الغالبية العظمى من أفراد الطبقة الدنيا . وكان فريق من هذه الطبقة يتكسبون قوتهم من العمل في دور الصناعة ، وفريق آخر من الاشتغال بالتجارة في أضيق نطاق . ومعلوماتنا عن هذين الفريقين أندر منها عن المزارعين مما يضطرنا قسرا الى قصر حديثنا المقسط عن المزارعين .

ومنذ العهد الفارسي كان المزارعون يرتبطون بالارض التي يفلحونها ارتباطا لا يفصم عراه انتقال ملكية هذه الارض سواء بالبيع والشراء أو بالهبة ، ويدل على استمرار هذا الوضع ما ينم عنه نقش « منسيماخوس » ـ الذي ذكرناه سابقا ـ من أنه عندما أصبح هذا القائد صاحب ضيعة كبيرة آلت اليه الضيعة بمزارعيها . وأبلغ من ذلك دلالة ما تحدثنا به وثيقة بيع أنطيوخس الثاني الى مطلقته لاوديكي اقطاعا، فهذه الوثيقة تذكر صراحة أن الملك باع الى مطلقته تلك القرية بكل ما عليها من مبان وما فيها من أرض زراعية ومزارعين بما فيهم أولئك المتغيبين عنها .

وتحدثنا مصادرنا ليس فقط عن ابتعاد الطبقة الدنيا بوجه عام عن التأثيرات الاغريقية ، بل أيضا عن نمو تدريجي مطرد بعداء شديد بين هؤلاء المواطنين وبخاصة الريفيين منهم وبين اغريق المدن . ولما كان الدين أقوى عامل في حياة هؤلاء الوطنيين ، وأبرز مظهر لقوميتهم فان بغضهم للاجانب حفزهم على الاستمساك بدياناتهم استمساكا شديدا ، وعلى محاربة الآلهة الاجنبية التي عبدت في المدن حربا لا هوادة فيها . وان دل على شيء هذا الاستمساك الشديد بالديانة القومية ، وهذا العداء الشديد للديانة الاغريقية فانه يدل قطعا على استمساك مماثل بأساليب الحياة التقليدية وأوضاعها الاجتماعية .

ثالثا ــ الديانــة :

١ ــ رعايا الامبراطورية السلوقية وديانتهم :

عرفنا ان جانبا كبيرا من الامبراطوريــة الفارسية آل الــى سلوقس وان الامبراطورية التي كونها هذا العاهل كانت تضم وحدات وشعوبا متباينة اشــد التباين • ومنذ عهد الفرس تكونت من هذه الوحدات والشعوب مجتمعات منعزلة تماما بعضها عن بعض • وقد كانت هذه العزلة نتيجة طبيعية للاختلاف في الجنس واللغة والدين والتقاليد • وساعد على تكريس هذه العزلة نظام الادارة اللامركزية الذي اتبعه الفرس وسار سلوقس وخلفاؤه على نهجه ، وهو النظام الذي اتاح لكل مجتمع ممارسة اساليب حياته الموروثة •

ان رعايا ذلك الجزء من الامبراطورية الفارسية الذي آل سلوقس كانــوا يتألفون من الفرس (بما فيهم الميديون) والبابليين والسوريين بما فيهم (الفينيقيون) وبعض اليهود واغريق آسية الصغرى واهلها الوطنيون • ومنذ فتح الاسكنــدر وقيام الامبراطورية السلوقية وفدت على آسية واستقرت فيها افواج تلــو افواج من المقدونيين والاغريق • وقد احضر هؤلاء معهم معتقداتهم الدينيــة وآلهتهم شأنهم شأن اقرانهم الذين وفدوا على مصر واستقروا في دولة البطالمة •

ومن الجلي ان الغالبية العظمى من رعايا الامبراطورية السلوقية كانــت تتألف من الاهالي الوطنيين الذين كانت لكــل شعب منهم معتقداتــه الدينيــة الراسخة • ومن البدهي أن المقام هنا لايتسع لتناول هذه المعتقدات ، وحسبنــا الاشارة الى ما يتفق عليه اكثر الباحثين من حيث اولا : انه كانت توجد فوارق عميقة بين المعتقدات الدينية الاسيوية والاغريقية ، وثانيا : ان ديانة الاسيوي كانت لا تشكل مثل ديانة الاغريق احد جوانب حياته بل كانت قوام حياته ، أي انــه كان شأنها شأن الديانة بالنسبة للمصري ، وثالثا : ان الشعوب الاسيويــة كــانت لاتؤله البشر ، ولا تعتقد ان ملوكها آلهة مثلما كان المصريون القدماء يعتقــدون ان فرعون اله ابن اله يمتلك ارض مصر وما عليها وما في باطنها ، ويحق لـــه تسخير رعاياه في خدمته • وهذه المعتقدات المصرية هــي التي حفزت البطالمــة

على اتخاذ صفات الفراعنة ليصبغوا حكمهم بصبغة شرعية في نظر المصريين، ويتمتعوا بكل ما كان فرعون يتمتع به من حقوق وسلطان .

ولم يكن تأليه البشر مقصورا على المصريين ، ذلك ان الاغريق درجوا منذ عهد بعيد على اعتبار بعض موتاهم « ابطالا » وعلى رفعهم الى مصاف الالهة ، وعلى مر الزمن لم تعد عبادة البشر عند الاغريق مقصورة على الاموات دون الاحياء . ومعنى ذلك ان تأليه البشر يتفق والعقلية الاغريقية ، وكانت تميل الى اعتبار الشخص الذي يتحلى بصفة غير عادية فوق مستوى غيره من البشر ، فلا عجب ان حق الرجال الممتازين في ان يكونوا فوق القانون اصبح احد مبادىء النظريات السياسية الاغريقية . بل يذهب ارسطو في كتاب « السياسة » الى حد القول بأنه « اذا وجد في دولة ما شخص يسمو على المواطنين الاخرين في الفضيلة والمقدرة السياسية فانه لا يجب اطلاقا اعتباره فردا في الدولة ، لانه لاينصف اذا اعتبر مساويا لغيره ، على حين انه يسمو على غيره في الفضيلة والمقدرة السياسية . ان مثل هذا الرجل يجب اعتباره الها بين البشر » .

ومعنى ذلك ان تأليه الزعماء المبرزين لم يكن اكثر مما تتطلبه العدالة السياسية . وفي خلال نصف القرن الذي اعقب وفاة الاسكندر في عام ٣٢٣ تطورت الافكار العامة ، نتيجة لتطور الافكار السياسية في هذه الفترة تطورا قضى بالتدريج على الفوارق بين البشر والالهة ، فإن الحاكم وفقا لاراء الرواقيين لم يكن الا الها حيا . وقد نادى يوهمروس (Euhemeros) بأن آلهة المدن لم يكونوا سوى حكام ورجال مصلحين انتقلوا الى العالم الاخر . واذا كان مذهب الرواقيين قد رفع البشر الى مستوى الالهة ، فان مذهب يوهمروس انزل الالهة الى مستوى البشر .

وقد كانت هذه العادات والاراء مواتية لانشاء عبادة الملوك التي وجدت في اغلب الممالك الهلنستية ، لكن آراء المؤرخين تختلف في منشأ هذه العبادة وطابعها . ففي حين يعزو البعض هذه العبادة الى رغبة الملوك انفسهم ، على اعتبار ان تأليه الملوك كان جزءا من فكرتهم عن الملكية ، يرى البعض الاخر ان المدن

هي التي أنشأت تلك العبادة من تلقاء انفسها ، وان الملوك لم يفعلوا اكثر من انهم قبلوها ، لكنهم لم يحولوها الى ديانة عامة في الدولة الا بعد ذلك •

وتشير القرائن الى ثلاثة امور : اولا : ان المقدونيين والاغريق وقد استقروا في بيئات عنى سلوقس وخلفاؤه يوفروا لهم فيها الاسباب التي تمكنهم من متابعة اساليب حياتهم ، استمروا يتعبدون الى آلهتهم ويقيمون شعائر عباداتهم ، وهي التي كانت رمز حضارتهم • وثانيا : ان الفرس والبابليين وغيرهم من العناصر الوطنية استمسكوا بعبادتهم طوال العصر السلوقي • وهذا امر لا يدعو الى الدهشة ، ذلك ان الدين ـ حتى اليوم ـ دون غيره من امور الحياة ابعد ما يكون عن التأثر بتغير نظم الحكم أو شخص الحاكم ، فما بالنا به في العصور القديمة حين كان الدين يسيطر سيطرة كاملة على عقول الناس • ثالثا : انه برغم انتشار المدن والمستعمرات الاغريقية في ارجاء الامبراطورية السلوقية وما تبع ذلك من اقبال بعض العناصر الشرقية على اتخاذ بعض مظاهر الحضارة الاغريقية ، فان افكار الاغريق الدينية لم تستهو الشرقيين اطلاقا لاعتقادهم الراسخ في سمو دياناتهم وسمو آلهتهم على الديانة والالهة الاغريقية •

٢ ـ اشكال سياسة السلوقيين الدينية :

ولا شك ان السلوقيين ادركوا حقيقتين جوهريتين فيما يخص رعاياهم الشرقيين ، واحداهما هي انه كان لكل شعب منهم دين يسيطر عليه ، والاخرى هي ان هؤلاء الرعايا جميعا كانوا لا يعبدون البشر حتى ولو كانوا ملوكهم ، وازاء ذلك كان من الحمق ان يضفي السلوقيون على انفسهم صفات كبار آلهة كل مجتمع من المجتمعات الوطنية الخاضعة لهم • وازاء المكانة السامية التي تبوأها الدين بين هذه المجتمعات لم تكن هناك مندوحة من ان يبنى السلوقيون سياستهم الدينية على أساس قويم هو اطلاق حرية رعاياهم الدينية • وتنهض الادلة متتابعة على ان السلوقيين دعموا هذه السياسة السمحة باظهار اجلالهم واحترامهم لابرز آلهة رعاياهم الشرقيين •

وتوحي القرائن من عهد مؤسس الاسرة وقدوة ملوكها بأن سلوقس قد ابرز اثناء حياته اهتماما واضحا بأهم هذه الالهة مثل (بعل) و (حدد) و (ارتاجاتيس) بصورة خاصة ، وآلهة السماء والعاصفة والرعد بصورة عامة . ذلك انه اعاد باسم زوجه استراتونيكي بناء معبد « ارتاجاتيس » في منبج (هيرابوليس بامبيكي) ، ولم تلبث هذه الالهة ان استعادت شهرتها ، ومضت قدما فطغت مكانتها على المكانة التي كان يحتلها زوجها الاله حدد ، بل انتشرت عبادتها بين الاغريق . واسهم سلوقس كذلك في تشييد واصلاح عدد من المعابد الكلدانية في بابل واوروك ، وقدم بعض الهدايا على شرف الاله اوزيريس في معبده بمدينة ملطية . ولم يكن سلوقس في ابراز اهتمامه وتقديمه الدعم المادي والمعنوي لهذه الالهة مداهنا غايته الوصول الى تأييد عباد هذه الالهة فقط ، فقد دلل على ايمانه بالعادات والتقاليد الاغريقية التي تقدم احترامها للالهة المحلية بوصفها حامية تلك البلاد . وذلك حينما قدم ذبيحته الى زيوس كاسيوس الاله المحلي للعاصفة والرعود عند اقامته سلوقية بيريه ، كما اعتمد على نبوءة الالهة الكلدانية في بابل واوروك حين استشارها عن الساعة المفضلة لديها لبناء عاصمته الاولى سلوقية دجلة .

وتشير القرائن الى ان ملوك العصر الهلنستي من الجيل الاول من خلفاء الاسكندر لم يؤلهوا انفسهم بانفسهم ، الا ان جماعات اغريقية كثيرة خلعت على حكامها مظاهر تشريف دينية ، وكان من هؤلاء الحكام انتيجونوس ودمتريوس ولوسيماخوس وبطلميوس وسلوقس . وقد شاركت في تقديم مظاهر التشريف الدينية لسلوقس معظم المدن السلوقية التي انشأها ، كذلك بعض المدن التي كان له علاقة طيبة معها في اسية الصغرى وبلاد الاغريق ، مثل مدينة اليون التي انشأت لعبادته ــ بعد موته ــ معبدا خاصا بها ، كما كرمته المدينة نفسها بأرفع شرف حين اطلقت اسمه على احد أشهر سنتها الخاصة ، في الوقت الذي اضاف فيه سكان اريتراي اسمه على اناشيدهم الدينية .

وتخلو مصادرنا من اية اشارة الى ان أي ملك سلوقي قد عبد في حياته عبادة رسمية ، كما ان هؤلاء الملوك لم يعنوا بأثبات ان سلطتهم كانت مستمدة

من مصدر الهي • ولكن معظم شواهد بحثنا توحي بأن كبار الملوك عبدوا باسماء مختلفة في مدن الامبراطورية المتعددة وان هذه العبادات عمت وانتشرت وتأسس بذلك المذهب القائل بأن الملوك يصبحون آلهة رسميين بعد موتهم ، واصبح القسم بالملوك الراحلين مع جميع الالهة قسما معترفا به في بعض مناطق آسية الصغرى • ويستغرب بعض الباحثين ، بأنه على الرغم من الاهمية التي اكتسبتها عبادة سلوقس وخلفائه كما اشرنا فانه لا يعرف لماذا لم تكن هذه العبادة منتظمة كعبادة الملوك البطالمة •

وكان من الطبيعي جدا ان يبرز السلوقيون اثناء حياتهم اهتماما خاصا بالديانة الاغريقية وآلهتها ، ليس فقط لان دياناتهم وحضارتهم كانتا اغريقيتين ، ولا رغبة في كسب ود رعاياهم من الاغريق فحسب ، بل ايضا ود اغريق اوربا • الذين كانوا بحاجة ماسة الى استقدامهم لاسباب ذكرناها آنفا •

وقد اصطفى السلوقيون بين كافة الالهة الاغريقية الهين أبرزوا احترامهم لهما بشكل خاص من بين جميع الالهة وهما ابولون وزيوس • ولعل ان اهتمامهم الخاص بأبولون توضحه احدى نبوءات هذا الاله الذي تنبأ لسلوقس (مؤسس الاسرة) في اسطورة يرويها ديودوروس بمستقبله الملكي عندما كان لايزال ضابطا صغيرا في جيش الاسكندر •

ولم يهمل السلوقيون في تكريمهم لهذين الالهين ، تكريم باقي الالهة حتى انهم عندما كانوا يضطرون الى القسم فانهم لم يكونوا يقسمون بأبولون أو بزيوس او بالهة مقدونية او بلاد الاغريق او انطاكية ، بل بكل الالهة الملكية •

وهكذا نجد ان السلوقيين لم يقدموا او بالاحرى لم يفرضوا اثناء حكمهم عبادة خاصة بهم ، وان كانوا يؤلهون بعد وفاتهم ، كما انهم لم يقدموا ديانة موحدة

توحد الاهتمامات الدينية لابناء امبراطوريتهم [1] . وكان جل ماقام به هـــو الترحيب ببعض الفوائد السياسية الناجمة عن محاولة بعض المدن تقديسهم فرديا، وتقديم المزيد من الاهتمام نحو الهة اغريقية معينة ، اعتبروها الهتهم الملكية . وحامية اسرتهم . ولعلهم تطلعوا الى ان تنجح محاولتهم هذه في لمّ شعث هذا (الموزاييك) من الطوائف والشعوب التي تضمنتها امبراطوريتهم ، عن طريق اعتناق بعض المؤمنين الجدد أو المداهنين أو المستوطفين لاصول عباداتها .

(١) يذكر الاستاذ روستوفتزف أن السلوقيين حاولوا في فترة متأخرة من تاريخهم تقليد البطالمة في سرابيس (Sarapis) بتقديم اله واحد على مستـوى أمبراطوريتهم وذلك بالجمع بين زيوس (الاغريقي) واهورامزدا (اله النور الفارسي) وبعل (كبير الالهة السورية) في اله واحد .

الفصل الحادي والعشرون

الحضـــارة

(١) نشر الحضارة الاغريقية

يلفت نظر أي باحث في التاريخ الهلنستي بشكل عام ، ذلك الجهد الكبـــير الذي بذله سلوقس وعدد غير قليل من خلفائه لنشر الحضارة الاغريقية في ربـــوع الامبراطورية السلوقية عن طريق انشاء العديد من مراكز اشعاع هذه الحضارة في ارجاء الامبراطورية •

وقد رأينا كيف ان الامبراطورية السلوقية كانت تتألف من عدة وحـــدات شديدة التباين من حيث العدد والجنس والحضارة والاوضاع الاجتماعية • وازاء ذلك كله ، وازاء قناعة ملوك سورية في ذلك العصر بسمو الحضارة الاغريقية على حضارات الاقوام التي خضعت لهم ، كان طبيعيا ان يتخذ هؤلاء من الاغريـــق والمقدونيين سندا وعضدا ، وان ينشئوا لهم اكبر عدد ممكن من مراكز الاستيطان الاغريقية • وقد كان من شأن انشاء كل هذه المراكز تحقيق عدة أهداف حيوية ، فهي من ناحية تعطي دولتهم طابعا هلنيا شأنهم في ذلك شأن البطالمة ، ومن ناحيـــة اخرى تهيء البيئة التي تمكن اعوانهم الرئيسيين من حكم الامبراطورية والنهوض بمرافقها ، ومن ممارسة وجوه نشاطهم والوان الحياة التي الفوها ، وفي الوقت نفسه تحميهم من غائلة الذوبان في المجتمعات الشرقية ، وبذلك يضمن هـؤلاء الملوك تحت امرتهم اعدادا كبيرة من الاعوان المخلصين الذين يفهمون مراميهـم ويتفانون في خدمتهم ، ويقيمون في مراكز متعددة تكون بمثابة نقط ارتكاز قويـة لدعم سيطرة الملوك والحفاظ عليها • ومن ناحية ثالثة تكـــون مراكز الاستيطـــان

الاغريقية مراكز اشعاع للحضارة الاغريقية تقوم بصبغ اكبر عدد من الاهالي الوطنيين بالصبغة الاغريقية فيزداد على مر الزمن اعوان هؤلاء الملوك ، وتصبح الحضارة الاغريقية عاملا للوحدة والتماسك بين العناصر المتنافرة في الامبراطورية •

أولا : بناء المدن والمستعمرات :

وقد مر بنا كيف أن الملوك السلوقيين واوائلهم بشكل خاص قد انشأوا العديد من مراكز الاستيطان للعناصر المهاجرة ، وان منشآتهم اتخذت في شكلها العام صورتين مختلفتين ، كانت احداهما هي المستعمرة العسكرية ، والاخرى هي المدينة الكاملة • وقد عرفنا ايضا ان معظم الباحثين يتفقون على ان الاساس في عملية الاستيطان كان المستعمرة العسكرية وليست المدينة ، وانه في رأي هؤلاء الباحثين اذا كانت المناطق الاسيوية السلوقية قد امتلأت في النهاية بأعداد كبيرة من المدن ، فان ذلك قد تم الى حد كبيربدون قصد أو بصورة غير مباشرة ، أي انه كان نتيجة للتطور التاريخي المحتوم •

ونود ان نؤكد هنا انه اذا كانت الاعتبارات العسكرية عاملا هاما في سياسة الاستيطان السلوقية ، فانها لم تكن لتمثل كل الاعتبارات الرئيسية • ذلك ان رجال المستعمرات كانوا جنودا ، لكنهم كانوا ايضا اغريقا ومقدونيين ، ومن ثم فانهم لم يكونوا سندا قويا فحسب للدفاع عن الامبراطورية بل كانوا ايضا سدنة للحضارة الاغريقية •

بيد ان السلوقيين لم يكونوا بحاجة فقط الى عسكريين لارساء دعائم امبراطوريتهم ، فالمدنيون ــ كما نعرف ــ يشكلون ركنا اساسيا من اركان الدولة، وبشكل خاص المصرفيين والتجار واصحاب دور التشغيل والصناع ، فقد كان هؤلاء جميعا عماد الحياة في المدن الاغريقية التي انشئت منذ القرن السابع قبل الميلاد • وبطبيعة الحال لم تكن المستعمرة العسكرية وانما المدنية هي التي تستطيع ان تهيء لهؤلاء جميعا المناخ المناسب لممارسة وجوه نشاطهم المختلفة ممارسة مثمرة •

ولما لم يكن في وسع السلوقيين ــ مثلهم في ذلك مثل اوائل البطالمة ــ ان يولوا الاهالي الوطنيين ثقتهم ، ويتخذوا منهم اعوانهم في مختلف اجهزة الحكم،

فانهم اعتمدوا في ذلك على الاغريق والمقدونيين • ومعنى ذلك كله ان السلوقيين كانوا في حاجة ملحة الى تشجيع اعداد كبيرة على الهجرة من مقدونية وبـــلاد الاغريق القارية ، وكذلك من ايونيه للخدمة العسكريـة وممارسة النشـاط الاقتصادي والمالي ، والعمل في دواوين الحكومة •

وقد مر بنا كيف ان السلوقيين الاوائل ، ليضمنوا استقرار محاربيهم ووجود عدد كبير منهم رهن اشارتهم باستمرار ، أنشأوا لهم مستعمرات عسكرية ومنحوهم إقطاعات زراعية تكفل لهم دخلا مجزيا • واما المدنيون فانهم لكي يضمنـــوا استقرارهم في رحاب الامبراطورية ، فانهم هيأوا لهم المناخ الملائم لحياتهم التـي كانوا يألفونها عن طريق اقامة مدن كانت على الاقل تشابه ان لم تكن افضل مـن المدن التي وفدوا منها • ودليلنا على ذلك هو ان انطاكية ولاوداكيه وسلوقيه بيريه ودجلة وغيرها لم تنشأ في البداية على هيئة مستعمرات ثم تطورت الى مدن ، بـل انشئت منذ البداية على هيئة مدن تتوافر لكل منها كافة مقومات المدينة الكاملة • ويؤكد ذلك ان سلوقس الاول اتخذ ثلاثا منها الواحدة بعد الاخرى ، عاصمـة لامبراطوريتـه •

وهكذا يبدو مما عرضناه ان السلوقيين قد نهجوا في سياسة الاستيطان التي اتبعوها منهجين مختلفين (منهج المستعمرات العسكرية ومنهج المدن الكاملة) كان كل منهما يؤدي وظيفة معينة لا غنى عنها لتحقيق اهداف حيوية للامبراطورية •

وفضلا عـن المدن الاغريقية والمستعمرات التي انشئت حديثا للمهاجريـن فان قلة من الاغريق استوطنت في بعض المدن الوطنية القديمة العهد بعد اضفاء بعض السمات الاغريقية على شكلها العام • ولعل أهم حالتين معروفتين لتلـك الظاهرة في الامبراطورية السلوقية كانت حالة كل من دمشـق وحلب ، ونظرا لوضوح المعلومات عن حالة حلب فسنحاول استعراضها بايجاز دون دمشق •

فالمعروف ان حلب من أقدم مدن سورية ، ان لم تكن اقدمها ، ويعـود تاريخها الى عشرين قرنا قبل الميلاد ، ويرجعها بعض المؤرخين الى العصر الحيثي لوجود كثير من آثار الحيثيين فيها ، بينما يرجعها مؤرخون آخرون الى العهـد

الاموري ، اذ يقال ان اسم حلبو (Halabo) ورد في بعض الالواح بوصفهـــا عاصمة لمملكة يمخاض (Yemchad) • وكان احد ملوكها يدعى يريم ليـــم (Yarim - lim) (١٨٠٠ ــ ١٧٠٠) • ويبدو ان كثرة الغزوات ادت الــــى تدهور المدينة فقلت اهميتها ، وانكمشت رقعة سيطرتها ، وظل شأنها متواضعا حتى العصر الهلنستي حين لفت موقعها الاستراتيجي والاقتصادي نظر سلــوقس الاول • فأنشأ حيا ملاصقا لها ودعاها بيرويه (Beroa) نسبة الى احدى المــدن أو القرى في مقدونية •

ثانيا ــ رعاية الآداب والعلوم والفنون :

١ ــ الآداب :

يمتاز العصر الهلنستي بصورة عامة بانتشار العلم وتقدمه • ويـــرى بعض المؤرخين انه لا ادل على ذلك من ان الموظف الذي اطلق عليه لقب جومنازيارخوس (Gymnasiarchos) وكان يناط به الاشراف على التعليم في الدول الهلنستيــه اصبح أهم حكامهـــا •

وأفضى انتشار التعليم الى انشاء مدارس اولية كثيرة ، بعضها للذكـــور والبعض الاخر للاناث ، بل انه في بعض المدن مثل ثيوس وخيوس (في البحـــر الايجي) كانت توجد مدارس مشتركة يؤمها الاولاد والبنات معا على غرار ماكانت توجد من قبل في اسبرطـــه •

ويبدو ان تعليم البنات كان يقف عند انتهائهن من هذه المدارس ، امــــا الذكور ، فانهم كانوا ينتظمون بعد ذلك في سلك الجومنازيـــوم (Gymnasiom) ويتلقون فيه عادة في التاسعة عشرة والعشرين من عمرهم تعليم الشبان (Ephebia) الذي كان اساسه الاول التدريب العسكري ، لكنه كان يتناول ايضا تثقيفهم •

وقد كان التدريب العسكري في بعض المدن الزاميا ، لكنه لم يلبث ان اصبح اختياريا • وقد اوجدت اللغة المشتركة والتعليم حضارة مشتركة في العالم الاغريقي انتشرت في كنفها الاداب والفلسفة ، وعمت في ظلها حرية الفكر والقول ، وزالت الكراهية القومية ، اللهم الا اذا استثنينا المصريين واليهود •

ولقد كان من الطبيعي ان تحصل اللغة والثقافة الاغريقيتين على مكانة خاصة لاقترانهما بالشعب الفاتح ، وكان تفوق الادب واللغة الاغريقيين امرا لا يقبـــل

الجدل . ولما كان السلوقيون قد عنوا بانشاء مراكز استيطان اغريقية ليوفروا لمهاجريهم اسباب الحياة الخليقة بهم ، وكانت المدارس والمعاهد الاغريقية اهم دعامة للحضارة الاغريقية فانه لاشك في ان يكون الاغريق حيثما نزلوا في كثرة ، قد أنشأوا مدارس ومعاهد من الطراز المألوف في كل ارجاء العالم الاغريقي ، ولايبعد ان يكون السلوقيون قد كلأوا برعايتهم مثل هذه المنشآت ، وبخاصة اهمها ونعني الجومنازيوم .

ويتبين من وثيقة ترجع الى عام (٢٤٦) ان شبان العاصمة السلوقية انطاكية كانوا يتلقون تعليمهم في الجومنازيوم التعليم التقليدي الذي كان يؤهلهم للاضطلاع بواجبات المواطنين . واذا كانت مصادرنا لا تمدنا بما ينبيء عن نظام التعليم الذي كانت تتبعه جاليات المدن السلوقية ، فانه من العسير ان تتصور ان هذا النظام كان يختلف عن النظام السائد في المدن الاغريقية في كل ارجاء العالم الهلنستي وكان هذا النظام يتألف من مرحلة ابتدائية في مدارس خاصة أو في بيوت القادرين على ذلك ، ومن مرحلة ثانوية في الجومنازيوم ، ومن مرحلة الثقافة العالية في المراكز التي يتوافر فيها اساتذة يستطيعون توفيرها . وكان لايتابع الدراسة في هذه المرحلة الا عدد قليل من الذين تمكنهم مواردهم ويدفعهم طموحهم الى ذلك .

ولعل اعتماد السلوقيين الاغريقية لغة رسمية لامبراطوريتهم قد ساعد على انتشار هذه اللغة بين فئات المثقفين وعلية القوم انتشارا سريعا . وكان تعلم اللغة الجديدة يتيح الفرصة لتولي مركز حكومي او متابعة اي نوع من الدراسات الاكاديمية الاخرى .

وقد سهلت المدن والمستوطنات السلوقية الجديدة هذا الامر امام المحليين من سكان المدن الجديدة والمجددة ، الذين يبدو انهم تأغرقوا لغويا بالاختلاط القائم يوميا مع الاغريق في الساحات العامة والاسواق والمسارح وساحات الالعاب والمجالس العامة .

وقد شهد العصر الهلنستي ظهور عدد من الدور العامة الكبيرة للكتب ، كانت اقدمها عهدا واعظمها شأنا واوسعها شهرة المكتبة الكبرى في الاسكندرية ، وهي التي أنشأها بطلميوس الاول ، وعمل بطلميوس الثاني والثالث على الاضافة

الى محتوياتها واسناد الاشراف عليها الى علماء بارزين ، فغدت مركزا مرموقا للدراسات الانسانية يكاد يضارع « دار العلم » (الموسيون) التي كانت اعظم مركز للبحوث العلمية في العصر الهلنستي • وفي النصف الاول من القرن الثاني أنشأ يومنس الثاني في برجامه دارا للكتب عنى الملوك الاتاليون بعده بأمرها فنمت سريعا حتى اصبحت تلي مكتبة الاسكندرية الكبرى في المكانة •

واذا كنا نعرف انه انشئت في انطاكية ايضا دار عامة للكتب وان هذه الدار كانت الاولى من نوعها في سورية ، فاننا لا نعرف على وجه اليقين من الذي أنشأ هذهالمكتبة ، وان كنا لا نستبعد ان الفضل في ذلك يرجع الى سلوقس الاول ، وعلى كل حال فان شهرةهذه المكتبة لا تقارن بشهرة كل من مكتبتي الاسكندرية وبرجامه اللتين كانتا تتنافسان في القرن الثاني على اقتناء مخطوطات ارسطو • وتواضع شأن مكتبة انطاكية يوحي بتخلف الحركة الادبية والعلمية في الدولة السلوقية عن مثيلتها ليس فقط في دولة البطالمة بل حتى في دولة الاتاليين ، مما يدل على ان السلوقيين كانوا اقل من منافسيهم اكتراثا بهذه الناحية الحضارية •

ولن نحاول درء تهمة اهمال الحركة الانسانية عن سلوقس وخلفائه بدعوى قصور المصادر ، لان هذه المصادر ذاتها أفاضت في ذكر أهمية الحركتين العلمية والادبية في الاسكندرية • ذلك ان انطاكية ـ اعظم حواضر السلوقيين ـ لا يمكن مقارنتها من النواحي الانسانية بالعاصمتين السالفتين الاسكندرية وبرجامه • ويبدو ان مرد ذلك الى حقيقة هامة ، وهي ان السلوقيين بوجهعاملم يولوا العلماء والادباء من السخاء والعطف قدر ما اولاهم البطالمةوالاتاليون، أو لم يهيئوا لهم البيئة التي توائم ازدهار العلم والادب ، وينهض دليلا على عدم توافر البيئة الملائمة ان العديد من علماء وادباء الامبراطورية السلوقية هجروها الى مراكز علمية زاهرة ، فقد هاجر الفيلسوف ديوجنس (Diogenes) (٢٤٠ ـ ١٥٢) من سلوقية دجلة الى اثينا [١] ، كما هاجر المؤرخ بوسيدونيوس (١٣٥ ـ ٥٠/٥١) من ابامية

---

(١) عرف باسم (ديوجنس البابلي) تتلمذ في اثينا على يد الفيلسوف خروسيبوس Chrysippos (٢٨٠ ـ ٢٠٧) وخلف زينون الطرسوس في رئاسة المدرسة الرواقيه ، زار روما حوالي (١٥٦ ـ ١٥٥) وانعش هناك الاهتمام بالرواقيه •

الى رودوس ، وحذا حذوهما علماء كثيرون ممن كانوا أقل منهما أهمية • بيد انه ليس معنى ذلك ان الحواضر السلوقية افتقرت تماما من رجال العلم والادب ، وانما معناه انه لم يتهيأ لهذه الحواضر من الاسباب لاستقرار كثيرين من هؤلاء الرجال وازدهار نشاطهم فيها •

وتخبرنا المصادر مثلا ان انطيوخس الاول اشرك الفيلسوف المشهور اراتوس (Aratos) في مجلسه الملكي ، وكلفه باصدار نسخة جديدة من الاوديسا ، كما اظهر اجلاله للعلماء باعتذاره عن عدم الاستجابة الى ما طلبه الامير الهندي اميتروخاتس (Amitrochates) خليفة تشاندراجوبتا بأن القانون الاغريقي يحرم بيع الفلاسفة • وقد عاش الشاعر والفيلسوف يوفوريون (Euphorion) في بلاط انطيوخس الثالث ، ونظم له المكتبة العامة في انطاكية وتوفى فيها • هذا الى ان عددا من الفلاسفة ــ وبخاصة الابيقوريين والرواقيين ــ ومن الشعراء تواجدوا في بلاط الملوك السلوقيين انطيوخس الرابع ودمتريوس الاول واسكندر بالاس وغيرهم •

٢ ــ العلوم :

ومعلوماتنا الطفيفة عن مظاهر النشاط الادبي في حاضرة السلوقيين تبدو وكأنها وفيرة اذا ما قورنت بافتقارنا الكلي الى المعلومات ، بل اشارات عابرة الى النشاط العلمي في الامبراطورية السلوقية • ذلك انه ليس في مصادرنا أي ذكر لمعهد علمي (موسيون) يشابه معهد الاسكندرية المشهور ، او لاية كشوف أو بحوث لعالم رعاه السلوقيون أو كان يعيش في امبراطوريتهم عندما توصل الى كشوفه أو بحوثه • وهنا ايضا لايمكن الادعاء بأن قصور مصادرنا كان السبب في عدم ابراز مثل هذه الكشوف والبحوث ، لان هذه المصادر نفسها افاضت في حديثها عن نشاط علماء الاسكندرية الى حد انها نسبت اليهم ماقام به غيرهم •

وليس معنى ذلك ان مصادرنا تنكر تماما دور السلوقيين وبخاصة الاوائل في رعاية بعض العلوم ، فقد افادتنا هذه المصادر عن فضل سلوقس ورعايته لعلمي الفلك والجغرافية من بين بقية العلوم التي ازدهرت في العصر الهلنستي ،

وذلك برعايته لعلماء الفلك الكلدان في بابل بعد تهجير سكانها واهتمامه بانفاذ البعوث الكشفية في مناطق آسية الصغرى وبحر قزوين • وقد كانت تقارير هذه البعوث حجر الزاوية في نشر المعلومات الجغرافية عن تلك الاقاليم •

وتسليمنا بأن الدافع الاساسي الى هذه البعوث كان تجاريا وسياسيا ، لا يمنعنا من التأكيد على ان التقارير التي قدمتها هذه البعوث قد افادتنا كثيرا ، كما افادت معظم جغرافيي الفترة الرومانية ، وكانت دقيقة وشبه كاملة لدرجة انها اعطيت الى بومبى في عام ٦٥ عندما اراد التعرف على الطرق التجارية في منطقة بحر قزوين كما اسلفنا •

٣ ـ الفنون :

ونظرا الى تماثل الفنون لبقية الاحوال الحضارية للامبراطورية السلوقية من حيث الغموض الذي يكتنفها بسبب قلة معلوماتنا عنها ، فانه لن يكون في مقدورنا تناولها تفصيلا مما سيضطرنا ، استكمالا لجوانب البحث ، الى الحديث عنها حديثا عاما مقتضبا •

أ ـ الموسيقى :

يبدو انه لم تكن للموسيقى من الاهمية في حياة أي شعب من الشعوب مثل ما كان لها في حياة الاغريق • وينجلى ذلك في عدة ظواهر منها ان اعظم فلاسفة الاغريق كانوا يعتبرون الموسيقىوسيلة لتهدئة الاعصاب وتكوين الخلق القويم ، وانها صورت كثيرا في الفن الاغريقي ، وان الاغريق اتخذوا لهم آلهة خاصة بالموسيقى (مثل بان وابولون) ، وان الموسيقى كانت جزءا لا يتجزأ من حفلات الزواج والطقوس الجنازية وكثير من الشعائر الدينية ، وان كثيرا من الحفلات الاغريقية العامة كانت تشمل مباريات موسيقية يكرم فيها الفائزون تكريما لا يقل ابدا عن التكريم الذي كان يقام للفائزين في المباريات الرياضية •

وتنحصر معلوماتنا عن الموسيقى الاغريقية بوجه عام في :

١ ـ بعض بقايا السلم الموسيقي الاغريقي •

٢ ـ صوت الآلات الموسيقية اليونانية المعاصرة •
٣ ـ نماذج متأخرة من الموسيقى يفترض ان لها اصولا اغريقية •
٤ ـ بعض البحوث القديمة •

ومن المؤسف حقا ان عدم اشارة مصادرنا الى أهمية الموسيقى في العصر السلوقي وحالتها العامة ، قد استتبع عجزنا عن تتبع تطورها على نحو ما سنحاول في بقية الفنون الاخرى التي تخلد خلود الانسان • ومع ذلك فاننا سنحاول استخلاص بعض النتائج مما نعرفه عن أهمية الموسيقى عند الاغريق ومن بعض المظاهر الحضارية العامة في ذلك العصر •

وبادىء ذي بدء انه ليأخذنا العجب اذا كان اغريق الامبراطورية السلوقية قد فقدوا بين عشية وضحاها ولعهم الشديد بالموسيقى ، ولعل تصوير ابولون احد آلهة الموسيقى الاغريقية على بعض نقود الملوك السلوقيين ، بالاضافة الى الانغام الموسيقية التي كانت تملأ الاجواء طيلة مدة اقامة اعياد دفنه (١٦٧) ـ على حد ما يذكر بروتار جيدس (Protargides) بالتفصيل ـ تنهض دليلا على صدق ما ذهبنا اليه وعلى استمرار ولع الاغريق بالموسيقى على الاقل حتى القرن الثاني ، وكذلك على اهتمام معين بذله السلوقيون لرعاية النشاط الموسيقي في مدنهم الرئيسية بشكل عام ، وبلاطاتهم وقصورهم بشكل خاص • ولابد من ان يكون بعض من الخصيان والارقاء الذين امتلأت بها القصور السلوقية قد تخصصوا في اضفاء اجواء البهجة والسرور على الاجواء العامة لهذه القصور •

ب ـ النحت والتصوير :

ويختلف فنا النحت والتصوير الاغريقيين عما تقدمهما أو عاصرهما من فنون شرقية بخلوهما من الاسرار ، وعدم تأثرهما بتلك المفاهيم الميتافيزيقية الغامضة التي جهدت فنون الامم الشرقية في الغوص في خفاياها • ذلك ان تجسيد الكمال كانت غاية هذين الفنين الاغريقيين في ارقى مبتكراتهما ،ويكفي دلالةعلىهذا ان الفن الاغريقي كان الدعامة الاساسية التي قامت عليها الحضارة الابداعية حتى عصرنا هذا • وإن كان هذا الفن قد تأثر في عصوره الاولى بفنون الحضارات الشرقية التي سبقت الحضارة الهلينية •

وبصورة عامة ، يبدو بجلاء ان فني النحت والتصوير في كل ارجاء العصر الهلنستي قد تأثرا في بداية هذا العصر تأثرا شديدا بتقاليد الفن الاغريقي في القرن الرابع ، وهي التي تعزى الى أعظم مثاليه وكانوا : براكسيتلس (Praxiteles) وسكوباس (Skopas) ولوسيبوس (Lysippos) [1] الا انه بمضي الزمن ادخلت على هذه التقاليد في كل اقليم تعديلات تنفق مع بيئته وظروفه ، فنشأت عن ذلك عدة مدارس لكل منها مميزاتها في الطراز والموضوعات .

واذا كان بعض الباحثين يستبعدون وجود مدرسة سورية هلنستيه في النحت لانهم يستبعدون ان يكون الفنان يوتوخيدس (Eutochides) [2] قد هجر موطنه سيكيون واقام في انطاكية وانشأ فيها مدرسة عندما قام بنحت تمثال توخى انطاكية (الذي سنتكلم عنه فيما بعد) ، فان البعض الاخر يعتقدون بوجود مدرسة سورية هلنستية في النحت بشكل خاص كان قوامها إنتاج انطاكية وغيرها من المدن واطلق عليها اسم (مدرسة انطاكية) . وفي رأي هذا الفريق ان مبتكرات هذه المدرسة كانت تجمع بين نظريات المثالين لوسيبوس وبرياكسيس (Briaxis) وخصائص المدارس الهلنستيه المتطورة عما ظهر في القرن الرابع،وان هذه الخصائص تتلخص في نسب القامات الطويلة وتعرية الربات والنساء بشكل عام ، وجعل اجسامهن ذات لحوم مكتنزة ، والاغراق في اظهار معالم التهيج والانفعال على الوجوه . والحقيقة ان عدم استطاعتنا ترجيح احد الرأيين يعود الى أن كلا من الرأيين قام على قناعة الباحث ولم يقم على حقائق مؤكدة أو شواهد ملموسة .

وعلى أية حال ، فقد عثر على عدة تماثيل يعتقد بعض باحثي الفريق الثاني (السابق الذكر) بأنها من اعمال هذه المدرسة ، ولعل اشهر هذه التماثيل

---

(١) نحات من مدينة سيكيون (Sykyon) يذكر بلينيوس انه اشتهر عام (٣٢٨) في عهد الاسكندر ، ويذكر اثينايوس أن له علاقة ببناء كاساندريه عام (٣١٦) ومن اشهر اعماله نحت تمثال رأسي للاسكندر .

(٢) نحات ورسام سيكيون أيضا ، عاش اوائل القرن الثالث ، وتتلمذ على مواطنه لوسيبوس ، له عدة اعمال هامة تعد (توخى انطاكية) اشهرها على الاطلاق .

مجموعة تمثل افروديت وبان وايروس وجدت في احد معابد ديلوس ، وتوجد هذه المجموعة الان في متحف اثينا • كما عثر على بعض هذه التماثيل في دورايوروبوس واشهرها تمثال (المرأة المحسنة) الذي عثر عيه في معبد أرتميس ، ويدل طرازه على انه كان من صنع فنان محلي عاش في دورا في القرن الثاني ، وعثر على البعض الاخر من تماثيل هذه المدرسة في افامية واهمها تمثال بسوخي (Psyche) المحفوظ في متحف دمشق •

ولعل اشهر تماثيل هذا العصر على الاطلاق ، هو التمثال البرونزي المذهب لتوخي انطاكية (Tyche of Antioch) ربة سعادة وحظ وعناية المدينة ، وهو الذي نحته الفنان يوتوخيدس عام (٣٠٠) بتكليف من سلوقس الاول • وفي رأي بعض مؤرخي الفن ان هذا التمثال كان اصلا عبارة عن مجموعة تمثل سلوقس وأباه انطيوخس يتوجان توخي انطاكية •

ويبدو غريبا ما يذكره الاستاذ سليم عادل عبد الحق (في كتابه الفن الاغريقي ص ٢٠٤ ــ ٢٠٥) من ان سلوقس امر بنحت التمثال تخليدا لذكرى فتاة جميلة تدعى ايماته (Imate) قدمت قربانا للالهة بمناسبة تخطيط حدود مدينة انطاكية • اذ ليس لدينا أي دليل يثبت ان الاغريق كانوا يقدمون تضحيات بشرية • واذا صح جدلا ان التقاليد المحلية كانت تجيز مثل هذه الطقوس الدموية ، فاننا نستبعد ان سلوقس كان يمكن ان يأخذ بمثل هذه الطقوس عند تأسيس مدينة اغريقية •

ويمثل هذا التمثال امرأة جالسة على صخرة بجسمها الرشيق الطويل ، ملتفتة الى الجهة اليسرى ، ومرتدية ثوبا فضفاضا صففت ثنياته وأذياله على شكل بديع ، وقد استندت بيدها اليسرى على صخرة ، وتتطلع الى بعيد وكأنها تشرف من أعلى جبل سيلبيوس على السهول الانطاكية الخصيبة ، وامسكت بيدها اليمنى حزمة من السنابل ترمز الى الخصوبة ، ويتدفق نهر العاصي من تحت قدميها بحركة مسرحية على شكل غلام باسطا ذراعيه كأنه يسبح ، أما رأسها فمزين بتاج مصنوع على هيئة سور المدينة •

وقد عثر على ثلاث نسخ رومانية من هذا التمثال ، واحدة برونزية في

متحف فلورنسا ، والاخريان مرمريتان واحدة في متحف بودابست والثانية في متحف الفاتيكان تعد جميعها واخصها نسخة الفاتيكان افضل النسخ الكثيرة والمنتشرة في متاحف العالم .

ولا تضن مصادرنا علينا بذكر اشهر التماثيل التي اقيمت في انطاكية في فترة انشائها ، واشهرها تمثالا زيوس وابولون (وكانا يعتبران) حاميي الاسرة السلوقية وكثيرا ما شبه بهما سلوقس وابنه ، وتمثال زيوس كيراونوس « الرعّاد » ، هذا الى ان بعض التماثيل اقيمت تخليدا لبعض أحداث بعينها أهمها تمثال للكاهن امفيون (Amphion) الذي ساعد سلوقس في تقديم القرابين عند وضع اساس اسوار المدينة .

جـ ـ فن المعمار وتخطيط المدن السلوقية :

امدتنا بعض اشارات مصادرنا القديمة ، واعمال الحفر والتنقيب عن الاثار في اكثر المدن السلوقية التي بَنيت او اعيد بناؤهافي العصر الهلنستي بمعلومات عامة عن النهضة العمرانية في الامبراطورية ، وقد تجلت هذه النهضة في مظهرين أساسيين هما :

١ ـ بناء حي جديد أو مدينة حديثة تجاور احدى المدن المحلية القديمة ونذكر على سبيل المثال لا الحصر ما جرى في دمشق وحلب .

٢ ـ بناء مدن حديثة كاملة فوق قرى او مدن محلية صغيرة على نحو ما جرى مثلا في انطاكية والسلوقيتين ، وابامية ولاوداكية ودورايوروبوس .

وبطبيعة الحال ، ستتوقف معالجتنا لمختلف جوانب الموضوع من حيث التفصيل او الاجمال على مدى ما وفرته مصادرنا القديمة وتتائج اعمال الحفر والتنقيب من معلومات عن تخطيط المدن السلوقية واهم معالمها .

ويبدو لاول وهلة انه من الصعب محاولة الحديث تفصيلا عن تخطيط المدن التي أنشأها السلوقيون داخل امبراطوريتهم ، وبخاصة تلك المدن التي استمرت مزدهرة ومأهولة حتى الوقت الحاضر ، أو لفترة طويلة بعد انشائها

وهذه هي حال معظم ان لم تكن كل المدن السلوقية وذلك بسبب التغيير الكبير الذي طرأ على شكل هذه المدن خلال العصور المتتالية • وحسبنا ما اورده احد الباحثين من ان « ارض مدينة انطاكية الرومانية البيزنطية توجد على عمق يتراوح بين خمسة وستة امتار تحت سطح المدينة الحالية » لندرك مدى الصعوبة التي تعترضنا لمعرفة تفاصيل المدن والمنشآت التي اقامها السلوقيون في الفترة الهلنستيه المبكرة •

ولكن بقاء دورا يوروبوس تحت الرمال التي حفظتها ، واعمال الحفر الحديثة في ابامية ، وبعض مصادرنا الوسيطة ، ودراسات باحثينا المحدثين التي اشارت او استنبطت بعض الشواهد من مدن اخرى مثل انطاكية قد ساعدتنا على معرفة المخطط السائد في ذلك العصر بصورة عامة •

وتوحي القرائن ان سلوقس واقرب خلفائه — ممن تابعوا نشاطه في بناء المدن — اتبعوا النظام الشبكي الهبودامى في تخطيط كل مدنهم واحيائهم الجديدة • ويبدو انه بالرغم من تحذير ارسطو بعدم استخدام التخطيط المنتظم لاسباب دفاعية ، فانه شاع في العصر الهلنستي اتباع النظام الشبكي لعدة اسباب أهمها :

١ — انه يوافق الذوق الاغريقي المغرم بالتناسق والتناظر وخداع النظر باحتوائه على الاعمدة والاروقة والافاريز •

٢ — انه من اليسير تطبيق هذا النظام ، مما يساعد على توسيع رقعة المدينة دون اخلال بشكلها العام ، لان هذا التوسع لا يقتضى اكثر من اضافة وحدات سكنية جديدة على امتداد الشوارع المستقيمة المتقاطعة بعضها مع بعض عموديا • وهذا هو بالضبط ما حدث في انطاكية حينما اجبرت زيادة السكان سلوقس الثاني ثم انطيوخس الرابع على اضافة حي ثالث فرابع على التوالي • وقد حدث أيضا في المدن المتأغرقة مثل دمشق التي اضيف الى حيها الشبكي الجديد حي آخر لاقامة مهاجرين جدد من الانباط •

٣ — انه يساعد على تحديد انسب الاتجاهات للافادة من الشمس شتاء واتقائها صيفا مع استقبال الرياح التي تخفف من وطأة القيظ • ولعل ان اتباع

النظام الشبكي في مدينة عالمية كالاسكندرية وما تبع ذلك من ذيوع هذا النظام ، أثر كبير في توجيه رغبة سلوقس وخلفائه ، بل الاتاليين فيما بعد الى بناء مدن تماثل أو تضارع الاسكندرية جمالا وعظمة . ومن ثم فانه يمكن القول بوجه عام بأن السلوقيين اتبعوا هذا النظام في كل مدنهم بل مستعمراتهم باستثناء سلوقية بيريه فيما يحتمل .

ولئن اختلفت المدن السلوقية عن بعضها بعضا من حيث أشكالها العامة ، نتيجة لاختلاف تضاريسها الطبيعية ، فان كلها تشابهت من حيث تخطيطها وفقا للنظام الشبكي ، كما ان معظمها تماثلت من حيث احتوائها على المعالم العامة التالية :

١ ــ السور : لما كانت المدن السلوقية قد انشئت وسط بيئات غريبة قد تتهدد سلامتها فانه لتأمين هذه السلامة ، اتبعث الوسيلة التي لجأت اليها مدن بلاد الاغريق منذ تعرضها لاخطار الحرب الفارسية الاولى . وكانت هذه الوسيلة هي بناء اسوار تطوق كل مدينة لتسهم مع موقعها الحصين في رد عاديات الغزاة . وقد استمر اتباع هذه الوسيلة في العصر الهلنستي .

ولا شك ان طبيعة ارض المدينة قد لعبت دورا اساسيا في شكل السور مما افضى الى اختلاف هذا الشكل من مدينة الى اخرى من المدن السلوقية ، فنحن نجده مخمسا في دورايوروبوس ، وشبه منحرف في ابامية ولاوداكية ، ومربعا في بيرويه (حلب) ومستطيلا في دمشق . وبرغم هذه الاختلاف في الشكل وعدد الاضلاع فانه فمن الواضح ان هذه الاسوار جميعا تتفق في انها عبارة عن أشكال هندسية تتألف من اضلاع مستقيمة شأنها في ذلك شأن اسوار انطاكية . وكان عرض السور يتفاوت بين (١١٢) و (١٣٠ سم) ، واحيانا كما نجد في دورا اكثر سمكا عند القاعدة منه عند القمة .

٢ ــ الاكروبوليس : وكان يبنى في معظم المدن السلوقية قلعة عسكرية داخل السور يعتمد عليها حاكم المدينة في حفظ الامن ، ويحتمى بها الاهالي في حالة سقوط المدينة ، وتعتبر والحالة هذه خط دفاع ثان . وكانت هذه القلعة تقام

عادة على مرتفع او هضبة تشرف على المدينة • ونجدها ظاهرة في كل من اباميه ودورا وحلب •

٣ ـ الشوارع : وكان يوجد في كل مدينة على الاقل شارعان رئيسيان متعامدان ويتميزان بما على جانبيهما من اروقة وأعمدة ، وكان عرض الشارع في المدن السلوقية يتراوح بين ثلاثة الى تسعة امتار حسب أهمية ذلك الشارع •

ومن المؤسف اننا لا نعرف اذا كانت شوارع المدن السلوقية ترصف بالحجارة أو تضاء ليلا كما كانت عليه الحال في الاسكندرية • بيد انه لما كان سلوقس شديد الرغبة في الا تقل عاصمته أو عواصمه جمالا ونظافة عن عاصمة بطلميوس ، وكنا قد عرفنا سخاءه في انشاء المدن فاننا لا نستبعد ان شوارع سلوقية دجله وبيريه ، وانطاكية كانت مرصوفة وتضاء ليلا •

وقد ترتب على النظام الشبكي بشوارعه المستقيمة المتوازية التي تتقاطع بعضها مع بعض في زوايا قائمة ، انقسام المدينة الى مجموعات من الابنية كأنها جزيرات وهو الاسم (Insulae) الذي اطلقه الرومان عليها • ويذكر الاستاذ سوفاجيه ان ابعاد الجزيرات في المدن السلوقية الرئيسية قد بلغت ١١٢ × ٥٨ مترا في انطاكية و ١١٢ × ٥٧ مترا في لاوداكيه ، و ١٠٠ × ٥٠ مترا في افامية ، و ١٠٠ × ٤٦ مترا في حلب ، و ١٠٠ × ٤٠ مترا في دورايوروبوس وهذا التقارب في ابعاد الجزيرات الذي يكاد ان يكون تماثلا في بعض الاحيان ، ينهض دليلا آخر على ان المدن السلوقية الرئيسية قد انشئت في عصر واحد هو عصر سلوقس الاول •

٤ ـ المنازل : ومعلوماتنا عن المنازل التي بنيت في المدن السلوقية مستمدة من نتائج اعمال الحفر والتنقيب عن الاثار • وهذه النتائج على ندرة ما تمدنا به من معلومات ذات قيمة كبيرة لتوضيح بعض مستلزمات تسلسل البحث •

فقد كشفت بعثة جامعة ييل (Yale) عن انقاض لاحد المنازل في دورا • وذكرت البعثة في تقريرها ان المنزل يقع غرب المعبد الروماني (معبد جوبيتر) الواقع في الجزء الشمالي من المدينة على مقربة من القلعة من ناحية الغرب، وان هذا

المنزل يشابه كثيرا في تخطيطه المنزل الذي كشف عنه الاستاذ كومونت في حفائره السابقـــة .

وللمنزل باب خارجي يفتح على دهليز ضيق يؤدي الى غرفتين . والـــى جانب هذا الدهليز يقع فناء (Auly) تحيط به عدة غرف . وقد وجدت بـــين اطلال المنزل بعض الادوات المنزلية من الفخار والبرونز ، وقطعا من الزجاج والميكا (وهو نوع شفاف من المواد المستعملة لتغطية النوافذ) مما اتاح للبعثة الافتراض بأن الغرف كانت تضاء من خلال الفتحات التي تطل على الفناء .

وقد اتضح للبعثة من خلال بقايا اساسات الاعمده في المنزل ومقارنتها لمخطط المنزل الذي كان شائعا في دورا بدليل مماثلته للمنزل الـــذي اكتشفه كومونت ، بأن هذا المنزل يشابه في تخطيطه المخطط المقدوني للمنازل الذي اكتشفت البعثـــة مثالا له في حفائرها في منطقة اولونثوس (Olynthos) ، والذي يركز على تجميع الغرف حول فناء المنزل ، والذي يطلق عليه اصطلاحـــا اسم البيت الـــديلوسي (Delian house) ، وهو النموذج الذي شاع اعتماد مخططه خلال القرن الثاني الى جانب مخطط البيت البرييني (Priene house) ، نسبة الى مدينة بريينـــي في آسية الصغرى ، والذي لا نستبعد اعتماد مخططه في بعض بيوت المـــــدن السلوقية ، نتيجة لوجود مدينة بريينى داخل اراضي الامبراطورية ، واعتماد هذا المخطط في بعض منازل الاسكندرية وفيلادلفيه .

وقد فندت البعثة اقتراح الاستاذ كومونت بأن القبو (Celllar) الذي يقع تحت ارضية احدى غرف المنزل المشار اليه بسلم من ثلاث درجات كان يستعمل كملجأ في حالات القيظ الشديد ، لان صغر حجمه وانخفاض سقفه يجعل امكانية استعماله كملجأ تبدو مستحيلة ، حيث ان المكوث فيه لفترة وجيزة يجعل الجـــو حارا وخانقـــا .

وحيث يستحيل توزيع اختصاصات الغرف باعتبار اندثار موجوداتها ،فيمكن اعتبار احداها ، وهي التي وجدت فيها خمس جرار مخزنا للمنزل ، كما يمكـــــن اعتبار الغرف التي تصل اليها مواسير المياه المتفاوتة في الثخانة مركزا لقضاء حاجيات المنزل على الاكثـــر .

ويبدو بناء على المعلومات السابقة ، وحالة وثائقنا ، ان بامكان الدراسات المقارنة التي عقدها كبار مؤرخي الفترة ، وخاصة المتخصصون بالدراسات البطلمية، بحكم افضلية المعلومات المتوافرة من الادلة الاثرية والادبية والبردية ارشادنا أو القاء بعض الضوء على حالة المنازل في المدن السلوقية ، واستخراج النتيجة التالية :

« ان اغريق المدن السلوقية قد احضروا معهم الى اماكن سكناهم الجديدة انواع المنازل التي كانت مألوفة في الانحاء الاخرى من العالم الاغريقي في الفترة الهلنستيه ، في حين اشبع بعض الاغنياء نزواتهم باعتماد بعض اصول الزخرفة والعمارة المحلية [1] في منازلهم ، وان لم يغالوا كثيرا في ابراز هذه الاصول » •

ولعل المنازل الاغريقية التي اعتمدها الاغريق في المدن السلوقية بقيت من نصيب الطبقتين العليا والوسطى ، في حين ان قرب الشبه بين منازل الفقراء في بلاد الاغريق والامبراطورية السلوقية يجعل من العسير بل من العبث ان نحاول التفرقة بين انواع منازل الفقراء من الاغريق ومحليي الامبراطورية السلوقية •

ولعلنا نضيف هنا ، بأن الدولة قد ساهمت في انشاء منازل لجنودها في المستوطنات (مثلما عملت في المدن وبخاصة انطاكية) ذات طابع اغريقي يتناسب مع الاطارات العامة للمنازل في كل منطقة من مناطق الامبراطورية • ومن المحتمل ان يكون المنزل الذي اتى تقرير الحفائر السابق على وصفه واحدا من هذه المنازل•

٥ ــ الساحة العامة (الاجورا) : وهي احدى العناصر الرئيسية في المدينة الاغريقية القديمة ، وقلما خلت منها مدينة اغريقية • فقد كانت الاجورا مركز مختلف وجوه نشاط الاغريق •

ولا جدال في ان الشرق لم يعرف الساحة العامة بوصفها عنصرا مستقلا قائما

---

(١) مع اعترافنا بالاختلاف والتفاوت الحاصل في فن العمارة والزخرفة المحلية نفسها بين اقصى الشرق في فارس واقصى الغرب في فينيقية وايونيه واقصى الشمال في بونتوس واقصى الجنوب في سورية •

بذاته له مثل هذه الاهمية الا في العصر الهلنستي وقد اختلفت مساحة الاجورا من مدينة الى اخرى حسب المساحة المتوافرة ، وعدد سكان المدينة . ذلك ان مساحة الاجورا بلغت في دمشق ثماني جزيرات ، وفي حلب ثلاث جزيرات ، وفي دورا ثمان ، ولكن اجورا دورا كانت بدون اروقة [1] .

ويبدو ان اكتظاظ الساحة العامة في بعض المدن كان يؤدي الى اتخاذ الاروقة مراكز اخرى مساعدة لتخفيف حدة الازدحام في الاجورا ، أو الى انشاء ساحة عامة اخرى . وتبدو هذه الظاهرة جلية في حالة انطاكية ، حينما ترتب على اكتظاظ المدينة ان انطيوخس الرابع انشأ اجورا جديدة أسوة بما حدث في ملطيه وبرجامه وبيرايوس ، اللواتي تأثرن فيما يبدو بما اوصى به ارسطو من قبل بضرورة احتواء كل مدينة على اجورتين في موقعين مختلفين ، تخصص احداهما لالوان النشاط السياسي والثقافي ، والاخرى للتجارة فقط .

٦ ــ المعابد : تقتصر معلوماتنا عن معابد المدن السلوقية على ما استنبطه مؤرخو العصر السلوقي من امرين واحدهما هو ان العناية بمعابد الالهة في هذا العصر كانت محور تنافس بين الملوك ،وخاصة وانمعظم هؤلاء الملوك قد عبدوا في مدنهم كآلهة مدة طويلة من الزمن . والامر الاخر هو ان الملوك السلوقيين أباحوا ــ كما سيرد فيما بعد ــ لكل رعاياهم حرية العبادة ، واقامة الشعائر الدينية للالهة التي يعبدونها .

وليس في مصادرنا الادبية أي وصف لتصميم أو مظهر أي معبد بناه أي ملك من ملوك السلوقيين ، وان كانت هذه المصادر تطالعنا بأسماء بعض معابدهم مثل معبد نيكاتوريون الذي بناه انطيوخس الاول في سلوقية بيريه لدفن جثمان والده ، ومعبد زيوس بوتيايوس الذي شيده سلوقس نفسه في انطاكية ، ومعبد ارتاجاتيس في منبج (هيرابوليس) الذي اعاد سلوقس بناءه باسم زوجه . ومن المؤسف حقا ان اعمال الحفر والتنقيب لاتساعدنا كثيرا على تبين أشكال

---

(١) يبدو ان الحاجة الى انهاء تحصين المستعمرة اول الامر هو الذي شغل الباني ، فلم يلتفت الى متطلبات الزينة نظرا لكون المدينة مدينة حدود منعزلة نسبيا ، ولم يحسب حسابا للتطور .

المعابد في المدن السلوقية ، سواء أكانت معابد اغريقية أم شرقية ، وطرز بنائها وزخرفتها • واذا كانت حفائر دورايوروبوس ، وهي أشهر حفائر المدن السلوقية على الاطلاق بكشفها عن اساسات احد عشر معبدا ومزارين صغيرين تشير الى كثرة عدد المعابد في المدن السلوقية ، فان المخلفات الاثرية التي كشفت عنها هذه الحفائر نفسها لاتساعدنا على الجزم بما اذا كانت هذه المعابد ترجع الى العصر السلوقي ولا على تبين معالمها واشكالها حتى في فترات متأخرة من تاريخ المدينة •

وازاء عجز مصادرنا الادبية والمخلفات الاثرية عن تزويدنا بمعلومات عن تصميم وشكل وزخرفة المعابد في الامبراطورية السلوقية ، فاننا سنحاول القاء ضوء ولو خافت على ذلك كله مسترشدين بالمنهج الذي اتبعه بعض كبار مؤرخينا في استنباط رأيهم عن المعابد البطلمية الاغريقية من واقع دراساتهم لشذرات المعلومات عن تلك المعابد •

مر بنا ان الطابع العام للقصر الملكي السلوقي كان اغريقيا ، وان افراد الطبقة العليا الاغريقية ، ومن المحتمل ايضا على الاقل بعض أفراد الطبقة الوسطى الاغريقية كانوا يعنون بأن يتفق طراز بيوتهم مع اسلوب حياتهم التي ألفوها سابقا •وسنعرف فيما بعد ان السلوقيين شأنهم شأن البطالمة ، حرصوا على ان يبيحوا لرعاياهم حرية العبادة واقامة الطقوس الدينية للالهة التي يعبدونها فهل — في ضوء هذه الاعتبارات — يبعد انه عند تشييد معبد لاحد الالهة كانت تتخذ كل حيطة لكي يتمشى طراز المعبد مع صبغة العبادة التي يمثلها ذلك الاله ، فتكون معابد الالهة الاغريقية اغريقية بحتا ، ومعابد الالهة الشرقية شرقية بحتا ، سيما ان كل ما يتصل بالديانة يكون عادة ابعد الاشياء عن التغيير والتبديل ؟ قد يعترض على ما ذهبنا اليه بأمرين واحدهما هو ان عددا كبيرا من اغريق الاقاليم كانوا يعيشون في منازل شرقية ، والامر الاخر هو انه من الجائز ان يكون بعض اغريق المدن السلوقية قد فعلوا مثلما فعله بعض اغريق مصر البطلمية من حيث تزيين منشآتهم الخاصة بزينة شرقية • واذا كان هذا الاعتراض مقبولا شكلا فهو مرفوض موضوعا، لانه من اليسير تفسير هذين الامرين ، فأولهما : اقتضته الظروف لعدم امكان اقامة منازل جديدة للاغريق حيثما نزلوا في امصار الامبراطورية السلوقية • واما

الامر الاخر فانه يتمشى مع نزوات اصحاب المنشآت الخاصة اكثر مما يتمشى مع جلال المعابد وروعتها • واذا كان بعض كبار مؤرخينا يرجحون ان بعض معابد المدن السلوقية وخاصة معابد بعض الآلهة الاغريقية قد جمعت خصائص العمارتين الشرقية والاغريقية ، فانه يساورنا الشك في صحة هذا الرأي ، الا اذا كان قد سبقه المزج بين المعتقدات الدينية الشرقية والاغريقية ، وهو الامر الذي لم تمكننا مصادرنا أو شواهدنا من التأكد من حدوثه •

٧ ـ المسرح : ومن المؤكد ان اصقاع الامبراطورية السلوقية ـ باستثناء مدن آسية الصغرى الاغريقية ـ لم تعرف المسرح ولم يصبح عنصرا ضروريا من عناصر الحياة في كل مدينة من مدنها الا في العصر الهلنستي • ولكنه من المؤسف ان كل المسارح المكتشفة في معظم المدن السلوقية يعود تاريخها الى العصر الروماني • وحيث ان وجود المسرح في المدن الاغريقية والسلوقية كان امرا ضروريا جدا يكاد لا يقل في الاهمية عن الاجورا ، فان عدم العثور حتى الان على مسرح واحد ليس هناك شك في انه يعود الى العصر السلوقي يبدو امرا شديد الغرابة •

ويعتقد العلماء المهتمون بهذه القضية بأن تطور المسرح في العصر السلوقي وفي سورية بشكل خاص كان محدودا جدا قبل العصر الروماني • وفي رأي بعض باحثينا انه من العسير الاعتقاد بأنه لم توجد مسارح من العصر الهلنستي في المدن السلوقية ، ويثير دهشتهم عدم الكشف عن مثل هذه المسارح ، وكذلك يتساءلون فيما اذا كانت المسارح السلوقية كانت تقام من الخشب (الوضع الطبيعي في الامبراطورية السلوقية يؤيد هذا الرأي) في الوقت الذي يعترفون فيه بأنهم لا يستطيعون الاعتماد على هذه الفرضية بعد ان اثبتت المسارح الاغريقية الخشبية فشلها في بلاد الاغريق • بيدانه لما كان لم يكتشف في الاسكندرية عن مسرح حجري اغريقي واحد، وكان اول مسرح حجري اقيم في روما هو مسرح بومبى (Theatrum Magnum) الذي افتتح في عام ٥٥ واستكمل في عام ٥٢ ، فانه الى ان تحسم نتائج اعمال الحفر والتنقيب هذه المسألة لا يسعنا الا ان نرجح الرأي القائل بأن مسارح المدن السلوقية كانت تقام فعلا من الخشب في العصر الهلنستي وان نستبعد فكرة ان المسارح الرومانية الحجرية التي كشف عنها في هذه المدن قد اقيمت على

انقاض مسارح حجرية ترجع الى عهد السلوقيين ، لان الرومان كانوا عادة لا يزيلون مسرحا قديما بأكمله بل كانوا يرممونه ويضيفون اليه ولو ان شيئا من ذلك قد حدث لما غاب عن فطنة الباحثين .

٨ ــ المياه : لم يعرف الشرق قبل العصر الهلنستي طريقة تزويد المدن بالمياه عن طريق قنوات مرتفعة . وعلى الرغم من الغموض الذي يحيط بمشكلة كيفية تزويد المدن السلوقية بالمياه ، فان بعض المصادر المتأخرة ، وبعض المخلفات الاثرية قد ألقت بعض الضوء على هذه المشكلة . ذلك ان الاستاذ سوفاجيه يذكر نقلا عن (ابن شداد) [1] (٥٣٩ ــ ٦٣٢ هـ) بأن باني مدينة بيرويه (حلب) قد جلب اليها الماء العذب من ضواحيها واوصلها الى مركز المدينة . ويذكر الاستاذ داوني انه جاء في مخطوط عربي مؤلفه مجهول ، ان سلوقس الاول قد بنى قناة لتزويد انطاكية بالماء . ويستدل من احد النقوش على ان قناة من القرن الثاني كانت تستخدم في تحويل المياه المتراكمة من سيل اونوبنيكتس (Onopniktes) الى المدينة ، وعلى ان انطيوخس الرابع هو الذي أنشأ هذه القناة عند بناء الحي الرابع في المدينة ، بيد أنه لا يعرف على وجه اليقين من هو العاهل الذي قام بانشاء قناة المياه الممتدة من سلميه حتى ابامية . واذا كان من الجائز ان الاسكندر الاكبر أو انتيجونوس هو صاحب هذا الفضل حين كانت هذه المدينة لاتزال مستعمرة مقدونية تدعى بلا (Pella) فانه من الجائز ايضا ان يكون سلوقس الاول هو الذي انشأ هذه القناة عندما حول هذه المستعمرة الى مدينة تحمل اسم زوجه .

٩ ــ الاشجار : ويبدو ان رسائل ابقراط الطبية عن « الهواء والماء والاماكن » وهو مؤلف وضع معالم قانون الصحة العامة من حيث علاقاتها بتخطيط المدن واختيار مواقعها قد ساهم في تبني فكرة توفير المياه النقي في المدن للشرب ، وغرس الاشجار واقامة الحدائق الفسيحة للتريض وتجديد شباب الروح ، وتوحي القرائن بأن هذه الفكرة لم تصبح من القواعد الحضرية المعمول بها الا بعد

(١) ابن شداد بهاء الدين ، مؤرخ وجغرافي ومربي عاصر صلاح الدين الايوبي ، واستقر في حلب ، وعنى بأمورها التربوية وكتب عن تاريخها ، ترجمت كتبه للاتينية والانجليزية وتوفى في حلب عن ٩٣ عاما .

انشاء المدن الهلنستية حيث كانت الاشجار من ابرز معالم هذه المدن واسهمت كثيرا في تجميلها بعد ان كان الاغريق يغفلون تزيين المدن بالاشجار • وعلى حد قول الاستاذ لافدان « ان الاغريقي اذا احب شجرة فانه يحبها لظلها وليس لجمالها » ولعله يدل على شدة اهتمام السلوقيين بالاشجار ان غابة دفنه اصبحت من اجمل اماكن ومنتزهات العالم القديم ، الى حد ان انطاكية كانت تنسب اليها على نحو ما مر بنا •

(٢) تشجيع الحضارة البابلية

ان مجرد استمرار تطور العلوم التي برز فيها البابليون واخصها الفلك ، بعد تدهور مكانة بلادهم السياسية والاقتصادية ، يوحي بأنه اذا كان الملوك السلوقيون الاوائل لم يدخروا وسعا في سلب بابل مكانتها التجارية والسياسية لصالح سلوقية دجلة ، بحيث ان غرم الاولى كان غنم الثانية ، فانهم لم يعملوا على سلب بابل مكانتها العلمية ايضا بمصادرة الروح العلمية المتأصلة لدى العلماء الكدان • ولما كانت المصادر القديمة تشير الى ان هؤلاء العلماء استمروا يمارسون نشاطهم طوال العصر الهلنستي والى انهم حققوا نتائج باهرة في مجال تخصصهم فانه يصعب تصور ذلك بعدما أصاب بابل من تدهور سياسي واقتصادي لو لم يلقوا العون والتشجيع من السلوقيين • ولا يبعد ان يكون سلوقس الذي تجنى على بابل قد حاول أن يعوضها خيرا عما اقترفه في حقها بوضع السياسة التي اتبعها خلفاؤه وكفلت رعاية علمائها •

ـ أهم مصادر الباب الثامن :

العهـد القديم ، سفر المكابيين الاول والثاني

Appianus., Syrian Wars, 19; 32, 55; 59

Athenaeus., 12; 13; 14.

Diodorus Siculus., World History, 18 - 20; 29; 31; 34

Diogenes Laeritus., 5.

Josephus, Antiquities 10 - 12.

Justin., 15; 36; 39.

Libanius., Antiochicus, 12 vols.

Livy., 25; 30; 35; 37; 38.

Pliny.,26.

Plutarchus., Dem. 15, 25, 38.

Strabos., 505; 523; 524; 731; 738; 749; 750.

ـ مراجع مختارة :

ابراهيم نصحي ، تاريخ مصر في عصر البطالمة (القاهرة ــ ١٩٦٦)

ابراهيم نصحي ، المدينة على مــر العصور (القاهرة ــ ١٩٦٤) مترجم

لطفي عبد الوهاب يحيى ، دراسات في تاريخ مصر ، عصر البطالمة ، (الاسكندرية ١٩٦٧)

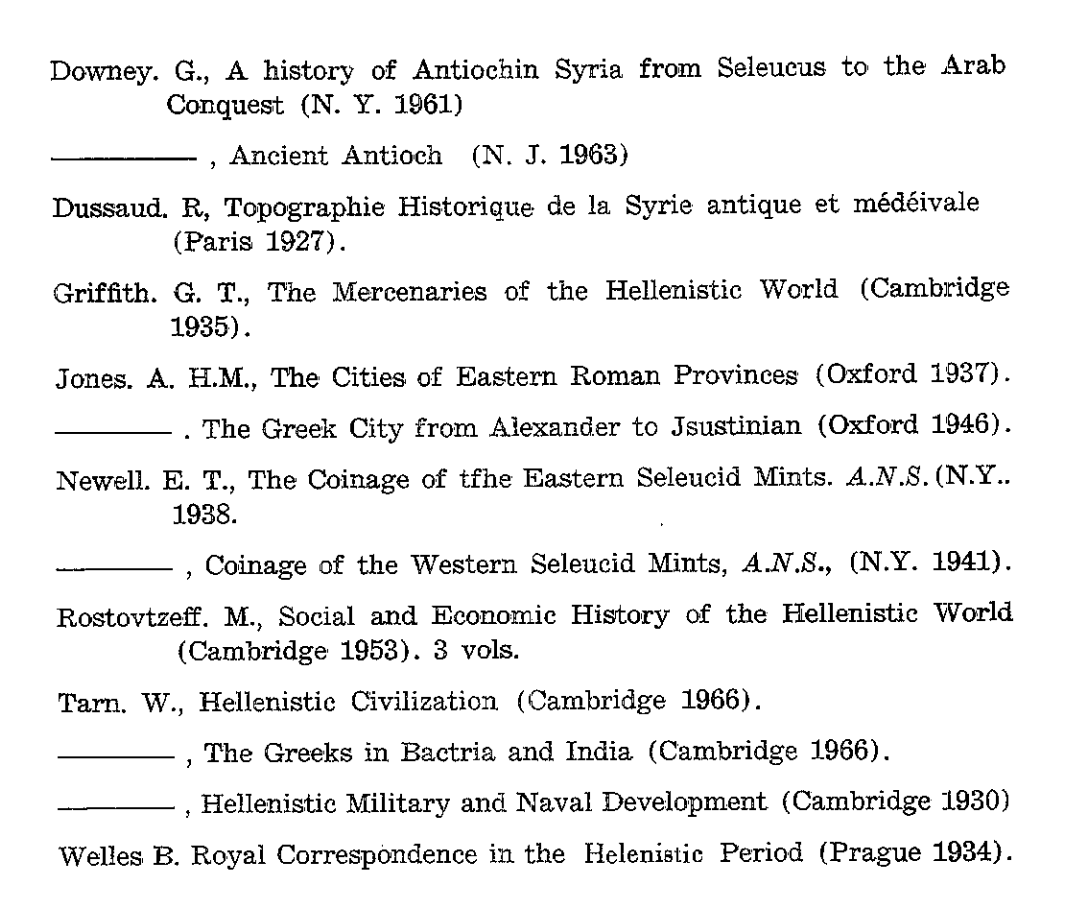
مجلة الحوليات الاثرية السورية ، الاعداد (٢ ــ ٥)

Babelon, E., Les Rois de Syrie (Paris 1890).

Beazley, J. D.and Ashmol B., Greek Sculpture and Painting (Cambridge 1932).

Bevan E. The House of Selucus (London 1902).

Bikerman. E, Institution des Seleucides (Paris 1938)



Downey. G., A history of Antiochin Syria from Seleucus to the Arab Conquest (N. Y. 1961)

————— , Ancient Antioch (N. J. 1963)

Dussaud. R, Topographie Historique de la Syrie antique et médéivale (Paris 1927).

Griffith. G. T., The Mercenaries of the Hellenistic World (Cambridge 1935).

Jones. A. H.M., The Cities of Eastern Roman Provinces (Oxford 1937).

————— . The Greek City from Alexander to Jsustinian (Oxford 1946).

Newell. E. T., The Coinage of tfhe Eastern Seleucid Mints. *A.N.S.* (N.Y.. 1938.

————— , Coinage of the Western Seleucid Mints, *A.N.S.*, (N.Y. 1941).

Rostovtzeff. M., Social and Economic History of the Hellenistic World (Cambridge 1953). 3 vols.

Tarn. W., Hellenistic Civilization (Cambridge 1966).

————— , The Greeks in Bactria and India (Cambridge 1966).

————— , Hellenistic Military and Naval Development (Cambridge 1930)

Welles B. Royal Correspondence in the Helenistic Period (Prague 1934).

صلات النسب بين أفراد الاسرة السلوقية وسني حكمهم

١ ـ سلوقس الاول (نيكاتور) ٣١٢ ـ ٢٨٠

٢ ـ انطيوخس الاول (سوتر) ٢٨٠ ـ ٢٦١

٣ ـ انطيوخس الثاني (ثيوس) ٢٦١ ـ ٢٤٦

٤ ـ سلوقس الثاني (كالينيكوس) ٢٤٦ ـ ٢٢٦

٥ ـ سلوقس الثالث (كيراونوس) ٢٢٦ ـ ٢٢٣

٦ ـ انطيوخس الثالث (الكبير) ٢٢٣ ـ ١٨٧

٧ ـ سلوقس الرابع (فيلوباتور) ١٨٧ ـ ١٧٥

٨ ـ انطيوخس الرابع (ابيفانس) ١٧٥ ـ ١٦٤

٩ ـ انطيوخس الخامس (يوبـاتور) ١٦٤ ـ ١٦٢

١٠ ـ دمتريوس الاول (سوتر) ١٦٢ ـ ١٥٠

١١ ـ اسكندر (بالاس) ١٥٠ ـ ١٤٦ ✶

١٢ ـ دمتريوس الثاني (نيكاتور) ١٤٦ ـ ١٣٨
١٢٨ ـ ١٢٥

١٣ ـ انطيوخس السادس (ثيوس) ١٤٤ ـ ١٤٢

١٤ ـ تروفون (مغتصب عرش) ١٤٢ ـ ١٣٧ ✶

١٥ ـ انطيوخس السابع (السيديتي) ١٣٧ ـ ١٢٨

١٦ ـ اسكندر (زابيناس) ١٢٨ ـ ١٢٢ ✶

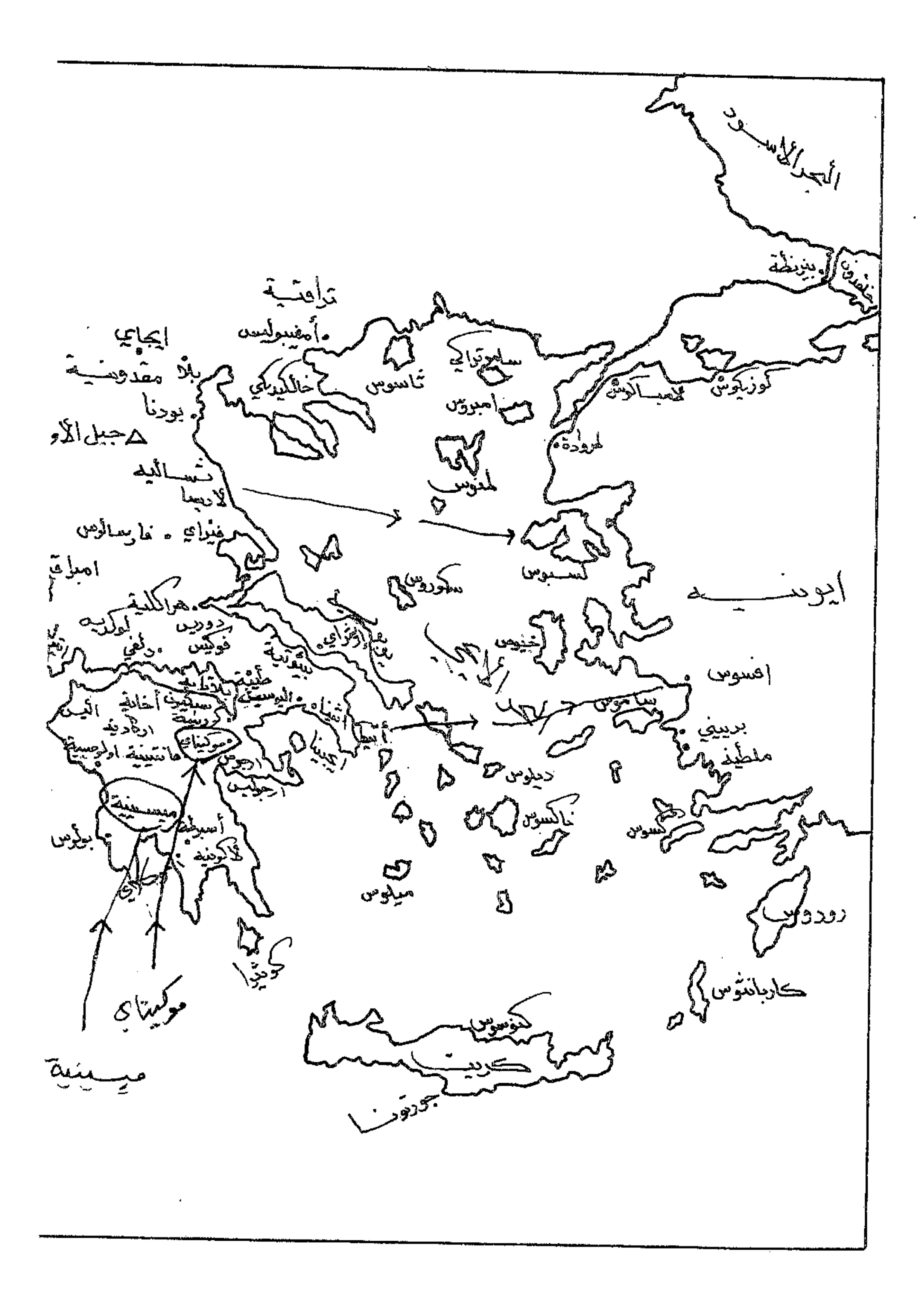
١٧ ـ سلوقس (الخامس) ١٢٥

١٨ ـ انطيوخس الثامن (جروبوس) ١٢٥ ـ ٩٦

١٩ ـ انطيوخس التاسع (الكوزيكي) ١٢٢ ـ ٩٦

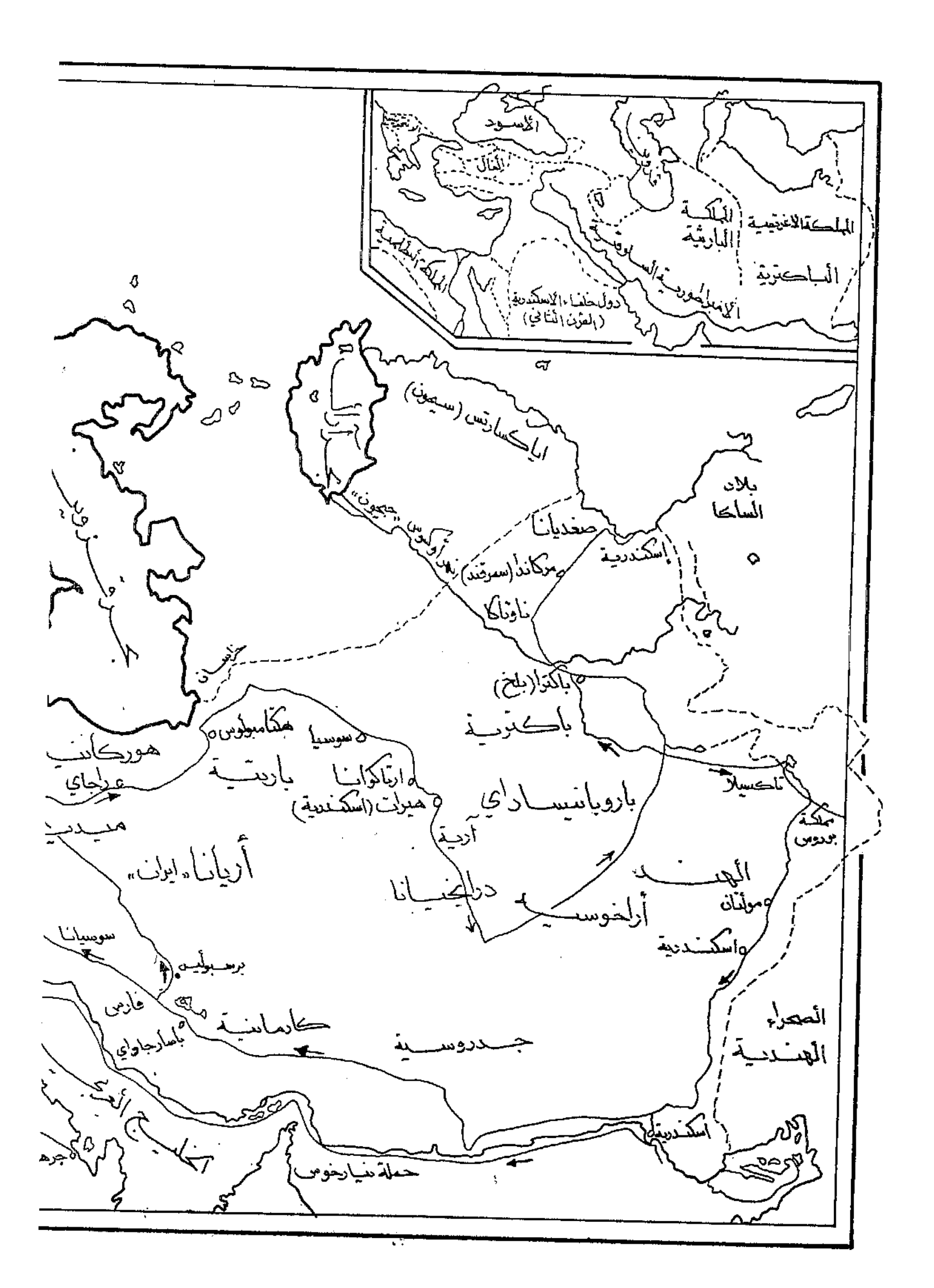
٢٠ ـ وفي السنوات التالية تنازع الملك عدد من الملوك هم سلوقس السادس (ابيفانس) ابن جريبوس ٩٦ ـ ٩٣ ، انطيوخس العاشر (يوسيبوس) ٩٥ ـ ٩٤ ، فيليب الاول (فيلادلفوس) ابن جريبوس ٩٢ ـ ٨٣ ، دمتريوس الثالث (ثيوس) ابن جريبوس ٩٥ ـ ٨٨ ، انطيوخس الثاني عشر (ديونوسيوس) ابن جريبوس ٨٨ ـ ٨٤ ، انطيوخس الثالث عشر (الاسيوي) ابن يوسيبوس ٦٩ ـ ٦٥ ، فيليب الثاني ابن الاول ٦٨ ـ ٦٤ .

(✶) النجمة تدل على بنوه مزعومة أو اغتصاب عرش ، راجع التفاصيل في متن الكتاب .

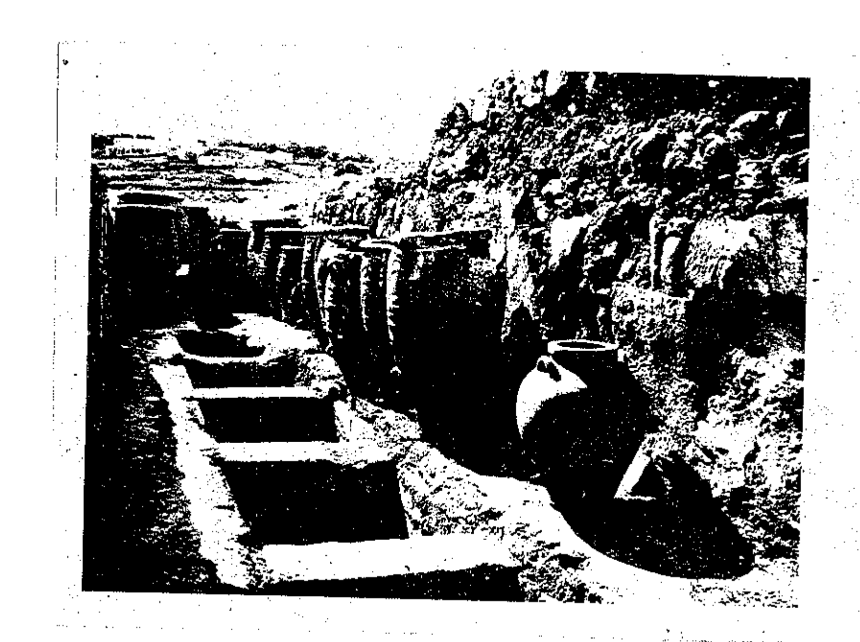


البحر الاسود
بيزنطة
خلقدون
تراقية
أمفيبوليس
إيجاي
بلاد مقدونية
بودنا
تساليه
لاريسا
فيراي
فارسالوس
هراكلية
دوريس
فوكيس
دلفي
بيوتية
طيبة
اليوسيس
أثينا
أرجوس
موكيناي
ميسينية
أسبرطة
لاكونية
كوثيرا
خالكيديكي
تاسوس
ساموتراكي
امبروس
لمنوس
لسبوس
سكوروس
خيوس
ساموس
افسوس
برييني
ملطية
ايونيه
كوزيكوس
ديلوس
ناكسوس
ميلوس
رودوس
كارباثوس
كنوسوس
كريت
جورتونا



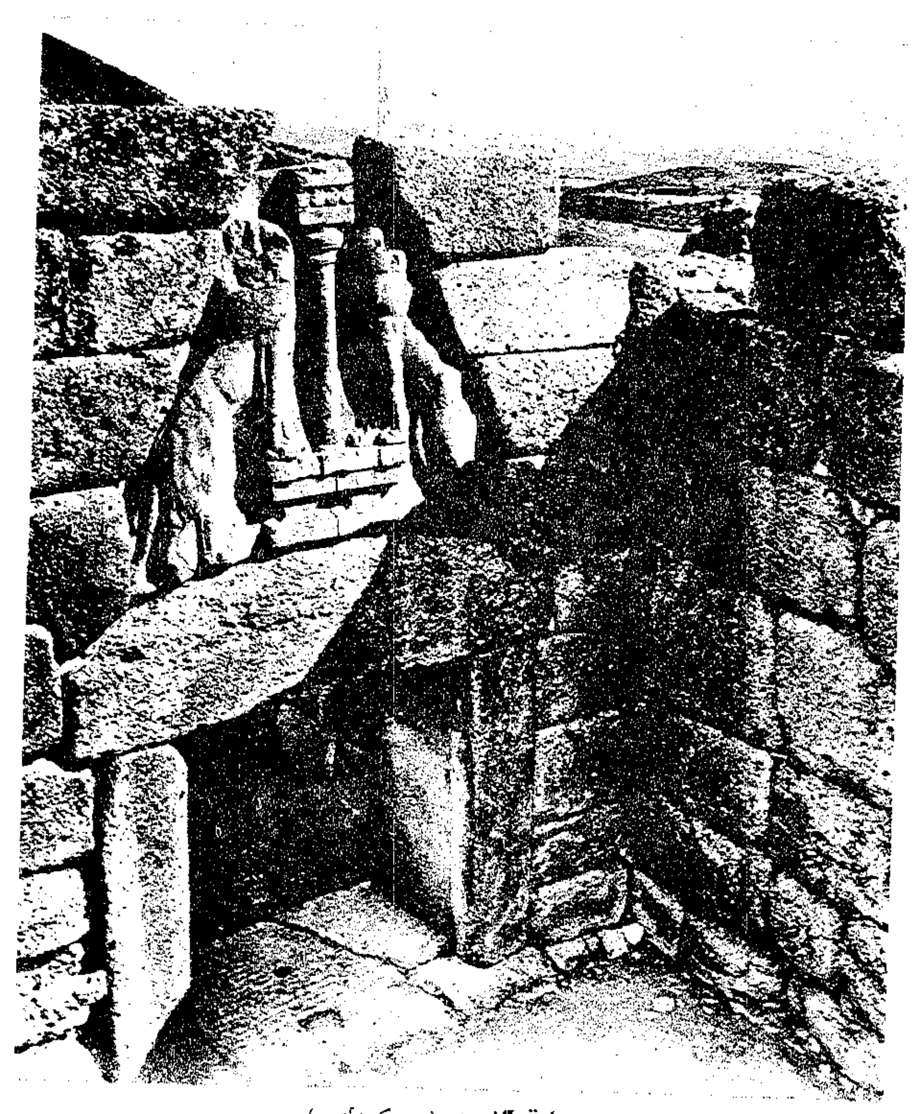


الأسود
المملكة البارثية
المملكة الاغريقية الباكترية
الإمبراطورية السلوقية
دول خلفاء الإسكندر
(القرن الثاني)
اياكسارتس (سيحون)
بلاد الساكا
صغديانا
اسكندرية
مركاندا (سمرقند)
ناوتاكا
باكترا (بلخ)
باكترية
هكاتمبولوس
سوسيا
هوركانيا
بارتية
ارتاكوانا
هيرات (اسكندرية)
باروبانيسادى
تاكسيلا
مملكة بوروس
آرية
أريانا «ايران»
درانجيانا
الهند
أراخوسيا
مولتان
اسكندرية
سوسيانا
برسبوليس
فارس
كارمانية
جدروسية
الصحراء الهندية
اسكندرية
حملة نيارخوس

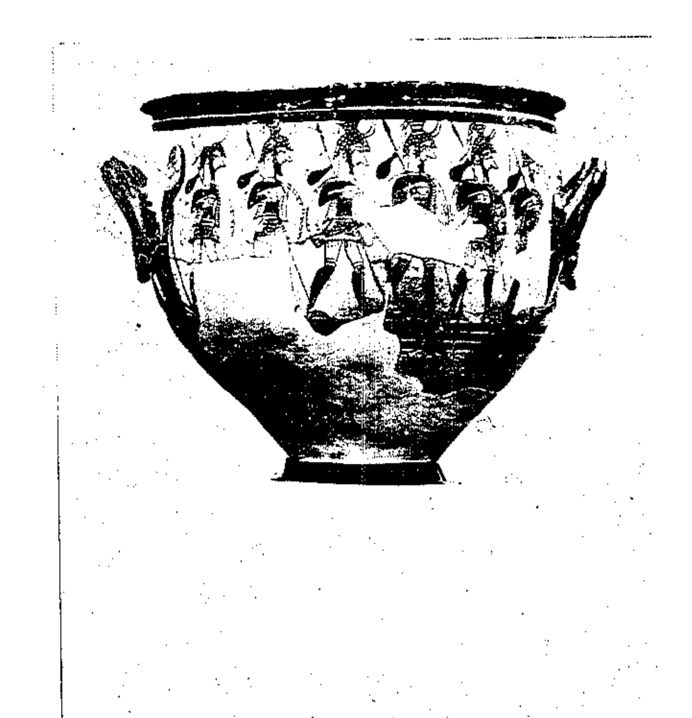


مخزن القصر الملكي في كنوسوس (كريت)

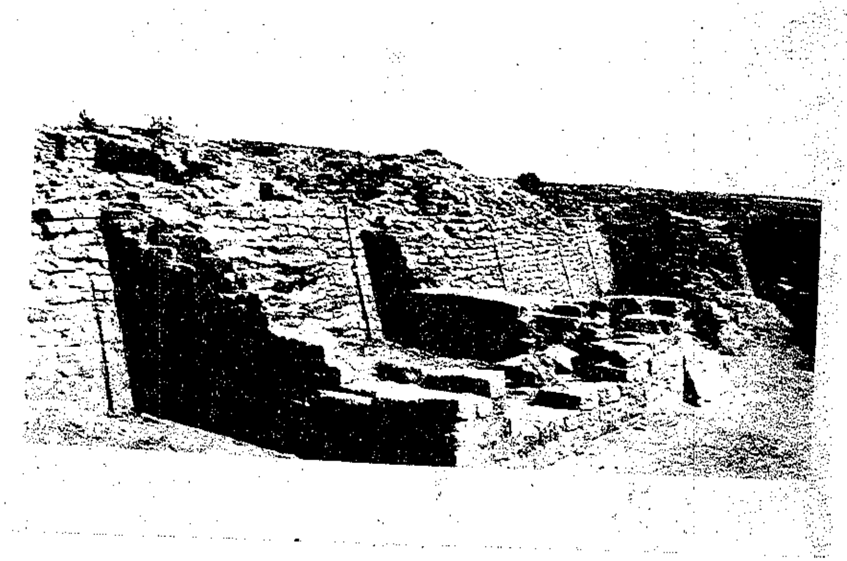
سلّم القصر الملكي في كنوسوس (كريت)



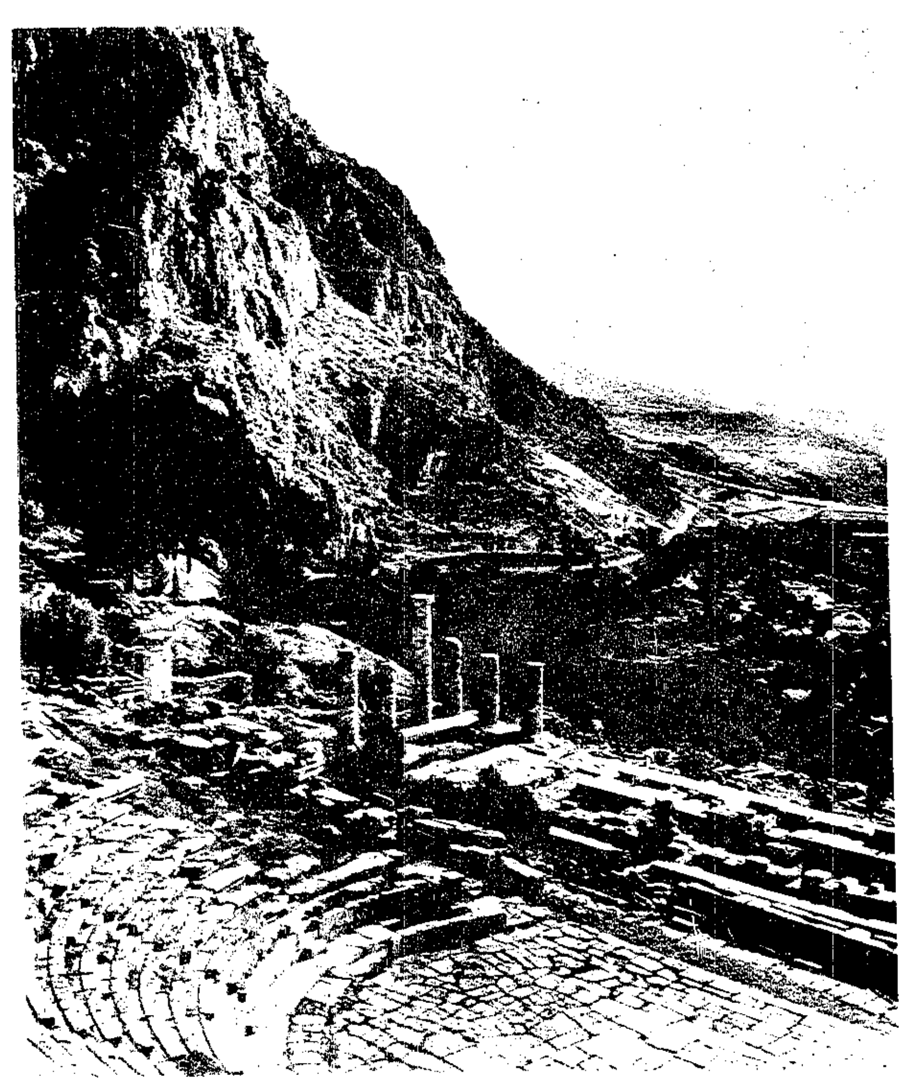
بوابة الاسد (موكيناي)



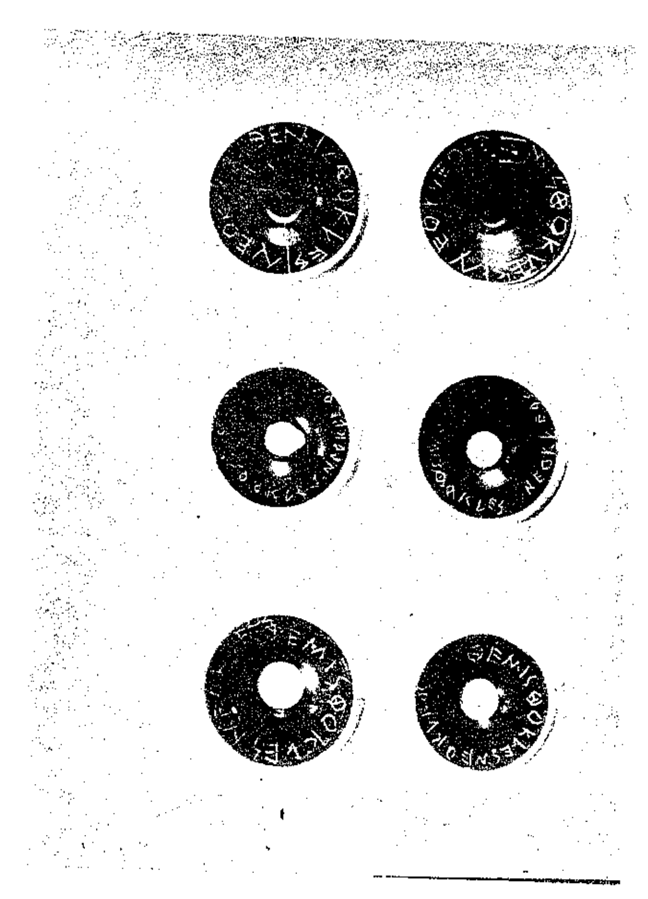
فازه تحمل صور المحاربين (موكيناي)



طرواده (المدينة السادسة)



دلفي (المدينة المقدسة)



قطع الاوستراكا التي أجمعت على نفي تمستوكلس



الاكروبول الاثيني (ويظهر فيه مكان اجتماع محكمة الاريوباجوس)



تمستوكلس (نسخة من العصر الروماني)



بريكلس (نسخة مرمريه نحتها كرسيلاس)



الاسكندر المقدوني



سلوقس الاول نيكاتور (تمثال برونزي)